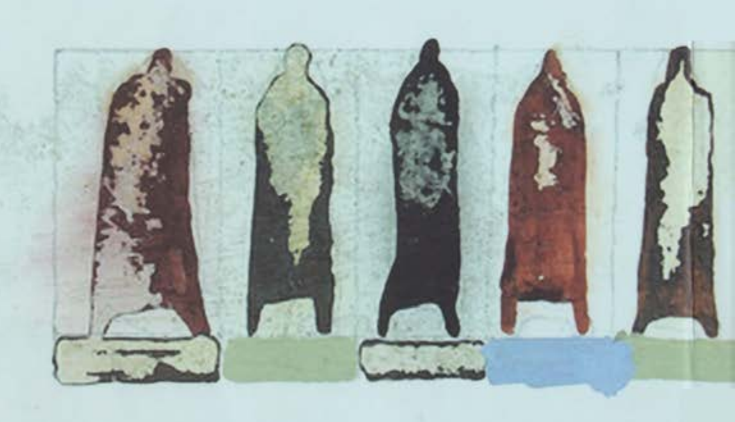
القائمة الطويلة لجائزة بوكر العربية ٢٠١٩

JALAL BARJES

رواية
NOVEL

جلال برجس



سيّدات الحواسّ الخمس



سيّدات الحواسّ الخمس

مكتبة | 351

سيدات الحواسّ الخمس / رواية عربيّة

جلال برجس / مؤلّف من الأردنّ

الطبعة الأولى، 2017



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر

المركز الرئيسيّ :

المصيطبة، شارع ميشال ابي شهلا، متفرّع من جسر سليم سلام

مفرق الجامعة اللبنانيّة الدوليّة LIU ، بناية النجوم، مقابل أبراج بيروت

ص. ب 5460-11 ، الرمز البريديّ 2190-1107 ، بيروت، لبنان

هاتفاكس 707891/2 1 961+

e-mail: mkpublishing@terra.net.lb

info@airpbooks.com

التوزيع في الأردنّ :

دار الفارس للنشر والتوزيع

ص. ب 9157 ، عمّان 11191 الأردنّ،

هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 4631229 6 962+

موقع الدار الإلكترونيّ : www.airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّيّ :

سمير ® عمّان، هاتف 95297109 7 962+

لوحة الغلاف : **سكوت بيرغي** / كندا

الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر** / بيروت، لبنان

التنفيذ الطباعيّ : **ديمو برس** / بيروت، لبنان

ISBN 978-614-419-843-8



▼

جلال برجس

سيّدات الحواسّ الخمس

▲

مكتبة | 351



اللهم أنزل على قبرها الضياء والنور
والفسحة والسرور
اللهم اقبلها في عبادك الصالحين
واجعلها من ورثة جنة النعيم

إلى
عائلتي التي تحمّلت نزقي ، وتقلّبات مزاجي ،
طيلةَ فترةِ كتابةِ هذه الرِّواية .

إطلالةٌ داخليّةٌ

من نافذة في الطّابق الثّاني للقصر رأت (وداد) السّيارةَ القديمةَ ذاتَها التي تأتي مرّةً في الأسبوعِ ، وقد اصطفّتْ قريبًا من البوابةِ حيثُ تقفُ سيّارةُ مخدومِها سراج عزّ الدّين . أخذَ السّائقُ منْ سيّارتِه صندوقًا بارتفاعِ وعرضِ نصفِ مترٍ تقريبًا ، ثمّ وضعَه في سيّارةِ سراج وغادر . بعدَ دقائقَ انطلقَ سراجُ سالكًا طريقًا تأخذُه إلى منحدرٍ يؤدّي إلى الجبالِ التي تقعُ في الجهةِ الغربيّةِ للقصرِ . غطّت النّافذة بالسّتارةِ وهي تدركُ أنَّ سيّدَ القصرِ لنْ يجيبَها إنْ سألَتهُ عما تراه كلَّ أسبوعٍ منْ تصرّفٍ غريبٍ يضافُ إلى تصرفاتِه الغريبةِ الأخرى .

***

كانت الشّمسُ تهيّئُ الأشياءَ لطقسِ الغروبِ حينما وصلَ سراجٌ عبرَ طريقٍ ضيّقةٍ ومنحدرةٍ إلى الوادي ، حيثُ تناثرت الصّخورُ ، وحيثُ التّشكيلاتُ العشوائيّةُ في أكتافِ جبالٍ نَمَت عليها أشجار السّرو ، وغطّت رؤوسها حشائش يابسة . أطفأ محرّك سيّارته فاحتلّ المكانَ صمتٌ لا يتخلّله سوى صوت صرصار اللّيل وهو يطلق صفيره بين الفينة والأخرى . أشرع صندوق سيارته ، وأخرج منه صندوقًا كرتونيًا فيه بضعة ثقوب ، ثمّ وضعه على مقدّمة السّيارة ، والتقط من المقعد الخلفيّ بندقيّة من نوع (سيمانوف) ، وراح يتأكّد من وجود عدد من الرّصاصات في مخزنها ، ثمّ أعاده إلى حجرته . جهّز البندقيّة ، فتناقلت الصّخور صوت المُجَهِّز وهو يُسحب للوراء ثمّ يعود ، بينما عيناه

تضيقان ، وجبينه يتجعّد . وضع البندقيّة على مقدمّة السّيارة ، وبمشرط أخذ يمزّق مقدّمة الصّندوق ، فسمع أنين الثعلب ، ثم رآه غارقًا بخوفه وانكساره في الدّاخل . قال بصوت محموم : (لن أفعل لك شيئاً ، ما دمتَ حبيسًا هنا) .

مزّق آخر جهاتِ الصّندوق ، ففرّ الثّعلب سالكًا بسرعة مذهلة طريقًا أخذته نحو صخرة كبيرة تسدّ الدّرب إلى قمّة الجبل . بعجالة حمل بندقيّته ، وراح يسدّدها نحو الثّعلب وهو يعبر بخفّة سريعة بين المنعرجات والصّخور . أطلق أوّل رصاصة ، ثمّ أتبعها بعدّة رصاصات ، ركض صداها في الوادي دون أن تصيبه ، بقي الثّعلب يركض إلى أنْ استقرّ على قمّة الجبل ، حيث كانت الشّمس ترسل آخر أشعّتها ، فبدا محض كومة من رماد ماكر .

خبر صحفيّ

أصبح (سفّاح عمّان) حديث الشارع ، والشّغل الشّاغل للصّحافة ، وباقي وسائل الإعلام التي رجّح عدد منها ما يتداوله النّاس منْ أنّ سفّاحًا يستخدم دماء ضحاياه في الكشف عن الدّفائن الذّهبيّة . وفي السّياق ذاته خرج متظاهرون يطالبون بتكثيف الجهود الأمنيّة للوصول إلى حقيقة ما يحدث ، كون الرّعب تفشّى بينهم جرّاء غرابة ما يجري . وتداول أعضاء مجلس النّواب في جلسته يوم أمس ذلك الأمر ، وشدّدوا على أن يتمّ تكثيف الجهود للكشف عن ملابسات هذه الجريمة الغريبة على مجتمعنا المحافظ .

ضوء

العالم الذي نلمسه ونختبره من خلال الحواسّ هو عالم غير حقيقيّ، بل هو مستنسخ عن العالم الحقيقيّ بصورة كاملة .

«أفلاطون»

١

عبر ستارة النّافذة جاء وهج الشّمس يبدّد ما تبقّى من عتمة في الغرفة . إنّه صباح الأحد ، السّادس من شهر تمّوز للعام ٢٠١٤ . قُرع منبّه السّاعة مشيرًا إلى السّادسة ، فتقاطع صوته الحاد مع صوت زقزقة عصافير الدّوري وهي تتقافز على أغصان شجرة تُوت كبرت حتى وصلت إلى طرف الشّرفة . بتكاسل كتم (سراج عزّ الدّين) صوت المنبّه وهو يحسُّ بالضّياء يقتحم ظلمة الأفق الذي ينوء وراء جفنيه ، لكنّه أبقاهما مغلقين . حاول أن يتلذّذ باللحظات التي تقع ما بين بقايا النّوم والصحو ، إلا أنّه تحسّس ملامح باهتة لكابوس يهاجم مناماته منذ سنين ، يرى فيه نفسه بسكّين حادّة ، يقتل امرأة وهو يبكي بمرارة . تناسى أمر الكابوس ، وطرد خيالات قديمة لزمن فعل كلَّ شيء لأجل ألاّ يعود وجعه .

نظر إلى السّقف الذي رُسمت على كامل مساحته لوحة ، غلب اللّون الأحمر عليها ، لامرأة شعرها مبعثر ، وملابسها ممزّقة ، كأنّ شيئًا غير اعتياديّ حدث لها . حدّق مليًا باللّوحة وعيناه تتّسعان ، ثمّ تضيقان ، كأنّه يفتّش عن شيء مفقود . تنهّد ، ثمّ انتقل بعينيه إلى أرجاء الغرفة التي طليت جدرانها باللّون الأزرق السّماويّ .

أمعن النّظر ببيانو أخذ مساحة جانبيّة من الغرفة ، ثمّ أغمض عينيه لمرّات وفتحهما ، وتمتم بعد أن تنهّد بعمق : (إذن ما زلتُ أرى) .

مدّ يده إلى قبعة نسائيّة صوفيّة ، تركت على منضدة السّرير ، ولامسها بحنو ، ثمّ راح يحرّك أصابعه عليها ، كأنّها تتخلّل خصلات شعر امرأة . أغمض عينيه ، ثمّ قال هامسًا : (اللّمسة دليلنا إلى قلب الأشياء . إنّها كمفتاح المصباح ، ما إن تضغط عليه حتى تشتعل الكهرباء ، فيتدفق النّور) . حرّك رأسه قليلاً ، وقال بصوت مسموع : (إذن ما زلتَ تحسّ يا سِراج) . بهدوء ، امتدّت يده إلى المنضدة ، والتقط (الريموت كونترول) ، وأطلق العنان لموسيقى السّوناتا الرابعة عشرة (ضوء القمر) لبيتهوفن ، فرأى طيورًا فضيّة اللّون تملأ سماء الغرفة . مدّ يديه على بطنه ، وراح لدقائق يحرّك أصابعه كأنّه العازف ، ثمّ همس : (ما زلت أسمع يا بيتهوفن) .

أخرج من درج منضدة السّرير ، منديلاً نسائيًا ورديّ اللّون ، وقرّبه من أنفه بتكاسل ، ثمّ شهق بعمق ، متتبّعًا بقايا عطر عالقة فيه . رأى في فضاء مخيّلته أشجارًا مستسلمة لهطل المطر ، بينما يلوح من بينها عازف ينفخ بآلة الفلوت ، وهو يرفع رأسه نحو السّماء . شمّ بتلذّذ عبق العطر مرّة ثانية ، وقال بصوت خفيض : (ما زلت أشمّ جيّدا) . تقلّب في سريره ، وتمطّى ، ثمّ سكن من جديد . دس يده بين فخديه فوجد عضوه الذكري ساكنًا . استعاد نتائج الفحوصات الطبيّة التي لم تشر إلى أي مشكلة جسديّة تذكر لديه . نهض ثمّ مشى بخطوات كسولة ، إلى أن وقف في منتصف الغرفة التي انتشرت على جدرانها الأربعة مرايا ، أخذ يتابع هيئته فيها ، واحدة تلو الأخرى ، إلى أن أصيب بالدّوار ، فمشى مترنّحًا إلى النّافذة ، وأشرع ستائرها ، إذ بانت ملامح الغرفة أكثر من ذي قبل ، وأطلّت عليه شجرة التّوت الكبيرة ، تحمل على أغصانها ثمّارًا أرجوانية ناضجة . من وراء الشّجرة لاحت ملامح

الحديقة الواسعة التي يقع فيها القصر، إذ كسا العشب الأخضر مساحتها، واستدارت حولها أشجار الصَّفصاف، وتناثرت فيها ورود، ونوافير ماء، وشيِّدت بركة سباحة. بدت عمّان واضحة من مكان إقامته في الجنوب الغربيّ لها على ذلك الجبل، والأبراج تصعد في سمائها، بينما تعلوها سحابة رماديَّة اللّون، خلّفتها أدخنة العربات والمصانع. تذكَّر مانشيتات عريضة لصحف، تتوعَّد أشخاصًا استخدموا مناصبهم لسرقة المال العام، ثمّ تناسى الأمر. فتح النّافذة بتمهُّل، فتدفَّق الهواء طريًا ومحملًا بعبق الأزهار والحشائش التي انتشرت في السّفوح والجبال الغربيَّة. شهق بعمق ثمّ زفر لعدَّة مرّات متلذّذًا بما يفعل. مسح ببصره المدى لثوان، ثمّ خرج نحو الشُّرفة. مد يده لشجرة التّوت، وقطف منها بضع ثمّرات، ثمّ عاد بهدوء نحو غرفة الحمّام المرفقة بغرفة النوم، ووقف أمام المرآة. لامس وجهه الذي كان خاليًا من أيَّة تجاعيد أو ترهُّل أسفل العينين، رغم اقترابه من سنٍّ الخمسين. فتح صنبور الماء، وراح باهتمام وعناية يغسل حبّات التّوت. مشى نحو نافذة تطلُّ على جهة القصر الأماميَّة، فرأى (كنان) حارس القصر يقف قبالة البوابة الرئيسيَّة، ورأى البستانيَّ يقلّم الأشجار ويشذِّبها باهتمام.

راح يأكل حبات التّوت برويَّة، متلذِّذًا بطعمها، كما لو أنَّه يقبّل امرأة، يمضغها دون أن يفتح فمه، مستمتعًا بتلاصق شفتيه، وسائل التّوت الأرجوانيُّ يرطبهما. شاهد في مخيِّلته مقطعًا قريبًا من فيلم سينمائيٍّ، لرجل يقبّل امرأة. همس بسرّه: (إذن ما زلتُ أتذوَّق).

قبالة مرآة الحمّام، نظَّف أسنانه باهتمام وهو يقترب من المرآة مرَّة، ويبعد رأسه عنها مرَّة أخرى، إلى أنْ تأكَّد أنَّها ما زالت بيضاء. حلق ذقنه بتأنٍّ شديد، متمعِّنًا بوجهه الذي كان يحافظ على أن لا تتبقّى

فيه شعرة أفلتت من شفرة الحلاقة ، واستحمّ مستخدمًا صنفًا من الشامبو يخلو من المركّبات الكيميائيّة . ما إن خرج مرتديًا رداء الحمّام ، حتى قُرع الباب ، فدخلت (وداد) مدبّرة المنزل ، ألقت تحيّة الصّباح وهي تحمل صينيّة عليها كأس عصير برتقال طازج ، وعدد من الصّحف اليوميّة ، وضعتها على طاولة في الشّرفة ثمّ غادرت ، وهي تختلس عدّة نظرات متوسّلة إليه . أمام المرآة ارتدى ملابسه بهدوء ، ثمّ مسح شعره بقليل من الزّيت ، وراح يسرّحه بعناية . استخدم عطره المفضّل ، ثمّ مشى نحو الشّرفة . كانت الشّمس للتوّ تلقي رداءها على الجبال الغربيّة ، وعلى المنحدرات التي جاءته منها أصوات عصافير ، وأصوات أجراس أغنام ، وزعيق راع يأخذ أغنامه إلى جهة للرعيٌ .

ابتلع رشفتين من كأس العصير ، ثمّ أخذ يقرأ العناوين الرئيسيّة في الصّفحة الأولى من الجريدة :

(رئيس الحكومة يتسلّم نسخة من تقرير مكافحة الفساد . البنك الدّوليُّ يتوقّع ارتفاعًا أسرع لمعدلات النموّ في الأردنّ . أحداث شغب بين عشيرتين نتج عنها ثلاثة قتلى وعشرات الإصابات . شابٌ يقتحم مبنى أمنيًا ويقتل عنصرين ثمّ يلوذ بالفرار)

رمق الأفق بنظرة عميقة ، ثمّ عاد يقلّب الصّفحات حتى وصل صفحة الحوادث ، إذْ أخذ يقرأ خبرًا عن جريمة قتل رجل لزوجته . أعاد قراءة الخبر لمرّتين متعمّقًا بتفاصيله ، ثمّ ترك الصّحيفة جانبًا ونهض . ثمّة ومضات من الكابوس الذي يهاجمه كثيرًا اقتحمت ذاكرته ، لكنّه تجاهلها . استعاد صورة لعمّان وبيوتُها تتسلّق أكتافَ جبالها ، وتذكّر تلك المساحات الزّراعيّة ذات التّربة الحمراء في شقّها الغربيّ ، وقد نمت فيها البنايات والشّقق السّكنيّة ، والمشاريع الجديدة . تذكّر المساحات

الشَّرقيَّة ذات التُّربة الصَّفراء التي لا تصلح للزِّراعة وقد تركت خالية . استعاد يوم وصوله عام ٢٠٠١ ولاية (ويسكونسن) الأمريكيَّة مغادرًا عمّان بسبب ما حدث له :

«كان يجلس بطرف السَّرير في الفندق ، وقد استفاق من نومه للتوِّ ، صامتًا أمام فقدانه القدرة على الحزن وعلى البكاء . تتقاطع ذراعاه على صدره ، وعيناه تراقبان شاشة التِّلفاز ، وقد ظهرت عليها عبارة تشير إلى نبأ عاجل ، مفاده أنَّ طائراتٍ تهاجم برجي التِّجارة العالميين . ثمّ ظهر مشهد يبيِّن طائرات ترتطم بالبرجين ، وقد تعالى الدُّخان والغبار ، وظهرت جموع من النّاس مصابة بالهلع» .

في غرفة نومه ، راقب هيئته وهو يقف أمام المرآة متأكِّدًا من اكتمال أناقته . رأى صورته تنعكس في المرايا الأربع ، فأخذ يتابعها لبرهة من الوقت ثمّ تجاهل الأمر . منْ على الجدار أزال ورقة يوم السَّبت من المفكرة ، فانتبه إلى أنَّ الأحد هو يوم ميلاده . تذكَّر وهو يغلق الباب وراءه أنّ عليه المرور بالمستشفى ، لإجراء الفحص الطبيِّ الذي يقوم به خمس مرات في العام لحواسِّه الخمس . يفعل ذلك رغم معرفته بأنَّه لا يعاني أيَّ مرض ، لكنَّه مهووس بحواسّه ، هوس تبدّى في مواقف وأشياء كثيرة ، مثل قصره الذي ثبّت فيه أجهزة تنقِّي الهواء ، وأخرى تطلق صوتًا منذرًا عند وجود أيِّ محلول كيمائيٍّ ، أو رائحة مزعجة . كما أنَّه عهد لمهندس ألمانيٍّ بتركيب جهاز لقياس مستوى الضَّوضاء في القصر ، الذي ضبطت أيضًا أضواؤه بتقنّيات تحافظ على سلامة العيون . اعتنى بكلِّ شيء ، حتّى ملمس الأشياء .

في صالة الطَّعام التي توسَّطت جدرانها لوحات لـ(جوهانس فيرمر) و(فان كوخ) و(بول سيزان) ، ولوحات محليَّة وعربيَّة ، جلس

سراج إلى طاولة صنعت من خشب الآرو والزّان . ألقت وداد عليه تحيَّة الصَّباح من جديد ، فردّها بهدوء صوته الذي كان ما يزال رخيمًا كعادته في أولِّ أوقات مغادرته النَّوم . لاحظت انتباهه لصوت انسكاب الشّاي في الفنجان ، وفي وجهه علامات إصغاء يقظة ، كأنَّ أذنه عين ترى الأشياء وتحلُّلها . وضعت قليلاً من السُّكر وراحت تحركها دون أن ترتطم الملعقة بالفنجان ، حتى لا تخالف اهتمامه بالهدوء . قدَّمت له إفطاره ، ثمّ تركت الطّاولة ، ومشت بحرص كي لا تثير أيّة جلبة ، حيث بدأ بكل رويَّة يتناول طعامه .

اعتادت وداد على نظام سيِّد القصر ، منذ التقى بها في (نادي النُّخبة) حيث كانت تعمل بعد عودتها من أمريكا ، فعيَّنها في قصره . حفظت لائحة ما يحبُّ من الطَّعام والشَّراب والفاكهة . واستوعبت رغبته بالابتعاد عن كلِّ ما يمكن أن يضرَّ صحته من مأكولات ومشروبات ، فوجَّهت منذ يومها الأولِّ في القصر أوامرها للطّاهية وللخادمة ، ولمحمود الذي يقوم بمهامٍّ إداريَّة في القصر بكلِّ ما يرغب به سراج . وتفهَّمت رغبته بأنْ تقدِّم له الطَّعام وتعتني بباقي شؤونه ، رغم أنَّها مدبِّرة منزل لا خادمة . حفظت مواعيد خروجه وعودته وتوقيت نومه . يتناول غداءه في مكتبه دون الحاجة للعودة إلى القصر الذي يمضي فيه جلَّ وقته . اعتادت شغفه بالهدوء ، وتجنّبه الضَّجيج ، واعتادت أيضًا طباعه التي تميل للعزلة ، إذْ يمضي معظم وقته بعد العمل في غرفة نومه ، يقرأ ويكتب و يعزف البيانو ، دون أنْ تدري على ماذا يعكف . لم يحدث أنْ رأت أحدًا يزوره ، ولم تسمع أنَّ له علاقة بامرأة ، أو أيَّ اهتمامات من هذا الجانب ، رغم اهتمامه المفرط بأناقته ووسامته وصحَّته . فقد أدركت منذ أيامها الأولى في القصر- رغم أنَّ معرفتها به

تعود إلى ما قبل العام ٢٠٠١ حينما التقت به في ولاية (ويسكنسون) الأمريكيَّة - أنَّه رجل بلا أصدقاء ولا صديقات . حاولت لأكثر من مرَّة أنْ تكسر طوق تلك العزلة بتقرّبها منه ، إلاّ أنَّ محاولاتها باءت بالفشل ، تمامًا مثل فشلها بمعرفة سرِّ الغرف السِّت ، التي مُنعت من دخولها ، وإصراره على أنْ يغادر الجميع القصر كلَّ يوم جمعة ، دون أنْ تفهم سبب ذلك .

أشارت ساعة الحائط إلى السّابعة صباحًا ، فنهض سراج بعد أنْ دسَّ يده في جيبه يفتِّش عن مفتاح السَّيارة . فهو لم يعيّن منذ أنْ قطن قصره ، سائقًا خاصًا . مشى بخطوات هادئة نحو الباب ، ووداد ترافقه . قالت وهي تعرف دقَّة مواعيده ، وما يمكن أنْ يُعدَّ للعشاء :

- هل ترغب بشيء مختلف عمّا اعتدت عليه للعشاء؟

راقب ملامحها مستغربًا سؤالها ، فتداركَتْ الأمر :

- اليوم عيد ميلادك . رغم أنَّني أعرف أنَّك لا تحتفل به . هل تسمح لي بأنْ أجهِّز شيئًا لمثل هذه المناسبة؟

قال وهو يمسح بيده على رأسها حانيًا :

- لا . لا يا وداد .

من نافذة المطبخ رأت سيّارته تعبر البوابة ، وتترك وراءها القصر الذي تلتفُّ حوله مساحة نمت فيها أشجار وورود وحشائش ، وصمت لمْ تجد تفسيرًا له .

٢

تذكَّر (سعيد عبد الباري) المدير الفنيّ لغاليري (الحواسّ الخمس) ، أوامر مديره العام سراج عزّ الدّين بأنْ يكون معرض الرسّام (منير عبد الله) مميّزًا . وتذكّر طلبه بأنْ ينضمَّ على غير عادته إلى حفل افتتاح المعرض ، دون أنْ يتمّ التّعريف به . أخذ يقاسي إحساسه بالارتباك ، كأنَّ مهمة التّحضير للمعرض ، تناط به للمرّة الأولى . ألقى بقلمه على أوراق كان يعمل عليها ، ثمّ راح يحدّق بمجسم الغاليري ، وهو يقف على الطّاولة ، شاهدًا على فكرة غريبة ابتكرها صديقه القديم سراج عزّ الدّين ، الذي ما إنْ عاد من أمريكا ثريًا ، حتّى اشترى البيت القديم الذي كان يسكنه في جبل اللويبدة ، وقطعة أرض حوله ، وبنى عليها غاليري (الحواسّ الخمس) . بناية أثارت استغراب ودهشة كلّ من رآها . فبعد عامين من العمل المتواصل وجد النّاس في عمّان بناية من خمس طوابق ، تنهض من ذلك المرتفع في جبل اللويبدة ، على هيئة امرأة تنظر إلى يديها الفارغتين . كل طابق من طوابق البناية تميز بارتفاع ومساحة مضاعَفين عما هو معهود في البناء . الذين لم يروها عن قرب ، قالوا إنّها أكبر تمثال لامرأة في العالم ، وحينما أخذهم فضولهم إليها وجدوها بناية بطوابق خمس ، على هيئة امرأة ، استخدم لبنائها موادٌ عديدة ، حاكت كلّ ملامح وتفاصيل جسد المرأة .

والذين رأوا الغاليري من الدّاخل وجدوا طوابقه قد صمّمت

بطريقة عصريَّة ومدروسة ، بحيث أنَّ مستوى الهدوء والتَّصميم الجماليَّ وانتقاء الألوان وملمس الأشياء ، جعلت كلَّ من ارتاده يدرك بأنَّ ثمّة فهمًا فائقًا للحواسِّ الخمس في ذلك المكان . فكلُّ طابق مرتبط بإحدى الحواسِّ ، وكلُّ مهمَّة فنيَّة وإبداعيَّة تجري فيه لها ارتباطها بالحاسَّة .
كثير ممّن رأوه تساءلوا عنه ، واستعادوا ما أطلق حوله من حكايات غريبة ، وشائعات أكثرها غرابة أنَّ الغاليري شُيِّد لأغراض سياسيَّة تمليها جهة خارجيَّة ، لتدجين الفنّانين الذين يستقطبهم الغاليري الذي بالإضافة لصالاته الفسيحة المجهَّزة بتقنّيات كهربائيّة وإلكترونيَّة ، يضمُّ مكتبة ضخمة ، ومتحفًا لأعمال فنيَّة ، ومقهى واسعًا يؤمُّه الكثير من روّاد الفنِّ والأدب ومحبّيه ، وعدّة معاهد تهتمُّ بمواضيع جديدة . لكنَّه بقي لغزًا لم يستطع أحد فكَّ رموزه تمامًا كلغز صاحبه الغامض الذي يخفي سرًّا كبيرًا .

تذكَّر سعيد عبد الباري عدم رضا سراج عن معرض تشكيليٍّ أقيم في وقت سابق ، إذْ كان قد رافقه إلى القاعة ، وأمره بتشغيل جهاز صوت يبثُّ موسيقى تصاحب عرض اللّوحات . حينما تدفَّقت الموسيقى في المكان ، قال وهو ينصتُ جيّدًا كما لو أنَّه ضرير يرى الأشياء عبر أذنيه : (عليك حينما تختبر صوتًا ما أنْ تجعل كلَّ أجزاء جسدك تعمل تحت إمرة سمعك) . أشار إلى أذن سعيد : (السَّمع ليس هنا في الأذن ، ولا في أجزائها الدّاخليَّة فقط ، إنَّه جهد كلِّ أعضاء الجسد ، وتآلفها مع بعضها ، لتنجز هذه المهمَّة) . أضاء سراج مصابيح تعلو اللّوحات ، وأشار بيده إليها : (ألا ترى ما يحدث؟ هنالك فوضى بصريَّة تجري . ثمّة خلل في زوايا المصابيح ، وفي قوَّتها الكهربائيَّة بحيث تجعل اللّون الأحمر على سبيل المثال يتحوَّل إلى الأرجوانيِّ .

هل هذا ما أراده صاحب اللّوحة؟ نظام الإضاءة هنا قابل للتّعديل وللضّبط) .

هزّ سعيد رأسه نافيًا . حينها اقترب المدير العام من وجهه وقال هامسًا : (أنت فنّان تشكيليٌّ يا سعيد ، حينما تريد اختبار شيء ما ، لا تجعل الشّمس أمامك ، بل اجعلها وراءك ، وقدّم قلبك عليها . ثمّة شموس وراء قفصك الصّدريّ بإمكانها أنْ تنير الكون بأكمله . الشّمس التي تسطع في السّماء ما هي إلا انشطارات نوويّة ، وعراك فيزيائيٌّ ما يزال مستمرًا منذ أنْ وجد الكون) .

راح سراج وهو يغمض عينيه يشمُّ المكان رغم نظافته ، ورغم درجات الحرارة المتوازنة فيه بفضل أجهزة التّكييف المركزيّة الملحقة به ، التفت إلى سعيد : (ثمّة روائح عليها أنْ تنتشر في القاعة ، لا لتطرد رائحة الألوان ، بل لتمنح بعدًا ثالثاً يمكن للنّفس أنْ تتلقّاه . هذا ما يحدث لنا حينما نشمُّ رائحة عطر تجعل المخيِّلة تتذكّر حدثًا بعينه . كان عليك أنْ تقف في منتصف القاعة ، وتجعل روحك تختبر المكان . ثمّة فوضى لا يمكن لأيِّ شيء أنْ يرتِّبها سوى الرّوائح الجميلة . ألم تلاحظ اهتمام المعابد بتلك الرّوائح؟ لم يكن الأمر مرتبطًا فقط بطرد الأرواح الشّريرة ، أو التقرُّب من الآلهة ، بل كانت مهمّة كبرى لاقتناص البعد الثّالث لما نرى) .

٣

كانت خطوات سراج عبر ممرٍّ المستشفى رشيقة ، حينما غادر مكتب كبير الأطِّباء نحو عيادة العيون ، ترافقه ممرِّضتان ، كما لو أنَّها تدوس مفاتيح بيانو ضخم تأخذه نغماتُها إلى بهو في ذاكرته ، يتطاير فيه ورق أيامه السّالفة .

في عيادة فحص العيون جلس أمام جهاز الفحص ، منصاعًا لأوامر طبيب راح يعاين البؤبؤ كيف يضيق ويتَّسع قبالة سطوع الضوء . تأكَّد من سلامة الشَّبكيَّة ، ومن العصب البصريِّ ، بعد أنْ التقط عددًا من الصّور ، وبعد مرور على أكثر من جهاز إلى أنْ قام باختبار بصره عبر لوحة معلَّقة على الجدار .

بعد أنْ فرغ الطَّبيب من الفحوصات جلس سراج يتنفَّس بهدوء ، ويرخي يديه على ركبتيه كأنَّه يروِّض كائنات القلق في دواخله . قال الطَّبيب مبتسمًا بعد أنْ انتهى من تدوين نتيجة الفحص :

- عيناك سليمتان سيِّد سراج كالعادة .

هزَّ سراج رأسه وعلى وجهه إحساس محايد ، ثمّ نهض ومشى باتِّجاه النّافذة ، فسحب خيط السِّتارة البلاستيكيَّة ، إذ بدت عمّان والشقق السَّكنيَّة والأبراج تداهم فضاءها كفم فيه أسئلة كثيرة . عقد يديه وراء ظهره ، وأطلق بصره في المدى ، ثمّ أراح رئتيه بزفرة طويلة :

- إذن هل أرى جيِّداً أيُّها الطَّبيب؟

نهض الطَّبيب ومشى نحوه ، فوقف بجانبه يراقب سرب حَمَام يحوم في الأفق :

- طبعًا أنت ترى جيِّدًا سيِّد سراج . كيف لك أنْ تتساءل بعد كلِّ هذه الفحوصات؟ .

أرخى سراج رأسه على حافة جدار النّافذة ، وقال بما يشبه الأنين :

- ثمّة جزء في البصر لا يمكن لأيِّ جهاز طبِّي أنْ يختبره . إنَّه الجزء الذي حينما نرى الأشياء بصورتها الاعتياديَّة يمنحنا شكلها الآخر المتواري وراء حجر الغفلة . كأنْ ترى دمعة تختبئ خلف ابتسامة عريضة ، فتصابُ بِحيرة تخلّفها تلك الابتسامة ، وهي تعاند دمعة تنفخ في ناي الأسى .

في ذلك اليوم مرَّ سراج بعيادة الأذن والأنف والحنجرة ، وبعيادة الأعصاب ، وأجرى الفحوصات التي عادة ما يقوم بها ، ثمّ غادر المستشفى ، وفي ذاكرته تساؤل قديم حيال حواسِّه الخمس .

الفصل الأول

كِنْدة

(دع أنفك يتفرّس صفحة الهواء ، ففي كلٍّ رائحة طريق ، وفي كلٍّ طريق دليل إلى الحقيقة . دع أنفك يتفرَّس كلَّ الرَّوائح لتقترب من اليقين) .

١

عند بوابة غاليري (الحواسّ الخمس) العريضة ، وقد توسَّطت شكل يدي تلك المرأة التي صُمِّم المبنى على هيئتها إذْ تنحدران إلى الأسفل فتتَّكئان على الأرض ؛ ليمرَّ عبر تجويفهما سلّم كهربائيٌّ ، توقَّفت سيّارة سراج وهبط منها يمشي نحو البوّابة بخطوات هادئة ، ففُتحت أوتوماتيكيًا ليبدو كأنَّ منْ يدخل المبنى يعبر إلى داخل جسد المرأة . في منتصف الجدار المقابل للبوّابة كُتبت بخطٍّ عريض عبارة يقرأها كلُّ منْ يدخل الغاليري :

(درِّبوا أنفسكم على الإنصات للسّكون . إنّه سيِّد الحزن ، وأمير التَّأمُّل ، وملك باحث عن الإجابة . فليس كلُّ صمت هدوءً . وليس كلُّ هدوء صمتًا ، فالشّمعة تقاوم الظُّلمة دونما أيِّ ضجيج ، حتى وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة)

قرأ العبارة ، وراح يستطلع المكان كأنّه يراه للتوِّ . في الدّاخل ثمّة قاعة فسيحة ، طليت جدرانها باللّون الأرجوانيّ وتدرُّجاته . تسقط عليها إضاءات تجعل الألوان تحاكي حاسّة السّمع . اكتسبت مقاعد الصّالة درجات اللّون الأرجوانيّ أيضًا ، وانتشرت على الجدران لوحات لعازفين مع آلاتهم الموسيقيّة . ثمّة نافورة يسقط منها الماء في حوض اتَّخذ شكل الأذن ، وثمّة سماعات غير ظاهرة كانت تبثُّ موسيقى تؤدّي إلى الاسترخاء . تفضي الصّالة إلى دار أوبرا مخصّصة للحفلات

الموسيقيَّة والغنائيَّة ، ويؤدّي منها باب إلى معهد يستقبل فاقدي البصر ويعلِّمهم فلسفة الإنصات لحركة الطَّبيعة كموسيقى أصيلة . تؤدّي تلك الصّالة أيضًا إلى ركن لقاعة مؤتمرات ، ومكاتب لموظفي الغاليري ، ومصاعد للطَّوابق الأخرى .

أحسّ بغبطة بعدما رأى فكرته التي بقيت تخفق في رحم مخيِّلته لسنين قد أصبحت حقيقة . من الصّالة ذاتها استقبل درجًا كهربائيًا صُمِّم خصّيصًا ليسير بشكل متعرِّج عبر تجويف شكل يدي المرأة اللتين بنيتا من شبكة معدنيَّة مغطّاة بزجاج وموادّ اتَّخذت لون الجلد ، فصارتا كما لو أنَّهما طبيعيّتان . في طريقه وعبر زجاج المصعد راقب عمّان والدّرج الكهربائيُّ يرتفع به إذْ بدت في ساعات الظَّهيرة تلك تكابد أشعَّة الشَّمس وهي تقهقه في كبد السَّماء .

من الطّابق الخامس أخذه مصعد إلى مكتبه الذي يقع في رأس المرأة التي شُيِّد الغاليري على هيئتها . نهضت السَّكرتيرة وسارت بخطوات عجولة تفتح له الباب . ألقى عليها تحيَّة الصَّباح ، وعبر إلى الدّاخل بعد أنْ أغلقت الباب وراءه . تأمَّل وهو يخطو نحو الطّاولة خلال النّافذة شكل النَّبات كيف يهبط من الأعلى متَّخذاً شكل وتمويجات شعر امرأة الغاليري . ضجَّت في باله ذكريات قديمة ، لكنَّها انحسرت عندما قرعت السَّكرتيرة الباب ، ثمّ فتحته فدخلت عاملة الضَّيافة حاملة صينيَّة عليها فنجان شاي أخضر ، وضعته أمامه على الطّاولة وغادرت ، ثمّ أقفلت وراءها الباب واقتربت منه تذكِّره عبر أجندة تقرأ منها ببرنامج اليوم :

– انتهينا في غيابك هذا الصَّباح من استقبال أربعة وفود سياحيَّة داخليَّة . دعا الأستاذ سعيد عبد الباري لاجتماع راجع فيه مع

المجتمعين التَّرتيبات لافتتاح المعرض التَّشكيليِّ هذا المساء . في المقهى هنالك الكثير من الرّواد ، وكذلك المكتبة . وهنالك دفعة جديدة من أطفال الإشارات الصَّوئيَّة أخذ المعهد بالاعتناء بهم . وهنالك أيضًا ضرير جديد انضمَّ للمعهد . بعض وسائل الإعلام كتبت لنا تريد إجراء لقاء تلفزيونيٍّ معك . والبعض الآخر يريدون إذنًا ليقوموا بتصوير الغاليري . ارتشف من فنجانه ، وأراح بدنه على الكرسيِّ :

- اعتذري لمن رغبوا بلقاء تلفزيونيٍّ معي ، وذكّري سعيدًا بالقيام بباقي المهامِّ كالمعتاد .

في حاسوبه قرأ في إحدى الصُّحف مانشيتًا عريضًا مرفقًا بصورة للغاليري يتطرَّق للمعرض التَّشكيليِّ الذي كان سيقام في ذلك اليوم ، وفي خانة التَّعليقات رأى أراء كثيرة ، جزء منها يتهجَّم على الغاليري ، ويشكِّك به ، وجزء آخر يدافع عن المكان بصفته رمزًا فريدًا للجمال . مشى نحو النّافذة ، وسرّح بصره عبر المدى الذي كان صافيًا في ذلك اليوم ، وراح يتنفَّس بهدوء . قُرع جرس الهاتف ، فأتى صوت السّكرتيرة حينما عاد إلى طاولته تخبره بأنَّ سعيد عبد الباري يطلب مقابلته . عدَّل من جلسته مغادرًا استرخاءه ، ثمّ أذن له بالدّخول .

قال سعيد عبد الباري بعد أنْ جلس ، وراح يبدي كثيرًا من الاهتمام :

- لقد تأكَّدت من صلاحيَّة كلِّ الإجراءات الفنيَّة والإداريَّة للحفل هذه اللّيلة . الأمور سوف تجري وفق ما نريد .

أطلق سراج ضحكة خفيفة بانت إثرها أسنانه ناصعة البياض ، واتّضحت غمازتاه :

- ما منْ أمر يجري تمامًا وفق ما نخطِّط يا سعيد . هنالك مفاجآتٌ

تحدث لنا في أيِّ أمر نرتِّب له . أو حتّى للحظات في حياتنا نتركها رهينة للصُّدفة .

همّ سعيد بالحديث ، لكنّ سراجًا قاطعه بإيماءة منْ يده :

– أؤمن بنظريَّة (عالم المثل) لأفلاطون التي يعتقد عبرها (أنّ العالم الذي نلمسه ، ونختبره من خلال الحواسّ هو عالم غير حقيقيٍّ ، بل هو عالم مشابه أو مستنسخ من العالم الحقيقيِّ بصورة غير كاملة . وحسب رأيه ففي هذا العالم تتغيَّر الأشياء . تأتي وتذهب ، تبرد وتسخن ، لذلك هو عالم الأخطاء الكثيرة) .

قال سعيد وهو يؤشّر إلى نسخة مقلَّدة من لوحة (يوهانس فيرمر) (الفتاة ذات القرط اللؤلؤيّ) المعلَّقة في منتصف جدار مقابل لطاولة سراج :

– ما تراه هنا في هذه اللّوحة جزء من الحقيقة . والحقيقة هنا في رأس أيِّ واحد منا . في الرّأس يكمن العالم الحقيقيُّ .

نهض سراج من وراء طاولته ، ووضع يديه وراء ظهره :

– أوافقك الرّأي . لكنْ دعنا نقول إنّ العالم الحقيقيّ في دائرة الحواسّ .

قاطع حديث سعيد وهو يلتفت متأهّبًا لقول ما :

– أعلم أنّك ستقول إنّ الحواسّ بلا هذا الدّماغ لا تساوي شيئًا . لكنّها بأيِّ حال من الأحوال تبقى منفصلة تمامًا مثل الابن الذي سافر للدّراسة في مكان بعيد بينما والده يدفع له مالاً يكفيه ليتدبّر شؤونه . إنّه منفصل عنه ، فهو يفعل ما يريد .

قُرع جرس هاتف سعيد ، فاضطرَّ للمغادرة بعد أنْ أخبر سراج بكلّ ما عملوا لأجله فيما يخصُّ افتتاح المعرض الفنيّ .

٢

قبل أنْ يغادر مكتبه لينضمَّ ولأول مرة منذ تشييد الغاليري إلى افتتاح معرض اللّوحات التشكيليّة ، تفقَّد سراج هندامه أمام المرآة باهتمام كرَّره لأكثرَ من مرّة . اقترب من وجهه في المرآة وراح يحدِّث نفسه :

- ها أنت ستكسر شيئًا من عزلتك التي صارت كسياج ضربَه حولك ما فوجئت به في يوم جاء بعده رحيلك الطَّويل . لم تكن تدري أنَّ الدُّروب الهيِّنة المحاطة بالعشب والشَّجر يمكن أنْ تؤدّي إلى هاوية أيضًا . كنت تعتقد أنَّك تخلَّصت من براءتك الزّائدة ، حينما ضربت جعفر سليمان الطّالع ، وصار سعيد الذي كان مثلك بلا جماعة صديقك الوحيد . كنت حينما تجلس عند معبد هرقل في جبل القلعة تلقي عن كاهل قلبك ما يوجعك من عمّان ، وتحتفي بما تحبُّه فيها . كنت تدري أنَّ عمّان لا ذنب لها ، الذين لم يفهموا فكرة الوطن هم الذين أوجعوك . اللّصوص ، الشرهون ، المتآمرون ، شهوانيّو السُّلطة . كنت تحلم بامرأة حضنها وطن ، مثلما كنت ترى الوطن حضن حبيبة . تمنّيتَ لو أنَّ والدك كان ما يزال على قيد الحياة حينما صُدمت بما حدث . كنت ستنتظر عودته من المقهى ، حيث جلسته مع رفاقه ، الذين يختلفون كثيرًا حول طاولة عليها فناجين القهوة ، ومنافض السَّجائر المليئة بالأعقاب ، ثمّ يتضاحكون ، وأيُّ واحد منهم يتوقَّع أنْ يعتقل فور خروجه من المقهى . حتمًا سيجلس قبالتك ويرتدي نظارته

لينظر في عينيك ، يقرأ ما يتركه بوحك في بؤبؤيك اللذين سيتّسعان ويضيقان ، كأنّك قبالة ضوء ساطع . سيقول لك بصوته الهادئ ، ووعيه الدياليكتيكيّ ، لا تحلّ أزماتك بعين الرّسام فيك ، حلّها بوعيٍ سياسيٍّ يدرك أنّ الحياة لعبة ، وأنّ كثيرًا من لاعبيها يزّينون اتّساخهم بارتداء ملابس زاهية ، واستخدام عطور طاغية العبق . يومها ذهبت إلى قبره ، ولم تبك . كنت تخشى أنْ يأتيك صوته من تحت التّراب وهو ينهرك عن البكاء ، كما كان يفعل معك في الصّغر . بقيت صامتًا لا تفكّر بشيء ، ثمّ رحت تتذكّر كيف وجدته والدتك ميْتًا والجريدة بين يديه ، وصفحاتها تترع بأخبار سقوط الاتّحاد السّوفييتيّ . ها أنت الآن ستكسر شيئًا من عزلتك ، وترى النّاس بعد كلّ تلك السّنين التي أمضيتها تصنع التّوازن فيك حتّى لا تسقط . اخرج ، هاهو امتحانك الأوّل .

ترك مكتبه ترافقه السّكرتيرة إلى باب المصعد ، واستقلّه هابطًا إلى الطّابق الرّابع . هناك وجد سعيدًا وعددًا من الموظّفين بانتظاره ، فأمرهم بأنْ يتابعوا مهامّهم ؛ ليتحرّك في الحفل كأيّ مدعوٍّ . سرّح بصره بالمكان الذي اكتسب اللّون الأزرق بدرجاته ، والذي تقع به صالتا عرض اللّوحات التّشكيليّة . قرأ العبارة التي كتبت في جدار يواجه المصعد :

(أطلقْ بصرك في الأشياء فحتّى للانهائيٍّ نهاية ، يمكنك مشاهدتها ، يمكنك هناك أن ترى ما تريد أنْ ترى ، وأنْ تشرب عيناك ما عطشَته لسنين ، فليس كلّ ما تراه تراه ، وليس كلّ ما لا تراه عدم) .

رأى الصّالة قد امتلأت بالمدعوّين الذين كانت أحاديثهم تتقاطع ، فتحدث جلبة لم تمنع صوت بيانو تنقر على مفاتيحه منْ زاوية الصّالة ، فتاة بعمر الثّلاثين ، تلبس فستانًا أسود ينفتح عند منتصف فخذها

الأيمن . ترتدي عقدًا بلون لؤلؤيٍّ انحدر من عنقها وانتهى عند صدرها نصف المكشوف . داهمته عطور كثيرة تختلط ببعضها ، مخلِّفة مزاجًا جميلاً في فضاء الصّالة . سمع ضحكات نساء ، وكركرات رجال ، ونقرات احذية نسائيَّة بكعوب عالية ، بدت كما لو أنَّها مقطوعة موسيقيَّة تجسِّد إيقاعًا جميلاً في الفوضى . شاهد إضاءات كثيرة لكاميرات الصَّحفيين ، وكاميرات لمحطّات فضائيَّة ، وميكروفونات محطّات إذاعيَّة . كان يسير داخل ذلك الزّحام كما لو أنَّه المتحرِّك الوحيد وكلُّ الأشياء ساكنة ، كأنَّ شحنة مغناطيسيَّة في دماغه جمَّدت الصّورة ، إذْ لا صوت إلا صوت تنفّسه وهو يسمعه عاليًا ، وصوت أنين آلة موسيقيَّة من آلات المعابد القديمة تتبعه كخيط دخان في هواء ساكن . كانت حواسّه تعمل كجيش استجاب لنفير الحرب . صارت روائح الصّالة كفراشات تعبر أنفه إلى رئتيه . استحالت الأصوات إلى خرز سبحة أخذت تتدحرج عبر أذنيه إلى دماغه . الأشياء والأشخاص في الصّالة صاروا هلامًا تحوّل إلى لوحة تهبط وترتفع أمام عينيه . صار ملمس كلِّ شيء حريريًا . صار هواء المكان ماءً تخلّص من سطوة الجاذبيَّة وراح ببطء يسقط في فمه . كان يعي أنَّ تلك الحالة تراوده للمرّة الأولى ، عندما عاد كلُّ شيء إلى ما كان عليه . أغمض عينيه وهو يتوقَّف عن المشي ، وشهق ثمّ زفر ببطء ، متلذِّذًا بما عاشه لثوان .

ما إنْ انقضت مراسيم الافتتاح حتّى تدفّق الحضور نحو اللّوحات المعلَّقة على الجدران ، وقد أخذت حقَّها من الإضاءة ، والمساحات المناسبة . كانت عازفة البيانو ما تزال تؤدّي مقطوعات موسيقيَّة ، عندما أخذ سراج يراقب اللّوحات بتمعُّن . يتأمَّلها بتناغم عميق بين حواسِّه ،

وبين ألوان اللّوحة وخطوطها وضربات الرِّيشة فيها . له طريقته الخاصّة في قراءة اللّوحة ، إذْ يرى ذاته كما لو أنَّها قطرة من لون تبقّى تسبح في فضاء اللّوحة عبر رحلة يسمع فيها دليلاً يخبره أسرارها ، إلى أنْ يجد له زاوية أو خطًّا فيها فيستقر فيه ، إذْ يرى أنَّ إحساسنا بما نراه مرهون بتلك المساحة التي تتَّسع أمام أرواحنا ، وهي تحلِّق فيها فتشرب تفاصيل ما نرى . هنالك لوحات أخفق في أنْ يعيش نبضها ، ولوحات تماهى بها بمستويات متباينة . ثمّة لوحة توقَّف عندها مطوَّلاً ، فتنهَّد كأنَّه عثر على ضالّته . بدا كمن يرتخي قبالة شمس أطلّت فجأة في يوم بارد وهو يحدِّق بمساحة اللّوحة التي اتّسع فيها فضاءٌ أزرق ، اعترته ظلال بعيدة لأنثى تلوح في انسياب الألوان ، يتقاطع جسدها الذي لم تظهره ريشة الرّسام كاملاً ، بخطوط خضراء وبيضاء ، وخطوط من تدرّجات اللّون الأحمر ، وضربة عشوائيَّة للرّيشة بلون أسود ، سحّت منها على فضاء اللّوحة خيوط تشبه الدّموع ، أكثر ممّا تشبه حبّات المطر . أحسَّ بأنَّه استحال إلى نقطة صفراء ، راحت تحلّق في سماء اللّوحة كأنّها ريشة أخذتها على حين غرّة ريح ربيعيَّة . تلاشت حينها كلُّ الأصوات التي تجيء من صالة العرض ، فلمْ يعد يسمع شيئًا . ثمّة سكون آسر احتلَّ بدنه وهو يصير تلك النّقطة اللّونيّة التي تحوم في عالم اللّوحة . ثمّة عطر نسائيٌّ يعرفه جيّدًا راحت تشدُّه سطوته إلى خيالات قديمة ، فانهالت الذّكريات كأنَّ كهفًا أُشرِعَ بابه ففرَّت منه عصافير حبيسة . لكنَّ إحساسًا باللّذة استباحه ، فشعر بحاجة ملحَّة لاحتضان امرأة تعرفها ذاكرته التي أخذت مسنّناتها تتحرَّك ببطء محدثة صريرًا موجعًا . أنّ قلبه أنينًا انتشر في كلِّ أنحاء جسده ، فانتفض كمن تفاجئه قشعريرة ، ودبَّ به حنين كاد يجعله يصرخ دونما اكتراث

بشيء ، لكنّه تنفّس بهدوء لمرّات فسكن .

أغمض عينيه والعطر يلحّ على ذاكرته ، ثمّ فتحهما وأخذ يراقب اللّوحة . راح يتتبّع العطر متلذّذًا به ، مستنشقًا بصوت مسموع ، فرأى في مخيّلته مُهرًا أبيض يركض في مرج أخضر ، ليس فيه سوى عشب غض ، تعلّقت به حبّات ندى بلوريّة . كان يحرّك رأسه بتلذّذ المهووس . ينصاع لسطوة العطر كأنّ بدنه يئنّ لفرط انتباه حاسته . شهق بالعطر مرّة ثانية ، وردّد لنفسه بصوت مسموع ، وهو يحسّ بانخطاف غريب :

- أعرف هذا العطر ، له لغة عتيقة في أغوار نفسي . إنّه عطرها بطبقاته الثّلاث ، كأنّه مقطوعة موسيقيّة تستولي على رقعة القلب فتحتلّها . مقطوعة يؤدّيها ثلاثة عازفين . عازف يرسم بمفاتيح البيانو إيقاع عبق خليط من زهر البرتقال والرّمان واللّيمون . وآخر بقوس كمنجته يرسم أنين قلب الحكاية المؤلّف من زهور بريّة تنبت في أعالي الجبال ، يخالطها زهر الياسمين . وعازف تشيللو يحزّ أوتار آلته التي ترسم آخر الخطوات في حكاية تنزّ خليطًا من عبق العود والمسك وخشب الأرز . أعرف هذا العطر ، إنّه عطرها . إنّي أرى مهرًا أبيض يجري في مروج خضراء .

بجانبه تمامًا كانت تقف امرأة في الثّلاثين من عمرها ، لها قوام سمكة تتمطّى بحضن الماء ، وجهها يقع بين الاستدارة والاستطالة . انسدل على كتفيها شعر بنيٌّ ناعم ، تناثرت منه خصلات على عينيها الواسعتين . ترتدي فستانًا ورديًا ، وعلى كتفها تحمل حقيبة جلديّة بيضاء . قالت دون أنْ تنظر نحوه كما لو أنّها تهمس لنفسها :

- هل كنت تتحدّث عن عطر وجدته في هذه اللّوحة؟

- تتحدّثين إليّ؟

التفتت إليه ، وقد أطلّت من وجهها ابتسامة جعلته أكثر جمالاً :

- وهلْ يقف أحدٌ غيرنا أمام هذه اللّوحة؟

بقي سراج للحظات يراقب وجهها ، ويفكّر بسرّه :

(ثمّة جمال لا يمكن أن يُرى إلا تحت مصباح البساطة الذي رغم خيوط ضوئه الشّحيحة ، إلا أنَّ كلّ خيط فيه يقع في المكان المناسب . هذا الوجه رأيته من ذي قبل . ربّما في حلم من أحلامي . أو في سهو لي وأنا قبالة نافذة ما ، أو بحر تتلاطم شطآنه ، وتتقافز في الهواء كدلافين مجنونة)

قال لها وهو يشمُّ عطرها بتمهلٍ خفيٍّ :

- العطر الذي تمنحه اللّوحات لا علاقة لحاسّة الشمّ المعتادة به ، إنَّ له حاسّة مشتركة بين القلب والعقل .

تأكّد وهو يقترب منها أنَّ الذي أخذ قلبه إلى سماء ثامنة ، وهوى به مرّة واحدة هو عطرها .

استدارت نحوه :

- إذن عن أيِّ عطر كنت تحدّث نفسك؟

رأى في وجهها ملامح امرأة أخرى تتقاطع بملامحها . قال متناسيًا ما يحلُّ به :

- عن عطرك .

رفعت خصلات شعر غطّت عينها اليمنى فبان ما تبقّى من جمالها :

- هل حقًا رأيت مهرًا أبيض يجري في مروج خضراء؟

التفت إلى اللّوحة ، ثمّ عاد ينظر إلى وجهها :

- نعم رأيته ، لكنّني تفاجأت به يقفز خارج اللّوحة .

ضحكت بخجل تبعه ذلك الغرور الأنثويُّ الذي عادة ما يخلّفه امتداح امرأة :

- أنت تجامل يا سيِّدي .

هزَّ رأسه نافيًا :

- يا سيِّدتي ، الكلمات الصّادقة كذخائر الجنديِّ وقت الحرب ، علينا أنْ لا نطلقها جزافًا ؛ كي لا تصبح قلوبنا ذات يوم خالية الوفاض ، وخرساء أمام بوابة الحياة .

كان الضَّجيج في الصّالة يأتي مزيجًا من صوت معزوفات شوبان ، وصوت فلاشات الكاميرات ، وضحكات العدد الكبير من الذين أمّوا المعرض . اقترح عليها أنْ يتمشّيا بعيدًا عن المكان ، فخرجا . بدت خطواتها وهي تسير بجانبه منتظمة كأنها نقرات ضابط إيقاع في تخت شرقيٍّ . كانت تفكّر أنْ تخبره بأنَّ عطره أيضًا له سطوة غريبة ، وأنَّ وسامته ، وشخصيّته تخيفان أيَّ امرأة عاقلة تخشى منْ أنْ تقف على حافّة الجنون ، وترمي بنفسها غير آبهة بما يمكن أنْ يحدث . رأت وهما يسيران في ممرٍّ عريض يفصل مقهى الغاليري عنْ صالتيْ العرض أنَّ منْ تتمشّى برفقته ربّما يكون ممثّلا ، أو مخرجًا ، أو مصمم أزياء شهيرًا . استعرضت ملامحه خلسة وهي تنظر إلى اللّوحات التي زيّنت جدران الممرِّ ، لكنَّها تأكّدت منْ أنَّها لم تره منْ قبل .

قالت تحاول شجَّ خيمة من الصَّمت ضربت حولهما :

- هذا المكان ساحر ، أواظب على ارتياده في الأوقات التي يتيحها لي عملي وانشغالاتي .

- ما هي طبيعة عملك؟

ارتطمت يدها اليسرى بيده اليمنى فأحسَّ بدفء خاطف تطوّح

في بدنه ، وشعرت هي الأخرى بنعومة يده ودفئها :

- عيّنت مجددًا أستاذة في الجامعة في كليّة الزّراعة .

رغب أنْ يقول لها إن اختيارها لعطرها ربّما نابع من معرفتها الوطيدة بشؤون النّباتات والأزهار ، لكنّها قاطعته حينما همَّ بالحديث :

- وأنت ماذا تعمل؟

- أعمل هنا . في هذا المكان .

بدت سعيدة بما سمعت ، كأنّها خمّنت ذلك :

- وماذا تعمل هنا؟

- أنا صاحب هذا الغاليري .

توقّفت عن المشي ، وفي وجهها تنمو ابتسامة عريضة ، ثمّ مدّت يدها إليه :

- تشرّفت بك سيّدي . لقدْ سمعت الكثير عن هذا المكان الجميل بغرائبيته قبل أنْ أصبح من روّاده .

رغم عجزه الجنسيِّ ، وهروب عواطفه نحو سرير منْ جليد منذ زمن أحسَّ بدفء يدها عميقًا هذه المرّة ، أو بدا له ذلك ، فاعتراه شعور غريب أخذ يلحّ عليه باحتضانها . شعور غامض كاد أنْ يحولّه إلى أرعن ، لكنّه عاد إلى هدوئه المعتاد :

- سعيد بمعرفتك آنسة . . .

- كِنْدة .

- اسمي سراج عزّ الدّين .

رأت أنَّ طريقته في الكلام قدْ اكتسبت نبرة رسميَّة لم تعرف مردّها آنذاك . ثمّ مدَّت يدها مرَّة ثانية وصافحته :

- عليَّ أنْ أغادر الآن .

كتب في ورقة رقم هاتفه ، وعنوان بريده الإلكترونيّ ، ثمّ مدّ يده نحوها ، وهو يعي أنّه يفتّش فيها عمّا أضاعه :

- سأكون سعيدًا لو التقينا مرّة ثانية . نحن لمْ نتحدّث كثيرًا .

- سمعت الكثير عنْ عدم رغبتك في الظهور . أعذرك . ربّما نلتقي ذات يوم .

٣

رغم رفضه ، حضّرت وداد كعكة وعشاء بمناسبة عيد ميلاد سراج . لم تتصرّف تلك اللّيلة كمدبرة منزل عليها أنْ تطيع أوامر مخدومها ، بل قامت بكلٍّ تلك الأشياء بعد أنْ تذكّرت بحنين ليلة أنْ التقته في عمّان قديمًا ، ويوم أنْ التقته مجدداً في أمريكا عام ٢٠٠١ . وجدت وداد نفسها منذ أنْ اختارها سراج للعمل في القصر كأنّها هي سيدته ؛ إذْ لم تكنْ لديه تلك النّزعة الأرستقراطيّة التي تفرض طريقة خاصّة في التّعامل مع الخدم ، بل كان رغم هدوئه وندرة المرّات التي يتحدّث بها ، يشعرها بأنّها جزء مهمٌّ من القصر . حدث أنْ مرضت منذ أعوام فأدخلت المستشفى ، حينما استفاقت ووجدته جالسًا قرب سريرها . في تلك اللّيلة أحسّت بما لم تحسّ به منذ سنين . ربّما لم يكنْ حبًا له بمقدار ما هو ذلك الشّعور من الأمان الذي يجعل أيَّ مكان ، وأيَّ شخص بمثابة وطن حميم .

ليلة عيد ميلاده كان جميع منْ يعملون في القصر قدْ غادروه قبيل غروب الشّمس . حدّثت نفسها أمام المرآة وهي تسرّح شعرها الأشقر ، وتشدُّ فستانها القرمزيَّ اللّون على جسدها المتواري وراء زيٍّ الخدم المعتاد . رشّت رذاذًا من زجاجة عطر لديها لمْ تستخدمها منذ سنين ، وتمعّنت بوجهها بعدْ أنْ أضافت له مسحات خفيفة من الماكياج ، وقليلاً من الكحل ، ولمسة خفيفة من أحمر الشّفاه ، فصار أكثر جمالاً من ذي قبل . همست بسرِّها :

(هنالك أنواع من الحبِّ تنمو على مهل، تمامًا كوردة التّوليب التي تبدو في مراحلها الأولى مجرَّد بذرة، لكنْ ما إنْ يشتدَّ البرد حتّى تبزغ من حضن التّراب، وترتفع إلى الأعلى لتطرح زهرة يانعة)

أحنت رأسها، ثمّ أخذت تحدّث نفسها بصوت خفيض:

(لكنَّ زهرة التّوليب موسميَّة، ما إنْ تمضي شهور وتبدأ حرارة الشَّمس بالتَّعالي على البرد حتّى تذبل)

تركت المرآة تكمل حديثها بشيء من النَّزق:

(لكنَّ زهرة التّوليب لا تموت. تبقى روحها في بذرتها. تنمو في أوقات البرد مانحة دفئها الحميم)

نظرت في ساعتها، وقدّرت أنَّ سراجًا تأخَّر منشغلاً بالافتتاح الذي جرى في غاليري ((الحواسّ الخمس))، وقدَّرت أنَّ نصف ساعة كافية ليأتي. تأكّدتْ من أنَّ هواء صالة الطَّعام مشبع برائحة اللاّفندر الذي يحبُّه. ووزَّعت الأطباق والشُّوك والسَّكاكين على طاولة توسطتها شمعة حمراء، ومزهريَّة ضمَّت بضع زهرات من زهور (الأوركيد)، ثمّ ذهبت نحو المطبخ تتفقَّد ما صنعته للعشاء. إنَّها شرائح اللّحم التي خلت من الدّهون، متبلة بالزَّعتر البريّ، ومشويَّة إلى جانب بعض أنواع من الخضار.

نظرت في ساعتها فرأت أنَّ عليها تحضير ما تنقصه الطّاولة. وضعت إناء حساء المشروم، وسلطة الشَّمندر، وطبق شرائح اللّحم. شارفت السّاعة على التّاسعة وسراجٌ لمْ يأت. شعرت بشيء من الأسى، لكنَّها طردت ذلك الإحساس، فراحت تتأمَّل الهديَّة التي اشترتها له بمناسبة عيد ميلاده، إنَّها مجموعة أقراص مدمجة فاخرة تضمُّ أغلب أعمال (بيتهوفن) الموسيقيَّة.

كان جرس السّاعة الكبيرة التي علّقت على جدار صالة الطّعام يقرع ، حينما دخل سراج من بوابة القصر . شعرت بخليط من الارتباك والبهجة ، فراحت تتنفّس بهدوء لمرّات عديدة ، تحاول الاسترخاء . مشت نحوه بخطوات غير الخطوات التي تسير فيها خادمة نحو مخدومها ، إنّها خطوات مشوبة بدلال الأنثى ، وبمشيتها الموسيقيّة حينما تستمدُّ إيقاعها من نوتة القلب . كان سراج يهبط درجاتٍ قليلة ، أخذته إلى صالة القصر الواسعة . على بعد سنتيمترات قليلةً منه ، وقفت بجمالها الذي رآه كاملاً في تلك اللّيلة فقط . اقتربت منه أكثر فعانقته ، ثمّ همست قرب أذنه :

- كلّ عام وأنت بخير .

رغم الاستغراب الذي تغلغل به ، إلاّ أنّه شعر بنوع غريب من الرّضا . إنّه الإحساس الأوّل الذي يفاجئه وهو يعود إلى القصر ، فيكتشف به دفئًا لم يعهده من قبل . كان وجهها قريبًا من وجهه ، بحيث شعر بأنفاسها تلامس خديه :

- ألمْ أقلْ لكِ . . . .

وضعت إصبعها على فمه :

- إششش . لا تقل شيئًا . أنت أمرت وداد مدبِّرة المنزل ، ولم تقلْ لي أنا شيئًا .

أحسَّ بما يشبه الانصياع لها ، وهي تقتاده من يده نحو الطاولة ، ففكّر بأنْ يختبر عواطفه ، ورغبته بعد كلِّ تلك السّنين التي أمضاها يتخلّص منْ نتائج ما حدث له . همس بسرّه مردِّدًا (ولم لا يا سراج) .
لم تكن وداد في ذلك المساء على مقربة من عاطفة الأمومة التي ألفها فيها ، ولم يكنْ سراج مصابًا بتلك الخلجات وهو يرى بها طيف أم تحوم

في البيت ، وتخشى عليه من العزلة .

قالت وهي تمسك بالولاّعة ، تشعل شمعة توسّطت كعكة ، كتبت عليها بالكريما والشّيكولاته اسمه :

- لا يحتسب العمر بعدد اللّحظات السّعيدة التي نعيشها في حياتنا ، إنّما بمقدار المساحة التي تصنعها هذه اللّحظات فينا . لهذا اخترت أنْ أضع لك شمعة واحدة .

كان سراج يقف مبتسمًا مثل طفل يشهد أولى حفلات عيد ميلاده . رأت عينيه أكثر جمالاً ، وهما تلمعان تحت ضوء الشّمعة . طبعت على فمه قبلة خاطفة :

- أتمنّى لك عمرًا حافلاً بالمسرّات .

وجد نفسه متلعثمًا ، وكأنّه لا يعي ما يجري . ثمّة خيالات ومشاهد قديمة داهمت مخيّلته ، أغمض إثرها عينيه ، لكنّه طردها ، كما لوْ أنّه قرّر أنْ يعيش لحظة مفاجئة لمْ يكنْ يتوقّعها .

- أعرف أنّك تحبُّ (بيتهوفن) . سمعتك تعزف قطعًا له أكثر من مرّة .

ناولته صندوقًا خشبيًا ، مطعّمًا بأشكال نوتات فضيّة اللّون :

- هذه أغلب أعمال (بيتهوفن) على أقراص مدمجة عالية الجودة .

لامست بأصابعها وجهه :

- وأعلم أنّ الموسيقى تعني لك الكثير يا حبيبي .

فتح الصّندوق الخشبيّ ، وأخرج منه أحد الأقراص المدمجة :

- هلْ لي أنْ أستمع لشيء مما تحويه هذه الأقراص .

تردّدت كلمة (حبيبي) في مسمعيه كصدى لخبط أجنحة في غرفة فارغة . ظلّ يراقب وداد وهي تمشي نحو المسجّلة ، كأنّه يراها للمرّة

الأولى . راق له اللّون القرمزيُّ وهو يوافق لون بشرتها البيضاء ، ولون شعرها الأشقر الذي سرحته بعناية ، فبدا كأنّه خيوط ذهب تلمع تحت إنارات القصر الدّاخلية . عندما انحنت نحو المسجلة شاهد عقدًا يتدلّى من عنقها ويهبط في ملتقى نهديها ، فشعر بانجذاب مفاجئ نحوها . راحت مقطوعة بيتهوفن (Für Elise) التي أهداها بيتهوفن نفسه إلى إحدى الفتيات بمناسبة شفائها من مرضها ، تضفي مزاجًا جديدًا على القصر الذي اعتاد الصّمت .

عند الطاّولة غنّت له بصوت ناعم وجميل متمنّية له عمرًا طويلاً وسعادة لا تنضب . اقترب من الشّمعة وأطفأها . فقبّلته على خديه ثمّ أمسكتْ بيده وهو يمسك السّكين ، فقطع الكعكة . قالت وخصلات شعرها ترتطم بوجهه :

– أتمنّى لعمرك أنْ يكون بمذاق حلو كهذه الكعكة . لكنْ دعنا نؤجّلها بعد أنْ نتناول العشاء .

جلس سراج إلى الطّاولة ، وأخذت وداد مكانها قبالته . وقالتْ بوجه مبتسم :

– دعنا نحتفي بهذه اللّحظة . فالقوّة هي أن تستنفر كلَّ حواسّك لعيش لحظة بعينها كأنّك بعدها سوف تغادر هذه الحياة .

منْ مخيِّلته كانت تأتيه أصوات قبيلة ترقص قبالة نار في بيداء مظلمة ، وكان يسمع أزيز رصاص وحداء ، ونساء يزغردن ، وأصوات رجال خشنة . شمَّ روائح شبق تحوم حول النار ، وشم روائح أجساد نساء يتأوهن لفرط اللّذة ، ففرح بهذه الأحاسيس التي لمْ تخالجه منذ زمن ، لكنّه سمع نواحًا يأتي من وراء تلّة في البيداء ، ورأى نارًا تلوح من رأس التّلة .

قال بعد أن كست وجهه أمارات بهجة كبيرة :

- إذن فلنحتفِ بهذه اللَّحظة الاستثنائيَّة يا وداد الجميلة .

صرخت في سرِّها سعيدة بتصريحه الأوَّل :

- ها هو يسقي أول شجرة في قلبي بمياهه .

سكبت له قليلاً من حساء المشروم ، فراح يحتسي منه على مهل ، ثمّ توقَّف :

- شكرًا يا وداد . أنا لمْ أحتفل بعيد ميلادي منذ زمن طويل .

قـدَّمت له قطعـة لحم ، وقليل من الخـضـار المطبـوخـة ، وسلطة الشّمندر :

- العزلة تكسرها أشياء لمْ نكنْ نثق بقدرتها على ذلك .

بعد أنْ فرغا من العشاء ، تركا الطَّاولة ، وجلسا في الصَّالة . كانت الموسيقى تتدفَّق في أرجاء القصر تمامًا مثل عطرها الذي أضفى على هدوئه المعتاد هدوءاً آخر . قالت وهي تضع رأسها على كتفه ، وتنظر عبر النّافذة الزّجاجيّة ، وشجرة التّوت تلوح عبرها كامرأة غزيرة الشَّعر :

- عندما انفصلتُ عن زوجي لم يكنْ لي آنذاك تلك الصَّداقات العميقة في (ويسكونسن) التي منْ شأنها أنْ تأخذني لدفئها فأتجاوز أمرًا مثل ذاك . شعرتُ في تلك الأيام ببرد البلاد كأنّي لمْ أحسَّ به من قبل ، وكأنَّني فتاة قادمة من مناطق استوائيَّة للتوِّ . حينها هربتُ للقراءة . قرأتُ العديد من الكتب والرّوايات ودواوين الشِّعر ، فوجدتُني ألوذ بعالم (كارل غوستاف يونغ) الذي جعلني أدرك أنَّه ليس لديَّ (لاوعي فردي) حسب فرضيَّته الشَّهيرة التي خالف بها (فرويد) . حتّى إنَّني صرت أتتبَّع أثر (اللاوعي الجمعيّ) عليّ ، ذلك النّتاج المشترك بين النّاس والجماعة والإنسانيَّة بما يتضمّنه منْ غرائز فطريَّة ، وصور

أوليّة وبدائيّة . فلم أجدْني . حقًا لم أعثر عليَّ . وجدتني محض إناء فارغ في تلك الأيام العصيبة ، ووجدت روحي خاوية ، ومشظّاة كما رآها (يونغ) . فقد كنت الهاربة من سطوة الذكورة في بلادي ، إلى بلاد الحريّة التي بقيتُ معلّقة في سمائها . شيء موجع ومفجع أنْ يبقى الواحد منا في منطقة (المابين) ، خاصّة في بلادٍ لا تكترث بما يكترث النّاس فيه ببلادك ، دفء العلاقات وحميميَّتها ، اهتمام النّاس بك ، زياراتهم ، استعدادهم أنْ يقدّموا لك ما تحتويه مطابخهم حتّى لو كان خبزًا وبصلاً ، بلاد فيها معنى بارد للحبّ . حينما التقيتك هنا قادماً من (عمّان) للمرَّة الأولى ، شعرت بامتلاء روحيّ . إنّه ذلك الشّعور الذي تلده السّكينة والإحساس بالألفة ، ولمْ أكن في البدء أدري أنّي أحببتك بكلّ ذلك الشّغف ، حتّى عندما رحت أنهمك بالتّقرّب إليك . حينما التقيتك في ويسكونسن وجدت الطّريق إلى قلبك مغلقة ، كدرب مدينة تعرّضت لحرب أهلية ، لذا قررت العودة إلى عمّان ، فما كان لي أنْ أحظى بالخسارة لمرّتين متتاليتين ، ولم يكنْ لي أنْ أبقى رهينة ذلك الشّعور من الخواء ، فقدْ تسلّحت بقوّة اكتشفت أنّها كامنة بي ، وعدت أواجه أزماتي ، وأحظى بما يحظى به أيُّ إنسان يعيش في بلاده .

ارتخت على كتفه فطوقها بذراعه ، فأحسّ بدفء جسدها . كان ذهنه صافيًا بحيث لمْ ير أحدًا سواها . ثمّة أحاسيس ورغبات جديدة راحت تصحو فيه ، وهي تجلس ملتصقة به . أمسك بيدها :

– أشمّ رائحة أزهار حدائق ويسكونسن تحوم حولك كالضّباب الذي كان يهجم على المدينة في تلك الصّباحات .

تشابكت أصابع يديهما أكثر ، وصارت أنفاسهما تتعالى . قال لها

وبيانو بيتهوفن يتدبّر شؤون ذلك المساء :

- تعاليْ لنرقص .

في الرَّدهة التي تقع بين طاولة الطَّعام ومقاعد غرفة الجلوس ، راحا يتشابكان في رقصة لمْ يحظ بها سراج منذ سنين بعيدة ، ولم تقمْ بها وداد منذ أنْ انفصلت عن زوجها . قال لها وهو يداعب خصلات شعرها :

- كيف غفلت عنك كلَّ ذلك الوقت . وأيُّ حكمة في هذا الغفلان! .

أحسَّ برغبة عارمة تأخذه نحوها ، وجسدها الطريُّ يلامس جسده . لامس بأصابعه وجهها ، ثمّ اقترب منها على مهل وقبلها . صارا كريشتين في هواء ساكن .

همس في أذنها :

- هل لنا أنْ نصعد إلى الغرفة؟

أومأت له برأسها ، ثمّ احتضنته عميقًا ، وقامت بتنهيدة طويلة ، فطوّق جسدها بيديه ، قبل أن يصعدا إلى الأعلى . عندما استلقيا في السرير ، لاحت له لوحة السَّقف كاملة كأنَّه لمْ يرها بذلك الوضوح من قبل ، فألمَّ به دوار خاطف ؛ إذْ أعادتْ له ما لا يريد استعادته . أطفأ المصباح ، واستعاض عنه بإنارة خفيفة ، واحتضنها ، يعاند ما ألمَّ به . أحسَّت حينها أنَّها في حضن الحياة ، تفكّر بعجالة بأمر سنين مضت عليها في القصر دون أنْ تقوم بخطوة مثل هذه . خلع عنها ملابسها ، وطلب منها أن تضعه بحضنها وهما عاريين كما تضع أمّ طفلها وترضعه . جلست في منتصف السّرير ، وثنت ساقًا ومدّت الأخرى ، فتكوّر سراج بحضنها فألقمته نهدها بيد ، وراحت تداعب شعره النّاعم

بيد أخرى . كان يئنّ كطفل وليد يقبْل للتوّ على صدر أمه . من ذاكرته أتى صوت صراخ طفل يولد للتوّ . كان الصّوت موغلاً بالألم ، ألم من يتشبّث بشيء ولا يريد مبارحته . أحسّ بالانتقال من عشٍّ دافئ رغم حلكته إلى عالم بارد رغم سطوع الضّوء فيه . ثمّة خيالات قديمة داهمت مخيّلته ، فالتصق بها أكثر ، وطوّق ذراعيه حول خصرها الأهيف . جاءته صور ومشاهد وأصوات قديمة ، راح يطردها بمزيد من القبلات ، وهو يطارد رغبة لم تزره منذ زمن بعيد . شمّ رائحة جسدها التي بدت كرائحة خشب صندل عتيق . أقبل عليها ، لكنّ الخيالات راحت تداهمه بشراسة . ثمّة أصوات وأنين رياح عصفت به . التصق بها أكثر ، وهمّ بها لكنّه فقد رغبته . حاول لأكثر من مرّة أنْ يكون كما يريد ، لكنّه استسلم لعجزه ، وجلس بطرف السّرير وقد غادرته ملامحه المعتادة . طلب من وداد بلهجة آمرة غاضبة أنْ تغادر ، وأطفأ ما كان قدْ أشعله من ضوء في الغرفة .

أخذ يتقلّب في سريره كأنّه ينام في حقل من الشّوك . أنفاسه تتعالى ، وصدره يضيق ثمّ يتّسع كأنّه سينفجر . استشعر أنّ شيئًا ما في دماغه طرد كلَّ الحواسِّ التي اعتاد الاعتناء بها منذ غادر عمّان قبل ثلاثة عشر عامًا إلى أمريكا . تذكّر لحظة أنْ كانت وداد في حضنه ، وكيف بدت له لوحة السّقف وهي تستحيل إلى سكاكين تهبط على صدره . بقي يحملق باللّوحة إلى أن ما عاد يرى ، كأنّ ضوء الكون كلّه قدْ تلاشى . نهض من سريره ، وراح يتخبط في الغرفة . أشعل المصباح لكنّه ما رأى إلاّ سوادًا خالصًا . أخذ كالمهووس يتخبّط في أرجاء الغرفة ، مرّة بالسّرير ، وأخرى بالجدران وبالطّاولة وبالمقاعد ، إلى أنْ اصطدم بالبيانو ، فما سمع له صوتًا حتّى وأصابعه تضغطان مفاتيحه .

استشرى به التّوتر أكثر ، فراح يتعثّر بكلٍّ شيء إلى أنْ وجد الريموت كونترول ، ففتّش عن الزّر الذي يشغل المسجلّة ، لكنْ ما منْ صوتٍ أتى . اصطدم بالمرآة فسقطت زجاجة العطر . شمّها بخوف ولم يتحسّس أيَّ رائحة . راح يفتح كلَّ الزُّجاجات ويشمُّها . راهن على حاسّة الذّوق ، فراح يتذوّق كلّ شيء ، دون نتيجة تذكر . فكّر وهو في عزّ هذيانه أنْ ينادي على وداد ، لكنّه تراجع . قبيل الصّباح بقليل نام لبعض الوقت . لكنّه استفاق بفعل الكابوس الذي يرى دائمًا نفسه فيه يقتل امرأة بسكين وينتحب . عندما نهض من نومه شعر بحواسّه قدْ عادت له .

٤

في طريقه قاصدًا مبنى غاليري (الحواسّ الخمس) رأى سراج العربات والمارّة والبنايات قد استحالتْ إلى شكلٍ هلاميٍّ، وبدت الأشياء من حوله متحرّكة لا تستقرّ، بينما كانَ يهبط الشّارع مرورًا بمجلس النّواب، والعبدلي، قاصدًا جبل اللويبدة. أوقف سيّارته في منتصف الشّارع، ثمّ راح يراقب الغاليري إذْ بدت له المرأة التي شُيِّد على هيئتها تتحرّك والرّيح تعبث بشعرها. لمْ يعد يفرّق بين تلك الصّورة التي في ذاكرته وامرأة الغاليري. ثمّة مزيج من حنين وكره، كانا يستبيحانه وهو يراها تنظر إليه، مرّة تهزأ به، وأخرى تشفق على حالته. شاهد يديها تتحرّكان كمن تساعده حركات يديه في تبرير شيء أثناء الكلام. سمع من ذاكرته أصوات حدث قديم، وبكاء في داخله. لمْ يكن قد سمع أصوات أبواق السّيارات التي تعطّل مسيرها بسبب وقوفه في منتصف الشّارع، إلا حينما ترجل أحد السّائقين وراح يضرب على زجاج نافذة السّيارة ينبهه، فانطلق مرتبكًا.

***

لم يصدّق سعيد عبد الباري ما سمعه عبر هاتفه النّقال وهو يتوجّه نحو الغاليري عالقًا في زحام عمّان حينما كان يهبط من الشّميساني عبر شارع الثّقافة متأخّرًا عن عمله لنصف ساعة، عندما أتاه صوت سراج غاضبًا من تأخّره. كان صوت سراج متوتّرًا، يعلو ويهبط، دون أنْ يمنح سعيد فرصته ليشرح سبب تأخّره. ما إن عبر

سعيد بوّابة الغاليري حتّى رأى الوجوم على وجوه منْ يعرف سراج من الموظّفين . قال موظّف الأمن (المدير العامُّ هذا اليوم ليس هو الذي اعتدنا عليه . صرخ بوجهي لأنّي لمْ أفتح باب السّيارة له ، كما طلب أن لا أفعل من قبل . هلْ تصدّق أنّه لم يحلق ذقنه ، ولم يرتد ربطة عنق . شعره غير مسرَّح ، ووجهه متعب ، وملامحه غريبة) .

رأى سعيد حركة غير عادية في الغاليري وهو يصعد إلى الطّابق الرّابع . حينما وصل كان سراج قدْ أنهى جولته إذْ قال آمرًا بوتيرة صوتيّة عالية :

- اتبعني لمكتبي .

كان سراج يمشي بخطوات سريعة نحو غرفة مكتبه ، بينما سعيد يتبعه قلقًا ومتسائلاً في قرارة نفسه عنْ سرّ ما يحدث . قبل أنْ يفتح الباب التفت إلى السّكرتيرة قائلاً بغضب :

- في المرّات القادمة انهضي من مكانك وافتحي لي الباب .

لم تكمل السّكرتيرة التي استغربت ذلك التّحوّل الغريب اعتذارها ، فقد دخل غرفة مكتبه ، وتبعه سعيد ، ثمّ أغلقا الباب ، إذْ جلس يفكّر بسرّ افتقاد سراج لهدوئه المعتاد . كاد أنْ يوجّه له سؤالاً لولا أنّ سراجًا نبّهه بأنّه سيعفيه منْ عمله إنْ تأخّر مرّة ثانية عن العمل . رفع سمّاعة الهاتف وأمر السّكرتيرة بأنْ تدعو لاجتماع يضمّ عددًا من مديري الأقسام في الغاليري ونهضا . استمرّ الاجتماع لساعة كاملة ، أملى عليهم فيه عددًا من القرارات الصّارمة .

بعد أنْ أنهى الاجتماع عاد إلى غرفة مكتبه ، أشعل سيجارة وراح يدخّن ، وهو يقف قبالة النّافذة التي لم يمكث قربها طويلاً ؛ إذْ تركها فمرّ بقرب المرآة وشاهد وجهه المتعب . تحسّس ذقنه الذي لم يحلقه

ذلك الصّباح ، ولم يفعل كثيرًا من الأشياء التي اعتاد فعلها منذ سنين ، ولم ينمْ سوى قليل من الوقت . كان قد استيقظ بسبب الكابوس . رشق وجهه بقليل من الماء ، وارتدى ملابسه بعجالة ، وغادر القصر . وقتها كانت وداد تقف عند ممرّ يفضي إلى المطبخ ، متعبة لعدم نومها هي الأخرى .

أشعل سيجارة ثانية ، وأخبر السّكرتيرة أنّه غير مستعد لمقابلة أحد في ذلك اليوم . داس على زر التّشغيل في ريموت كنترول ، فجاءته موسيقى تشيلّلو حزين كأنّها قادمة من جرح في القلب . ألقى ببدنه على الكرسيّ يشعر بكثير من التّعب والقلق . منذ ليلة البارحة مع وداد ومشاهد لأحداث قديمة لمْ تبارح مخيّلته . كانت تدقّ رأسه كأنّها مطارق تهوي على صفيح معدنيّ . شعر بأنّ هرمًا في داخله قدْ انهار ، بعدما اكتشف أنّه مشيّد من رمال الشّواطئ الطريّة . ردّد بصوت كأنّه صوت رجل يحتضر : (ربّما يبدو صعبًا أنْ تبني عالماً بأكمله ، لكنّه ليس مستحيلاً ، إنّما يتطلّب منك سنينَ من التّعب ، لكنّ ذلك العالم ربّما يتهاوى بلحظة واحدة ، وأنت ترى نفسك عاجزًا ، عن فعل شيء اعتقدت أنّك قادر على فعله) .

صمت لثوان ثمّ ردّد بصوت مسموع (كلّ ما فعلته يبدو لي الآن وهمًا إزاء سكاكين الماضي التي تحزّ رقبتي . كنت أعتقد أنّي انتصرت ، فأكتشف الآن أنّي محض خاسر موهومٌ بالنّصر) .

فكّر بسنين ماضية عاشها بسكينة وافرة . فكّر بسنين كان فيها قلبه ينبض بانتشاء ، كما ينبض قلب عصفور مليء بهواجس الطّيران . تذكّر أمّه التي ماتت في غيابه الطّويل بعيدًا عن عمّان دون أنْ تترك له أخًا أو أختًا . استسلم أكثر للموسيقى فأغمض عينيه ليرتخي في

كرسيِّه فغفا ، إذْ عاوده الكابوس مرّة أخرى ، يرى نفسه فيه يقتل امرأة ويبكي بمرارة . استفاق منْ إغفاءته القصيرة على صوت جهازه النّقّال يقرع على الطّاولة . حينما ضغط على زر الإجابة جاءه صوت كِنْدة :

- كنت سأهاتفك بعد انقضاء تلك الليلة في الغاليري . كان عليّ أنْ أشكرك على وقتك الثمّين سيّد سراج .

كان يستمع لها بحياديّة ، دون أنْ يحسّ بدفء صوتها الذي تعمَّدَته ، رغم أنّه استقبل اتّصالها وفيه رغبة للهروب ممّا يحدث له . تكوّرَ على نفسه في الكرسيّ كأنّه في عراءٍ بارد ، وراح يكتم أنينه وبكاءَه الذي ودّ لو يُسمعه لها ، حينما أخذ فجأة يذرف دموعه على مهل . رغب بأنْ يخبرها عنْ ضالّته التي اكتشف بسبب ليلته مع وداد أنّه لم يجدْها ، وأنّ كلّ تلك السّنين محض وهم . جفّف دموعه وأشعل سيجارة ، ونفث منها قليلاً ثمّ أطفأها . قال يفتعل نبرة هادئة ، بعد أنْ تيقن أنّ عليه البحث عنْ ضالّته من جديد :

- ما رأيك أنْ نلتقي بعد ساعةٍ من الآن؟

جاء صوتها فرِحًا وهي تحدّثه بكلمات كانت تخبّئ وراءها لهفتُها التي استغربتها للقائه :

- حسنًا ، سنلتقي سيّد سراج .

***

ما إنْ ترك صوتُ كِنْدة سمّاعة الهاتف حتّى غادر سراج الغاليري عائدًا إلى القصر ، فحلَق ذقنه ، واستحمّ على مهل ، وبدّل ملابسه ، فاستعاد هيئته ، مدركًا أنه هذه المرّة يخفي وراء أناقته إنسانًا مشظّى اكتشف للتوّ أنّ عليه البحث عمّا يردّه إلى نفسه .

في طريقه إلى الحديقة حيث اتّفق على اللّقاء بكِنْدة ، كان يحاول

أنْ يوازن ما بين هيئته وداخله الذي لم يكنْ على ما يرام ؛ إذْ كان يشعر أنَّ الذي يحدث في داخله يشبه نارًا اعتقد على مرّ سنين طويلة أنّها خَبت تمامًا ، لكنَّ ريحًا خفيفة لم يتنبّأ بقدومها ليلة أنْ التقى بوداد ، أعادت شهوة النّار في جذوة كانت هناك في أغوار ذاكرته ، فاشتعلتْ من جديد ، فأدرك أنَّ نيران الذّاكرة لا تخبو ، تستريح ألسنتها لزمن ، لكنّها تنهض مجنونة تتراقص كبدائيين لا يعرفون معنى الخوف .

عند باب الحديقة وهو ما يزال في سيّارته قام بتمارين تعلّمه التخلّص من مطارق توتّر أخذت تستبيحه دونما رحمة . يستنشق الهواء سريعًا ، ثمّ يكتمه في رئتيه لبرهة ، ويخرجه ببطء . عدّل في مرآة السّيارة هيئة ربطة عنقه ، وصفّفَ شعره بأصابعه ، ثمّ عبّر متّجهًا إلى حيث تجلس كِنْدة في مقعد في الحديقة التي لم يرتادها سوى رجل وامرأة ، يحوم حولهما طفل يغذُّ خطاه للتوّ ، وشابٌّ يستغرق بالقراءة في كتاب .

لم تنتبه له وهو يمشي نحوها بهدوء . كانت تراقب حركة الأشجار ، والورود كيف تهتزُّ لنسمة الرّيح الخفيفة ، موحية لها بتدفّق موسيقيّ لا يمكنُ لأحدٍ أنْ يسمعه سوى منْ يراقب الأشياء عبر روحه . في مقعدها لمْ تكنْ تفكّر بأمر سراج وهي تمضي لحظات انتظارها له ، رغم أنّها قبل أنْ تهاتفه شعرت برغبة شديدة للقائه كأنّها تعرفه منذ زمن . كانت تنظر إلى رجل قطف وردة وقدّمها لامرأة بدت أنّها زوجته .

تذكّرت كيف وجدت كلمات سراج ، ليلة أنْ عرفته في الغاليري ، ترافقها وهي تمضي إلى سريرها الذي تأوي إليه وحيدة منذ أن سقط بينها وبين زوجها جبل من الجليد . راحت تتقلّب في منامها تحاول أنْ

تتناسى ما سمعته منْ سراج ، وتعتبر ما حدث محض لقاء عابر . لكنّ النّوم في ليلتها تلك استحال إلى كائن متمنّع وهي تستجديه المجيء ، لتتخلّص من سطوة رجل لمْ تره إلا لوقت قصير جرّاءه تعلّقت به سريعًا .

أمسكت وهي تستلقي على بطنها بورقة معلوماته التي أعطاها لها . كان عطره ما يزال عالقًا بها كتذكرة لدخول عالمه . تنفّسته بعمق ، فأحسّت بأنّ نبتة في تراب قلبها بدأت تبرعم من جديد . انتفضت فجأة تبعد منْ مخيّلتها أفكارًا تهاجمها . فكّرت لمرّات بأن ترسل له رسالة قصيرة على هاتفه ،لكنّها تراجعت . وضعت الهاتف جانبًا بعد أنْ جاءت من مخيّلتها قدمان تسيران في طريق ، ورأت يدًا تمتدّ في منتصف الطّريق تثني الخطوات عن المضيّ . تجاهلت ما رأته ، وراحت تحاول النّوم ،لكنّه كان قاسيًا في الامتثال لاستجدائها . فتحت حاسوبها النّقال ، وأخذت تلهي نفسها بمراجعة نصّ المحاضرة التي ستلقيها على طلبتها في الجامعة . لكنّ عينها لم تريا سوى ملامح وجه سراج يقرأ اللّوحة كصوفيّ يتتبّع أثر الخلاص . أقفلت الحاسوب ، وتركت غرفتها وذهبت إلى الشّرفة ، فداهمت عينيها أضواء مبنى غاليري (الحواسّ الخمس) وهو يقف على جبل اللويبدة معلنًا معانيه الخفيّة .

استعادت كلماته عندما كان يقرأ عطرها بلغته التي لم تعهدها من قبل ، فشعرت بتوق شديد له . عادت إلى غرفتها ، وعبر هاتفها أخذت تدوس أزرار أرقام هاتفه ، تنتظر صوته باضطراب عاطفيٍّ يحدث لها للمرّة الأولى رغم سنين زواجها الستّ . لكنْ ما منْ صوت أتى سوى إشارة إلكترونيّة أفادت بأنّ الهاتف مغلق . أطفأت ضوء الغرفة ،

وسكنت في سريرها تلوم نفسها على اندفاعها نحو رجل لم تلتقِ به سوى مرّة واحدة .

صباحًا وفي قاعة المحاضرات أمام الطّلبة ، لم تجد كِنْدة ذاتها الجادّة في شرح عنوان المحاضرة . كانت تتحدّث عنْ فيروس يصيب زهور الرّمان ، كما لو أنّها تتحدّث عن قبلة حارقة على شفتين بلون حبوب الرّمان . تداركت الأمر واعتذرت من طلاّبها ، ثمّ غادرت .

عندما دخلت البيت كانت ابنتها الوحيدة في مدرستها ، وكان زوجها الذي يعمل كاتبًا صحافيًا قد خرج للتوّ ، فقد صادفته في الشّارع ، فتبادلا التّحيّات باليدين دونما كلمة واحدة . خلعت ملابسها وسارت عارية إلى الحمّام . إنّها اللحظة الوحيدة التي تحس فيها بكامل حريّتها ، فكلّما خلا البيت من قاطنيه ، تتعرّى تمامًا وتمارس حياتها ، وهي تحسُّ بسعادة غامرة لا تحدث لها كثيرًا ، لحظة لا تشبه لحظة عريها بحضن زوجها . كانت تعي أنَّ عريها معه في السُّرير عري زائف ما عاد يأتي بمحض إرادتها منذ أنْ تبدّت لها رغبته في تحويلها إلى مجرّد امرأة تطهو ، وتقوم بشؤون البيت ، وتمتدحه في كلّ ما يفعل وعلى كلّ ما يكتبه من مقالات ، وفي آخر اللّيل تلقي له لحمها في صحن السّرير فيبقى يأكل منه حتّى يتجشّأ .

بدا لها جسدها في المرآة باذخًا ، فتذكّرت كمْ من متاعبَ جلب لها رأيها بفكرة العري ، وهي تشارك النّساء الحديث وهنّ يتضاحكن حول أخبار عنْ جماعات في أوروبا خرجوا للشّارع عراة ، فكلّما شاهدت حدثًا مثل ذلك تحسّ بأنّ أحدًا ما في هذا العالم يناصرها في فكرتها .
ملأت حوض الاستحمام بالماء وزوّدته بسائل الصّابون ، وأسقطت فيه جسدها مستسلمة لدفء الماء والرّغوة . كانت تعاني شيئًا من

الأحاسيس تشبه التّعب في مرّات، وتفوقه في مرّات كثيرة. وجدت نفسها، منذ أنْ قابلت سراج لمرّة واحدة، رهينة له دون أيّ قدرة لها على ضبط انفعالاتها. فكّرت أنْ تمضي وقتًا في حوض الاستحمام ثمّ تخلد للنّوم، لكنّها ما إنْ عادت إلى غرفتها حتّى أخذتْ تضمّخ جسدها بعطرها الذي امتدحه سراج في ليلة لم تدرِ أنّها ستكون، وهي تذهب إلى هناك لتروّح عن نفسها، شرارة أولى في كومة قشّ ستشتعل بسرعة. أغمضت عينيها وراحت تستعيد كلماته. ردّدتها كمن يراجع درسًا، وراحت تحاول أنْ تتبيّن عبق زهور البرتقال واللّيمون والياسمين في افتتاحيّة العطر الأولى، وحاولتْ أنْ تعبر إلى قلب العطر وإلى قاعدته المؤلّفة من عبق العود وخشب الأرْز والمسك. لولا أنّه أخبرها أنّه صاحب غاليري (الحواسّ الخمس) لاعتقدت أنّه صانع عطور ماهر.

لمْ يكرّر سراج نداءه باسمها وهي شاردة؛ إذ استفاقت منْ سهو راقه، بعد أنْ انتبه إلى عينيها الجميلتين. عندما نهضت وصافحها، جاءه العطر الذي لم تنسه ذاكرته، فاجتاحته ذكرى قديمة، حاول أنْ يتجاوزها مستنشقًا الهواء ثمّ يزفره. أغمض عينيه، وشمّ عطرها برويّة كمن يداوي الدّاء بالدّاء:

- العطر لوحة لا يمكن أنْ يكتمل جمالها إلاّ إذا نجح فنّانها بصنع هاوية في فضاء اللّوحة تهمّش الجاذبيّة منْ جسد الرّائي وهو يقرأها محلّقًا في سماء صافية. عطرك يا كِنْدة لوحة وجسدك هو الهاوية.

قال لها ذلك، وراح يفكّر بحقيقة ما يحسّه نحوها، رغم أنّه يعي أنّ ما يحدث له يشبه منْ يمتدح طَعْمًا رغم فقدانه لحاسّة التّذوّق.

أفسحت له حيّزًا في المقعد فجلسا، وبينهما مسافة ضئيلة، رآها بحجم لحظة قوّضت سنين اعتقد أنّه عبرها رمّم أشياء في أغوار نفسه

السّحيقة . قالت وهي تراقب عصفورًا يقف على غصن مكسور يكاد مع الرّفرفة أنْ يسقط أرضًا :

- كنت سأكون سعيدة لو قلتَ إنّ روحي هي الهاوية ، وليس جسدي .

قال كمن يستدرك أمرًا ما :

- وهلْ للبيت معنى دون ساكنه؟ روحك تسكن جسدك يا كِنْدة . لهذا ثمّة هاوية أخذتني وأنا أقرأ عطرك تلك الليلة .

كأنّ طفلة حظيت بوعد للعب مع سندريللاّ ، تساءلت بهمس :

- حقًا؟

لمْ يتأكّد منْ صدق إجابته بعدما تأمّلها بسرّه :

- نعم يا كِنْدة .

أشعلت سيجارة ، وقالت مبدّدة لحظة صمت قصيرة حلّت عليهما :

- ألا تدخّن؟ فمعظم الرجال هنا يدخّنون .

- أقلعت عنه منذ زمن .

قال ذلك وأسند جسده إلى الكرسيّ ، يستسلم لمشاهد تقتحم ذاكرته ، ممّا حدث له مع وداد ، لكنّه تجاهلها بصعوبة ، وأخذ يفكّر بتقلّبه ، وكيف بدا لموظفي الغاليري وهو يبدّل نسقًا حياتيًا اعتاده منذ أعوام كثيرة . فكّر بأمر السّجائر التي دخّنها في مكتبه ، فلمْ يرَ نفسه قدْ كذب في إجابته عن سؤالها وهو يخبرها بأنّه أقلع عن التّدخين ، بل وجد نفسه منهمكًا بدفع قلقه وخيالاته القديمة ، وبما جرى له مع وداد ، بعيدًا ؛ ليقبل على لحظات صار يحلم بها ، كأنّه يعاند وحشًا يودّ افتراسه . مارس طريقته بالاسترخاء من دون أنْ تحسّ كِنْدة التي رأته

شارد الذّهن ، فتساءلت بصوتها النّاعم :

- بماذا تفكّر سيّد سراج؟

رأى أنّ كذبة متقنة يمكنها أنْ تضعه على أوّل طريق تؤدّي إلى الخلاص من عوالق ذاكرته :

- أفكّر بك .

تفرّس بوجهها مليًا هذه المرّة ، وهي تمسك بسيجارة تستقرّ بين رأسيّ إصبعيها النّاعمين ، فرأى في عينها خليطًا منْ حياء تعانده نبرة متمرّدة ، أضفت مسحة جمال على وجهها . شعر بأنّه افتقد ذلك الوعي الذي يجعله يميّز ما بين كذبه وصدقه وهو يرى في نفسه بعضًا منْ توق لها :

- بتُّ لا أؤمن بالصّدفة . كلّ ما يحدث لنا يحدث بعد أنْ تمرَّ أمامنا إشاراتٌ عديدة له .

كانتْ منشغلة برسم ملامحه في ذاكرتها منْ جديد ، وجهه الممتلئ ، أنفه المدبَّب الجميل ، فمه المستدير ، شعره الأسود الثّقيل النّاعم ، وعيناه اللتان يتوارى فيهما خلف ابتسامته الهادئة حزن عتيق :

- لكنّ لقائي بكَ البارحة محض صدفة . وجدتني أقع تحت ملل هدوء مُفرغ ممّا يمكنه أنْ يريحني . ابنتي ذهبت لتبيت مع ابنة خالتها ، وزوجي سافر في مهمّة صحافيّة . مرّ بالبيت وأخذ حقيبته ، ثمّ غادر وهو يذكّرني إنْ رغبت بشيء عليَّ أنْ أكتب له . حينها كنت سأقول له بأنّي أرغب بأشياءَ لا تبيعها متاجر تلك البلدان التي يسافر إليها بمهامّه الصّحافيّة .

ظلّت كلمة (زوجي) تتكرّر في مسامعه كصرخة في غرفة فارغة .

قال وهو ينظر نحو مقعد فارغ :

- إذن ثمّة ظروف كانت وراء مجيئكِ للغاليري ليلة البارحة؟ وهذا وحده كفيل بأنْ يجعلني أؤمن بأنّ ليس هنالك من مصادفات إلا ما اعتقدنا أنّه كذلك .

جلس شاب وفتاة بعمر التّاسعة عشرة تقريبًا ، في مقعد قريب منهما ، وراح الشّاب يطوّق عنق الفتاة بذراعه وهما يستمعان لأغنية تحكي عنْ متعة الحبّ . يتهامسان بين الفينة والأخرى ، ويتبادلان قبلات خاطفة . قالت كِنْدة وهي تمسّد حقيبتها المصنوعة من (الشاموا) تحاول أنْ تتجاوز فهمه للصّدفة الذي لم يقنعها :

- هل أنت متزوّج؟

- لا .

- أليس غريبًا أنّ رجلاً في مثل مواصفاتك لم يتزوّج للآن؟

- لا ليس غريبًا . هنالك الكثير ممّن تأخّروا في الزّواج .

وجدت أنّ إجابته ليست كافية ، ورأت أنّ رجلاً مثله لابدّ أنْ يكون على علاقة بامرأة ما ، لكنْ ما منْ شيء دلّها على ذلك . خشيت أنْ يسود الصّمت فقالتْ :

- ما يزال غاليري (الحواسّ الخمس) منذ أنْ بُني حديث النّاس ، إنّه مكان جميل وساحر . عندما رأيته منْ شرفة بيتي للمرّة الأولى ، وجدتني مأخوذة به . قلت حينها إنّ صاحب الفكرة ينبّه المدينة إلى أنّها لنْ تظلّ مدينة دون حريّة نسائها . وحينما رأيته عبر نافذة الطّائرة ذات سفر ، أيقنت أنّ عمّان لنْ تخسر رهانها ، وفكرة عظيمة مثل هذه تصعد سماءها ، وتواجه وحوش الزّمن الجديد . كنت سعيدة جداً وأنا أرى نصبًا ضخمًا لامرأة على ذلك الجبل .

لم يبدِ أيَّ ردة فعل لما سمعه منها ، سوى ابتسامات مجاملة .

قالت بلهجة متسائلة :

- سمعتُ أنَّ الغاليري فكرتك ، وأنَّ كلَّ منْ عملوا على بنائه ما هم إلا منفّذون للفكرة .

- صحيح .

- لماذا بنيته على هيئة امرأة؟ هلْ وجدتني فهمت ما ترمي إليه عبر هذه الفكرة؟

- نعم أراك التقطتِ ما أردت قوله . لأنّي أؤمن أنّنا إذا أردنا أنْ نعاين الحياة في أيِّ مدينة علينا أنْ نراقب كيف تعيش النّساء فيها ، فما منْ مدينة لها أنْ تنمو دون شرفات تسقي النساءُ فيها الوردَ ، ويتبادلن الحديث عبر تلك الفضاءات الحيّة التي بات مؤخّرًا يُغلق جزءًا منها ، ويُظَلّل جزءٌ بالأسود بحجّة الفضيلة .

- لكنّ فكرة الغاليري غريبة رغم جمالها؟

- الأفكار الغريبة ترمي حجرًا في المياه الرّاكدة دومًا .

قالت وهي تشعل سيجارة ثانية :

- لكنّ عمّان ليست مياهًا راكدة . ألا تسمع ضجيجها؟

- نعم أسمع ضجيجها الجديد ، ضجيج نراه ، وآخر نحسّه .

- ماذا تقصد؟

- انظري كيف أخذت عمّان للتوّ تتحوّل إلى مدينة عموديّة ، تصعد في سمائها الأبراج والبنايات الشّاهقة والمتاجر ذات الطّوابق العديدة . هذا فحش هندسيّ ، جعلنا نفتقد لعمّان كمدينة أفقية تتشابه فيها البيوت ، ولا يلحظ أحدٌ أنّ فيها فوارق طبقيّة .

- لكنّها أبنية جميلة .

- هي أبنية أنيقة ، لكنّ هنالك فرقًا كبيرًا بين جمال العمران وجمال البناء . كلّما توغلنا فيها نكتشف أنّ هندسة شرهة باتت تقوم على إنجاز شكلها الجديد . حتّى مراكزها التّقليديّة كوسط البلد واللويبدة وجبل عمّان آخذة بالاختفاء جرّاء تلك الهندسة القاسية أيضًا . وما هذا سوى التهام للمدينة ، لا يترك إلا شكلاً مشوّهًا ، يحيلنا إلى تيه جغرافيّ تمحى فيه الملامح العريقة .

سرّحت كِنْدة بصرها بالأفق المترامي وراء البنايات :

- ألهذا يصفوننا بأنّنا أناس متجهمون؟

- الناس في عمّان موجودون حسيًا ، ولكنّهم يفتقدون لعلاقتهم بالمدينة رغم الشّوارع التي تضجّ بالبشر ، ورغم المحالّ والمطاعم والمعارض والمناظر الصّاخبة . مفارقة عجيبة أنْ تكون عمّان جنبًا إلى جنب مع باريس ونيويورك في قائمة أغلى المدن ، لكنّ باريس تنعم بالرفاه ، بينما عمّان تفتقده ، لهذا وجوه النّاس عابسة وقلقة . ما نراه الآن هو شكل آخر لعمّان التي عرفناها منْ قبل . مدينة أنيقة لكنّها باتت غريبة ، تعاني ازدحامًا في كلّ شيء .

- يبدو لي أنّ القلق حلّ محلّ الألفة في عمّان . كلّ شيء فيها ذو سعر مرتفع ، البيوت ، المواصلات ، الطّعام . إنّها مدينة غريبة حقًا ، ما تزال تقف على قدميها رغم أولئك الذين مدّوا أياديهم لجيوبها ، وأفرغوها ممّا فيها . تلك الطّبقة التي ولدت منذ زمن ، وتمدّدت بسرعة مذهلة كالحشائش الضّارة في الحقول .

نهضت من المقعد ، ومشت خطوات نحو صندوق القمامة ، وألقت عقب سيجارتها به . راقب مشيتها بجسدها المتناسق ، الذي بدا متآلفًا مع نقرات حذائها . رغب أنْ تكون أكثر قربًا إليه حينما تعود إلى

مكانها ؛ إذْ أحسّ بأنّ ميلاً متواريًا فيه أخذ ينمو نحوها . لاحظت كيف كانت عيناه تراقبانها . فرحت بذلك ، لكنّها أخفت أثر ما أحسّت به . قالت وهي تجلس هذه المرّة أقرب ممّا كانت عليه :

- زوجي دافع عن هذه الطّبقة أكثر منْ مرّة في مقالاته .

قال وهو يرى عجوزين يعبران بوّابة الحديقة :

- لابدّ أنّه يستفيد هو الآخر .

- كنت أعتقد أنّ العمل في الصّحافة يدرّ دخلاً جيّدًا مثل الذي يجنيه زوجي . لكنّني حين رأيت ذات مرّة وبالصّدفة كشف حساب بنكيّ يعود له ، أدركتُ وأنا أقرأ أرقامًا خياليّة تدخل حسابه أنّ في الأمر شيئًا خاطئًا .

رأت أنّه من غير اللائق أنْ تقحم رجلاً تاقت له بكلّ تلك السّرعة في حديث منْ ذلك النّوع . فكّرت أنْ تسأله عنْ حياته ، لكنّها لمْ تفعل .

- هل تحبينه؟

قالها بصوت خفيض وهو يرخي بدنه إلى الوراء ، فأجابت بسرعة كمن كان ينتظر بوّابة مغلقة وفُتحت :

- عندما وافقت على الزّواج به كنت فرحة جدًا ، ولم أكن حينها أعي أنّني فَرحة بفكرة الزّواج ذاتها . حينها كنت قدْ أنهيت دراستي الجامعيّة وحصلت على بكالوريوس في الهندسة الزّراعيّة . في مجتمعنا أصبحت الفتيات يخفن أنْ يفوتهنّ قطار الزّواج ، لذلك وجدتُني لا أتردّد أمام طلب صحافيّ رآني في محاضرة له في الجامعة وأعجب بي ، ثمّ أحبّني ، بعدما رآني أطرح عليه سؤالاً يتعلّق بدور الصّحافة في مواجهة المفسدين الذين أنهكوا البلاد . كان وقتها ما يزال صحافيًا

نزيهًا . تناول عددًا من الأسماء التي كانت تنهب في السرّ ، لكنّه لم يجنِ سوى السّجن ، والطّرد من عمله وبالتّالي الاضطرار إلى العمل في صحف أسبوعيّة لا تدفع له إلا القليل . أخبرني في البدء أنّ فترة خطوبتنا سوف تطول حتّى يتسنّى له أنْ يتدبّر أمره ، فأحواله الماديّة ليست على ما يرام . كنت فرحة أمام زميلاتي وصديقاتي بأنّني على علاقة برجل معروف بمواقف لا تختلف كثيرًا عن مواقفي . لم يكنْ يمضي يوم دون أنْ نلتقي ، ولمْ يمض يوم دون أنْ أشعر بي ممتلئة بأمان لا يصنعه سوى حبّي لرجل لا يريد شيئًا منْ هذه الحياة سوى أنْ يبقى مخلصًا لقلمه . أمان شعرت به يقصي قلقًا ما انفكّ يجعلني في هذه المدينة أحسُّ كمن يمشي حافيًا على صفيح معدنيّ في ظهيرة تموزيّة .

التقينا ذات ظهيرة في مقهى قبالة الجامعة الأردنيّة ، وأخبرني بأنّه صار رئيس تحرير صحيفة كبيرة . استغربت منْ ذلك التّحوّل في بادئ الأمر ، وحينما تابعت ما يكتبه ، وجدت أنّ حدّة خطابه في مقالاته الجديدة قدْ تراجعت ، رغم أنّه كان ما يزال يتطرّق لهموم الناس ، ولمن ينهبون المال العام . أمضينا عامًا كاملًا تبدّلت فيه أحواله . اشترى سيارة ، وبيتًا في خلدا . أصبح يرتدي أثمن الألبسة ، ويستخدم أغلى العطور ، ويرتاد أفخم المطاعم ، ويلتقي بأناس جدد يركبون سيّارات فارهة ، ويرتدون ملابس ذات ماركات عالميّة . في آخر العام تزوجنا . ضمّت حفلة زواجنا عددًا كبيرًا من الشّخصيّات السّياسيّة والإعلاميّة . ليلتها لمْ أجد ذلك الشّخص الذي عرفته في تلك المحاضرة في الجامعة ، كان شخصًا آخر غير الذي أحببته ، كما تحبّ أيٌّ امرأة رجلًا ، يصبح حضنه ملاذها الآمن . بعد أنْ أنجبت ابنتي قرّرت أنْ لا أنجب غيرها ، فقدْ لمست أنّ تحوّلات كثيرة بدأت تحدث . أجبرني

على ترك عملي، متعلّلاً بالاعتناء بطفلتنا، وأصبح يغيب عنْ البيت كثيرًا، وإنْ مكث فيه لا يمكث إلا ليستقبل ضيوفه الذين كنت أرى بعضهم على شاشة التّلفاز، أو أسمع بأسمائهم والنّاس يتداولونها. تحوّل إلى رجل متوتّر المزاج، إنْ خالفته في وجهة نظر ما حول ما يكتب تثور ثائرته.

ذات ليلة ذكّرته بشخصيّته السّابقة، فغادر البيت بعد أنْ كال لي الشّتائم دون أنْ يجيبني ولوْ بكلمة واحدة على ما سألت عنه. تحوّلت حياتنا إلى ملعب للخلافات والشّتائم والإهانات، لذلك قرّرت الانفصال عنه. حينها واجهني أهلي بما يحملون منْ معتقدات اجتماعيّة عنْ فكرة الطّلاق. لذلك وبعد محاولات كثيرة انفصلت عنه في البيت، هو ينام في غرفة بعدما يعود منْ أحضان عشيقاته، وأنا أنام في غرفتي أفكّر بما يمكنني أنْ أتخلّص منْ تلك العبوديّة.

أخذها صمت قصير، بدت عبره على أهبة البكاء، لكنّها أبقت على دموعها حبيسة وراء جفنيها. أشعلت سيجارة أخرى ويداها ترتجفان وفي داخلها تلوم نفسها على بوحها المتسرع، وفي الوقت ذاته تقاسي ما حدث لها مع زوجها:

- قبل أنْ أتزوّج لمْ أنشغل بما تنشغل به بنات جيلي. ما كان في حياتي سوى الاهتمام بدراستي الجامعيّة، وقراءاتي التي كان معظمها في السّياسة. لم أكنْ أدري أنَّ الحبّ يحمي أرواحنا من الهشاشة. بعد أنْ تعمّقت الهوّة بيني وبين زوجي أدركت أنّي ما عدت أحبّه. أنت لا يمكن أنْ تحبّ أحدًا تمتدّ إليك يده وتضربك كأنَّ كلٌّ تلك اللّحظات الجميلة التي كانت بينكما هي محض حديث عابر. حدث ذات ليلة أنْ ضربني، فأحدث جرحًا غائرًا في طرف فمي. لمْ أستطع

أنْ أغادر البيت ؛ لأنّ حجم الشّعارات الاجتماعيّة التي يؤمن بها أهلي سيحول بين ما أشعر به من وجع داخلي ، وبين رغبتي بترك ذلك الرّجل . كنت ليلتها قدْ طلبت منه أنْ أعمل فرفض بشدّة ؛ إذْ رحت أحاوره بما شهدت فيه سابقًا يوم عرفته منْ منطق أعجبني ، لكنّه واجهني بقسوة وهو يقول لي (إنّ ما لمسته سابقًا محض شعارات لا غير) . استشطتّ غضبًا ، ورحت أعرّي شخصيّته أمامه ، فقام بضربي وغادر البيت . أمام مكتبته التي ضمّت مئات الكتب ، وجدت الشّك يتملّكني إزاء كلّ شيء .

دون حيلة لها على كتمانها صعدت من صدرها شهقة أعقبتها دموع سحّت على خديها . قالت وهي تغالب نهنهات البكاء :

- لا يا سراج . أنا لا أحبّه ؛ فرغم نجاحه بإخفاء أثر عطور عشيقاته ، وأحمر شفاههن ، وخصلات شعرهن ، إلاّ أنّه ما كان يعي أنّ تلك الدّلائل لا تظهر فقط في ياقة القميص وفي عنقه ، إنّما تعلن عنها طريقته في الحديث ، وبرودة جسده في السّرير ، ومزاجيّته التي ما عادت تحترم امرأة مثلي صانته منذ أنْ قبلت به زوجًا أبديًا . لذلك كنت أمام وجع لا علاقة له بألم الغيرة ، إنّما هو ذلك الإحساس العميق بالمهانة لإنسانيّتي التي عليّ أنْ أستعيدها بكلّ ما أوتيت من حبّ للحياة .

اقترب منها ، وأمسك يدها ، ثمّ راح يمسّد رأسها بيده ، يثنيها عن الإيغال في الألم . كانت الشّمس قدْ توارت وراء جبال عمّان عندما استشاطت كِنْدة بالبكاء أكثر ، إلى أنْ هدأت كطفل يغفو على صدر أمه كأنّها تعرفه منذ زمن بعيد .

٥

كان سراج ما يزال في غرفته بعد ليلة أمضاها في نادي النّخبة الذي لا يذهب إليه إلا ليلة الخميس ، ويعود منه في وقت متأخّر .
حملت وداد حقيبتها الصّغيرة ، وغادرت القصر كما يحدث كلّ صباح جمعة ، بينما البستانيّ وحارس القصر والسّيدتان اللتان تساعدانها لم يأتوا كما هو معتاد . عبر نافذة غرفته رآها تغادر متعبة ، وقد تلاشت منها الطّاقة التي عهدها بها قبل ليلته معها . جلست خلف مقود سيّارتها ، وداست بإصبعها على مفتاح المسجّلة ففاجأها صوت (ويتني هيوستن) تغنّي (أنا أنظر إليك) . رمقت القصر بنظرة عريضة ، فشعرت بصمت قاس يلفّه . استعادت إحساسها ليلة عيد ميلاد سراج ، فوجدته خليطًا من الحبّ والشفقة والألم لما حدث والفضول لمعرفة ما وراء ذلك الشّخص ، رغم إحساسها بالذّهاب عبر درب يقودها إلى قدر غريب . أدارت محرّك سيّارتها ، وانطلقت نحو فندق اعتادت أنْ ترتاده كلّ يوم جمعة خارج القصر .

لمْ يقم سراج في ذلك الصّباح بطقوسه المعتادة من التّأكّد منْ سلامة حواسه إلى الاعتناء بجسده ، وقراءة صفحة الحوادث ، والتّأمّل في الشّرفة . كلّ ما فعله هو أنْ رشق وجهه بقليل من الماء ، وجلس في الأريكة يشرب القهوة على غير عادته في الأيام الأخرى . ترك غرفته متجّهًا إلى ذلك الممرّ الذي ضمّ ستّ غرف لا يدخلها غيره .

بعد أنْ ضغط على مفتاح الضّوء وأزاح السّتائر فتلاشت العتمة ،

بدت الغرفة التي توسّطها سرير يتّسع لشخصين كمتحف صغير ، وقد امتدّت على أطراف ثلاثة جدران منها خزائن زجاجيّة بارتفاع متوسّط ، تمّ تصميمها لعرض ما في داخلها . راح كمن يتجوّل في متحف ، يشاهد بهدوء محتويات تلك الخزائن . رأى زجاجات عطر نسائيّ بماركات قديمة ، بعضها فارغ وبعضها ممتلئ . كانت الزّجاجات مصطفّة بعناية ، متجاورة كأنّ كلّ واحدة منها تشير إلى لحظة زمنيّة ما . بقي يحدّق بها كأنّه يراها للمرّة الأولى . ففي كلّ يوم جمعة يأوي سراج إلى إحدى تلك الغرف دون أنْ يدري أحد ماذا تضمّ ، وماذا يفعل في داخلها .

حينما أخذ ينتقّل إلى القسم الآخر من الخزائن شاهد دفاتر منْ ذلك النّوع ذي الورق المعطّر الذي كان العشّاق قديمًا يتبادلونه كهدايا ، وكرسل محبة . كان أحد الدّفاتر مشرعًا على دفتيه بحيث لاحت له كلمات مكتوبة في منتصف إحدى صفحاته (لأنّي أحبّك ، صار لي أنْ أعيش ما سُرق منْ طفولتي) . أخذتْه ذاكرته إلى أيام قديمة ، وهو يتّكئ بيديه على الخزانة الزّجاجية . مشى نحو الخزائن الأُخرى ، فمرّ برسائل تخضبّت كلماتها بزخات عطر قديم ، تلوّى الحبر في بياض صفحاتها . لامس الزّجاج بحنوّ كأنّه يلامس الرّسائل ، وصوت أنثوي يأتيه قادماً من ذاكرته ، يردّد ما حوته الرّسائل من كلمات . مرّ بورود جافّة بعض منها جمع في باقات ، وأخرى منفردة . أخذت ذاكرته تأخذه إلى مواعيد قديمة ، وكلمات حميمة ودافئة . راقب منديلاً نسائيًا بلون أزرق ملقى في الخزانة . تنهد ثمّ نظر عبر النّافذة إلى الأفق حيث كان صافيًا مغرقًا بالأزرق السّماوي . عندما فرغ من مشاهدة ما في الخزائن عاد يمعن النّظر بكلّ شيء من محتوياتها ، بينما ذاكرته تتلقّف خيالات عتيقة . عاد من جديد وفتح أبوابها ، إذ هاجمه عبق

عطور مختلطة ببعضها . كمن يصاب بدوار لذّة لموسيقى عُزفت بإتقان وشجن ، انصاع لسطوة العطر ، وراح يدور حول نفسه في الغرفة يئنّ كأنّه يؤدّي أغنية ما ، وكأنّه يؤدّي صلاة في محراب ذاكرته ، أخذ يستنشق عبق العطر ، ويرسله إلى حيث ذاكرته التي كانت تعدّ مشاهد لامرأة بينه وبينها سنين طويلة من الحياة . اعتاد خليط ذلك العطر المؤلّف من روائح تأتي من الخزائن . بقي يدور حول نفسه كأنّه صوفيّ يرتقي درجات الأطوار السبعة ، بينما في الغرفة لا أصوات تسمع ، سوى صوت عصافير الدوري في تلك المنطقة التي حظيت بهدوء عميق . توقّف في منتصف الغرفة ، ونظر في ساعته وقد أشارت إلى الثّامنة صباحًا . مشى نحو السّرير ، ورفع غطاء النّوم ثمّ اندسّ فيه قبالة النّافذة ، حيث لاحت له عمّان ساكنة في ذلك الصّباح . ما هي إلا دقائق حتى غفا فرأى في النّوم حلمًا طويلاً :

رأى نفسه يعود إلى بيت بسيط مشيّد من حجر عتيق ، يقع في (جبل اللويبدة) . يلتفّ حوله سور هابط ، تتّكئ عليه أغصان أشجار ياسمين ، حطّت عليها عصافير الدّوريّ . كانت الشّمس لحظتها قد توارت وراء بنايات عمّان للتوّ ، فأخذ النّاس يخرجون للشّارع يتمشّون بتمهّل . فتح الباب وراح ينادي بصوت خفيض مشوب بالغبطة :

- ريفال ، ريفال .

أطلت ريفال ترتدي (شورت) أسود ، وبلوزة بيضاء . احتضنته وقبّلته ، واحتضن بكفيه وجهها ، وشعرها الطّويل المموج يسترسل على كتفيها . نظر في عينيها الواسعتين :

- في كلّ مرة أعود للبيت ، أشعر بأنّي أراك للمرّة الأولى .

لامست بيدها شعره الأسود النّاعم ، وأخذت أصابعها تغور به :

- وكلمّا رأيتك تعود ، أرى أنوثتي قد اكتملت ، كأنّها في غيابك ناقصة .

على طاولة قرب نافذة الصّالة الصّغيرة وضعت ريفال الأطباق والملاعق . ما إنْ فرغ سراج من الاغتسال حتى وجد العشاء جاهزًا . جلسا قرب بعضهما يتناولان طعامهما ، مرّة يطعمها ، ومرّة تطعمه . أسندت رأسها إلى كتفه ، ثمّ قالت له بصوت مرتخ :

- صار الآن بإمكانك أنْ تلتفت للرّسم ، كون محالّ العطور أخذت تدرّ دخلاً لا بأس به .

أخبرها عن مرسمه ولوحاته الجديدين ، وعن معرضه الذي يفكّر بإقامته . في تلك اللّيلة تحدّثا مطوّلاً ، ثمّ دلفا إلى غرفة نومهما . رفع غطاء النوم ، واستلقى تحته ، وأمسك بكتاب وراح يتصفّحه . استبدلت ريفال ملابسها بقميص نوم أبيض اللّون ، وجلست أمام المرآة تسرّح شعرها ، وتخضّب وجهها وعنقها بالكريم اللّيلي ، بينما سراج يرمقها بنظرات بين الفينة والأخرى من طرف الكتاب . رشّت من زجاجة العطر بضع زخّات ، واندسّت بقربه ، ثمّ أرخت رأسها على صدره . أغلق الكتاب ووضعه جانبًا ، واحتضنها ثمّ أخذ يقبّلها . كانت أنفاسهما تتعالى وهما يتبادلان القبلات ، كأنّه لقاؤهما الأوّل . خلعا ملابسهما وتعانقا ، فراح أنين حبهما يتعالى في سماء الغرفة ، إلى أنْ تدفّق ماء الحبّ يسقي أشجار جسديهما .

استفاق سراج من نومه . عندما رأى أبواب الخزائن الزّجاجيّة مشرعة على مقتنياتها ، أدرك أنّه كان يحلم . تفقّد ملابسه الدّاخليّة بيده ، فاكتشف أنّه بحاجة للاستحمام ، بسبب سائله المنويّ الذي اندفع بغزارة .

٦

جلس سراج إلى الطّاولة يتناول إفطاره ، وقدْ حضّرته وداد بعد أنْ استفاقت في ذلك الصّباح مصابة بصداع لقلّة النّوم . جفّف يده وفمه ، حينما رأى أنّ وقت مغادرته قد حان ، ومشى نحو باب القصر ، فتبعته بخطوات متردّدة . قالت وهو يهمّ بالخروج :

- سراج . أقصد سيّد سراج . هل أنت غاضب لما حدث في تلك اللّيلة . أنت لم تتحدّث إليّ منذ ذلك الوقت .

لامس شعرها ، فانتابت جسدها قشعريرة غريبة :

- انسي أمر تلك اللّيلة .

قال ذلك وغادر ، وهي تراقب سيّارته تعبر بوابة القصر . منذ ليلة عيد ميلاده ، لاحظت تبدّلات كثيرة طرأت عليه . فقد أصبح يتحدّث في الهاتف كثيرًا في غرفته ، وفي الحديقة . وجدت أنّه يخبّئ وراء هدوئه غضبًا شديدًا ، وحزنًا مشوبًا بقلق عميق . منْ نافذة الصّالة رأت حارس القصر يتمشّى ، يروّح عن نفسه لما يصيبه من ملل بسبب الوقت الطّويل الذي يمضيه حارسًا على باب قصر لا يزوره أحد . تركت الخادمتان تنجزان أعمالهما ، وحملت سلّة فيها بعض حبّات الفاكهة ، وغادرت القصر مارّة عبر الورود ، وأشجار الزّينة ، في طريق اقتادها نحو غرفة الحارس . بدا (كنان) متفاجئًا بزيارة وداد له ، فدعاها للجلوس بعدما لمس رغبتها بذلك ، لكنّها فضّلت أنْ يسيرا في الحديقة ، غير مولية أهميّة لتركه باب القصر دون حراسة ؛ لأنّ ما من أحد سيأتي في

تلك السّاعة . بدا لها شابًا يحتفظ بصحته وحيويّته إضافة إلى ما في عينيه من ملامح ذكاء واضحة :

- أنت هنا في القصر قبل أنْ يختارني السّيد سراج للعمل هنا . أليس كذلك؟

قال وهو يشبك يديه خلف ظهره ، بعد أنْ ارتدى نظّارته تفاديًا لشمس الصّباح التي سطعت في المكان بغزارة :

- نعم ، أنا هنا منذ أن بني القصر .

- هل تسكن قريبًا من هنا؟

- أسكن في حيّ شعبي في عمّان .

- هل أنت مرتاح في عملك؟

- هنالك أمران سيدفعانني بأنْ أقول حقًا بأنّني أرتاح في عملي .

ابتسمت وداد ، وهما يتوقّفان قرب شجرة عنب كبيرة اتّكأت أغصانها على سياج معدنيّ أعدّ لها :

- ما هما؟

- أنّني أحصل على راتب لم أكن أحلم به ، مقابل ما كنت أجنيه من وقوفي طوال النّهار أمام البسطة ، والأمر الثّاني أنّني أعمل مع رجل كريم جداً ، وهادئ ، بحيث جعلني أحبّ عملي الذي مثلما ترين أنّني لا أنفق فيه كثيرًا من الجهد ، فلا أحد يخرج ولا يدخل من تلك البوّابة ، سوى السّيد سراج وأنت والخادمتان والبستانيّ .

وجدت وداد حديث كنان عن سراج فرصة لتقصّي ما أتت لأجله :

- إذن أنت تحبّ سيّد القصر .

- نعم يا سيّدتي فهو رجل مهذّب جداً .

جلسا في مقعد وضع في منتصف دائرة مكسوّة بالعشب ، تقابل نوافير تتراقص خيوط الماء فيها كطيور تحلّق في الهواء :

- أخبرني ما تعرفه عنه .

لم يبذل كثيرًا من التّفكير ليعرف مغزى سؤالها :

- تقصدين غموضه ، وما يحيط به من طباع غريبة؟

التفتت إليه فجأة كمن وجد فكرة يبحث عنها :

- تمامًا يا كنان .

- لا أعرف عنه إلا القليل . صدّقيني .

- أخبرني به .

- كلّ ما أعرفه أنّ السّيّد سراج ، قد غادر إلى أمريكا قبل سنين ، مختفيًا فجأة ، حتّى إنّ منْ يعرفونه اعتقدوا أنّه مات ، لولا أنًّ عائلته لجأت إلى مخفر الشّرطة حيث عرفتْ أنّه غادر البلاد .

- هل من سبب كان وراء مغادرته؟

- لا أدري .

نهض كنان معتذرًا ، ومعلّلاً سبب مغادرته بباب القصر الذي لا يستطيع تركه بلا حماية .

٧

وقف سراج أمام المرآة يتفقّد هندامه ، ينوي الذّهاب إلى نادي النّخبة . قُرع هاتفه النقّال ، فجاءه صوت كِنْدة رقيقًا :

– لقد سافرت ابنتي هي وأبوها عند عمّتها في كندا . ألا تلاحظ أنّنا لمْ نخرج معًا في المساء . كلّ لقاءاتنا الكثيرة حدثت في النّهار .

نظر في ساعته :

– إذن دعينا نخرج . اتركي سيّارتك في البيت ، واستقلّي سيّارة أجرة ، وسنلتقي في منتصف الطّريق .

منذ أنْ تعارفا ، صارا يلتقيان كثيرًا ، وفي المرّات التي لا يخرجان فيها يمضيان كثيرًا من الوقت يتحدثان عبر الهاتف . أصبحت كما لو أنّها عادة من عاداته الغريبة . لم يفكّر هل أحبّها أم لا ، لكنّه وجد نفسه يقترب منها مخفيًا وراء هدوئه ما لم تعرفه . بينما هي أحبّته بعمق مسافة هوى عبرها حجر إلى قاع البحر . كانت تعي أنّها ذهبت إليه بعواطف فتاة في الثّامنة عشرة من عمرها . في البدء حاولت أنْ تضبط إيقاع قلبها ، حينما رأت أنّ كيانها بات رهينة له ، لكنّها عندما وجدت نفسها عاجزة أمام مشاعر تسري حتّى في بدن الأشياء التي تلامسها ما عادت تسائل نفسها حول ما يحدث . أخذت تتصرّف بتلقائيّة قلبها الذي بقيت طوال سنين زواجها تهمله كما لو أنّه محض خرقة بالية ، وما عاد يهمّها شيء سوى أنّها بدأت تتلقّف الفرح ، وهما يخرجان طوال النّهار في معظم الأيام . أسرّت له بحبّها ذات ظهيرة

بينما كانا يترجلاّن من السيّارة ويمشيان في شارع الرّينبو يقصدان مقهى هناك . لحظتها احتضنته دون أنْ تخشى منْ أنْ يراها أحد منْ معارفها . كلّ ما في الأمر أنّها كانت تتلذّذ بفرح جديد . لم يعترف لها سراج بشيء ممّا تمنّت أنْ تسمع منه ، لكنّها شعرت بدقّات قلبه تضطرب ، ورأسها يلاصق صدره .

***

التقيا في منتصف الطّريق ، فرافقته إلى حيث سيمضيان ليلتهما . عند مدخل النّادي همس لها وهي تتأبّط ذراعه بخجل وتَرَدّد :

– لا تقلقي . هذا المكان لا يدخله إلا أعضاؤه .

في زاوية المكان ثمّة طاولة مرقّمة بالرقم ٥ ، سارا إليها بينما سبقتهما فتاة بملامح أوروبيّة ترتدي تنّورة قصيرة ، وبلوزة بصدر مكشوف ، رحبّت بهما بكلمات قليلة ، وساعدتهما على الجلوس . أشعلت خمس شموع انتصبت في منتصف الطّاولة ، ثمّ غادرت بعد أنْ سجّلت ما يريده سراج لتلك اللّيلة . ألقت كِنْدة نظرة متفحّصة على المكان حيث انتشرت طاولات عديدة ضمّت رجالاً ونساء لا تتّضح سوى ملامحهم الخارجيّة ؛ فالإضاءة أرجوانيّة خافتة . ثمّة امرأة كانت تؤدّي أغنيات غربية هادئة ، تصاحبها فرقة لم تسقط على أعضائها إضاءة كافية لتتّضح ملامحهم . بدا المكان لها فاخرًا كما أخبرها سراج . قالت وهي تراقب شموعًا تتّقد في حضن أكواب زجاجيّة :

– ما سرّ الرقم خمسة في حياتك؟

– محض صدفة .

قال ذلك ، ثمّ نبّهها لأغنية أخذت المغنية بترديدها ، فأدركت أنّ إجابته ما هي إلا قفز عن إجابة أخرى لا يودّ البوح بها . بينما كانت

كِنْدة تلتفت إلى المغنية وهي تغني للحبّ في أواخر (ديسمبر) ، جاءت النّادلة وقدّمت ما طلبه سراج لذلك المساء ، زجاجة منْ نبيذ (Chateau Mouton Rothschild) ، وعشاءً مكوّنًا منْ شرائح اللّحم والخضار ، وحساء الكافيار .

سكبت النّادلة كأسين منْ نبيذه المفضّل ، وغادرت . أمسك سراج بكأسه ، ورمق كِنْدة بنظرة دافئة :

- سنشرب هذه الليلة نخب لقائنا .

- لم أشرب منْ قبل ، لكنّني سأشرب نخبك هذه الليلة .

أشعلت سيجارة ، ونفثت هواءها بدلال ، ثمّ قالت وهي تعيد الكأس إلى الطّاولة بينما بقيت أصابعها تلامس زجاجها النّاعم :

- أسرتَني سريعًا يا سراج ، وكأنّك الرّجل الأوّل في حياتي .

أمسك يدها ولثمَها بفمه ، فشمّ العطر العالق بظاهرها . أغمض عينيه وهو يحسّ بتوق يأخذه إليها ، فتمتم كأنّه ساحر يقرأ تعويذة :

- ثلاثة أحصنة تهرع لقلبي : الأوّل سلّمني وردة ليمون على كتف النّهر ، والثّاني عبق لخشب عتيق يذكّر بالنّشوة ، والثّالث أغنية تردّدها امرأة خضّبت جسدها بزيت الصّندل وألقت ببدنها في البحر .

شهق بالعطر لثلاث مرّات ، ولثمّ يدها بنشوة .

قالت وعيناها ترتخيان :

- أنت فسّرت قاعدة هذا العطر يا حبيبي ، بل جعلته قصيدة جميلة .

أراح بدنه على مسندة الكرسي ، مستسلمًا لخيالات قديمة ، جاءته في البدء خفيفة على قلبه ، فرَقّ لها ، لكنّها أوجعته فاستند بفعلها ، وسكب كأسًا أخرى من النّبيذ وراح يشرب . في باحة البار ثمّة رجال

ونساء أخذوا يرقصون على أنغام أغنية صاخبة . اقتادها من يدها :

- هيّا نرقص . الرّقص لوحة فسيحة ، نكون فيها ما نشاء .

لم تمانع ، رغم أنّها لم ترقص في مكان عام منْ قبل . أسلما جسديهما للموسيقى ، وبقيا يحلّقان كأنّهما فقدا الجاذبيّة إلى أنْ تعبا ، فعادا إلى الطّاولة ، وأخذا يتناولان عشاءهما . وجدت كِنْدة نفسها قدْ انصاعت تلك اللّيلة للذّة النّبيذ ، كما انصاعت منْ قبل لسحر غريب أصابها به سراج . عند الثّانية صباحًا غادرا النّادي . عبر الطّريق بقيا يغنّيان ، إلى أنْ رمت برأسها على صدره ، وقالت له بصوت حميم :

- لا أريد أنْ أعود إلى البيت ، فأنام وحيدة .

قبل أنْ تسرّ له برغبتها كان يفكّر مثلها :

- حسنًا ، وأنا لا أريد ذلك .

٨

لم يصدّق كنان والسّيّارة تعبر بوّابة القصر أنّ سراجًا يعود وبمعيّته امرأة . إنّها الزّائر الأوّل منذ أنْ بُني القصر . ولم تصدّق وداد أنّ ما تسمعه قادمًا من الصّالة ، هو صوت سراج يضحك عاليًا ، يصعد درجات السّلم إلى الطّابق الثّاني حيث تقع غرفته ، وتقع صالة بشرفة تطلّ إلى جهة الغرب . فارقها النّوم تلك الليلة ، وحلّ محلّه شعور موجع منْ غيرة تملّكتها بعد أنْ تسلّلت منْ غرفتها فرأت سراجًا تتأبّط ذراعه امرأة في السّاعات الأخيرة من اللّيل .

جلسا في الشّرفة حيث يتدفّق اللّيل في أرض فسيحة وخالية من البنايات ، أرض لا يجيء منها سوى صوت صرصار اللّيل . حلّ بينهما صمت هادئ حينما جلسا على صوفة واحدة ، متجاورين كلّ يرخي جسده على الآخر بعد ليلة شربا فيها ، وأكلا ورقصا ، ثمّ أمضيا طريقهما إلى القصر يغنيّان . قال سراج وقد بدّد صوتُه لحظة السّكون تلك :

- ترى على ماذا يدلّ صوت هذا الصّرصار اللّيلي؟ هل هو شكوى من الوحدة ، أم أنّه احتفاء بخلوة وسط هذا السّكون؟ أم تراه يغنّي بلغة لا نفهمها؟

راحت تداعب شعره بأناملها :

- هذه اللّيلة لا أريد إلاّ أنْ أسمعه يغنّي . حتّى صرصار اللّيل وقت الحبّ يصبح لذيذًا على مسامع القلب . دعنا نرى الأشياء كما

نتمنّى . ربما هنالك قوى خفيّة تتحالف معنا ، وتلوي عنق الأشياء ، وتطوّعها لتصبح كما نريد .

اقتربتْ منه أكثر ، ثمّ رمت برأسها على صدره ، فطوّق خصرها بيده اليسرى ، إذْ أحسّ بدفء جسدها يمنحه شيئًا منْ سكينة طالما افتقدها . لامس شعرها ، فأحسّ برغبة نحوها ، وبرجولة ممتلئة . أغمض عينيه ، فجاءته ذكريات قديمة لامرأة تخلع ثوبها وتنادي عليه بما يشبه الهمس : استسلم لما رآه . عندما اقترب منها جفل وهو يكتشف أنّها ما زالت تنظر إلى الأمام وتنادي : (تعال يا حبيبي) . انتفض واقفًا كأنّ تيّارًا كهربائيًا عبر جسده . تمالك نفسه وراح يبتسم لكِنْدة ، كأنّه يختبر مدى محافظته على ما يحسّ به في داخله ، ثمّ عاد يحتضن وجهها بكفيه . نظر في عينيها كمن يبحث عن شيء ما . أخذت أنفاسها تضطرب ، وراحت عيناها ترتخيان . قبّلها بعمق عطشان يرمي نفسه في بئر ماء . بادلته أنينها الحارق ، تذوب فيه كأنّهما قطعتا شمع امتزجتا ببعضهما . قال لها بما يشبه التوسّل :

- تعالي ندخل الغرفة .

بعد أنْ أشعل الضّوء راقتها غرفته . نقرت بأصابعها على البيانو وهي تمرّ بقربه ، وشاهدت لوحات علّقت على جدران الغرفة ، ثمّ وقفت قرب النّافذة :

- غرفتك جميلة . لكنّ البيانو لا يوضع في غرفة النّوم عادة .

قال لها وهي تلامس مفاتيح البيانو ، فتصدر نغمات متتالية :

- أمضي جلّ وقتي في هذه الغرفة . لهذا السّبب وضعته هنا .

خلع سترته ، وعلّقها على المشجب ، ثمّ ضغط على زر التّشغيل في الرّيموت كونترول ، فتدفّق في المكان صوت موسيقيّ لعزف بيانو

منفرد . أمسك بخصرها وراح يراقصها . كانا يتمايلان مع الموسيقى كأنّها أعدّت لأجل تلك اللّيلة . شعر برغبته تعاود الإلحاح على جسده ، وأحسّ بسعادة جرّاء إشارات مثل تلك ، تدلّ على شفائه منْ عجزه . قبّلها وهما يرقصان ، ثمّ راح بعد أنْ تعرّى ، يخلع عنها ملابسها ، واستلقيا في السّرير . كان ثملاً برغبة لمْ تطأ جسده منذ أربعة عشر عامًا . وكانت كِنْدة تنصاع لنشوة لم تطرق أبواب جسدها منذ تلك العلامة الفاصلة في زواجها .

بدا لها كما لو أنه يحبّها منذ عمر ، دون أنْ تعرف أنّه يجاهد ليستعيد ذاته التي جوبهت على مدار أعوام مليئة بالوجع بأحلام وكوابيس ومكابدات مؤلمة . طوّقت رأسه بيدها ، وكمن يغنّي راحت تتأوّه على مسمع لهفته ، فأخذ يتقلّب بمعيّة جسدها . رأى المرأة التي في لوحة السقف تهبط إليهما . أغمض عينيه ثمّ أوغل في القبلات ، لكنّ اللّوحة احتلّت كلّ ذلك الفضاء القابع وراء جفنيه . امتدّت يده إلى مفتاح الضوء فأطفأه . كأنّ انسحاب الضّوء جاء بذاكرته كلّها ، ففغرت فمها مطلقة صرخة منْ ذكريات قديمة مؤلمة . رأى امرأة تعتلي رجلاً منْ أولئك الذين يظهرون على شاشة التّلفاز يتحدّثون بلباقة عن الوطن والنّاس ، وهم من وراء الكواليس ينهبون قوتهم . كانت الكلمات التي تتأوّه بها حممًا تندلق في فمه . قاتل لطرد تلك الخيالات ، فهمّ بكِنْدة . حاول لأكثرّ منْ مرّة ، لكنّ عجزه الجنسيّ عاوده منْ جديد . أحسّ بأنّ حقلاً يابسًا في داخله أخذ يشتعل . أغمض عينيه وأدار ظهره لها ، وهو يرى بأنّ كلّ البنايات التي يشاهدها في عمّان كلّ يوم أخذت تنهار تباعًا . ربّتتْ على كتفه :

- لا عليك ، هذا يحدث .

أحسّ بكره نحوها، يختلط بمشاعر منْ أسى، وأحاسيس غامضة. كاد أنْ يعتذر منها، ويطلب أنْ تغادر لولا أنّها نهضت وارتدت ملابسها، تنوي المغادرة رغم أنها لن تجد سيارة أجرة بسهولة في ذلك الوقت المتأخر من الليل. شعر بأنّه سيخسر نفسه كشعوره بخسارة أعوام كثيرة ليلة لقائه بوداد. لم يتحدّث إليها وهي تدسّ آخر أزرار قميصها في عروته، بل كان مستسلمًا لعطر أحسّه به يتسلّل من الغرفة الأولى من الغرف السّتّ. عندما ارتدى بيجامته على عجل كأنّه ذاهب إلى محطة يخشى أنْ يفوته فيها القطار كانت كِنْدة قد انتعلت حذاءها، وتهيّأت لتغادره. قبّلته على خده، وقالت بصوت حانٍ:

- سنلتقي غدًا يا حبيبي. خذ حمّامًا ساخنًا، ونَمْ بعمق.

اقتادها من يدها متوتّرًا:

- لا تذهبي. تعالي معي.

لم تكن تدري إلى أين سيأخذها وهو يمشي سريعًا مارًا عبر باب منْ غرفته نحو ممرّ فيه ستّة أبواب. استغربت ما ينوي سراج فعله، إذ كانت تنظر في وجهه وهو يفتح باب الغرفة الأولى وأنفاسه تنزّ مضطربة عنْ صدره. حينما دخلا رأت في منتصف الغرفة سريرًا، وعلى أطراف جدرانها خزائن زجاجيّة. كانت الشّمس قد أخذت ترتقي سلّم النّهار فبدت لها الغرفة غريبة، وسراج يزيح السّتائر عنْ نافذتها حيث رأت عمّان في صبيحة الجمعة تلك ساكنة لا طائرات في سمائها، ولا عربات في طرقاتها، كأنّها لم تصحُ من نومها بعد. أخذ سراج بلهفة هستيريّة يفتح أبواب الخزائن، ويفتح زجاجات العطر، ويحرّك المناديل والرّسائل، وكلّ مقتنيات الخزائن، وكِنْدة تقف في وسط الغرفة لا تفهم شيئًا مّما يحدث. أصابها الخوف عندما نظرت

إلى الباب ووجدته مقفلاً بالمفتاح . أدركت أنّ منْ تراه ليس هو سراج الذي التقته ليلة افتتاح المعرض التّشكيليّ في غاليري ((الحواسّ الخمس)) . شعرت بخطر يداهمها ، وهو يغمض عينيه ، ويدور حول نفسه ويهمهم ، بعد أنْ تدفّق العطر من الخزائن في الغرفة . اقترب منها وفي عينيه توسّل غريب :

- ما بك؟ لا أراك ترتدين القميص الذي أحبّ أنْ أراك فيه .

أدركت كنْدة أنّه لا يحدّثها . ثمّة ارتعاشة اجتاحت جسدها ، فأخذت تفكّر بإجابة مناسبة . ضمّها إليه ، ثمّ وضع رأسه على صدرها :

- أتعرفين؟ الحبيبة مدينة جميلة ، والمدن الجميلة حبيبات جميلات . لذلك عندما يمدّ متنفّذ يده إلى جيب مدينة مثل عمّان التي أحبّها ، كأنّه يمدّ يده ويفكّ أزرار قميصك ، ويخدش نهدك .

ضمّته إلى صدرها تحنو عليه :

- حبيبي ، لن يمدّ أحد يده إلى صدري سواك .

أمسك كتفيها بيديه ، وراح يهزّها وفي عينيه أمارات أولى للدّمع :

- الخيانة العاطفيّة فساد ، مثلها مثل خيانة سياسيّ متنفّذ مدّ يده في جيب الوطن .

أحسّت بأنّه يخاطبها هذه المرّة ، كادت أنْ تقول له : إنّها لا تخون زوجها ؛ لأنه في واقع الأمر خانها منذ أنْ حاد عن طريقه ، فما عاد ذلك الرّجل الذي قبلت به زوجًا ، راح فيما بعد يعود إلى سريرها كلّ ليلة وعلى قميصه بقايا ليال أمضاها بأحضان عشيقاته ، وهي في سريرها تكابد صقيعًا لا يهاجم إلا من في قلبه حسرة ، ليس فقط لخيانات متكرّرة لها ، إنما أيضًا لأنّه راح يخون أولى العبارات التي

جعلتها تنطق بموافقتها على الزّواج به ، وهو يردّد في تلك المحاضرة التي تعرّف بها عليها (حواء وطن كبير) .

أخذت تقبّله ، ثمّ اقتادته إلى السّرير حيث بدا كطفل في حضنها . كانت تغدق عليه حنانها لتزيل من قلبه شوك الحزن الذي أحسّت به ينمو بغزارة في روحه . شعر برغبته تعود له ، فأخذ يقبل عليها كمن عثر بنبع ماء بعد تيه في صحراء قاحلة . رأى نفسه مصابًا برغبة لم يعهدها منْ قبل ، لكنّ نسمة الهواء التي عبرت النّافذة ، وجلبت معها ذلك العطر الغافي في رسالة قديمة ملقاة في الخزانة الزّجاجية سرق منه رغبته ، ومنحه صوتًا قادمًا منْ ذاكرته لامرأة بعيدة . نهض من السّرير ، وأطلق صرخة تجاوزت المساحة الخالية التي تحيط بالقصر ، فأخذت كِنْدة ترتدي ملابسها بارتباك . ركض نحو الخزائن ، وراح يشمّ كلّ ما فيها بكلّ هوس كأنّه حرم من حاسّة شمّه وعادت له للتوّ . ركض إلى منتصف الغرفة حيث كانت تقف كِنْدة مرعوبة ، فأمسك بخصرها ، وراح يدور بها وهو يهذي :

– ما نفع الحاسّة إنْ لم تنبئنا بما يمكن أنْ يحدث لنا؟ الحيوانات تتنبّأ بقدوم الزّلازل ، السّحرة يرون ما يأتي من أفق المستقبل ، الأمّهات يشعرن بالفجيعة ، لهذا يطلقن تعاويذهن حينما تسقط الأطباق فجأة ، أو يرتعد القلب في قفصه الصّدريّ . ما نفع الحواسّ إذن إنْ أصبحت تخون هي الأخرى . أيّ فوضى في اليقين نحيا .

أمسك بأنفه وراح يشدّه ، وهو يصرخ :

– لماذا؟ .

احتضنته ، لكنّه دفعها عنه إذْ سقطت أرضاً ، فهربت نحو السّرير وهو يتقدّم نحوها ، يحدّث امرأة أخرى . حينها صرخت :

- أنا كِنْدة يا سراج . كِنْدة .

-كلكّن تحملن الصّفات نفسها .

كان يراقب عمّان عبر نافذة الغرفة ، حينما وجدت نفسها عاجزة عن فعل أيّ شيء . التفت نحوها وهي تكابد خوفها ممّا توقّعت حدوثه . راح يتقدّم نحوها بملامح شرسة ، وهي في لحظة تعي فيها أنّها باتت على مقربة منْ آخر دقائق حياتها .

مذكّرات سراج

١

ولدتُ في جبل (اللويبدة) ، في أواخر العام ١٩٧٠ ، في أيام دامية سوداء مرّت بالبلاد آنذاك ، لهذا أطلق أبي عليّ اسم سراج ، نكاية بالعتمة التي خلّفتها أحزان تلك المرحلة . نشأت في عائلة مكوّنة منّي ومن أمي وأبي الذي يعود من عمله كموظّف في دائرة ضريبة الدّخل بعد السّاعة الثّالثة ، إذْ نتحلّق حينها حول طاولة الغداء ونتناوله بصمت ، إلاّ منْ عبارات خاطفة . والدي رجل قليل الكلام ، اعتادت العائلة على اقتصاده في الحكي . ما إنْ يفرغ من طعامه حتّى يدلف إلى غرفته ، يختار كتابًا منْ مكتبته التي تقع في صالة المعيشة ، ويستلقي في سريره ، ويبقى يقرأ حتّى ينام . يصحو قبيل الغروب فيستحمّ ، ويخرج ميمّمًا شطر مقهى قرب (دوّار الحاووز) ، اعتاد أنْ يمضي فيه وقتًا منذ سنين طويلة ، برفقة أصدقاء عرفت فيما بعد أنّهم رفاقه في الحزب . وفي المساء يعود لكتابه ، ويبقى يقرأ فيه حتّى منتصف اللّيل وقت نومه . أمّا والدتي التي عملت لسنين ممرّضة في مستشفى (لوزميلا) ، فتمضي ما ترك لها مقصّ الوقت مع جاراتها اللائي لم يتبدّلن منذ أنْ عرفتهن .

لمْ أكن أمتلك كثيرًا من الحريّة كباقي أبناء جيلي في الحركة ، وبمصادقة منْ أريد ، وذلك جرّاء الخوف الشّديد على ابن وحيد لن تحظى العائلة بغيره ؛ فقد أصيب والدي برصاصة في ظهره وهو يمرّ بـ

(شارع طلال) بعد ولادتي بأيام، وما عاد بإمكانه أن ينجب غيري.
رأيت أنّ حياتي منذ وعيت تسير وفق برنامج وقوانين معدّة بإحكام، عليّ أنْ لا أخرج عليها. أصحو في ساعة محدّدة صباحًا، أنظّف أسناني، وأستحمّ ثمّ أجلس إلى الطّاولة، فأتناول ما هو صحيّ من الغذاء، ثمّ ألوذ بغرفتي حيث الألعاب التي وُفرّت لي، إذْ أمضي بمعيّتها كثيرًا من الوقت، إلى أن نشأتْ بيني وبينها علاقة حميمة، يتخلّلها حديثي إليها، وإنصات لما كنت أتخيّله كلامًا لها. كانت والدتي آنذاك دون عمل، فقد درست التّمريض متأخّرة عن بنات جيلها اللائي انتسبن للجامعة. شيّد بيتنا الذي يقع في شارع (كلية الشريعة) من الحجر القديم، الذي يميل إلى الصّفرة. يتكوّن من غرفة ضيوف يتوسّطها عقد حجريّ، زوّدت جدرانها بنوافذ من خشب طلي باللّون الأخضر الغامق. إضافة إلى غرفتيّ نوم، وغرفة معيشة، ومطبخ وحمّام، إلى جانب فسحة قبالة البيت نمت فيها أشجار الياسمين، والورد الجوريّ، ودالية. في بادئ الأمر، وعبر الحديقة ونافذة غرفة نومي، كنت أراقب اللّويبدة. منطقة يسودها هدوء له إيقاع لذيذ على القلب. ففي تلك الصّباحات حيث أكون في سرير النّوم، كان صدى أصوات أبواب المحالّ، يأتيني تباعًا وهي تشرع للزّبائن. كانت أصواتًا لمحالّ الخضار، والحلاّقين، وبائعي الملابس، والصّيدليّة، والمخبز، ومطعم الحمص والفول. ما إنْ تتلقّف مسامعي صدى تلك الجلبة حتّى أقف إلى النّافذة مستعينًا بسريري الذي يلاصقها، أمسح الشّارع بنظرة متفحّصة لكلّ شيء، حيث ترصد ريشة ذاكرتي وجوه المارّة وهم يتبادلون تحيّات الصّباح بأصوات رخيمة إثر النّوم، وخطوات الطّلبة حينما يغذّون خطاهم نحو المدرسة التي لم تكن تبعد عن بيتنا سوى

دقائق من المشي . وترصد وجوه أصحاب المحالّ وهم يتمنّون يومًا عنوانه الرّزق عبر دعواتهم اليوميّة ، وبعض قاطني الشّارع وقد حمل بعضهم أطباق الحمّص والفول بيد ، بينما اليد الأخرى تحمل أرغفة الخبز ، والبخار يتصاعد منها .

كنت أنظر عبر النّافذة بتوق شديد لذلك العالم ، خاصّة متجر الكاسيتات الذي حفظت ، جرّاء قربه من بيتنا ، كثيرًا من الأغنيات التي يأتي النّاس لشرائها بعد الاستماع لمقاطع قصيرة منها . أحببت الموسيقى إلى درجة أنّي بتّ أردّد ألحانًا لم أسمعها من قبل . إلى أنْ حدث ما جعلني أقفز في الهواء لمرّات ابتهاجًا . فقد دخل عدد من الشّباب يحملون بيانو ، ووضعوه في الصّالة ، تتبعهم جارتنا أم خليل . قالت وهي تمسكني من كتفي وعلى وجهها ابتسامة لم تفارق ذاكرتي :

- سنهاجر إلى كندا يا سراج ، وهذا البيانو هديّة منّي إليك . طالما سمعتك تردّد ألحانًا جميلة وأنت في غرفتك .

منذ ذلك اليوم بات البيانو رفيقًا ثانيًا لي غير دُماي . لكنّ ذلك لم يمنعني من التّفكير بالخروج إلى الشّارع لمرّات أكثر ممّا كانت عليه ؛ إذْ أطلقت احتجاجي الأوّل بوجه أبي طالبًا منه أنْ يصطحبني إلى الشّارع . وبالفعل انصاع لرغبتي ، وخرجنا . كنت أتقافز بجانبه وهو يمشي على الرّصيف مشيته الرّزينة ، ثمّ يعبر الشّارع نحو المطعم ، وأنا أوجّه تحيّات الصّباح بالاسم لكلّ منْ أراه ، وكأنّ علاقة ضاربة في العمق بيننا ، بينما أبي يبتسم مصابًا بغبطة رأيتها في وجهه للمرّة الأولى . منذ ذلك اليوم أخذ أبي يصطحبني معه صباحًا إلى الشّارع قبل ذهابه إلى عمله ، وعند الغروب في بعض الأيام حيث يخرج سكان اللّويبدة إلى الشّارع متنزّهين ، وقاضين لحاجاتهم .

جرّاء وقوفي بالنّافذة وتتبّع حركة الشّارع ، ولدت قدرتي على الرّسم . كانت بديلي الأهمّ عن عدم وجود أصدقاء في حياتي ، فلم يقيّض القدر لي أنْ أشكّل صداقة مع الذين كانوا يأتون بمعيّة أمّهاتهم إلى بيتنا حيث تجتمع النّسوة . فالصّداقة لقاء مستمرّ غير متقطّع ، وتلاق في الأفكار والرّغبات . منذ تلك الأيام رحت أرسم أيّ شيء تقع عليه عيني . رسمت أبي وهو يعكف على القراءة ، وأمّي وهي تنهمك بالحياكة ، والشّارع وهو يعجّ بالحركة صباحًا ومساء . إلى أنْ رأى أبي ما رسمته ، حيث كانت أولى سنوات المدرسة ، خطوتي البكر نحو فضاءات تتّسع وتتلوّن خارج البيت ، وخارج خوف عائلتي الشّديد عليّ . فكانت أكثر الهدايا فرحًا لي ، والتي تلقيّتها من والدي في تلك الأيام ، هي علبة ألوان مائيّة كبيرة ، ودفتر رسم فاخر ، غير تلك الأنواع رخيصة الثمّن التي عادة ما يشتريها الأولاد لأجل حصّة الرّسم في المدرسة . وأوّل رسم في حياتي كان لسماء تسطع فيها شمس يمشي تحتها أناس ، ويجلس آخرون ؛ فقد رسم والدي للوطن صورة استثنائيّة في صفحة مخيّلتي ، حينما سألته ذات يوم ، وأنا أشاهد التلفاز بمعية عائلتي ، حينما كان المذيع يلقي بيانًا يتحدّث فيه عن الوطن ؛ إذْ قال لي : «الوطن يا ولدي هو ما تسطع عليه الشّمس صباحًا ، وما تغيب عنه الشّمس مساء» .

وحينما سألتني المعلّمة عن معنى ما رسمت ، قلت لها إنّي أرسم وطنًا يعيش فيه النّاس سعداء . ومنذ ذلك الحين ، وكلّما نفدت علبة الألوان ، يشتري لي والدي بدلاً منها دون أنْ أستخدم اللون الأسود ، وبعض الألوان الدّاكنة ؛ إذ إني كنت شغوفًا بالألوان الفاتحة في كلّ شيء : في ملابسي ، وفي أغطية النّوم ، وكلّ ما يتعلّق بي ، حتّى إنّي

كنت أفضّل أنْ أطيل النّظر إلى الأشخاص الذين يرتدون ملابس بالألوان التي أحبّها . كانت فكرتي عن الحياة بريئة إلى حدّ سخر منه زملائي وبعض معلّماتي ، وبعض ممّن عرفتهم . بعد انقضاء السّنة الأولى في المدرسة وفرحي الشّديد بالانضمام إليها ، اكتشفت أنّ الطّلبة قد شكّلوا جماعات يلتفّ أفرادها حول بعضهم . أما أنا فقد كنت من أولئك الذين لا جماعة لهم . أذهب بمفردي إلى المدرسة ، وأعود منها دون أيّ صحبة ، إلى أنْ حدث ما حدث في صيف العام ١٩٧٩ .

ففي إحدى الصّباحات جاءنا طالب بعد أن تغيّر موقع سكنى عائلته نتيجة لتغيّر موقع عمل والده المسؤول في الدّولة ، تصطحبه مديرة المدرسة من غرفتها إلى قاعة الدّرس ، وأخذت تقدّمه لنا ، وتحضّنا على أنْ نكون أصدقاء له . كانت تتحدّث عنه كما لو أنّها تتحدّث عن رجل في الخمسين من العمر . ثمّة مهابة منه بدت في عينيها ، دون أن ندري أن ذلك عائد لسلطة والده الذي أرسل ابنه مع السّائق ، وهاتف المديرة بلكنة بدت ليّنة ، ثمّ انتهت مشوبة بنبرة فيها أوامر لا بدّ منْ تنفيذها :

– جعفر سليمان الطّالع ابن عائلة محترمة ، ونتشرّف بأن يكون في مدرستنا .

قالت المديرة ذلك وغادرت ، وأنا أتفكّر بمعنى عبارة ابن عائلة محترمة .

أخذ جعفر يتفحّص وجوه الطّلبة ، بينما المعلمة التي لم يرقها حديث المديرة تشرح لنا درسًا في اللّغة العربيّة . بدا عليها أنّها تريد اختباره حينما طلبت منه أنْ يعرب جملة كتبتها على اللّوح . توقّعتُ حينما رأيت تلك النّظرة المتعالية في عينيه أنْ يعجز عن الإجابة ، لكنّه

أعرب الجملة بشكل صحيح إلاّ منْ خطأ واحد قمت بتصحيحه حينما طلبت المعلمة منّي ذلك ، حينها نظر إليّ نظرة منْ يوجعه أنْ يتفوّق عليه أحد ، لكنّني تجاهلت نظرته الدّونية تلك . ما هي إلا أيام قليلة حتّى تحلّق حول جعفر عدد من الطّلبة ، وصار كبيرًا لجماعة تعلوهم كلمته ، ويأتمرون بأمره ، يضحكون إنْ ضحك ويصمتون إنْ صمت . في فترة الاستراحة يغدق عليهم ممّا معه من نقود ، ويجمعهم حوله ويأخذ بالحديث عن بطولاته ونوادره ، وكلّما أثنى أحد على ما يقوله ، يربّت على كتفه ويعده بصداقة أكثر قربًا .

في أيامه الأولى كان يغادر المدرسة بمعيّة السّائق الذي يرسله والده ، لكنّه فيما بعد صار يعود مشيًا إلى البيت . لم تكن علاقتي به طيّبة منذ أنْ قمت بتصحيح ما أخطأ به ، لهذا لم يتوقّف عن الحطّ منْ شأني ، ومنْ قيمتي في كلّ مناسبة تلوح له ، إلى أنْ التقينا ذات يوم في الشّارع عائدين من المدرسة . أوقفوني في إحدى الزّقاق وضربوني ، ثمّ سطوا على حقيبتي وبعثروا ما فيها . لكنّ ذلك لم يخلق في نفسي أيّ شكل من أشكال الحقد ؛ فقد ألقيت عليهم في اليوم الثّاني تحيّة الصّباح وكأنّ ما من شيء حدث ، وهم يعتقدون أنّ تصرّفي ما هو إلا خوف ، واتّقاء لقوّتهم المزعومة ، دون أنْ يدركوا أنّ منسوب التّسامح عندي كان زائدًا بفعل تربيتي التي لم يطلّع عبرها والداي على تنوّع سلوك النّاس .كنت مثل آلة ما عليها إلا أنْ تتلقّى الأوامر في المواظبة على الدّراسة ، والابتعاد عن رفاق السّوء ، والتّأدّب في الحديث ، والنّظرة المتسامحة لكلّ شيء يحيط بي ، حتّى إنّ الأفلام والمسلسلات التي يشوبها شيء من العنف كانت ممنوعة عنّي .

لمْ تعد تروقني وجهات النّظر التي كانت المعلّمات يقلنها على

مسمعي، ويرين عبرها بأنّي رقيق، متسامح، وبريء؛ إذْ إنّني بعد ما بتّ أشعر بالمهانة جرّاء اعتداء جماعة جعفر علي، صرت أرى أنّ ما أسمعه محض توصيفات لولد ضعيف، عليه أنْ يتحلّى بشيء من القوّة إلى جانب ما يرينه بي.

في أحد الأيّام خرج الطّلبة من المدرسة مندفعين إلى الشّارع فرحين بانتهاء الأسبوع وبداية عطلة سوف يحظون فيها بالنّوم والتّنزه خارج عمّان وداخلها. في ذلك اليوم لم أسرع من خطاي كما رحت أفعل في الأيام الأخيرة، تجنّبًا لجماعة جعفر. ثمّة حدّ فاصل كان عليّ أنْ أضعه لما يحدث. عند الزّقاق ذاته الذي اعتادت تلك الجماعة الاعتداء عليّ فيه، لحقوا بي. حينها أخذ أحدهم يحاول أنْ يسلب حقيبتي، لكنّي كنت أقبض عليها وهو يستغرب قوّة يدي، فاقترب منّي آخر وتهيّأ ليوجّه لكمة لي، لكنّي عاجلته بضربة منْ حقيبتي، وانهلت ضربًا على جعفر إلى أنْ وقع أرضًا مصابًا بجرح غائر في وجهه. في ذلك اليوم استدعينا إلى مخفر الشّرطة، وجاء والد جعفر محفوفًا بعدد من المرافقين يرتدي بذلة سموكن سوداء، ويضع على عينيه نظّارات شمسيّة، حينما خلعها بدا الغضب في عينيه مختلطًا بنظرات متعجرفة. كان والدي متردّدًا في الحديث مع والد جعفر حينما رآه يتهيّأ للدّخول إلى غرفة الضّابط، فقد علمت فيما بعد أنّ ذلك الرّجل كان رفيقًا لأبي في الحزب، وقطعت العلاقة بينهما. مشى والدي نحوه خطوات غاضبة، ثمّ مدّ يده له ليصافحه، لكنّ الرّجل لم يمدّ يده، ولم ينظر حتّى في وجه أبي الذي أشعل سيجارة بيدين مرتعشتين لشدّة التّوتّر، واقترب نحوه بخطوتين، ثمّ قال بنبرة غاضبة حادّة:

- لا تجعل الذي بيننا ينسحب على أولاد لا ذنب لهم بما يحدث. أنت تعلم جيّدًا لماذا تحدث أشياء مثل هذه. أم أنّ الكرسيّ أعماك إلى هذه الدّرجة يا سليمان الطّالع!

حدّق سليمان الطّالع بوجه أبي، ثمّ قال وعيناه تضيقان وتتّسعان كأنّه يحدّق بضوء ساطع:

- هذه فرصتي لأجعلك تعرف قيمتك يا عزّ الدّين.

لا أدري كيف فقد والدي صوابه، ووجّه له لكمة قويّة أودت به إلى السّجن لثلاثة شهور، وإلى متاعب كثيرة أقلّها تضييق الخناق عليه في عمله. في المدرسة بات كثير ممّن كانوا يستهينون بي يهابونني، ونشأت صداقة بيني وبين سعيد عبد الباري الذي يعود وحيدًا مثلي إلى بيته من المدرسة، ويعاني ما أعانيه. كان والد سعيد يعمل حلاّقاً في شارع (الباعونية)، بينما أمّه تنصرف لشؤون بيتها. منذ أنْ ضربت جعفر أخذت أستشعر النّظرة الجديدة نحوي، لكنّني لم أتخل عمّا بي منْ تسامح وبراءة حيال كلّ ما أرى. منْ أكثر الأشياء التي ربطتني بسعيد عبد الباري هي قدرته على الرّسم. كنّا منْ أكثر الطّلبة الذين يستهلكون دفاتر الرّسم والألوان وأقلام الرّصاص. نجلس قرب نافذة قاعة الدّرس وقت الاستراحة، وندخل في تحدّ حول رسم شيء ما بوقت قياسيّ. وغالبًا ما كنّا نتعادل فيما ننجز. حينما تقدّمنا في الصّفوف المدرسيّة اشترينا كتبًا لتعليم الرّسم، وأخذنا نتعرّف على أساسيّاته، فرحنا نذهب إلى جبل القلعة حيث تلوح لنا جبال عمّان وهي تملأ المدى ببيوت متفاوتة الأحجام والألوان والأشكال، وحيث يخفق في سمائها الحمام والطّائرات الورقيّة، والطّائرات النّفاثة التي تصعد من مطار ماركا. ونبقى نرسم ما تراه أعيننا متنقّلين بين

الأماكن . في العام ١٩٨٧ اشتعلت الانتفاضة الفلسطينيّة الأولى ، كنّا نتلقّف الأنباء من شاشات التّلفاز والمحطّات الإذاعيّة ، والصحف التي كنت وسعيد وطلبة آخرون نشتريها صباحًا منْ مصروفنا اليوميّ بدلاً من (السّاندويتش) في الاستراحة . كان الشّارع العربيّ يغلي آنذاك ، وكنّا في المدرسة نقصّ صور شباب الانتفاضة وهم يقبضون على الحجارة ونعلّقها على الجدران . يومها وقفت في منتصف ساحة المدرسة ، ورحت أهتف لمن رأوا في الحجر سلاحاً ، ويدي تقبض على حجر وترفعه عالياً إلى أن التف الطلبة حولي ، فخرج كل طلبة المدرسة ومعلموها إلى الشارع ، وانضم لنا المارة وأصحاب المحال وكثير من السكان . صباحاً كنت وسعيد عبد الباري قد رسمنا عدة لوحات لأبطال الانتفاضة ، وعلقناها على جدران المدرسة فعُرفنا كرسامين ، تماماً كما فعلنا في الجامعة الأردنية عام ١٩٨٩ حينما غادرنا زمن المدرسة وولجنا ذلك العالم ، حيث انتسبنا لكلية الفنون الجميلة ، وانتسب جعفر سليمان الطالع لكلية العلوم السياسية . في العام نفسه اشتعلت هبة نيسان في الجنوب ، وأعلنت الديمقراطية ، فصارت الأحزاب تعمل في العلن ، وانتخب والدي عضو لجنة مركزية في الحزب .

في الجامعة بدأنا نتلمس دربنا الأول في فهم الرسم ، فصارت لوحاتنا تأخذ أبعاداً أخرى ، وتعاين عوالم بدأنا نفهمها مع تقدمنا في السن ، لكن سعيد عبد الباري بقي يأخذ عليّ شغفي بالألوان الفاتحة . كنا نتنقل بين معارض فنية ، وندوات تتطرق للفن بشراهة عجيبة ، في زمن كانت عمّان فيه ما تزال قادرة على تدبر شؤونها ، لكن احتلال الكويت عام ١٩٩٠ خلط الأوراق ، وجفف كثيراً من المصادر ، فضاق

الناس ذرعاً بأحوالهم . كان أبي يقول إنّ هذا التاريخ سيكون فاصلاً ما بين زمنين ، وأنّ زمنًا ما سيأتي حاملاً معه كثيرًا من الويلات ستحدث للبلاد العربيّة . كان أبي حينها ما يزال يتشبّث بأحلامه بمستقبل مضيء ، أستمدّ منه أملي بالمستقبل ، لكنّه رحل فجأة . حدث ذلك إثر تفكك الاتّحاد السّوفييتيّ عام ١٩٩١ ، وحين وقع انشقاق في الحزب الذي ينتمي إليه ، إذْ وجدته أمي ميْتًا وراء طاولته في غرفته والصّحيفة بين يديه . كان رحيل أبي حدثًا قاصمًا لظهر روحي التي لم أجد من يسندها أكثر من سعيد عبد الباري . يوم واريناه التّراب ، كان سعيد يبكي بمرارة وهو يسند قامتي المترنّحة لفرط الحزن ، ويده تضغط على يدي . في تلك الأيام أدركت أنّ «الحياة بلا صديق تشبه طريقًا بلا ضوء ، علينا ونحن نمضي فيه أنْ نجتهد كثيرًا باستفزاز احتياطنا من الضّوء السّريّ حتّى نصل مرادنا الذي لا نصله غالبًا» .

في أواخر عام ١٩٩٢ تخرّجنا من الجامعة ، وسافر جعفر سليمان الطّالع إلى أمريكا في بعثة حكوميّة للحصول على الماجستير ، ومنْ ثمّ الدّكتوراه في العلوم السّياسيّة حيث كان للحكاية أنْ تنمو كنبتة ضارّة . بعد تخرّجنا أخذت كمّاشة الوقت بلا عمل تضغط على أعناقنا أنا وسعيد ، وتفقدنا بما تبثّه فينا منْ هشاشة الثقةَ بما أنفقنا على تعلّمه . كنّا نصعد جبل القلعة الذي يجثمّ على تاريخ عريق ، ونسند أبداننا إلى أعمدته ، ونروح في تحديق فارغ بالمدينة . حينما تحسّ بأنّك محض شيء مهمل ينتابك التّحديق الفارغ والسّهو باللاّشيء . من الجبل تلوح المدينة كأنّها لوحة عناصرُها متحرّكة . تفكّر بحالاتها التي تبدو لك في الوهلة الأولى غير معنيّة بالمصائر . تلك الجبال التي نمت على أكتافها بيوت بين جدران كلّ واحد منها آمال وأحلام لا يتحقّق الكثير منها

غالبًا . ففي المدن لا تموت الأحلام فقط بسبب أدخنة العربات والمصانع وتعالي وتيرة الضّجيج ، بل تموت أيضًا حينما تختطفها أياد خفيّة حتّى في وضح النّهار ، وتعيدها جثثًا هامدة .

كان كلّ منّا يتساءل عن جدوى ما تعلّمنا وما حلمنا بأنْ نكونه ، من دون أنْ يحدّث أحدنا الآخر . حتّى إنّنا ما عدنا بذلك الشّغف الذي عهدناه في الرّسم . كان المشهد الوحيد الذي يسيطر على مخيّلاتنا هو المشهد المتواري وراء وهم المدينة حينما تجد أنّ هنالك أناسًا ترسم لهم دروبًا تأخذهم إلى حتّى ما لمْ يحلموا به . هنالك أناس لا يكلّفون أنفسهم عناء الحلم ، وآخرون تتعبهم أحلامهم ، فينتهون قبل أنْ تتحقّق تلك الأحلام . ذات ليلة فردت قماشًا على منصب الرّسم ، ووجدتني أختار ألوانًا داكنة وأرسم البنايات كأنّها أشجار محنيّة ذابلة . موجع أنْ تشعر بأياد تسلّل إليك لتعلن فيك الانهيار ، ومؤلم أنْ تحسّ بأنّ النّهر الذي كنت تعوّل على جريانه الأبديّ ينقطع مرّة واحدة ، لهذا مزّقت اللّوحة ونمت .

عامان مضيا دون عمل ، شعرت عبرهما بلا جدواي ، بينما كنت أرى عددًا من زملائي الآخرين قدْ عيّنوا بمجرّد تخرّجهم من الجامعة . هل كان عليّ أنْ أمتلك ما يمتلكونه منْ قدرات في الوساطة حتّى أتدبّر أمري؟! وهل كان عليّ أنْ أكون ابنًا لواحد مثل سليمان الطّالع حتّى تعبّد الطّرق أمامي؟! كان أبي يؤمن بتكافؤ الفرص في زمن لا ينتمي إلى هذا المبدأ إلاّ في شعارات فضفاضة ؛ لذا ما كان بإمكاني أنْ أكون نسخة مخالفة له .

ليلة أخبرت أمي أنّي عثرت على عمل في أحد مطاعم الوجبات السّريعة كانت واقفة قبالة صورة أبي وخلفها شاشة التّلفاز تبثّ

أنباء عن معاهدة السّلام الأردنية الإسرائيلية عام ١٩٩٤ . التفتت نحوي ووجهها شاحب كأنّها مصابة بمرض عضال ، ثمّ تمنّت لي التّوفيق .

بعد شهور عمل سعيد عبد الباري سائق تاكسي . أصبحنا لا نلتقي كثيرًا كسابق عهدنا ، كانت هذه هي الخطوة الأولى ، والتي كادت أنْ تنهي تلك اليد الممتدّة من قلبي وتشرع بالرّسم ، لهذا رحت أكرّس ما تبقّى لي منْ وقت في الرّسم ، وفي القراءة ، ومتابعة المعارض الفنيّة بمعيّة سعيد .

بعد ثلاثة أعوام صار بإمكاننا أنْ ندشّن معرضنا الفنيّ الأوّل المشترك . إنّه صرختنا الأولى التي بقينا كلّ تلك السّنين نتجهّز لها . أمضينا أيامًا في التّحضير للمعرض إلى أنْ جاء يوم الخميس حيث الافتتاح . غلبت الألوان الفاتحة على لوحاتي ، بينما استخدم سعيد الألوان الدّاكنة ، لكنّ مواضيع لوحاتنا تشابهت نوعًا ما . لم يدر بخلدي في ذلك اليوم أنّ حياتي كلّها سوف تنقلب فيما بعد رأسًا على عقب ، ولم أكنْ أعي أنّ هنالك طرقًا سيسير بها من أنهكتهم أحلامهم ، فيكتشفون غرائبيّة المصائر .

جاءتني فتاة تحمل بيدها ميكرفون مربوطاً بكاميرا تصوير تلفزيونيّ ، وطلبت أنْ تجري لقاء معي حول المعرض . حينما شرعت بأسئلتها وجدتني أسهو بوجهها كما يسهو أبله بشيء يدهشه . كان لها عينان تتقوّسان للأعلى قليلاً ، فيهما بؤبؤان يسبحان في حدقتين شديدتي البياض ، وشعر أشقر مجعّد كأنّه لفائف ذهب . رأيتها أنثى بالقدر الذي جعلني أتلعثمّ بحديثي أثناء التّصوير ، فيعيدونه لأكثر منْ مرّة . حينما فرغنا من اللّقاء ، تخلّصت من الميكروفون ، وحشر المصوّر

الكاميرا في حقيبة وغادر، فطلبت مني بصوت هادئ وبابتسامة مجامِلة أنْ تقوم بجولة في المعرض. أخذت تراقب اللّوحات برويّة، تقترب منْ بعضها، وتبتعد كأنّها تجتهد في فهم مقولاتها. ثمّة إيقاع جذّاب في مشيتها وهي تتنقل بين اللّوحات، تقاطَع مع موسيقى تتهادى في المكان. لم أرافقها في جولتها تلك، فقد فضّلت أنْ تشاهدها بمفردها، فثمّة معان يجدها البعض في اللّوحة، لا تشبه ما كنّا فكّرنا به. كنت أجلس في كرسيّ في حديقة الغاليري، حينما رأيتها فرغت من مشاهدة اللّوحات. بدا لي أنّها أنهت مهمتها في العمل، وأنّ ما تبقّى لها محض وقت عليها أنْ تبدّده. نهضتُ منْ وراء الطّاولة، ووجّهت لها دعوة لفنجان قهوة، فلم تمانع؛ إذْ سحبت الكرسيّ إلى الوراء ثمّ جلست، وقالت بنبرة لم تنجح عبرها في أنْ تخفي إحساسها بشيء من الضّجر:

- لا بأس بفنجان قهوة.

حينما عدت أحمل لها القهوة من البوفيه المخصّص للغاليري، وجدتها ساهمة تحدّق بشجرة، لم يكنْ لها نصيب كافٍ من الماء حتّى تخضرّ كباقي الأشجار. وضعت إصبعها على مقبض الفنجان، وراحت تحرّكه في دائرة الصّحن، وعادت تحدّق بالشّجرة. قالت بنبرة أفلت منها إيقاع حزن خفيّ:

- انظر إلى هذه الشّجرة كيف تختلف عن مثيلاتها.

شربَت من الفنجان، ثمّ قالت وشيء من الغضب يعلو صوتها:

- ليتني أمتلك القوّة لأخلعها الآن. فوجودها بهذا الشّكل غير العادل موجع لها.

قلت وعيناي تراقبان قرطًا هبط من أذنيها عبر المسافة الجميلة

لعنقها ، حيث تحرّر زر قمليصها عند نهايته من العروة وكشف عقدًا يحمل حرف R :

- الأمر أسهل ممّا تتخيّلي .

نهضت من مكاني ، وسحبت خرطوم الماء ، وجعلته يتدفّق عند حوض الشّجرة الفارغ ، ثمّ عدت :

- أرأيت ، كيف يبدو الأمر سهلاً؟

- بريء!

قالت ذلك وفتحت حقيبتها ، وأخرجت علبة سجائر فأشعلت واحدة :

- حياتنا تبدو على هذا النّحو يا عزيزي . انظر كم بذلتَ جهدًا في إقامة هذا المعرض . ليس هنالك منْ ضجّة وحضور وأضواء كالتي أراها في معارض الآخرين الذين لا يفعلون خطوة إلا وخلفهم جهات تعبّد الطّرق لهم . هذه الشّجرة وجدت منْ يأخذ الماء إليها هذه المرّة ، لكنْ منْ سيأخذه إليها في المرّات القادمة؟

- لكنّك أتيت وأجريت معي لقاء تلفزيونيًا دون حتى أنْ أوجّه لك دعوة .

قالت وهي تهرس سيجارتها في المنفضة بسخرية واضحة :

- هذا لأنّ المحطة التي أعمل بها لا تساوي شيئًا . لا إعلانات ، لا متابعين . حتّى رواتب الموظفين شحيحة ويستلمونها كلّ ثلاثة شهور مرّة .

بدا عليها أنّها وجدت نفسها قدْ أخطأت وهي تفضفض لرجل تلتقي به للمرّة الأولى . قالت بنبرة معتذرة :

- لقد أفسدت فرحتك بمعرضك .

صمتت لقليل من الوقت ثمّ أضافت وقد تبدّلت قسمات وجهها :

- يا لعدم لباقتي! حتّى إنّني لم أعرّفك بنفسي . اسمي ريفال ، تخرّجت منْ كليّة الإعلام وأمضيت زمنًا بلا عمل . قرأت ذات يوم في الصّحيفة إعلانًا لمحطّة فضائيّة ترغب بتعيين مقدّمات برامج ، ولأنّي جميلة كما يقولون حظيت بالوظيفة ، لكنّها وظيفة لا تكاد تؤمّن لي إلاّ ما يكفيني للذّهاب للعمل فقط .

لم أجد لحظتها ما يمكن أنْ أقوله ، لهذا حلّ بيننا صمت قصير بدَّدَتهُ بسؤالها :

- رأيت لك لوحة تصف ما نحسّ به حيال مدينة لا نستطيع أنْ نسلك كلّ طرقها . ترسم شخصًا يقف أمام مفترق طرق مغلقة إلاّ منْ طريق واحدة لا نهاية لها . ولكنّ ألوانك فاتحة وورديّة . أهي براءتك التي لمستها فيك منذ الوهلة الأولى؟

قلت وأنا أتذكّر حديث المعلّمات حولي في زمن المدرسة :

- بل إنّها ألوان الأمل يا عزيزتي . هذا كلّ ما في الأمر .

- الأمل ، الأحلام ، المستقبل . بت أمقت هذه الكلمات .

قالت ذلك ثمّ نهضت تنوي المغادرة . مدّت لي يدها تصافحني . حينما التقت كفي بكفّها ، وجدتُني أطلب لقاء آخر بها :

- كيف لي أنْ ألتقي بكِ مرّة أخرى؟

ضحكت وهي تسحب هاتفي النقّال منْ يدي :

- الأمر سهل ها أنا أدوّن رقم هاتفي ، وسنكون على تواصل .

منذ ذلك اليوم صرت منْ متابعي المحطّة الفضائية التي تعمل فيها ريفال ، أتسمّر أمام شاشة التّلفاز حينما يأتي موعد برنامجها وأبقى أطالع تفاصيلها . حفظت كلّ ملامحها ، وانفعالاتها ، وطريقتها في

الكلام . كنت أكتب لها رسائل قصيرة إلى هاتفها النقّال وأعلمها أنّي أتابع البرنامج . كانت تسعد بمتابعتي تلك ، فنتحدث لدقائق بعد انتهاء البرنامج ، ثمّ راحت مكالماتنا تمتدّ إلى ساعات تقريبًا . كانت عبر الهاتف امرأة غير التي رأيتها يوم افتتاح المعرض مصابة بالإحباط والضّجر . عبر تلك المكالمات تعرّفت على كثير من تفاصيل حياتها ، وأحلامها وطموحاتها ، وما يوجعها . وجدتها بريئة إلى حدّ يفوق تلك البراءة التي لَمَستها بي . حينما ازداد اشتياقي لها طلبت أنْ نلتقي ؛ إذْ كان قد مضى على معرفتي بها شهران . يومها صعدنا جبل القلعة ، قلت لها إنّي أمقت جوّ المقاهي التي باتت تعجّ بأدخنة النّارجيلة ، وضجيج الأغنيات السّريعة . كان اللّيل صيفيًا تتخلّله نسمة تطرد ما تبقّى منْ حرارة بقيت طوال النّهار تجلد بدن المدينة . ثمّة جلاّس غيرنا كانوا يتناثرون في المكان حينما جلسنا ببوّابة معبد (هرقل) ، نسند أبداننا إلى أحد ما تبقّى منْ أعمدتها التي أرادها الإمبراطور الرّوماني (أوريليوس) أنْ تتسلّق الهواء . افترشت التّراب وهي ترتدي بنطال جينز أزرق داكن ، و(تي شيرت) أبيض . جلست بقربها ، فصارت كتفي تلامس كتفها التي شعرت بحرارتها تنتقل إليّ ، تمامًا كما تسلّلت إليّ رائحة عطرها . مثلما كنت شغوفًا بالألوان التي قادتني إلى الرّسم ، كان لي تعلّق شديد بالعطور . قرأت عنها كثيرًا . تاريخها ، طريقة صناعتها ، طبقات العطر ، وفلسفتها التي تشبه الشّعر .

أرخيت رأسي على العامود ، وأغمضت عينيَّ أقرأ عطرها الذي تناثر في المكان بجسارة :

– أرى في افتتاحيّة عطرك هذا زهرة ليمون غضّة تداعبها نسمة هواء ناعمة ، وأرى في قلبه أرواح زهر البرتقال ، والياسمين يمتزجان

بعبق القرفة . وفي خاتمة هذا العطر أرى خشب الصّندل تعلو رايته فيغدو غاويًا .

صرخت بي مذهولة :

- كيف استطعت أنْ ترى كلّ هذه الأشياء يا سراج؟

- إنّها موهبة حظيت بها منذ الصّغر . كانت أمي تقول إنّ لي أنفًا كأنف الكلب قادراً على شمّ رائحة أيّ شيء ، ثمّ تضحك بصوتها العالي . كنت أميّز رائحة النّاس ، والأشياء . أغمض عينيّ وأختبر حاستي بمعرفة منْ يجلسون في الغرفة ، فأعرف إنْ كان هذا غريبًا أم زائرًا جاءنا قبل تلك المرة . ذاكرتي تحتفظ بروائح الكتب المدرسيّة حينما تكون جديدة في أوّل أعوام الدّراسة ، ورائحة (الميرميّة) التي تدلّ في هذه البلاد على بدء الشّتاء ، رائحة النّعناع المشيرة إلى أوّل الصّيف . لكنّ الغريب في الأمر أنّي كنت أشعر أنّ للخائف رائحة ، وللفرِح رائحة . حتّى إنّي وجدت أنّ للكاذب رائحة تميّزه أيضًا . لهذا استخدمتني أمي للعثور على بعض الأشياء المفقودة في البيت . فقد أطلقتني كما يطلق الشّرطي كلب الأثر ، حينما فقدت مبلغًا من المال . بقيت أستخدم أنفي متجوّلاً في غرف البيت ، أشمّ كلّ شيء إلى أنْ عثرت على المبلغ مطويًا في قطعة قماش كانت أمي قدْ نسيتها في المطبخ . تلك الموهبة في الإحساس لم تقتصر على حاسّة الشّم ، إنّما شملت حواسي كلّها ، فقد اعتدت أنْ أغمض عينيّ ، وأنا مستلق في السّرير وأنصت للأصوات القادمة من الشّوارع المحيطة بنا . أميّز نوع السّيارة منْ صوتها ، وجنس المارّ منْ نقرات حذائه ، والخطوات إنْ كانت لضيف أمْ للصّ . وكنت أختبر بصري بأنْ أقوم بنظرة خاطفة لعدد من الأشجار ، وأخبر منْ هم بمعيّتي عنْ عددها الذي غالبًا ما

يكون صحيحًا . كان إحساسي بالأشياء يقودني إلى حقائق تذهل منْ يعرفها عنّي ، كأنْ ألمس ورقة نقديّة فأعرف قيمتها ، ناهيك عن الأشياء التي أتذوّقها . فقدْ كانت الجارات يشترين وجبات طعام شهيرة جاهزة ، ويطعمنني منها لأذكر لهنّ سرّ النّكهة التي جعلت الإقبال شديدًا على تلك المطاعم . لكنّ ما يخيفني أنّي كنت أشعر بأشياء ستحدث ، وبالفعل يتحقّق ذلك . إنّها الحاسّة السّادسة التي كان تكرهها بي أمي ، وحينما تراني أتأهّب لقول شيء منْ ذلك القبيل ، تأمرني بأنْ أصمت .

عندما انتهيت منْ حديثي وجدت ريفال تنصت لي ، وعلى وجهها ملامح دهشة كبيرة . في تلك اللّيلة حدّثتها عن العطر وأسراره ، وهي ساهمة بي ، وفي عينيها ابتسامة توق مسحت زجاج قلبي فصارت الرّؤية أكثر وضوحًا . تحدّثنا عن الرّسم ، وعن المدينة ، وعنْ ذكريات المدرسة . وأخبرتها عمّا حدث بيني وبين جعفر ، وعنْ ذلك العراك الذي لم أكن أريده . رأيتها شاردة فلكزتها بكتفها ، إذْ قالت وصوتها مشوب بشيء من التّوتّر :

- عرفته في الجامعة . كان شابًا متعاليًا ، يهوى اصطياد الفتيات اللواتي يتمنعن عنه . يعيش بذخًا امتعض منه الكثير وذهل به الكثير ، وهو يبالغ بملابسه ، وبعطوره ، وبسيّارته الفارهة . الآن يعيش تعاليه هذا في أمريكا .

سرّحت بصرها ببنايات عمّان وأضوائها تتفاوت وهي تلوح لنا في جبالها فتبدو كحرّاس ليليين . قالت بعد أنْ ضحكت ساخرة :

- يخطر ببالي وأنا على الهواء في برنامجي ، أنْ أخلع القناع الذي تفرضه عليّ القناة وأقول كلّ شيء . ما الذي يحدث لو قلت إنّ الوهم

هو سيّد المدينة ، وأنّنا محض كومبارس في جوقتها . لنا مسارات معينة علينا أنْ نمشي بها حتّى لا نشكّ بأنّ هنالك مسارات أكثر يسرًا للآخرين .

أمسكت بوجهي وجعلتني ألتفت نحوها :

- نكذب على أنفسنا ونحن نتمسّك بمجموعة من المثل التي لم أجد لها مكانًا إلا في الكتب . بينما الآخرون لا يقرأون حتّى ، ولا يكلّفون أنفسهم عناء تلك المهمّة ، مادام كلّ شيء يأتيهم بسهولة .

قالت ذلك ثمّ أرخت رأسها على كتفي ، فهاجمني عطرها ودفؤها أكثر منْ ذي قبل . لامست وجهها ، وهمست بأذنها :

- أحبكِ .

في تلك اللّيلة ارتكبنا أوّل قبلة لم يفارق وقعها ذاكرتي . ومن تلك اللّيلة أكمل المصير دربه ليحدث ما لمْ يكن بالبال .

الفصل الثاني

سِوار

(درِّبوا أنفسكم على الإنصات للسّكون . إنّه سيّد الحزن ، وأمير التّأمّل ، وملك باحث عن الإجابة . فليس كلّ صمت هدوءً ، وليس كلّ هدوء صمتًا ؛ فالشّمعة تقاوم الظّلمة دونما أيّ ضجيج ، حتّى وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة)

١

عبر أغصان وأوراق شجرة (كاوتشوك) اتّكأت على نافذة غرفة مكتب (سليمان الطّالع) المنزليّ، تسلّلت خيوط من ضوء شمس الصّباح، وسقطت على طرف الطّاولة، ثمّ امتدّت إلى الفسحة الواقعة بينها وبين الجدار المقابل لها، فلاحت ذرّات غبار متراقصة في تلك اللّحظة التي لا يؤثّثها سوى هسيس صمت مطبق على المكان.

أشعل سليمان سيجارًا ونفث دخانه، فبان في بقعة الضّوء كأنّه ضباب جاء للتوّ. ثمّة مرآة معلّقة على الجدار المقابل للطّاولة، يحمي إطارُها الذي شيّد من خشب الأبنوس الفاخر جزءاً من هيئة (سليمان الطّالع) كأنّه يخشى عليها من الهروب. امتدّت يده نحو المنفضة، وقد نفرت عروقها، وبدا على جلدها لمعة تشي بتقدّمه في السّن، والتقط سيجاره، وعبَّ منه نفسًا عميقًا ثمّ زفره فانتشرت سحابة الدّخان مرّة أخرى. حدّق بالمرآة فرأى كتفيه العريضتين، وعنقه الطّويل وقدْ ضجّت منها تعرّجات حمراء وتجاعيد واضحة. رأى شعره الذي صبغ باللّون الأسود وقد أخذت خصلاته تتناقص فبان جلد رأسه. ارتدى نظارته إذْ ارتكزت على أنف مفلطح تحت عينين غزا جفنيهما السّواد، وألّمت بأسفلهما انتفاخات يحيطها الترهّل. لامس وجهه وعيناه ترتخيان حسرة كأنّه يكتشف للتوّ أنّه في السّبعين منْ عمره.

ارتشف منْ فنجان قهوته ثمّ هرس سيجاره في المنفضة، وألقى نظرة على صحيفة كان يقرأ فيها مقالة عن الفساد الذي كثر المطالبون

مؤخرًا بكشف أوراقه، وبضرورة محاكمة رموزه. أرخى رأسه على قبضة يديه المتشابكتين؛ إذْ بدا مزاجه مشوبًا بشيء من التّوتّر الخفيّ، فتنهّد عميقًا يحاول الاسترخاء ثمّ شرب جرعة ماء منْ كأس أمامه.

أرخى رأسه على مسند الكرسيّ مستسلمًا لانتقال عبر ذاكرته نحو زمن مضى.

جاء سليمان الطّالع إلى عمّان، وانتسب للجامعة التي عبر سنواتها انضمّ إلى اليسار، فاعتقل لأكثر منْ مرّة، بسبب أفكاره المحظورة آنذاك، إلاّ أنّه فجأة وبعد تخرّجه بعامين عيّن في وظيفة في القطاع العامّ، فأخذ يتنصّل من العمل السّياسيّ شيئًا فشيئًا، إلى أنْ قطع علاقته بكلّ منْ عرفهم.

بعد سنة منْ تعيينه غادر البلاد حاصلاً على منحة دراسيّة للحصول على الماجستير والدكتوراه في أمريكا، فانقطعت أخباره نهائيًا إلى أنْ عاد وقُلّد منصبًا مهمًا أدّى فيما بعد إلى مناصب أكثر أهميّة جعلته وجهًا وصوتًا بارزين، عبر تلك السّنين. لكنّه اختفى فجأة بعد مغادرته آخر منصب، وعاد بعد سنوات رئيسًا لـ(مجموعة سليمان الطّالع التّجاريّة) التي دمغ شعارُها أغلب المنتجات: مبان، طرق، جسور، مستشفيات، شركات اتّصالات، موادّ غذائيّة. حتّى خال النّاس أنّ الهواء منْ إنتاج سليمان الطّالع. فمجموعته عابرة لكلّ شيء. أخذت وسائل الإعلام وبعض كتّاب الأعمدة في السّنوات الأخيرة يلمّحون لاحتمال تورّطه بعمليّات فساد كبرى، دون أنْ يؤدي ذلك التّلميح إلى نتيجة تُذكر.

استغرق لدقائق فيما منحته ذاكرته منْ مشاهد خاطفة، نهض إثر انتهائها منْ كرسيّه فارًا ممّا تخلقه منْ تساؤلات، وأخذ يتمشّى في

غرفة مكتبه الواسعة كباقي غرف بيته الذي يقع في (عبدون) ، تلك المنطقة التي عمّرتها بنايات الحجر ، ومحالّ لا تقدّم سوى البضائع الفاخرة ، ومقاهٍ ومطاعم ومتاجر ذات ماركات عالميّة .

تأثثت غرفة مكتب سليمان الطّالع بطاولة عريضة فخمة صنعت من خشب الـ(بيبنو) ، ومكتبة ضمّت نسخًا قيّمة منْ كتب قديمة وحديثة في السّياسة والاقتصاد والأدب وعلوم الدّين ، ومقعدين ، وكرسيًا هزّازًا ، وشاشة تلفاز مسطّحة علّقت على الحائط الذي حظي أيضًا بلوحات عالميّة ضمّتها إطارات فاخرة . إضافة إلى خزانة مقفلة لا يطّلع على محتوياتها أحد سواه .

أمام المرآة عاد يلامس وجهه الذي ما عاد للمساحيق والمستحضرات الطبيّة قدرة على تأجيل التّجاعيد وعلامات تقدّم السّن فيه . لامس شعره ، وقد بدا شديد السّواد لمواظبته على استخدامه أصباغًا تخفي الشّيب . تجاوز المرآة ، وفتح درجًا في الخزانة ضمّ عددًا منْ ملفّات احتوت في داخلها قصاصات صحف رُتّبت بطريقة أرشيفيّة تضمّ أخبارًا وتقارير صحفيّة عنه أيام كان مسؤولاً مهمًا ، وقبل أنْ يتّجه ليصبح أحد أكبر رجال الاقتصاد . قلّب الصّفحات يفتّش عنْ ذلك الشّعور بالزّهو ؛ ليصيبه فيتخلّص منْ إحساس راح يهاجمه في السّنوات الأخيرة . قرأ مانشيتات عريضة أشادت بإنجازاته ، ومقاطع منْ حوارات أعدّتها معه صحف عربيّة وعالميّة . أغلق الملف وأعاده لمكانه ، ثمّ التقط ملفًا آخر محشورًا في زاوية الدّرْج ، وجلس في كرسيّه الهزّاز . كانت قصاصات تلك الصّحف مصفرّة ، ومتهرئة . قرأ تواريخها القديمة ، ثمّ شمّها كأنّه يشمّ منديلاً علق به عطر لامرأة سرقها الغياب . أغمض عينيه يتلذّذ بانتقاله صوب أحداث تلك التّواريخ وراح يسمع

هتافًا لمتظاهرين ، ويرى نفسه محمولاً على الأكتاف ، يلوِّح بيديه ويهتف منددًا بالرّجعيّة التي تهدّد حلم الجماهير بحياة فضلى . استرخى في كرسيّه ، فرأى نفسه بين مجموعة من الشّبان يردّدون أغنيات الشّيخ إمام ، حينها أخذ يردّد وهو مستغرق كلمات الأغنية .

ثمّة قرعات متتالية على الباب انتشلته منْ شروده . كانت (ريفال) زوجته الثّانية . ما إنْ رآها حتّى ألقى الملف جانبًا ، وراح يراقب ملامحها بشغف ، رغم عشر سنوات مرّت على زواجه بها اعتبرها قفزة إلى الوراء ، حيث تكمن ذكريات شبابه الذي طالما خشي تلاشيه . راقب شعرها الأشقر المتموّج كيف ينسدل على كتفيها النّاعمتين ، ورأى عينيها الواسعتين بذلك التّقوّس خصوصًا عندما تضحك ، فينكشف فمها الجميل عنْ أسنان ناصعة البياض ، وتتشكّل غمازتان طالما تغزّل بهما . رأى أنّ عنقها الطّويل منح ذلك القرط جمالاً يضاف لجمال صنعته . اقتربت منه وانحنت نحوه فانكشف شيء من صدرها الوافر عن نهدين يتدلّى في ملتقاهما عقد ذهبيّ على شكل وردة سوسنة سوداء . قالت بصوت خفيض ناعم :

– ما بك شارد الذهن؟ كأنّك تراني للمرّة الأولى .

أعاد الملف إلى مكانه ، وأغلق الخزانة بمفتاحها ، وحشره في جيبه ، ثمّ مشى نحوها ولامس كتفيها :

– ما يجعلني أكثر سعادة هو أنّني كلّما رأيتك أجِدُني جديدًا في اشتهائك . أنا محظوظ بك يا نبتة خلودي الأبديّة .

اقتربت منه ، واحتضنتْ وجهه بيديها النّاعمتين :

– بلْ أنا المحظوظة بك .

همّ بتقبيلها ، إلاّ أنّها أفلتت منه بحركة يشوبها دلال مصطنع :

- جئت أذكّرك بدعوتك لي على العشاء هذه اللّيلة في جبل اللويبدة . أنت تعرف كمْ أحبّ ذلك المكان .

أومأ برأسه موافقًا ، ومخفيًا امتعاضه منْ تمنّعها عنه بابتسامة مصطنعة :

- لمْ أنسَ .

هم مرّة ثانية بتقبيلها ، لكنّها أفلتت منه وغادرت المكان ، إذْ قالت ووجهها يطلّ عليه منْ شقّ الباب وهي تمسك به :

- عليّ أنْ أعدّ لحلقة هذا الأسبوع .

- حسنًا . في المساء سوف نذهب إلى حيث تريدين .

قرُع جرس هاتفه النّقال ، إذْ كان المتّصل (رعد عبد الجليل) مستشاره الإعلاميّ ، ورئيس تحرير الجريدة التي يملكها . بصوت يحتلّه الأسى اعتذر رعد عنْ عدم لقاء سليمان حسب الموعد الذي اتّفقا عليه . أخبره أنّ زوجته الدكتورة كِنْدة همّام اختفت ولا أثر لها . وأخبره أنّ الجهات الأمنيّة تحقّق في أمر اختفائها ، وتبحث عنْ أيّ دليل يأخذهم إلى حقيقة ما حدث .

حينما انتهت المكالمة غادر سليمان إلى مكتبه في (مجموعة سليمان الطّالع التّجارية) التي تقع في آخر طابق منْ أحد أبراج (بوليفارد العبدلي) .

***

منْ طرف ستارة نافذة غرفة نومها ، رأت ريفال سيّارة سليمان تغادر البوّابة الخارجيّة للبيت . أجرت مكالمة هاتفيّة مع محطّة التّلفاز التي شيّدت كهدية لزواجها بسليمان الطّالع ، وأخبرتهم بعدم مجيئها رغم أنّها أخبرت زوجها بضرورة مغادرتها البيت . في ذلك الصّباح

رغبت بأنْ تلوذ بنفسها ، وقرّرت أنْ لا ترى أحدًا . إنّه ذلك النّوع من العزلة حينما تتصاعد منْ أقبية النّفس السّريّة نغمة حزينة كتلك التي ما انفكّت عن الانسياب داخلها . نغمة خفيّة لمْ يلمس أحد ممّن حولها أيَّ أثر لها على وجهها الذي أخفت ملامح الأسى فيه بالمساحيق ، وبضحكات ما إنْ تغادر فمها حتّى تختنق سريعًا دون أيّ صدى . كانت تئن بسرها كأنّ عازف (دودوك) يوغل باستعادة سيرة مطوّلة للوجع . تأكّدت منْ أنّ باب الغرفة موصد ، ثمّ خلعت ملابسها ومشت نحو غرفة الحمّام ، ووقفت تحت صنبور الماء ، وأرخت جسدها لزخّاته مغمضة عينيها ، تستجدي طيورًا تأتي وتنتشل ما يشيع بها القلق ، تمامًا كما تنتشل النّوارس صغار الأسماك من البحر .

فكّرت بشكل علاقتها بسليمان في الأيام الأخيرة .كانت تبتكر الأعذار لتحميها منْ تساؤلاته الصّامتة حيال ذلك الجفاء ، وفي داخلها يكبر شعور موجع . فكّرت بتلك السّنين التي سبقت زواجها به ، فاستسلمت لتدفّق نهر قادم من أرض أيام عاشتها منْ قبل . أيام حافلة باخضرار لا يشبه اخضرارها المزيّف الآن . استسلمت أكثر لتوالي الذّكريات ، فأحسّت بنسمةٍ طريّة تلامس شغاف قلبها الذي لم يطلّ أحد في كوته السّريّة ليرى ما فيه . فكّرت بكونها وحيدة رغم كلّ قامات الصّخب التي نمت حولها ، فراحت دموعها وهي تنصاع لبكاء صامت ، تختلط بخيوط الماء ؛ لتدرك أنّ

«البكاء بمعيّة الماء ، مداراة ليس لشكل الدّموع وهي تسحّ على الوجه ، إنّما لتلك التي تهبط من أعالي الروح إلى حفرة في القلب ؛ لتزيد بمخزون الفجيعة» .

غرقت بنشيج تلقّفت أصداءَه جدرانُ غرفة الحمّام لدقائق حينما

انتهت منه جففت جسدها وارتدت رداء قطنيًا ، ثمّ حملت علبة سجائرها وخرجت إلى شرفة تطلّ على عبدون وكأنّها تشرح كيف نمت تلك البنيات فيه بسرعة ، وصار حديقة حجارة تعتمر بناياتها قبّعات قرميديّة ، وكيف تتلوّى الشّوارع في طرقاتها وهي تضجّ بسيّارات فارهة ، ومارّة يقتادون كلابًا غالية الثمّن ، وقططًا سياميّة كأنّ تلك المنطقة قطعة منْ مدينة أمريكيّة . تنفّست بعمق تستجدي الهواء ليهدهد كائنات قلقة في رحم بالها ، وبساقها دفعت الأرجوحة التي جلست بها ؛ إذْ راحت تهتزّ وعيناها مصوّبتان على مبنى غاليري (الحواسّ الخمس)الذي بدا لها عبر ذلك الاهتزاز كبندول ساعة يشير إلى دفتر عتيق مخبّأ في ذاكرتها . بقيت الأرجوحة توغل في حركتها أمامًا ووراء إلى أنْ غفت وقدْ انتشرتْ على وجهها ملامح طفلة لا يعنيها منْ هذا العالم سوى براءة الفكرة عن الحياة .

٢

حينما غادر سراج مكتبه عائدًا إلى القصر لم يخبر أحدًا أنّه سينضمّ إلى الحفلة الغنائيّة التي ستقام على مسرح غاليري (الحواسّ الخمس) . عبر نافذة غرفتها رأته وداد يترجّل منْ سيّارته ، ويخرج من جيبه سلسلة مفاتيح اختار إحداها ، ومشى نحو باب غرفة تقع بجانب كراج السّيّارة . فتح بابها ثمّ أغلقه وراءه بسرعة . بقيت وداد تقف إلى النّافذة ، بينما يعاودها التّساؤل نفسه كلّما رأته يختفي لنصف ساعة في ذلك المكان . غابت لوقت ، استلقت عبره في سريرها ، ثمّ عادت تقف إلى النّافذة تراقب باب تلك الغرفة عبر شقّ السّتارة إلى أنْ رأته يخرج ، ويتّجه نحو باب القصر . هبطت مسرعة وهي تصلح منْ هيئة شعرها ، وتشدّ ملابسها ، ثمّ تفقّدت وجهها في مرآة معلّقة على جدار الصّالة ، ومشت نحو الباب بخطوات متمهّلة ، إلى أنْ أشرع ، فأطلّ سراج بوجه مبتسم .

بصوت هادئ تناغم مع سكون القصر الذي ضبطت فيه درجات الحرارة بشكلٍ صحيّ ، وضبطت فيه حسّاسات الصّوت والرّائحة والضّوء ، ألقى سراج التّحيّة عليها . كانت أصابع يديها تتشابك بطريقة تنمّ عنْ ارتباك لمْ تستطع أنْ تتخلّص منه منذْ أنْ التقيا في غرفة نومه في تلك اللّيلة ، ومنذ عودتها للغرفة بعد مغادرته ، ومشاهدتها اللّوحة المرسومة في سقفها :

- مساء الخير سيّد سراج .

ألقى نظرة عميقة على المكان، ونحو السّلّم الذي يصعد إلى الطّابق الثّاني حيث تقع غرفته. مشى بتريّث كأنّه لصٌّ يضبط خطواته تحسّبًا منْ أنْ يكشف أمره. قالت وهو يخلّف وراءه عدّة درجات:

- هلْ تفضّل شيئًا على العشاء خارج البرنامج هذه اللّيلة؟

قال دون أنْ يلتفت إليها:

- هذه اللّيلة سأكون في الغاليري.

في غرفته تعرّى منْ ملابسه كاملة، ثمّ التقط الـ(ريموت كونترول) وداس على زر التّشغيل فيه، فتدفّقت في المكان موسيقى (تشيللو) منفردة. وقف في منتصف الغرفة وراح يراقب جسده في المرايا التي تنتشر على الجدران الأربعة. كان يلتفت ويستدير نحو كلّ مرآة كأنّه يفتّش عن شيء ما. بدأت التفاتاته واستداراته بطيئة، ثمّ أخذت حركاتها تتصاعد مع تصاعد وتيرة الموسيقى، وملامح وجهه تتبدّل مع كلّ استدارة نحو إحدى المرايا بينما شفتاه تتحرّكان كأنّهما لمْ تصمدا أمام صراخ يجيء منْ أماكن قصيّة في روحه. بقيت وتيرة الموسيقى تتعالى وحركاته تزداد إلى أنْ جثا على الأرض، ولهاث شديد يتلبّسه كأنّ جنيًا يستبيحه ويوجعه. بقي في مكانه لدقائق نهض بعدها وكأنّ شيئًا لمْ يحدث، ودخل الحمّام وموسيقى التّشيلّلو تتسلّل إليه منسابة بهدوء كأنّه هو عازفها. أعاد حلاقة ذقنه بعناية؛ فلم يترك فيه ولو شعرة واحدة تبرز منْ جلد وجهه النّاعم، ونظّف أسنانه جيِّدًا، ثمّ استحمّ باهتمام كبير؛ إذْ كان يفرك جسده كأنّه يريد للصّابون الطّبيعي الذي يستخدمه أنْ ينفذ إلى مسامه. اختار بذلة رماديّة اللّون، وقميصًا أزرق، وربطة عنق ضمّت تعرّجات رماديّة وتمويجات زرقاء، وارتدى حذاءً بنيًا لامعًا. ثمّ ارتدى ساعته الـ(روليكس) وخاتمه الذّهبي،

وتأكّد منْ تسريحة شعره . ابتعد عن المرآة بخطوات وراقب هيئته ، ثمّ عاد ورشّ بضع زخّات عطريّة على عنقه ، ورسغيه ثمّ خرج يمشي بالخطوات نفسها .

***

في الغاليري بدت له الصّالة - التي تفضي إلى مسرح ضخم ، وممرّ يؤدّي إلى معهد لفاقدي البصر- تعجّ بعدد كبير من محبي الفنّانة (سوار) . فقد أقيم الحفل دعمًا لمشروع الغاليري الذي تبنّى عددًا من أطفال الإشارات الضّوئيّة .

فضّل سراج أنْ يمارس سعيد عبد الباري دوره كالمعتاد ؛ فقد رغب بأنْ يتابع الحفل بمعزل عنْ كونه مديرًا عامًا للغاليري . انشغل سعيد بمتابعة التّرتيبات الفنيّة بينما سراج يتجوّل بين الحضور منتظرًا مثلهم موعد الحفل . كان يراقب الوجوه كأنّه يفتّش عنْ وجه ما بينها . رأى وجوهًا لنساء ولرجال بأعمار متفاوتة ، منها ما هو هادئ ينتظر لحظة الدّخول لقاعة المسرح ، ومنها ما هو متلفّت وضاحك . سار نحو مقعد في الصّالة وجلس عليه ، ثمّ راح في سهو انصاع عبره لمزيج الأصوات . يحدث في لحظات كتلك أنْ يتفقّد سراج حواسّه المهووس بشأنها ، وأنْ يختبر براعتها التي حظي بها منذ الصّغر ، عندما كانت أمه تمسك بأنفه المدبّب حينما تفقد شيئًا في البيت ، فتستعين به (تعال معي ، إنّ لك حاسة كحاسّة الكلاب في الشمّ) .

كأنّه أعمى أخذت أذنه تتبيّن الأصوات وتفكّكها ، كلّ على حدة ، وهو يغمض عينيه ، ويتمتم بسرّه (هذا صوت امرأة تفرط في التّدخين . أوتارها الصّوتية مصابة بتلك البثور التي تشتّت انسياب الصّوت وهو يجيء منْ اهتزاز الأوتار ، وارتعاشها . هذا صوت رجل

متلكّئ ، يبدو كذئب يقترب من الطّريدة ثمّ يبتعد لسبب خفيّ يختبئ في باله . ذاك صوت حذاء امرأة سمينة تبدو نقلات حذائها بطيئة ، وفيها قسوة غير مقصودة على وجه أرضيّة المكان . هذا صدى خطوات لامرأة قصيرة . القصيرات خطواتهن عجولة كالنّحل حينما ينتقل منْ فم زهرة إلى أخرى ، بينما الطّويلات كالفَراش حينما يهفو للضّوء متمهّلاً دون أنْ يعنيه تاريخ الفَراش الذي صار الضّوء مثواه الأخير) .

تأمّل حاسّة السّمع ، وتأمّل فكرة أنَّ الشَّخصيَّة محض انعكاس لجمال داخليّ لا يمكن أنْ نراه إلاّ إذا استخدمنا تلك الحاسّة جيّدًا . فثمّة حواجز خادعة توقع بعضنا بفهم خاطئ ، كأنّ يتحدّث إليك أحدهم وهو يصدر كلمات طيّبة بنبرة صوتيّة تجمّل الحالة ، لكنّ الذي يحدث ما هو إلا لعبة صوتيّة بحتة . أغمض عينيه مرّة أخرى وراح يختبر حاسّته في الشّمّ ؛ إذْ أخذ يفكّك روائح العطور ، وروائح العرق ، وروائح السّجائر العالقة بثياب بعض منْ أمّوا الصّالة ، ورائحة اللّبان التي كانت تتسلّل منْ بين تلك الرّوائح . اختبر عينيه كأنّهما كاميرا سينمائيّة ، وهي تأخذ نظرات عميقة وبعيدة ، للوجوه والأجساد . لامس مسند المقعد النّاعم ، ثمّ أرخى رأسه إلى الوراء قليلاً ، وفكّر بما يمكن أنْ يحدث . فكّر بشيء مبهم يمكن أنْ يحدث فجأة . ثمّة صوت داخله كان يصرخ ، كأنّه يلقي خطبة أمام حشد غفير منْ أناس حلّت عليهم مصيبة (الحواسّ جبهتنا الأولى والأخيرة للنّجاة منْ كلّ هذا الخراب ، إنّها الضّوء الذي طالما ألقيناه في حقل مظلم يمتدّ على طرف الطّريق التي مشينا فيها من دون ضوء) .

نادى صوت منْ مكبّر في الصّالة منبّهًا الجمهور لضرورة دخولهم إلى قاعة المسرح . امتثل الموجودون هناك إلاّ بعض من بدا أنّهم

ينتظرون شيئًا ما . جاء سعيد عبد الباري ، وأخبر سراجًا أنّ مكان جلوسه في المقصورة ، وأنّ الحفل رغم دخول منْ أمّوا المسرح سوف يبدأ بعد عشرين دقيقة ، فلا ضير لو مكث جالسًا إلى حين الموعد الفعليّ بدقائق . لكنّ سراجًا فضّل الجلوس بين النّاس ، وفي الصّفوف الخلفيّة .

عندما غادر سعيد ثمّة حارسان شخصيّان أخذا يفتحان طريقًا بين النّاس ؛ لتمرّ الفنّانة سوار التي أخذت منذ وصولها توقّع صورًا لها ، وتحيي معجبيها .

لم يرها سراج سوى لبرهة من الوقت وهو يجلس في مكانه ، بينما تجمّع النّاس حولها . لكنّ تلك المدّة الزّمنيّة القصيرة كانت كافية لتحتفظ ذاكرته بملامحها الأميريّة : شعر بني مسترسل حتّى خاصرتها ، يلحق بحركات رأسها الهادئة ، وجه طفوليّ بريء رغم سنينها الأربعين .

عندما ابتدأ الحفل كان سراج يجلس في الصّفوف الخلفيّة مستسلمًا لسكونه الاعتياديّ . خرج سعيد عبد الباري على الجمهور ، وقرأ كلمة قصيرة بيّن فيها دور الغاليري في الاهتمام بأطفال الإشارات الضّوئيّة ، والأطفال الذين تركوا مدارسهم مخلّفين وراءهم عالم الطّفولة والمدرسة . فتحت السّتارة على فرقة موسيقيّة تألّفت من عشرين عازفاً وعازفة ، فأعطى المايسترو لهم إشارة البدء . أخذت الموسيقى تنساب هادئة ، ثمّ راحت تتصاعد شيئًا فشيئًا إلى أنْ أخذ مقام الصَّبا يغمر قلوب المنصتين بالدفء ، فألقيت بقعة ضوء بانت منها سوار تقف خلف الميكروفون كغزالة تختفي بظلّ شجرة ، فانطلقت تردّد كلمات أغنيتها .

كان لها صوت جميل ، استحال بعد أنْ سمع نبرته الأولى

فأغمض عينيه إلى ريش ورديّ يهجم عليه فيرتطم بوجهه . شعر بأنّ جسده معطلاً كأنّ قدرة الحركة فيه قد انسلّت منه ، وحلّقت بعيدًا ، لكنّه استسلم لإحساس من اللّذة جعله يشعر بروحه تغادر بدنه ، ثمّ تراقبه منْ بعيد . لذّة فعلتها ذبذبات صوتها الذي أروى مسامعه ، بينما ذاكرته تروح لصوت امرأة قادم منْ قميص أيامه القديمة ، أحبّها كما لم يحبّ رجل امرأة . اجتهد في أنْ يطرد تلك الذّكريات ، ونجح ، فأمضى وقته ينصت لسوار دون أنْ يحسّ بأيّ صوت في صالة المسرح إلاّ صوتها ، ودون أنْ يرى أحدًا غيرها ، وكأنّ قدرة البصر اقتصرت على دائرة ضيّقة ضربت حولها .

قبل أنْ ينتهي الحفل بوقت قليل غادر القاعة ، وراح يتمشّى حول الغاليري الذي نهضت أضواؤه في تلك اللّيلة بسطوع استثنائيّ ، يعقد يديه وراء ظهره ويتمشّى في الممرّات المتعرّجة وهي تطوف بالمكان ، لا يفكّر بشيء ، إنّما يحتفي بلحظة صفاء آسرة . سار بعيدًا عنْ بوّابة الغاليري العريضة إلى أنْ وصل إلى المدخل الذي تتوسطه بوّابة معدنيّة كبيرة ، على يمينها غرفة للحارس الذي ما إنْ رآه حتّى نهض يحييه ، لكنّه أمره بلطف أنْ يعود لمكانه . استدار نحو الغاليري ، واتّكأ على السّور ، وراح يراقبه . تذكّر الوقت الذي أمضاه المهندسون والبنّاءون في تنفيذ فكرة الغاليري وقدْ بقيت لزمن تكبر في مخيّلته ، ثمّ ضجّت في باله اللّوحة المرسومة في سقف غرفة نومه .

عند انتهاء الحفل أخذ مرتادو المسرح يغادرون سالكين البوّابة الثّانية للغاليري . حين خلا المكان إلاّ منْ روّاد المكتبة ، والمقهى وبعض مرافق الغاليري ، عاد سراج يتمشّى حول المبنى ، لكنّه في تلك المرّة كان أسيرًا لما استعادته ذاكرته منْ ليلة عيد ميلاده مع وداد . صوّب

بصره نحو عمّان المترامية الأطراف في تلك اللّيلة الصّيفيّة ، وأضواء بيوتها المتسلقّة أكتاف الجبال تشقّ عباب بحر اللّيل الغزير . تذكّر تلك اللّيالي التي كان يمضيها بمعيّة سعيد عبد الباري في جبل القلعة ، وكيف كانا يريا عمّان في الليل ، وكأنّ كلّ ذلك الزّحام وحرارة الطّقس والضّجيج الذي يلفّ المدينة لم يكن إلا وهمًا . (عمّان عالم كبير رغم صغر مساحتها) قال بسرّه وهو ينظر نحو البنايات التي كانت أضواؤها تعلن عنْ علوها . (نعم عالم كبير ، جاءها هاربون منْ نيران الحروب ، وتجّار لم يسألهم أحد منْ أين لكم كلّ ذلك المال . جاءها مريدون ، وكارهون ، وخائفون ، وجاءها منْ يفتّش في جنباتها عنْ رغيف الخبز رغم صغر البيدر . جاءها مَن تستهويه حجارتها العتيقة ، وما تبقى منْ شواهد تواريخ مضت . يتعارك فيها السّاسة والمثقّفون وهم يرفعون أصابع الدّيمقراطيّة بوجه بعضهم البعض ، لكنّها لم تتغيّر . عمّان فتاة قرويّة ترتدي مني جوب قصيرًا ، وتدخّن سيجارًا كوبيًا ، وتشرب نبيذًا فرنسيًا ، وتتبختر في الشّارع وهي تقتاد كلبًا بسلسلة ذهبيّة . لكنّها حينما تعود إلى بيتها ، تدرك أنّها ما تزال تحلم بأنّ تتغيّر)

من البوابة خرج سعيد عبد الباري والفنّانة سوار يتبعهما حرّاس شخصيون . كان سعيد يثني على أداء سوار في تلك اللّيلة ، حينما رأى سراج يتّكئ على الجدار مطلاً على الأفق الذي اخترقته أشكال عشوائيّة لألعاب ناريّة بألوان مختلفة . ترك سوار ومن معها ، ومشى بخطوات عجولة نحو سراج :

- هلْ هنالك منْ مشكلة؟

قالّ ذلك وهو يراقب عينيّ سراج المحدقتين بسهو عميق .

- لا ، لا ليس هنالك منْ شيء .

لاحظت سوار أنّ سعيد عبد الباري يتحدّث باهتمام مع سراج ، فاقتربت مبتسمة بوجه سراج . حينها قال سعيد بلهجة معتذرة :

- أعرّفك بالسّيّد سراج ، المدير العام للغاليري ومالكه .

مدّ سراج يده مصافحًا سوار :

- في صوتكِ طائر لنْ يطال أجنحته الوهن .

صمتت لقليل من الوقت تتأمّل عبارته ، وفي عينيها ذلك البريق الذي يولد حينما يمتدح رجل امرأة :

- تروقني عبارات المثقّفين رغم غموض بعضها . لكنّي كنت سأكون سعيدة أكثر لو أنّك قلت إنّي امرأة لا تشيخ .

- وهل ييبس الغصن قبل الجذع؟

قالت بعد أنْ أومأت لحرّاسها الشّخصيين بأنْ يبتعدوا :

- لك حكمة الشّعراء .

أخرجت منْ حقيبتها بطاقة فيها رقم هاتفها الشّخصيَ ، ودسّتها في جيب قميصه ، بجسارة امرأة قرّرتْ أنْ تصطاد رجلاً :

- حدّد موعدًا لنكمل حديثنا .

قالت ذلك ، ثمّ مشت بخطوات امرأة مدلّلة نحو السّيارة . قبل أنْ تغادر ، لوّحت له من وراء الزّجاج وهي تلقي عليه نظرة متفحّصة .

٣

كان مبنى غاليري (الحواسّ الخمس) يكبر أكثر، كلّما اقتربت السّيّارة التي تقل ريفال وسليمان الطّالع إلى جبل اللّويبدة، وهي تهبط الشّارع الذي يحاذي قصر العدل. كان سليمان يجلس قرب النّافذة الخلفيّة اليسرى للسّيّارة، بينما تجلس ريفال قرب اليمنى، يحدّق كلّ منهما إلى جهة كأنّهما متخاصمان. تراقب ريفال المرأة التي شيّد ذلك المبنى الغريب على هيئتها، دون أنْ يرفّ لها جفن، تمامًا كطفلة تسهو ببحر حلمت بأنْ تطأ شاطئه. أمّا سليمان الطّالع، فكان يشاهد المحالّ والبنايات التي أخذت تتعالى في الهواء في الأيام الأخيرة. كان ينظر إلى ماركاتها، والأسماء المكتوبة بها، ويلهو بلعبة تجعله يرى اسمه بدلاً من الأسماء المختلفة التي تمرّ أمام العين. يتنهّد ما بين الفينة والأخرى كولد جائع يراقب مطاعم تعرض (فترينانتها) نماذج منْ أطعمة وحلويّات تقدّمها للزّبائن. بسرّه كان يتمنّى بشراهة لوْ أنّه يرى اسمه على كلّ بناية ومحل، وفي كلّ شارع.

حينما صعدت السّيّارة ومرّت بقرب (مسجد كليّة الشّريعة) حيث يبتدئ مزاج اللّويبدة، وحيث الرّوح السّريّة التي تمدّ يدها وتقتاد الزّائر بكلّ حنوّ، التفت سليمان نحو ريفال وهي غارقة في تأمّلها بالغاليري، ثمّ نظر نحو قمّته حيث لاح رأس المرأة وهي تحدّق بعينين ساهمتين نحو يديها الفارغتين. راح، ومسجّل العربة ينقل أغنية ماجدة الرّومي (وعدتك ألاّ أحبّك)، يتنقّل ما بين وجه ريفال، ووجه المرأة التي اتّخذ

الغاليري ملامحها ، ثمّ أمر السّائق بلكنة لمْ ينجح فيها أنْ يداري توتّره بأنْ يوقف المسجّلة . لامس يد ريفال ، متداركًا انفعاله ، وهي تضعها على يدها الثّانية في حجرها :

- لا أريد لأيّ شيء أنْ يخترق لحظاتنا ، حتّى ولو كانت الموسيقى التي تحبّينها .

قال ذلك بعد أنْ ابتسمت ريفال بطريقة تشبه ما يفعله دبلوماسيّ أمام كاميرات الصّحافيين ، وعادت تمسح ببصرها الشّوارع والنّاس الذين يغذّون خطاهم بهدوء ، مستخدمين أرصفة أطلّت منْ أطرافها محالّ ومقاهٍ يرتادها شباب ، منهم منْ يقرأ في كتاب ، ومنهم من يجالس آخرين ويغرقون بأحاديث وشت بها حركات أياديهم المستمرّة . ثمّة موسيقى كانت تتهادى منْ بال ريفال ، وهي تحظى بالمشاهد الأولى للوييدة بعد غياب عنها استمرّ لسنوات ، فاختطفتها ذاكرتها إلى حيث البداية .

ولدت ريفال لأب يعمل شيّالاً في سوق السّكر ، ولأمّ لا عمل لها غير تربية أولادها الذين بلغوا العشرة . تسع بنات ، وولد . كانت فتاة منعزلة ، لا علاقات لها كباقي الفتيات ، لا في المدرسة ولا في الحيّ الشّعبيّ الذي تقطنه . حتّى إنّها لا ترافق أمها إلى الأفراح التي تعتبر مناسبة مهمّة لترويج الفتيات للزّواج ، رغم جمالها الصّارخ . ففكرتها عن الزّواج بدت سيّئة منذ الصّغر ، لما وجدته من ضيق حال تمرّ بها أسرتها . فقد كتبت ذات يوم في دفتر مذكّراتها الصّغير قبل أنْ تدسّه تحت وسادة النّوم في غرفتها التي تشاركها فيها شقيقاتها التّسع فكرتها عن الزّواج :

«أمضى أبي سنينَ من عمره راغبًا بولد يحمل اسمه ، إلى أنْ جاء

بعد أنْ أنجبت أمي تسع بنات ، ربحت إثر إنجابهنّ ارتفاع ضغط الدّم ، والسّكر ، وآلام المفاصل ، والمزاج المتعكّر ، والولولة الدّائمة . ما الذي كان سيجري لو قبل أبي بفكرة أنّ الفتيات يمكنهن أنْ يعمرن العالم . لكنّه لم يفهم ذلك ، ولم يُجبنِ حينما صرختُ بوجهه ذات يوم (أنت اقترفت بحقّنا ذنبًا لا يغتفر ، حينما أنجبتنا) . حدث ذلك عندما أصبنا بالتهابات مهبلية بسبب استخدامنا لقطع القماش ، بدلاً من الفوط الصّحية ، والدّورة الشّهرية تأتينا أنا وشقيقاتي اللاّئي لا تفصلنا عنْ بعضنا مسافات زمنية طويلة ، لترتاح أمّي منْ مهمّة التّفريخ ، وزيادة نسبة المعوزين في هذا العالم . حينما رحت أرتدي حمّالة الصّدر اشترت لي أمّي واحدة منْ ذلك النّوع الرّخيص الذي يعرض في وسط البلد ، وكلّما اهترأت راحت أمّي تخيطها منْ جديد . قالت لي ذات مرّة وهي تحاول جاهدة أنْ تدسّ الخيط في الإبرة ، تخفي وراء ابتسامتها اعترافًا واضحًا بفجيعة كبيرة (حينما تتزوّجين سيشتري لك زوجك كثيرًا منْ حمّالات الصّدر ، وقمصانًا للنّوم بألوان وأشكال عديدة . الرّجال يا بنيّتي يحبّون هذه الملابس ، إنّها تجعلهم مثل الخيول الهائجة) . وقتها صرخت بوجهها بكلّ قسوة (لنْ أورّط نفسي في اقتراف ذنب كالذي فعلتموه . اللواتي على شاكلتي لا يصلحن للزواج) .»

لم تبق امرأة منْ نساء الحيّ إلا وطلبت يد ريفال لابنها أو لشقيقها ، لكنّها امتنعت عن الزّواج ، وتفوّقت في المدرسة ، ثمّ انتسبت للجامعة ، ودرست فيها الإعلام . كانت تحلم أنْ تصبح إعلاميّة شهيرة مثل (أوبرا وينفري) التي كانت تشاهدها على شاشة تلفاز لا يعمل إلا إذا ضرب لأكثر منْ مرّة . كانت ترى أنّ حلمها يمكن أنْ يتحقّق خاصّة أنّ (وينفري) أتت منْ بيت فقير ، ومنْ أبوين

منفصلين ، لكنّ ذلك لم يحدث لها . فقد أمضت سنينَ تقرع فيها أبواب الصّحف ، والإذاعات ، والمحطّات التّلفزيونيّة دون جدوى ، إلى أنْ عثرت على محطّة تلفزيونيّة تبتزّ الموظّفين ، تعيّنهم وتمنحهم أجرًا زهيدًا ، مقابل أنْ يحصلوا على الخبرة ، إلى أنْ تعرّفت بسليمان الطّالع .

حينما اصطفّت السّيّارة بباب المطعم ، كانت ريفال ما تزال أسيرة شرودها ، فمدّ سليمان لها يده بكلّ لباقة بعد أنْ التفّ إلى الجهة الأخرى حيث تجلس ، وبعد أنْ فتح موظّف استقبال المطعم بابي السّيّارة . صعدا درجًا ملتويًا نحو الطّابق الثّاني للمطعم ، وهي تمسك بذراعه ، ثمّ جلسا في طاولة قرب واجهة زجاجيّة تطلّ على غاليري ((الحواسّ الخمس)) ، وأضواؤه تتمطّى في سماء تلك اللّيلة بكلّ جسارة شعرت بها ريفال تعنيها وحدها ، دون كلّ منْ ينظرون إلى ذلك المبنى وجماله عبر واجهة المطعم . تركت الخيار في طلب طعام العشاء لسليمان . كلّ ما كانت تريده هو أنْ لا تبدّد ثانية منْ احتفائها السّريّ ، وتحديقها بمبنى الغاليري . في سرّها أدركت أنّه كان عليها أنْ تأتي وحدها في تلك اللّيلة ، لكنّ ذلك ولو حدث سوف يثير شكوك سليمان الذي تعرف أنّه يعدّ عليها حتّى أنفاسها . لمْ يسألها لماذا اختارت هذا المطعم ، وهذه الطّاولة بالذّات . من عاداته أنْ لا يسأل عنْ أمور تثير شكوكه مثل تلك . فأحد أهمّ أسرار نجاحه ، كما رأى صديقه الجديد الصّحفي رعد عبد الجليل ، هو المقدار العالي منْ شكّ يسيّر كلّ شؤون حياته ، كأنّه بوصلته . لمْ تكن معرفة سليمان الطّالع برعد عبد الجليل معرفة عاديّة ؛ إذْ إنّ كلاً منهما يكنّ للآخر كرهًا خفيًا ، لكنّ غلافًا من الصّداقة المزوّرة ما يزال يخدّر كائنات الكره لديهما . كان رعد عبد الجليل قدْ امتلك وثائق تدين سليمان الطّالع ، وتفضح تورّطه

بعمليات فساد كبرى ، فأخذ يلّمح لذلك في مقالاته اللاّذعة . حاول سليمان الطّالع مهادنته وشراءه لمرّات كثيرة لكنّ رعدًا لم يقبل ، فتدبّر له تهمة ، فحواها أنّ له علاقة بجماعات إرهابيّة ، أودت به إلى سجن أمضى فيه شهرًا ، ثمّ أفرج عنه ، فتبدّل حاله ، وأصبح منْ أكثر النّاس قربًا لسليمان الطّالع . دون أنْ يدري أحد ما الذي حدث ليتحوّل رعد عبد الجليل منْ صحفيّ ملتزم إلى قلم ناطق باسم سليمان الطّالع . لم يره سليمان منذ أيّام ؛ إذ ينشغل باختفاء زوجته الدّكتورة كِنْدة همّام التي لم تدّخر الجهات الأمنيّة جهدًا في العثور عليها .

تناولا الطّعام بهدوء ، تتخلّله عبارات قصيرة ، ونظرات خاطفة مقتطعة من زمن التّحديق المستمرّ لكليهما بغاليري (الحواسّ الخمس) . جفّف سليمان فمه بطرف الفوطة ثمّ أشعل سيجارَه ، وألقى نظرة عميقة على الغاليري ، ثمّ قال ودخانه يتناثر منْ كلماته وهي تخرج منْ فمه :

- لهذا الغاليري فكرة مجنونة يقف خلفها شخص مجنون على ما يبدو .

قال حينما وجد ريفال ما تزال تنظر خارج الواجهة الزّجاجيّة :

- يبدو أنّ صاحبه فنّان . تعرفينه؟

- لا .لا أدري منْ صاحبه .

قالتْ ذلك ، وراحت توحي له بأنّها تكمل عشاءها ، ثمّ استدركتْ :

- أنت تعرف حبيبي أنّنا كنّا خارج البلاد حينما بني هذا المكان .

وكأنّ سليمان كان ينتظرها أنْ تتخلّص منْ سهوها ، راح يحدّثها عن الغاليري :

- يبدو لي أن صاحب الفكرة يميل للخيال أكثر ممّا ينظر إلى الواقع . مبنى بطوابق خمس على هيئة امرأة تنظر إلى يديها . منْ حيث الشّكل الفنيّ هو عمل خلاّق تفرّدت به عمّان . عمل استخدمت فيه كلّ الإمكانات الطّبيعيّة والصّناعيّة على ما يبدو ؛ ليصيب كلّ من يراه بالدّهشة ، بل حتّى بملامسة خيط خفيّ من السّحر . لكنّ هذا ناقص منْ وجهة نظري ، لم يكنْ عليه أنْ يجعل يديْ المرأة فارغتين بهذا الشّكل . الفراغ هنا حركة فنيّة غير مبرّرة .

- ربّما هذا هو الواقع .

قالت ريفال ذلك ، واستأذنت للذّهاب إلى (التّواليت) . كان في خطواتها ، وحذائها ينقر الممرّ الذي اقتادها إلى هناك ، ارتباك خفيّ ، لم يلاحظه سليمان ، لقد كان منشغلاً بتفحّص الغاليري الذي بان له عبر الواجهة الزّجاجيّة كأنّه لوحة . استعاد ما قاله لريفال عن الغاليري ، وألقاه بعيدًا من ذاكرته ، ثمّ راح يفكّر بأمر آخر .

٤

عاد سراج من عمله مساء . ألقى التّحيّة على وداد ، ثمّ صعد نحو غرفته . هبط في حوض الاستحمام بعد أنْ مزج الماء الدافئ بمحاليل الأعشاب ، وبقي لنصف ساعة مسترخيًا لا يفكّر بشيء . إنّها طريقة تشبه تمارين اليوغا فيطرد ما يقلق الرّوح . فسراج لا يستخدم ولا يتناول ولا يتعاطى أيّ شيء غير طبيعيّ . يخشى بشكل غريب على صحّته ، هذا الخوف الذي لم يكن يتلبّسه قبل أنْ يغادر عمّان إلى ولاية ويسكنسون الأمريكيّة يوم ١٠ سبتمبر ٢٠٠١ . قبل ذلك التّاريخ كان شخصًا آخر ، وبعده تحوّل إلى واحد غير الذي كان ، تمامًا مثلما غيّر يوم ١١ سبتمبر تاريخ العالم ، وصار فاصلاً لزمنين لا يشبّهان بعضهما البعض ، حيث الحروب وأدخنة القذائف وزعيق الطّائرات الحربيّة ، وعويل الثّكالى . قبل ذلك التّاريخ ، تاريخه هو ، لم يكنْ بذلك الهوس بحواسّه الخمس ، ولا بذلك الخوف الشّديد على صحته ، ولا بتلك الميكانيكيّة القاسية في تسيير أمور حياته . في السّنوات التي أمضاها في ويسكونسن ، بذل جهدًا عنيفًا للتخلّص منْ كلّ ما كان يحزّ روحه ، وجسده ، وقلبه ، ومنْ كلّ آثار ما دفعه لهجرة عمّان . لكنّ ليلة اللّقاء بوداد في غرفته ، صارت تاريخًا فاصلاً أيضًا ، جعله يكتشف أنّ ما بذله منْ جهود ، هي محض أوهام ، وأقنعة ، ما يزال يعاند بارتدائها الحقيقة .

أفرغ الحوض ممّا فيه ، ووقف تحت صنبور الماء يفرك جسده بصابون

ظلّت رغوته تسحّ على جسده ، وهو يلامسه بتودّد كأنّه يستنطقه ، لكنْ ما منْ إشارة دلّت على أيّ رغبة قادمة .

كانت وداد تقف قرب طاولة العشاء ، بعد أنْ غادرت الخادمات بناء على أوامرها . أعدّت له حسب البرنامج اليوميّ طبق خضار مسلوق ، وبضع شرائح خضار طازجة ، وكأسًا من عصير البرتقال الطّازج ، تناوله بوقته المشار إليه في البرنامج ، وصعد إلى غرفته . جلس قبالة البيانو وأخذ نفسًا عميقًا ، كأنّه يواجه جمهورًا عريضًا في دار للأوبرا ، وراح يعمل على تأليف الأوبيريت الذي يحلم بإنجازه . كان يعزف تارة ، ويعكف تارة أخرى على تدوين ما عثر عليه في دفتر النّوتة . يغمض عينه يفتّش عن اللّحن في سماء مخيّلته ، ثمّ ينهض ويتمشّى في غرفته ، ثمّ يستلقي في سريره . وما إنْ تهجم عليه لوحة السّقف ، حتّى يغادر السّرير بعد تحديق قصير . يطالع نفسه في المرايا المتناثرة على جدران الغرفة . يركض نحو البيانو ، ثمّ يأخذ بعزف ينتهي بالتّدوين في دفتر النّوتة .

حمل دفترًا صغيرًا وقلمًا ، وغادر إلى الشّرفة ؛ ليعمل على كتابة القصائد الغنائيّة التي تخصّ الأوبيريت . جلس في أريكة ملاصقة للجدار ، وألقى بالدّفتر جانبًا ، ثمّ سرَّح بصره عبر المساحة الغربية للقصر ، حيث الجبال ، والسّهول الخالية إلا منْ اللّيل وهو يتدفّق عبرها ، ومنْ نسمة تمرّ بين الأشجار والنّباتات والأشواك . كان السّكون يخيّم على المكان رغم أصداء خفيفة لحفيف الأشجار ، واحتكاك الأشواك ببعضها ، إلى جانب أصداء بعيدة لأجراس أغنام ، يرافقه نباح كلاب الرّعاة . أصاخ سمعه جيّدًا يختبر حواسّه . لقد باتت طريقته التي يثبت جدواه عبرها . ركّز أكثر بصدى جرس لقطيع أغنام

بدا له بعيدًا بعض الشيء . رأى في مخيّلته أنّ لصًا يعدو في تلك اللّحظة على القطيع ، بينما النّعجة تفرّ هاربة منْ يديه . رفع رأسَه قليلاً وشمّ الهواء بعمق ، رأى نبتة (قيصوم) تلفحها نسمة الرّيح فتجيء برائحتها . حدّق مليًا ببطن اللّيل فرأى نارًا بعيدة ، فحزن لاستفاقة الرّاعي منْ نومه وهو يقوم بمهمّة الحراسة .

من الدّاخل أتى قرع متتالٍ لجرس هاتفه النقّال . حينما أجابه جاءه صوت (سوار) :

- ألم أقل لك إنّي لا أحبّ الأحاديث المبتورة . ثمّة حديث علينا أنْ نكمله .

جلس في طرف السّرير ، وصوت ضحكتها يطرق أبواب الصّحو فيه :

- أهلاً سوار . لم أنسَ ذلك ، لكنّي كنت أؤجّل حديثنا ، لا غير .

- ولم التّأجيل . سأرسل لك عنواني الآن . أنا بانتظارك .

***

كانت السّاعة قدْ أشارت إلى التّاسعة مساء حينما هبط سراج الدّرج مارًا عبر الصّالة حيث تجلس وداد ، تتابع فيلمًا على شاشة التّلفاز . تفاجأت برؤيته يتّجه إلى الباب ينوي الخروج على غير عادته ، فاليوم ليس الخميس ، لهذا سألته خائفة :

- هل هنالك منْ أمر طارئ؟

- لا . لا .

قال ذلك ، وأغلق الباب وراءه ، وبعد ثوان سمعت صوت سيّارته تنطلق . عند البوّابة الرّئيسيّة رأته عبر النّافذة يحدّث كنان حارس القصر بشكل مقتضب ويغادر مسرعًا . عادت إلى حيث كانت تجلس ،

لكنّها فقدت رغبتها في متابعة الفيلم . أغلقت التّلفاز وأخذت تدور حول نفسها ، وكأنّ ركنًا أساسيًا منْ أركان لحظاتها في القصر قدْ تلاشى فجأة . وجدت في تلك اللّحظات كمْ تشعر بأمان خفيّ ما دام سراج في القصر ، حتّى لو كان منعزلاً في غرفته ، لا تسمع شيئًا إلا عزفه المتقطّع على البيانو ، دون أنْ تدري أنّه يعكف على تأليف أوبيريت . فكّرت بغرابة سلوكه الذي لم يكن كذلك حينما رأته لأوّل مرّة في عمّان ، وهي في إجازة قصيرة ، وحتّى حينما أتى إلى ويسكونسن حيث لمْ يكنْ على هذه الشّاكلة . ما تراه الآن شخص آخر مختلف ، كأنّه (روبوت) تعتريه بعض المشاعر أحيانًا ، لكنّها سرعان ما تزول . خمّنت أنّ وراء ذلك سرًا كبيرًا عليها أنْ تعرفه ، لعلّها تستردّ سراجًا الذي رأته ذات ليلة في شارع (الرّينبو) ، وأمضت معه ليلة لا تفارق ذاكرتها . لهذا غفرت لنفسها أنْ تكسر وعدها له بأنْ لا تقتحم ذلك الممرّ الذي تقع فيه ستّ غرف لا تدري ما بها . كان باب غرفة نومه مفتوحًا كما خمّنت ؛ إذْ راحت حينما دخلت تفتّش عنْ مفاتيح تلك الغرف ، لكنْ دون جدوى . عندما فقدت الأمل بما أتت لأجله ، استلقت في سريره وراحت تحدّق بلوحة السقف ، دون أنْ تفهم شيئًا ممّا تعنيه تلك اللّوحة له .

***

فكّر سراج بسبب مجيئه لسوار وهو يهبط منْ سيّارته يحمل باقة من الورد ويمشي نحو باب (فيلتها) التي تقع في (عبدون) . ثمّة صوت سرّيّ أنبأه بأنّه جاء يفتّش عنْ شيء ضائع ، لكنّه تجاهل ذلك الصّوت ، فهو ممّن يعتقدون أنّ لاشيء ينقصهم ، ولا أشياء ضائعة منهم ، حتّى لو كانت الحقيقة خلاف ما يحدث .

تفاجأ بأنّ سوار هي منْ تفتح له الباب ، بعد أنْ لمس مفتاح الجرس ، وانتظر لثوان قليلة . تصافحا وسارا إلى الدّاخل ، وسوار تحمل باقة الورد ، تشمّها ، وتنظر مبتسمة بوجه سراج .

قالت بعد أنْ اتّخذ سراج مكانًا له في أريكة ، وجلس :

- في الحقيقة لا خدم عندي هذه اللّيلة .

لم يبد سراج أيّ ردة فعل سوى ابتسامة متواضعة انتشرت على وجهه حينما سمع ذلك .

- أنا منْ ستتدبّر شؤون ليلتنا هذه .

قالت ذلك ومضت إلى الدّاخل ، ثمّ عادت تحمل صينيّة عليها كوب عصير برتقال . رآها أجمل ممّا كانت عليه ليلة أنْ غنّت في الغاليري ؛ إذْ ارتدت فستانًا بنفسجيًا بكتفين مكشوفتين ، يمتدّ إلى أخمص قدميها . شاهد في وجهها نضارة وبريقًا واضحين ، جعلاه يطيل النّظر بها إلى أنْ جلست قبالته ، وعيناها تتّسعان بابتسامة مستدرجة :

- أهلاً بالرّجل الغامض .

احتسى منْ كأسه ، وتركها بين يديه ، يفركها بانتظام ، يفكّر بما رأته فيه منْ غموض :

- وهلْ علينا أنْ نشرع أبوابنا لسكّان المدينة حتّى يشفى غليل فضولهم ، فتهدأ شهوتهم لاكتشاف أسرارنا؟

- بالطّبع لا ، وإلاّ لما وجدتني أمامك . فأنا امرأة يستهوينى الرّجل الغامض ، ذلك الذي على المرأة أنْ تنفق زمنًا لتصل إلى ما يخفيه .

قال وهو يدقّق النظر بعينيها :

- حينها ينتهي إحساس المرأة بالحبّ .

بدا عليها شيء من التّلعثمّ ، إلا أنّها تداركته سريعًا بإشعال سيجارة ، نفثت هواءها بتأنٍّ ، وسهو لم يدم طويلاً :

- ليس بهذه السّهولة .

عبر نافذة صالة الضّيوف كانت عبدون تلوّح لسراج متخمة بالأنوار ، وبالصّمت . قالت له وهي تراه يسرّح بصره عبر النّافذة :

- عبدون منطقة هادئة ، لا يقطنها إلا أناس مهمّون ، إما مسؤولون في الدّولة ، أو رجال أعمال ، وأجانب .

نهض منْ مكانه وسار نحو النّافذة وكأسه ما تزال بيده ، ثمّ راح ينظر عبرها . منْ ورائه هاجمته رائحة عطر سوار ، وأنفاسها التي أحسّ بها تلفح رقبته :

- هلْ راقتك؟

حينما استدار نحوها فجأة ، ارتطم كتفه بيدها التي تحمل الكأس ، فدُلق على صدرها . رأى جلدها الأبيض وطبقة خفيفة من العصير تغلّفه لبرهة قبل أنْ ينحدر إلى صدرها . اعتذر بلكنة طفل رأى أنّه أفسد شيئًا جميلاً :

- أنا متأسّف .

كان وجهها قريبًا منْ وجهه حينما هبطت تحمل الكأس عن الأرض المغطّاة بالسّجاد العجميّ ، وفي عينيها ابتسامة خلفها عدد من التّساؤلات . حينما غادرته لتبدّل ملابسها ، راح يتجوّل في صالة الضّيوف التي حفلت جدرانها بكثير من الصّور . صور لسوار مع فنّانات وفنّانين مشاهير ، وصور التقطت لها عبر سنوات متفاوتة . في كلّ صورة كان يدقّق في عينيها اللّتين وجد فيهما حزنًا خفيًا لمْ تستطع تلك الابتسامات المستعرضة أنْ تخفيه . حينما عادت رآها وقدْ ارتدت

فستانًا عنابيّ اللّون وصل أعلى ركبتيها ، وكشف نصف ظهرها .

- صورك جميلة .

- إنّها محض صور صدّقني . رأيتك تحدّق عبر النّافذة بالحيّ الذي أقطنه . تعال لنخرج إلى الحديقة . هناك بإمكانك أنْ ترى ما تريد عنْ قرب .

قبالة الفيلاّ شيّدت حديقة جميلة ، في سفح ذلك الجبل الذي نهضت فيه بيوت الحجر الفاخرة . أخذا يسيران في ممرّات الحديقة ، وبين نوافيرها ، بينما سوار تعرّفه بجيرانها الذين أغلبهم إمّا رجال دولة أو أعمال . ثمّة فيلا ترتفع عنْ فيلا سوار بمسافة نتيجة للشّكل الجغرافيّ للجبل ، تجلس في شرفتها امرأة على كرسيّ هزّاز . لاحظ سراج أنّها تنظر نحوهما باستمرار . قالتْ سوار مشيرة إلى الفيلاّ التي تجلس في شرفتها تلك المرأة :

- هذه فيلا سليمان الطّالع .

توقّف سراج عن المشي ، وراح ينظر نحو الشّرفة بوجه متفاجىء ، بينما سوار ما تزال تحدّثه عنْ سليمان الطّالع ، إلى أنْ ختمت حديثها :

- أمّا تلك التي في الشّرفة فهي زوجته الإعلاميّة الشّهيرة ريفال .

حينما عادا إلى الدّاخل ، التفت سراج ، وإذا بالمرأة ما تزال تنظر نحوهما . ثمّة موسيقى كانت تجيء منْ ذاكرته في تلك اللّحظات ، وتلفح روحه بحنين موجع . جاهد بأنْ يضبط خطواته ، ويخفي ما أخذ يحسّ به . جلس في أريكة لا تواجه شرفة فيلا سليمان الطّالع ، بينما غابت سوار في الدّاخل وعادت تحمل له القهوة . قال بعد أنْ احتسى منْ فنجانه ، وفي وجهه ملامح معاندة لمشاعر خفيّة :

- ما زلت أتذكّر انطلاقتك منْ برنامج المواهب الشّهير ذاك .

كأنّ ما قاله لها سراج بمثابة زخّة مطر، أزالت عن وجهها ذلك القناع الذي ارتدته منذ أنْ التقته عند الباب، فانكمشت على بعضها في حضن الأريكة، وصارت كطفلة يداهمها نعاس شديد بعد نهنهات متتالية من البكاء. ارتخى وجهها، فبدا بريئًا أكثر منْ ذي قبل، واعترت عينيها ملامح لانكسار لم يعد خفيًا كما لمحه منْ قبل في صورها المعلّقة بكثرة على الجدران، وفي عينيها المستدرجتين له.

رغم أنّه يلتقيها للمرّة الأولى، إلاّ أنّه اقترب منها حينما رأى يديها ترتجفان، تمامًا كشفتيها اللتين لم يكن لها أنْ تضبط ارتعاشهما، إلاّ إذا عضّت عليهما بأسنانها. وكأنّها تعرفه منذ زمن ألقت برأسها على صدره، واستغرقت ببكاء يشبه بكاء الأطفال حينما لا يعود لهم قدرة على كتمانه. تركها توغل في بكائها، ورائحة عطرها تستبيحه، كما يقتحمه دفء جسدها، ويشيع به ما يفتقده منْ عاطفة.

حينما فرغت منْ بكائها، أشعلت سيجارة، وراحت تدخّن صامتة، بينما سراج ينظر إليها كأنّه يتهجّى ما طفح منْ خفاياها العميقة على صفحة وجهها. رآها امرأة أخرى غير تلك التي اعتادها النّاس على شاشات التّلفاز. قال بسرّه، إنّ هذه هي سوار الحقيقيّة التي أخفت، سنينَ، كلّ هذا الوجه البريء.

- أعتذر يا سراج.

قالت وهي تمدّ يدها نحوه فاحتضنها بكفيّ يديه:

- ربما تتساءل لماذا بكيت بكلّ هذه الحرقة. وأمام رجل لا يعرف عنّي الكثير، ولا أعرف عنه ما يجعلني ألقي برأسي على صدره وأذرف كلّ تلك الدّموع.

أسندت رأسها إلى الأريكة، وأخذت تنظر عبر النّافذة، وهي

تتحدّث بصوت خفيض، كأنّها تخبر اللّيل عمّا يجول في خاطرها :

– حينما كنت بنتًا ترى العالم ورديًا، لم أكن أدري وأنا أغنّي في الحمّام أنّ ابن الجيران ينصت لصوتي؛ إذْ كان يعجبني أنْ تردَّ إليّ الجدران صدى الصوت، فأحظى بنشوة لا يدركها غيري. كان عمري آنذاك لا يتجاوز الرّابعة عشرة، أعيش في كنف عائلة بسيطة لم يقيّض الله لها مواليد غيري. والدي موظّف بسيط منْ أولئك الذين يخرجون صباحًا إلى عملهم، ويعودن عصرًا وبيدهم صحيفة وكيس خبز أو خضار. أحبّ الحيّ الذي أعيش فيه. سكّانه بسطاء طيّبون، يحزنون لحزنك، ويفرحون لفرحك. كلّما أقيم حفل زواج اجتمعت النّساء حولي يطلبن منّي أنْ أغنّي، وبالفعل هذا ما كان يحدث، فكلّما سمعت إحداهنّ تمتدح صوتي، أتعلّق بشغفي بالغناء أكثر، وأحفظ المزيد من الأغنيّات. لم يَعِ أحد ممّن سمعوني أنّني حينما كنت أغنّي، أحسّ أنّني طائر يحلّق في سماوات لمْ أرها منْ قبل. يحدث هذا لي كثيرًا، بل دائمًا. حتّى بات الغناء بالنّسبة لي أيضًا هروبًا منْ أيّ وجع يداهمني. اقتنيت كثيرًا من الكتب التي تحكي سير المغنّين والمغنّيات. تتبّعت حيواتهم وحفظتها، وبتّ أحلم أنْ أصبح واحدة منهم. قرأت في الموسيقى والشّعر والأدب، إلى أنْ صارت عادة القراءة ملازمة لشغفي بالغناء.

في طريق العودة من المدرسة، وفي آخر سنينها، اعترض طريقي ابن الجيران الذي لمْ أكن أعرفه منْ قبل، مدّ إليّ رسالة بكلّ جرأة ورقّة، ومضى دون أنْ يقول إلا كلمات قليلة (اقرئيها. أنا كمال ابن جيرانكم). لم أكن أعلم أنّ كمالاً بتلك الوسامة. طويل القامة، ببشرة قمحيّة اللّون، وبشارب خفيف للتوّ ارتسم على فم جميل، وبعينين سوداوين فيهما حدّة آسرة.

حينما غادر وجدتُني رهينة لإحساس منْ يخبّئ قنبلة في عبّه . كنت مصابة بتوتّر شديد طيلة دربي إلى البيت ، أتلفّت خوفًا منْ أنْ يكون قد رآني أحد وأنا أخبّئ الرّسالة في جيبي ، حينها ستحلّ الكارثة عليَّ ، ليس منْ عائلتي فقط التي طالما حذّرتني منْ مصادفات مثل هذه ، بل منْ ألسنة نساء الحيّ ، رغم أنّي أعلم أنّ أكثر منْ نصفهن عرفن شبابًا أيام المدرسة ، ومنهن من صاحبن رجالاً حتّى بعد الزّواج . في الأحياء الشّعبيّة لا تدوم مواراة الأسرار كثيرًا .

ما إنْ وصلت البيت حتّى تعذّرت بضرورة دخولي للحمّام قبل أنْ أبدّل ملابسي ؛ فأُمّي منْ ذلك النّوع من النّساء اللائي يتابعن بناتهن بشكلٍ حثيث ، تجلس في كرسيّ قبالتي ، وتردّد عليّ الأسئلة ذاتها وأنا أبدّل ملابسي (هلْ تعرّض لك أحدهم في الطّريق؟ هلْ قفزت منْ مكان عال دون أنْ تداري على عذريّتك؟ هلْ اختلطت ببنت فلان؟) . إلى أنْ أذهب إلى المطبخ ، فتخبرني عمّا طَهَت في ذلك اليوم .

في الحمّام أخرجت الورقة منْ جيبي ، ورحت أقرأها وأنفاسي تتعالى :

(سوار ، اعتدت أنْ يجيئني صوتك عبر نافذة الحمّام كأنّه بساط الرّيح يحملني إلى مدن ليست كالّتي نعرف ، مدن فيها من الحبّ أكثر مما أشتهي . حينما تغنّين أحسّ كأنّي شخص مسجّى على سرير الشّفاء ، ما إنْ يأتيني صوتك حتّى تبدأ الحياة تدبّ بي ، فأنهض مقبلاً على وجه مشرق للحياة . منْ حسن حظّي أنّ غرفتي تقع قريبًا منْ تلك الكوّة التي تمنحني صوتك الأثيري حدّ الدّهشة . منذ زمن وأنا أتّبعك ، أراك حينما تخرجين صباحًا ، وتعودين تحضنين كتبك ، وجديلتك تلوح وراء ظهرك كذيل حصان يتقافز في سهوب خضراء .

البارحة قرّرت أنْ أخبرك أنّي أحبّك . نعم ، أحبّك ، فمنْ يرخي رأسه لساعات ينتظر صوت فتاة ليحظى بالتّحليق ، فهو يحبك . لنْ أطلب ردّك بسرعة ، فمثلي يمكنه أنْ ينتظر عمره لأجل جواب مثل هذا .

كمال)

ما إنْ انتهيت منْ قراءة الرّسالة حتّى غرقت بارتعاش لمْ أستطع أنْ أتجنّب نصفه إلا حينما جاءت أمّي تقرع الباب تطمئنّ عليّ . كنت سأمزّق الرّسالة ، لكنّي خبّأتها بحرص شديد لم أدرِ سببه تلك اللّيلة . قرأت تلك الرّسالة مئات المرّات ، إلى أنْ حفظتها غيبًا . بعد شهر اعترض طريقي مرّة أخرى ، ومنحني رسالة ثانية ، وبقيت الرّسائل تتوالي إلى أنْ التقينا في الجامعة ، حيث شاء القدر أنْ تضمّنا كليّة الآداب آنذاك ، فاعترفت بحبّي له ، وعشنا طيلة سنين الجامعة بأجمل ما يمكن أنْ يقال عنْ عاشقين . حينما تخرّجنا وعيّنت معلّمة في إحدى المدارس الابتدائيّة ، وعيّن هو في مدرسة للذّكور ، تزوجنا . في السّنة الأولى لزواجي توفي أبي ، وبعد عام التحقت به أمّي ، فصار كمال عالمي الذي يحميني منْ آثار الفجيعة والهزائم حينما تجيء منْ جهة الفقد . اتفقنا أنْ نؤجّل إنجاب أيّ طفل حتّى نهيّئ له ما يجعله يعيش حياة مستقرّة ، دون أنْ أعي أنّ حياتنا نفسها لنْ تكون مستقرّة ذات يوم كما اعتقدنا ، فما عاد كمال يمتدح غنائي كما كان يفعل سابقًا ، أو ربّما بات له أمرًا معتادًا ، فقد اكتشفت في تلك الأيام أنّنا لا نعود نرى قيمة الأشياء التي نعتادها . تدبَّر أمره وحصل على عقد في الخليج للتّدريس ، وقرّر السّفر على نيّة أنْ ألتحق به . وبالفعل سافر ليتركني وراءه رهينة وحدة قاتلة ، واشتياق وحنين إلى أيامنا التي لا يمكن أنْ تسقط منْ دفتر ذاكرتي . مضى عام ولمْ يتدبّر أمر التحاقي به ،

منصاعًا لوعود أخبرني أنّ هنالك منْ سيحقّقونها له في السّنة التي ستليها .

ذات ليلة كنت أتابع التّلفاز ، وإذا بي أجد إعلانًا لبرنامج معنيّ بمن يمتلكون القدرة على الغناء . اتّصلت بكمال أطلب إذنه أنْ أشارك بالبرنامج ، لكنّه رفض كأنّه لم يكن ذلك الذي كتب لي الرّسالة ذات يوم يمتدح صوتي . كرّرت طلبي وألححت به ، لكنْ دون جدوى . حينها اتّخذت قراري ورحت إلى حيث يقدّم المتسابقون ، فقبلت وعيّنوا لي يومًا أمْثل فيه أمام اللّجنة . حينما غنّيت في ذلك اليوم اعترت صوتي مسحة حزن كان مردّها إحساس عميق بالوحدة ، وشعور أعمق بأنّي أنظر نحو أفق بجناح واحد . تأهّلت للتّصفيات الأولى التي ستبث على شاشات التّلفاز ، وحينها سيشاهدها كمال . اتّصلت به وأخبرته بما فعلت . بعد أيام جاءتني ورقة طلاقي . عندما قرأتها بقيت صامتة لأيام ، لم أبد أيّ ردّة فعل ، بل حتّى إنّني لم أحسّ بشيء . في اليوم الثّالث وحينما وضعت رأسي على الوسادة ، وإذا بي أجد الوسادة الأخرى خالية . حينها شعرت بحزن كبير يجثمّ على روحي ، وبمهانة كبيرة ، فانفجرت ببكاء لازمني حتّى وأنا في طريقي إلى بيت والدي ، مغادرة بيتي دون عودة إليه .

تدرّجت في التّصفيات إلى أنْ حصلت على أعلى ترتيب بين المتنافسين ، ومنذ ذلك اليوم تخاطفتني شركات الإنتاج ، وتبدّل الحال ، وقد تركت ورائي سوار أخرى ، غير التي تحوّلت بسرعة البرق إلى نجمة لا تكفّ شاشات التّلفاز عن استعراض أغنياتها .

نهضت منْ مكانها ، ومشت صوب النّافذة ، واتّكأت عليها تنظر إلى الأفق وقد خيّم على المكان سكون ما بعد منتصف اللّيل .

استدارت نحو سراج وهو ما يزال جالسًا في مكانه ينتظر ما يمكن أنْ يقال :

- أتدري يا سراج ، لم يكن بالبال أنْ أسرّ لك بما حدث لي . حينما وضعت ورقة معلوماتي في جيبك ، كنتَ محض رجل أصطاده ، يضاف إلى قائمة الرّجال الذين اصطدتهم ، منذ أنْ اكتشفت أنْ لا طريق إلى التي كُنتها في ذلك الزّمن .

أشعلت سيجارة ، ونفثت دخانها بارتخاء مردّه الأسى ، ثمّ قالت وهي تنظر إلى سراج بعينين دامعتين :

- بعد خمس عشر سنة جعلتْ منّي نجمة يتناقل النّاس أخبارها ، ويحفظون أغنياتها ، عاد كمال إلى عمّان . قالوا لي إنّه افتتح مدرسة خاصّة تتبنّى وسائل حديثة في التّدريس . حينما سمعت أنّه لم يتزوّج ، خُلق بي أمل جديد بأنْ أستردُني ، رغم إحساسي بالمهانة لما فعل . لكنّه الحبّ ، الحبّ هو الحالة الوحيدة التي تدفعك بجسارة لنسيان الإساءة . حينما قرعت باب مكتبه ، ودخلت ، كانت كفّي تشتاق لذلك الدّفء الذي سوف تخلقه كفّ يده ، لكنّها كانت باردة حينما مدّها لي وسحبها سريعًا . تحدّث لي كما يتحدّث لأيّ مراجع للمدرسة . لحظتها لم أنطق بشيء ، كلّ الكلمات صارت جليدًا . حينما رآني صامتة ومصابة بكلّ ذلك الخرس ، قال وهو يتصنّع الهدوء :

- كلّ تلك الأغنيات التي تبثّها شاشات التّلفاز وتلتزمين الصّمت هنا؟

- إنّه ليس صمتًا يا كمال . إنّها الخسارة .

قال ويده تضرب وجه الطّاولة :

- خسارتي ، أم خسارتك؟

- خسارتنا .

نهض منْ وراء طاولته ، وجلس في كرسيّ قبالتي :

- حينما أحببتك لم يكن بالبال أنّي سأكون بمعيّة امرأة يتخاطفها المنتجون والملحّنون إلى أسرّتهم .

ثمّة صرخة لمْ أستطع أنْ أخرجها منْ فمي ، لكنّني قلت وشكل موجع منْ الهدوء يجتاحني :

- وهل تعتقد أنّك تزوجت عاهرة؟

أشاح بوجهه عني ، ثمّ عاد ينظر بي :

- انظري في المرآة ، حتّى ملامحك تغيّرت ، أصبحت محض وجه محنّط ، ولعبة (باربي) ، يحرّكها المنتجون أينما اقتضت مصالحهم . إنْ كنت قد أتيت إلى هنا تبحثين عن كمال ، فكمال لن يعود لك ؛ لأنَّ سوار الماثلة أمامه الآن محض (مانيكان) لا يلتفت لها حتّى هواة مضاجعة الفنّانات .

في تلك اللّحظة انسحبت بهدوء استحال إلى بكاء لازمني طوال طريقي . إنّها فجيعتي الثّانية التي أفقدتني ثقتي بنفسي التي حافظت عليها كيفما يجب لامرأة أحبّت الغناء ، وأحبّت رجلاً بعمق المياه التي تجري تحت طبقات الأرض دون يراها أحد . فمنذ ذلك اليوم ذهبت سوار إلى غير عودة ، وجاءت أخرى ترتمي كلّ ليلة بحضن رجل لا يختلف عن الآخر إلا بمقدار الكذب الذي يغلّف ذكوريّته المقيتة . كنت كلّما ضاجعت رجلاً أشعر بانتصار قصير ، ولذّة انتقام منْ رجل وجّه لي ألف طعنة غير متوقّعة .

لم يقل سراج شيئًا حينما انتهت سوار منْ حديثها ، وغرقت

بصمتها . سوى أنّه طلب منها أنْ يغادر . مشت معه نحو الباب ، ثمّ وقفا هناك ، قالت له وهو يمدّ يده لها قبل أنْ يتركها :

- صحيح أنّي دعوتك كأيّ رجل عابر بسريري ، لكنْ أرى الآن أنّني دعوت رجلاً كفه دافئة ، أذابت جليدًا طالما جعلني أقاسي ليالي طويلة ، فبحت له . أرجو أنْ تستوعب ذلك .

***

في طريق عودته جعل سراج سيّارته تمشي على مهل ، وهو يخلّف عبدون وراءه هابطًا الطّريق المنحدر الذي يأخذه خارج عمّان منْ جهتها الجنوبيّة ، ثمّ يلتفّ به غربًا سالكًا الطّريق التي تأخذه إلى قصره . لم تفارق مخيّلته صورة زوجة سليمان الطّالع وهي تجلس في الشّرفة . كان يجاهد طيلة الطّريق أنْ يتناسى تلك الصّورة ، لكنّها كانت تنبثق منْ كلّ شيء ، حتّى منْ نسمة الهواء الطّريّة التي مرّت عبر نافذة سيّارته ، ولفحت جبينه الذي طفقت به حبّات من العرق . فكّ ربطة عنقه ، وزرّ قميصه ، وراح يدندن بمعيّة موسيقى تتهادى منْ مسجّلة السّيّارة . كلّما أوغل في تلك الموسيقى ، جاءته الصّورة واضحة تعْلَق حتّى بمسامه ، إلى أنْ توقّف ، ووضع رأسه على مقود السّيّارة وغرق بنشيج مرّ .

٥

كانت الشّمس تمنح الأشياء حصّتها من الحرارة حينما توقّفت سيّارة سراج عند إشارة (الصّناعيّة) الضّوئيّة حيث السّيل الهادر من العربات المتأهّبة للانطلاق نحو كبد عمّان من جهتها الغربيّة ، وحيث شكل آخر للزّحام ؛ إذْ يغتنم الباعة المتجوّلون فرصة التقاط العربات لأنفاسها ، فيغيرون على السّائقين يروّجون بضائعهم البسيطة بملامح متسوّلين . على زجاج نافذة السّيارة قرع ولد في العاشرة من عمره بأصابع يده المتّسخة ، بينما باليد الأخرى يحمل علب مناديل ورقيّة للسيّارات . كان أصغر الباعة عمرًا ، قصير القامة بالكاد يصل رأسه إلى منتصف الزّجاج ، شعره كثّ ، تتناثر خصلات منه على عينين ذابلتين ، وجبين لم تجتاحه ابتسامة ليتّسع كما يفترض لولد بعمره .

حينما هبط زجاج نافذة السّيّارة ، ومَدَّ الطّفل علبة المناديل يعرضها بصمت ، فغر سراج فمه مندهشًا من ذلك الشّبه الكبير بينه حينما كان طفلاً ، وبين ذلك الولد . أصابه دوار جرّاء ما رأى ، بعد أنْ تيقّن أنّ الماثل أمامه ما هو إلا سراج الصّغير ، وليس ذلك الذي تصنعه صدفة التّشابهات . كان ينظر نحو الطّفل كبدائيّ يرى صورته للمرّة الأولى في مرآة . أضيئت الإشارة برتقاليّة اللّون ، فأخذت السّيّارات تتأهّب للانفلات من فخّ الزّحام ، وانطلقت أبواقها صارخة ، بينما سراج يسهو بالولد ، والولد ينظر إليه كأنّه هو الآخر حظي بفرصة أنْ يرى نفسه كبيرًا .

انعطف سراج إلى اليمين بصعوبة، ووجد مكانًا توقّف به، ثمّ عاد مسرعًا نحو الولد إذْ كان ما يزال يقف صامتًا، ودون أيّ حركة في منتصف الشّارع، والعربات تنحرف عنه يمينًا وشمالاً، مطلقة صراخ أبواقها. هرع سراج إليه واقتاده منْ يده وبقي يبعده عن اندفاع السّيّارات بحذر خوفًا منْ أنْ ترتطم به إحداها، إلى أنْ غادرا الشّارع، ثمّ أخذا يمشيان وهما يحدّقان ببعضهما إلى أنْ وصلا السّيّارة، وجلسا فيها. أخذ كلّ واحد منهما ينظر بوجه الآخر، وعلى لسانهما سؤالٌ لا يدريان كيف يقولانه. كان وجهاهما بمثابة مرآتين واحدة عادت إلى الوراء، وأخرى يمّمت شطر المستقبل. ينظر الولدُ بوجه سراج وقد وجد أمامه فرصة كبيرة ليرى نفسه بعد ما يقارب أربعين عامًا من السّنّ التي هو فيها. بينما عاد سراج إلى الوراء عبر كلّ تلك السّنين ليجد نفسه ماثلاً أمامه بكلّ طفولته. لم يكن أيّ منهما - رغم ما يحيطهما منْ ضجيج - يسمع شيئًا سوى صوت موسيقى لآلة غريبة محمّلة بشجن جارح يأتي منْ أماكن قصيّة في ذاكرتيهما. في عينيّ كلّ منهما ثمّة تأهّب لدموع تكاد تفرّ منْ مآقيها، وثمّة خفق في صدريهما جرّاء غرابة ما يحدث.

صراخ بوق لعربة كبيرة، جعلهما يغادران سهوهما الغريب كمن يصحو منْ تنويم مغناطيسيّ. قال الولد بصوت منْ صمت طويلاً وراح يتكلّم بصعوبة:

- كمْ واحدة ستشتري يا سيّدي؟

- سأشتريها كلّها.

قال سراج ذلك واقترب من الولد، وأمسكه منْ كتفيه، وراح يتفرّس بوجهه. إنّها ملامحه، عيناه حادتا النّظر، أنفه المدبّب الذي لا

يخطئ أيّ رائحة ، أذناه المتأهّبتان لالتقاط أيّ صوت ، وفمه المستدير .
كاد سراج أنْ يصاب بالجنون ، وهو يرى نفسه متجسّدًا بهيئة طفل جرّه العوز إلى زحام تلك الإشارة .

- ما اسمك؟

قال سراج بصوت لاهث ، كأنّه يتأكّد منْ حقيقة ما يحدث . فأجاب الولد بصوت يختلط فيه الخوف بالسّهو :

- أحمد .

فرك سراج عينيه بظاهر يده ، ثمّ أخذ يقترب منْ وجه أحمد ويبتعد عنه محاولاً استيعاب ما يجري . رأى - وهو يعاني سياط الغرابة فيما يواجه - أنّ ذلك محض شبه كبير ، لكنّه وجد نفسه غير مقتنع بما فكّر به ، بل وجد نفسه يحدّق بنفسه .

- كمْ واحدة ستشتري يا سيّدي؟

قال أحمد وهو يتهيّأ لمغادرة السّيّارة غير قادر على ضبط خطواته ، كأنّ داورًا ألمّ به . فأعطاه سراج خمسين دينارًا .

تفحّص أحمد الورقة النّقديّة بعينين ذابلتين ، ثمّ قال وفي صوته شيء من الغضب :

- هذا كثير . أنا لست متسوّلاً .

مدّ سراج يده نحو الولد ، وهو يعي أنّه يمدّ يده نحو نفسه :

- فيما بعد ستعطيني حصتي من المحارم بما تبقّى .

عبر نافذة السّيّارة ألقى أحمد علبة المحارم داخل السّيّارة وغادر . بعد أنْ أخبره أنّه سيفتّش عمّن يصرّف له تلك الورقة النّقديّة ليعيد له ما تبقّى منها ، بينما سراج يعاين مشيته ، وهو يضع يديه على رأسه مندهشًا ممّا يرى منْ طفولته التي تستعاد أمامه بكلّ تلك الفانتازيا

المفاجئة . لم يمانع سراج منْ أنْ يأخذ ما في يد أحمد منْ نقود ، وهو يمدّها له عبر نافذة السّيّارة ، بلْ طلب منه وهو يراه يتهيّأ للمغادرة لما عصف بالمكان منْ حرارة الظّهيرة الحارقة أنْ يقلّه إلى بيته . ولم يوافق أحمد على ذلك إلاّ ليعود ينظر بوجه سراج مرّة أخرى ، مدفوعًا بإحساس غريب بقي يكابده طيلة الطّريق .

كانت السّيّارة تسير على مهل عبر الشّارع الذي شقّ المدينة الصّناعيّة إلى نصفين ، وهو يركض نحو الغرب بينما على رصيفيه تمشي غجريّات بثياب ملوّنة وشعر طويل مخضّب بالزّيت ، يدفعن عربات جمعن فيها خردوات وعلبًا فارغة لبيعها . انحنت السّيّارة حينما غادرت المدينة الصّناعيّة ، بينما ضجيج العربات وصوت العمّال وكلّ تلك الجلبة اختفتْ شيئًا فشيئًا . بقيتْ تمشي عبر طرق متعرّجة في زقاق (بيادر وادي السّير) إلى أنْ وصلت بيت أحمد الذي يقع في حيّ فقير تتراكم فيه الأبنية على بعضها كأطفال يحتمون بأبيهم منْ خطر ما .

لمْ يمانع أحمد منْ أنْ يلبّي رغبة سراج بكأس من الشّاي في بيته . حينما قُرع الباب ، وفُتح بعد أنْ أتت من الدّاخل أصوات أطفال ، وصوت نسائيّ ، يتذمّر من القرع المتتالي ، أطلّت امرأة ثلاثينيّة ، في فمها سيجارة مبتلّ نصفها ، وعلى يديها بقايا ماء راحت تجفّفها بثوبها ، وهي تنظر إليهما بوجه عابس لم تتلاشَ براعم الجمال منه رغم تعب بدا ملازمًا له . نظرت مستغربة من وجود رجل غريب أمامها ، فقطع سراجٌ حيرة تبدّت في عينيها وهما تضيقان محدّقة بابنها تارة ، وبه تارة أخرى :

- في الحقيقة لقد دعوت نفسي لكأس شاي في بيتكم .

لبرهة من الوقت بقيت تنظر إلى سراج ، بعد أن تفحّصت سيّارته الفارهة ، وفي عينيها أمارات سخرية ، كأنّها تتساءل ما الذي أتى بهذا الرّجل الثّري إلى حيّ بائس مثل هذا . تخلّصت من السّيجارة ، وألقت نظرة منْ وراء كتفيه نحو الحيّ ، وقد خلا آنذاك منْ أيّ مارّة ، وممّن يقفن عادة بالنّوافذ والشّرفات ، وقالت بصوت لا يقين فيه :

- أهلاً بك .

في طريقها إلى الدّاخل راحت تزيل العوائق المتناثرة في الطّريق ، تفسح المجال لرجل غريب رغبت بأنْ تعرف ما وراءه . فهيئته التي تدلّ على ثرائه هي التي جعلت غادة ترحّب به . إنّه التّعلّق بخيط أمل يحلم به الفقراء دومًا ، أنْ يأخذهم منْ عالم البؤس إلى عالم أقلّ وجعًا وجوعًا ومهانة . جلس سراج في غرفة للمعيشة ، ضمّت صوفة طويلة قديمة ، ومقعدين خشبيين وفرشتين أسفنجيّتين قبالة طاولة هزيلة استقرّ عليها تلفاز قديم . جلس بطرف الصّوفة وصوت أطفال يأتيه من الدّاخل وهم يتشاكسون . ما هي إلا دقائق حتّى جاءت غادة يتبعها أحمد تحمل صينيّة عليها كأسا شاي قدمت إحداهما لسراج ، ثمّ راحت تشرب من الآخرى ، وهي رهينة لصمت احتارت كيف تبدّد سطوته . قال سراج يجيب عن تساؤل أحسّ به يدور بخلدها حينما وجدته ينظر في وجه ابنها بتركيز غريب :

- راقتني شخصيّة ابنك . عزّة نفسه نادرة هذه الأيام .

قال ذلك ومسح بيده على رأس أحمد ، ثمّ صمت قليلاً يفكّر بما سيضيفه ، وهو يدري أنّ ما منْ أحد له أنْ يصدّقه ، لوْ قال إنّ أحمد هو نفسه سراج عزّ الدّين . أضاف يلحّ على كسر طوق الصّمت :

- رغم كلّ المتاعب ما يزال هنالك شيء من العدالة في الأرض .

نظرت في وجهه ، ثمّ مطّت شفتيها إلى الأسفل ساخرة :

- وَهْم .

استلّت من شقّ في الصّوفة علبة سجائر ، وأشعلت واحدة ، ثمّ تفرّست بوجه سراج منْ جديد :

- يبدو أنّك ابن نعمة ، لم تعرف في حياتك معنى للفقر ، لهذا تستسهل قول عبارة مثل هذه .

فكّر بتلك السّنين التي أمضاها بلا عمل بعد تخرّجه من الجامعة ، وهل يمكن أنْ تكون كافية ليعرف معنى الفقر الذي يعبث حتّى بروح تلك المرأة الجالسة قبالته ، وقد بدت كشجرة توارى منها الاخضرار . حدّق بكلّ شيء يمكن لعينيه أنْ ترياه في البيت ، الجدران الحافلة بالرّطوبة والعفن ، الأثاث الهزيل ، النّوافذ التي لنْ تصمد أمام أول دفقة ريح شتائيّة ، أحذية الأطفال المتهرّئة ، المطبخ الذي لاح له ضيّقًا وما فيه إلا طاولة عليها موقد طبخ صغير ، إلى جانب أوانٍ قليلة وتالفة ، تلك الملابس البالية التي ارتدتها امرأة تخفي وراء سخريتها حزنًا كبيرًا . لم يكن الأمر بحاجة لكثير من الدّلائل ، حتّى يدرك سراج أنّ عائلة مثل تلك تعيش على هامش الحياة .

كان يمكنه أنْ يقدّم شيئًا لتلك العائلة ، كما فعل منْ قبل مع كثير من العائلات ويمضي ، لكنّه هذه المرّة شعر بأنّ عليه أنْ يفعل شيئًا لأجله هو ، دون أيّ قدرة له على أنْ يخبر أحدًا بما يحسّ به . حتمًا سيقولون إنّ جنونًا ما قد أصابه إنْ أخبرهم كيف يرى أحمد . حتّى غادة ، ستطلق ضحكة ساخرة منه ، وربّما تشكّك في سلامة عقله . فكيف يرى رجل بهذا العمر نفسه ماثلاً في طفل مثل هذا ، وربّما إنْ تعاطف معه بعضهم ، سيقولون إنّ ما يحدث مجرّد شبه لا أكثر .

لاحظت غادة أنّ أحمد يصوّب عينه نحو سراج، كمن يسهو بشيء يراه للمرّة الأولى، بينما سراج يراقب أحمد، يفتّش عنْ مخرج ممّا يحسّ به؛ فكلّ شيء متطابق. الملامح، نبرة الصّوت، النّظرة للأشياء، وذلك الحزن الخفيّ القابع في عينيه.

- أخبريني عن أحمد.

استغربت غادة سؤال سراج المفاجئ، وبدت مرتبكة جرّاء شيء غريب يحدث، ولا تدري ماهيّته. عاد يصوغ سؤاله منْ جديد:

- أقصد أخبريني عنْ صفاته.

هرست سيجارتها بحنق في المنفضة، وفركت يديها ببعضهما، وهي تفكّر بأمر هذا الرّجل الغريب:

- بماذا تفيدك صفات ابني أيّها السّيّد.

قال وهو يترقّب الإجابة بلهفة بادية في وجهه:

- سأخبرك فيما بعد.

أجابته وفضولها يقتادها لتعرف سبب سؤاله:

- ربّما أخبرك أحد منْ قبل عمّا يميّز ابني، لكنّي سأجيب عن سؤالك. كثيرًا ما وجدت أحمد يستغرق بالرّسم، يرسم على الورق، وعلى الجدران، وعلى أيّ مساحة فارغة يجدها. لديه قدرة عجيبة على أنْ ينقل ما يراه عبر الرّسم، وأحيانًا يرسم أشياء غريبة. لكنّ الأغرب أنّ لأحمد أنفًا عجيبًا، يشمّ الأشياء بمهارة فائقة. فلا يضيع شيء إلا ويجده عبر أنفه. له أيضًا أذنان تميّزان الأصوات بغرابة. ونحن في البيت يسرد عليّ مشهد الزّقاق دون أنْ يراه، معرّفًا بخطوات المارّة إنْ كان رجلاً أو امرأة، إنْ كان غريبًا أو منْ أهل الحارة.

حينما سمع سراج ما قالته تلك المرأة كاد أنْ يجنّ، ورفض فكرة

أنّ ما يحدث هو محض صدفة لا أكثر . شعر بخوف يتسلّل إلى قلبه ، ثمّ أحسّ بفرح طاغ يستقر هناك أيضًا . لكنّها عادة الحياة في أنْ تترك حلقة مفقودة ، تبقى تأخذ الإنسان إليها وهو يحاول أنْ يجد ما يربط السّلسلة ببعضها .

لم يخبر غادة عنْ سبب أسئلته عنْ أحمد ، وحينما ألحّت عليه ، قال لها إنّه سمع عنْ صفاته منْ قبل . لكنّه أخبرها عنْ نيّته بأنْ يكون للعائلة بيت جديد ، وراتب شهريّ دون أيّ مقابل . دهشت غادة ممّا جرى لعائلتها في ذلك اليوم وهي تنتقّل منْ عالم بائس موجع ، إلى عالم خمّنت أنّ فيه كثيرًا من الفرح .

ما هي إلا أيام حتّى انتقلت عائلة أحمد إلى بيت جديد وفاخر في (خلدا) حيثُ ذلك السّفح الذي يطلّ على (حدائق الحسين) و(المدينة الطّبيّة) وما يقع وراءها منْ جبال ومناطق نمت فيها الأشجار والحشائش . صار أحمد طالبًا في مدرسة خاصّة تستلهم أساليب عالميّة في التّدريس . فعل سراج لأجل هذه العائلة الكثير من الأشياء وهو على قناعة بأنّه يفعل كلّ تلك الأشياء لأجل نفسه الماثلة أمامه في شخص أحمد .

بعد أيام من استقرار العائلة في مسكنها الجديد ، مرّ سراجٌ بأحمد واصطحبه إلى غاليري (الحواسّ الخمس) . ما إنْ وصلت السّيارة الشّميساني لتمرّ بالبنك العربي ، وتتخطّى الجسر نحو العبدلي حتّى انتبه أحمد لغاليري (الحواسّ الخمس) . بدا له حينما رآه كأنّ امرأة بكلّ تلك الضّخامة قدْ نهضت منْ بين كلّ الأبنية بتلك القامة ، والسّماء التي خلت من الغيوم تلفّها باهتمام .

عبر الطّريق بقي ينظر نحو الغاليري بتفحّص غريب ، بينما سراج

يقود السّيّارة ببطء يبحث عنْ إجابات لتساؤلاته ، وهو يتبيّن ردّة فعل أحمد حينما يرى الغاليري . كان تفحّصه عبر سهوه الطّويل يزداد شيئًا فشيئًا ، والسّيّارة تقترب من الغاليري . ينظر إليه دون أنْ ترمش له عين ، إلى أنْ تجاوزت السّيّارة البوّابة وسكنت في مكانها ، فهبط منها مشدوهًا كمن دخل مدينة أنجزتها ساحرات ، وبقي متسمّرًا في مكانه ، لا يتحرّك فيه سوى رأسه وهو يرتفع إلى الأعلى ببطء إلى أنْ استقرّت عيناه على نهاية المبنى ، بينما سراج يقف وراءه ، كأنّه يرى الغاليري عبر عينيه أيام كان طفلاً . كاد يبكي وهو يراه يمشي نحو بوّابة الغاليري ، يتفحّص البوّابة دون أنْ يعي أنّ ذلك البطن سيُشرع ، ويأخذه إلى عوالمه الدّاخليّة .

بقي سراج بعيدًا ، يتتبّع أحمد وهو يقف في منتصف الصّالة التي تقع في الطّابق الأوّل . أذناه تتلقّفان صوتًا موسيقيًا تجيء به مكبّرات صوت مخفيّة في زوايا المكان . عيناه تراقبان الألوان واللّوحات والمجسّمات ، وكلّ ما حظي به ذلك المكان . بقي يفعل ذلك ثمّ التفت نحو سراج وفي عينيه ابتسامة متوارية في أقاصي ذاكرته .

لم ينطق سراج ولو بكلمة واحده وهما ينتقلان عبر طوابق الغاليري ، بل كان يراقب أحمد كيف ينظر إلى كلّ شيء مندهشًا ، إلى أنْ وصلا الطّابق الخامس ، ثمّ اقتاده عائدًا به إلى الطّابق الثّاني حيث المعهد الذي يضمّ عددًا منْ أطفال الإشارات الضّوئيّة ، ومنْ تركوا مدارسهم وعملوا في أماكن كثيرة .

كان أطفال المعهد منهمكين بالرّسم بعد محاضرة حول الألوان ، حينما قرع سراج الباب ودخل يمسك بيد أحمد الذي عرف عددًا منهم ممّن كانوا يبيعون بضائعهم عند الإشارات الضّوئيّة بعد أنْ نظر في

وجوههم . أفلت يده منْ يد سراج وهو يجري اتّصالاً هاتفيًا مع سعيد عبد الباري ، وراح يتنقّل بين اللّوحات التي كان الأطفال يعكفون على رسمها . بقي يقترب من اللّوحات ويبتعد عنها كأنّه يبحث عنْ شيء ما فيها ، إلى أنْ سمع سراج يأمر سعيد عبد الباري بأنْ يُبدوا اهتمامًا به في هذا المعهد الذي صار منذ ذلك اليوم المكان الثّاني بعد المدرسة لأحمد ، ينكبّ فيه على الرّسم ، فيحسّ منْ حوله بأنّه انفصل تمامًا عنْ كلّ شيء ، وغرق في عالم آخر لا يراه إلا هو .

٦

خارج بوّابة القصر، وبمحاذاة سوره العالي، توقّفت سيّارة سراج.
كانت الشّمس تتمطّى تأهبًا للمغيب، بحيث امتدّ ظلّ السّور والقصر على سفح أقيما عليه، فبدا ضخمًا موحشًا لوداد التي لم ترَ عبر النّافذة سيّارة سراج تهبط الشّارع المُنحَدِر من السّفح نحو طريق تمتدّ بشكل متعرّج إلى أطراف عمّان الغربيّة، لذا غادرت القصر، ودخلت غرفة الحارس منْ بوّابتها الخلفيّة، وراحت تتبيّن ما يحدث، رغم امتعاض كنان الذي تجاهل الأمر، متجاوزًا تساؤله عن توقّف السّيّارة في هذا المكان كثيرًا.

ما هي إلا دقائق حتّى اصطفّت سيّارة بك أب قديمة بجانب سيّارة سراج، وأخرج سائقها صندوقًا كرتونيًا، ووضعه في الصّندوق الخلفيّ لسيّارة سراج. فتح باب السّيّارة وجلس، ثمّ أغلق الباب وراءه.

***

- صدّقني لولا حاجتي لما صرت صائد ثعالب يا سيّدي. لكنْ عليك في هذا الزّمن أنْ تفعل أيّ شيء لتعيش.

قال الرّجل الجالس بجانب سراج، وقد بان شيء من وجهه المترهّل الحافل ببعض النّدوب، والسواد أسفل عينيه الضّيّقتين بسبب ما تبقّى منْ ضياء خلّفته الشّمس وراءها وهي تلقي بنفسها وراء الجبال؛ لتعلن ليلاً جديدًا يهبط على المدينة وما حولها. طقطق

أصابعه ، وبدا راغبًا في قول المزيد حينما لم يجد ممانعة منْ سراج الموغل في الانصات :

- لمْ أسألك ولنْ أسأل عن حاجتك لهذه الثّعالب . هذا شأنك الشّخصيّ ما دمت تدفع لي كلّ أسبوع خمسمائة دينار ، هذا يعني أنْ أتقاضى راتبًا شهريًا يعادل راتب موظف كبير في الحكومة . لهذا بتُّ أدعو ربي أنْ تتناسل الثّعالب منْ بعضها ؛ ليستمرّ هذا الدّخل الذي لمْ أحلم به منْ قبل . فبفضل هذه الثّعالب ، أقصد بفضلك أنت ، ما عدت أذرع الشّوارع بحثًا عن العلب الفارغة حتّى أطعم أولادي . الآن أنا بصدد شراء بيت متواضع ، وهذا يعني أنّي ما عدت قلقًا على أولادي ، وحزيناً بسبب أنْ لا بيت لهم .

صمت الرّجل قليلاً ثمّ أشعل سيجارة بعدما أذن له سراج ، وحدّق عبر النّافذة نحو عمّان وأضواؤها تنهض في المدى ، وكأنّها مدينة جاءت منْ أوروبا تقدّم وصلة في ليلة سيرك ثمّ تغادر :

- أتعرف يا سيّدي ، أنا أحبّ بلادي . فقد ولدت هنا ، وعشت طفولتي فيها . لكنّني أشعر كلّما وقفت بباب هذه المدينة أنّ يدًا تطردني خارجها . يدًا خفيّة لا أدري منْ أين تأتي . وكلّما سمعت الأغنيات الوطنيّة قبيل نشرة الثّامنة على شاشة تلفازي القديم ، الذي عثرت عليه في حاوية قمامة في (الشّميساني) ، أصاب بنشوة لا أعرف كيف أصفها لك . وحتّى حينما كنت أتقلّب بين المحطات ، وأسمع منْ يصرخون خلف الميكروفونات يندّدون بمن تطاول على البلاد وسرق مالها ، أجد أنّ شيئًا يجعلني أقلع عن مشاهدة ذلك ، كأنّني لا أود تصديق ما أسمع . ترى ماذا لو لم تصادفني في ذلك اليوم أجر ثعلبًا عثرت عليه بالصّدفة ، وفكّرت أنْ أبيعه لحديقة الحيوان ، ومن حينها صرت صائد ثعالب! ترى

هلْ كنت سأبقى ذلك المحبّ لبلاده؟ أتعرف؟ هنالك رجل قريب من الصّفيح الذي أعيش فيه أنا وعائلتي، كلّما صادفني في الطّريق يثني على كوني أصلّي بانتظام، ولكنّه يمتعض لكون صوتي لا يرتفع اعتراضًا على حالنا. كنت أعلم ماذا يريد هذا الرّجل. وإلى أين يريد أنْ يأخذني. التّلفاز يقول أشياء كثيرة أيّها السّيّد. لكنّ كلّ الذي أريده هو أنْ أعيش. ترى ماذا لو لم تأت أنت؟ ربما أكون في أماكن لا يمكن العودة منها، كما حدث للبعض ممّن أعرفهم.

ألقى الرجل بعقب سيجارته عبر النّافذة، ثمّ خرج بسرعة، وهرسها بقدمه، وعاد إلى السّيّارة، وقد حدّق منْ جديد بشكل المدينة وهي غارقة بأضوائها:

- هنالك كثير من الحشائش اليابسة بحاجة لعقب سيجارة مثل هذه يا سيّدي لتشتعل. وإنْ اشتعلت لن تجد من يطفئها؛ لأنّ هنالك منْ سيشعلها، بحجّة عقب السّيجارة هذا. لا تستغرب يا سيّدي ممّا أقول، فأنا رجل بدويّ تعلّمت الحياة على يد أبي الذي كان يرى أنّ (المجالس مدارس). لكنّ تبدّل حالنا، وها أنت ترى إلى أين آل الأمر.

بدا على سراج كثير من الدهشة وهو ينظر في وجه الرّجل الذي ما إنْ همّ بالمغادرة حتّى ناوله خمسمائة دينار. عند نافذة السّيّارة أطلّ الرّجل وعلى وجهه ابتسامة أماطت إضاءة السّيّارة عنها اللّثام:

- لا أدري يا سيّدي. هل أتمنّى تناسل الثّعالب منْ بعضها؛ ليستمرّ مصدر رزقي، أم أدعو عليها بالانقراض.

قال ذلك ثمّ ركب سيّارته البك أب القديمة، وهبط الشّارع كأنّ كتلة معدنيّة تتدحرج، محدثةً صريرًا وجلبة لا تكترث بنعومة السّيّارات الفارهة.

منْ وراء عمّان وبيوتها تجثمُ على رؤوس جبالها ، أطلّ القمر يمدّ لسانه الفضيّ هازئًا بالعتمة ، بينما سيّارة سراج تسلك طريقًا ترابيّة ، هبطت من الجهة الخلفيّة للقصر نحو المنطقة الوعرة التي لا يجيئها غير رعاة يغادر جلّهم مع الغروب . بقيت السّيّارة تكابد وعورة الطّريق إلى أنْ استقرّت في الوادي . حينما أطفأ محرّكها جاءه السّكون واضحًا تلك المرّة إلاّ من صوت صرصار اللّيل ، وغناء راع بعيد . حمل الصّندوق الكرتونيّ ووضعه على صخرة كبيرة تبعد أمتارًا عن السّيّارة ، وعاد يجهّز بندقيّته وقد استقرّت الطّلقة في حجرة الإطلاق . صوّب نحو الصّندوق لثوان وإصبعه يرتعش على الزّناد ، ثمّ تراجع وقد وضع البندقيّة أرضًا ، وراح يمزّقه إلى أنّ فرّ الثّعلب . التقط بندقيّته بعجالة ، وصوّبها نحو الثّعلب وهو يتقافز بين الصّخور ، وأطلق عليه عدّة طلقات دون أنْ يصيبه ، إلى أنْ رأى طيفه برأس الجبل . ألقى سراج ببندقيّته أرضًا كمنْ يلقي منْ يده شيئًا يثير اشمئزازه ، وركض نحو الصّخرة الكبيرة ، ثمّ اعتلاها وراح يصرخ بالثّعلب ، وهو يكمل طريقه متقافزًا في امتداد تلك الوعورة :

- أيّها المراوغ لنْ تنجو . ما فعلتَه اختطّ طريقك نحو نهاية قادمة لا محالة . اسطُ كما تشاء ، وابتلع ما تريد . ما ابتلعتَه سوف يكبر في معدتك التي لا تشبع ، وسيجعلك - إنْ لم تطأ الرّصاصة جبينك - تتفجّر متفصّدًا منْ ذاتك الصّغيرة . انظر ماذا فعلتَ أنت وزمرتك . بدّلت شكل الماء والهواء والطّريق ، لكنّهم قادمون نحوك ؛ لأنّ جسدك الضئيل لنْ يحجب الشمس ، ولأنّ عتمتك زائلة .

توقّف الثّعلب لثوان قرب صخرة برأس الجبل ثمّ غادر ، يكمل التواءاته السّريعة بين الصّخور والأشواك وعبر المنحدرات ، إلى أنْ

اختفى وقدْ حلّ اللّيل كاملاً كأنّ الشّمس لم تكن قد أمضت نهارها كاشفة عن وجهها للجميع .

***

فرغ سراج من تناول عشائه ، وبقي يتأمّل لوحة (خلق آدم) لـ(مايكل آنجلو) المعلّقة على جدار صالة الطّعام المواجهة للطّاولة . كانت عيناه تضيقان وتتّسعان وهو يراقب اللّوحة ، وفي وجهه تساؤل وحنين وشكل غريب منْ أشكال الأسى . لم يحسّ بوجودها حينما أتت وداد ، ووقفت قربه تضع له فنجان الشّاي الأخضر ، رغم أنّ عطرها كان يلامس بدنه كمنْ تمتدّ يدها لرجل تهاب لمسه . على غير عادتها سحبت الكرسيّ وجلستْ قبالته . كانت ترتدي قميصًا أسود بزرّين محرّرين منْ عروتيهما عند صدرها الذي بدا متحرّرا منْ حمّالته . لمّت شعرها خلف رأسها بعقصة بانت إثرها رقبتها الطّويلة ، والزّغب ينتشر بها بينما سلسة ذهبيّة تطوّقها ، وتنحدر إلى ملتقى نهديها .

قالت وأصابعها تنقر وجه الطّاولة كأنّها تتهيّأ لأغنية ما :

- هل استمتعت بعشائك؟

- نعم يا وداد .

ارتشف بهدوئه المعهود منْ فنجان الشّاي ، وأعاده إلى مكانه . بينما وداد تنظر في وجهه وقد بدا عليها أنّها ستقول شيئًا ما :

- أنت تعرف أنّني لا أوجّه لك أسئلة . لكنْ عليك أنْ تعذرني هذه المرّة ، فلديّ سؤال يحيّرني .

قال سراج وشفته ما تزال على طرف الفنجان :

- ما هو؟

- لماذا لا أجد سراجًا الذي عرفته في عمّان في تلك السّنين، ومنْ ثمّ في ويسكونسن؟

وضع فنجانه في مكانه، ونهض يهمّ بالمغادرة :

- أنا هو سراج نفسه . لا تقلقي نفسك بأسئلة مثل هذه . تصبحين على خير .

قال ذلك وصعد الدرج نحو غرفته، مخلّفًا وراءه صمتًا لا يتخلّله سوى نقرات عقارب السّاعة المعلّقة في جدار صالة الطّعام، وأنفاس وداد وهي تتعالى، حيث تجلس في مكانها على الطّاولة إلى أنْ غاب في الطّابق الثّاني حيث راحت وداد برؤوس أصابعها تضرب الطّاولة، ووجهها يمتلئ توترًا وحنقًا .

***

في غرفته جلس سراج إلى البيانو، وراح يقرأ مرّة في دفتر النّوتة، وأخرى في دفتر القصائد الغنائيّة التي كتبها لأجل الأوبيريت . منْ هاتفه النّقال جاء جرس ينبّهه برسالة عليه أنْ يقرأها . كانت رسالة منْ سوار :

سوار : أتعرف لماذا نبوح لأحد دون آخر؟ لأنّنا نجد فيه كتفًا للقلب يهدأ ويستريح عليها . وهذا ما حدث لي في تلك اللّيلة معك . لقدْ كنت الرّجل الوحيد الذي خلعت قبالته كلّ أقنعتني، وقلت كثيرًا من الأشياء التي لا تقال .

سراج : كان عليّ في تلك اللّيلة أنْ أكون مستمعًا جيّدًا أكثر منْ أنْ أكون متحدّثًا لبقًا، بمعيّة امرأة يتمنّى كثير من الرّجال أنْ يمضوا بمعيّتها ولو وقتًا قصيرًا . ليس فقط لأنّ الجرح كان أبلغ منْ أنْ يُدارى،

بل أيضًا لأنّي كنت أريد أنْ أتعرّف بوجعك . ثمّة عزاء لجرح الآدمي حينما يتعرّف بجرح آخر .

سوار : كانت جراحك بادية رغم كلّ أناقتك وابتسامتك وهدوئك .

سراج : هلْ كنت مفضوحًا إلى هذه الدّرجة؟

سوار : الأمر ليس فضيحة بقدر ما وجدتك تلقي عنْ كتفيك أحمالاً كثيرة . لقدْ بحتَ دون أنْ تنطق . لهذا وجدتُني قريبة منك كما أجدُني الآن .

في تلك اللّيلة اعترفت سوار بتعلّقها بسراج . وبعد أسابيع من المحادثاتِ الهاتفيّة والرّسائل ، اعترفت له بحبّها . حصل ذلك حينما التقيا على العشاء في مطعم في عمّان ، وأخبرته أنّها سعيدة باعترافها ذاك . كان سراج على مقربة منْ فرحٍ غامر ، فشعر بنفسه كالنّبتة التي يعرج الماء على جذعها فجأة ، فيدبّ بأوصالها الاخضرار . صارت سوار قريبة منه ، تهاتفه دومًا ، إذْ يأتيه صوتها وهو يغلق وراءه باب مكتبه في الغاليري ، يصحبه عبر الطّريق كحارس وفيٍّ ، وتبقى تهدهده إلى أنْ ينام كأنّه طفل بحاجة لمنْ يقرأ له قصّة تجلب له الإغفاءة .

كأنّها تعرف أسراره ، هاتفته بعد منتصف إحدى اللّيالي ، فأنهت محاولة للنّوم . عبر كلماتها رآها تتسلّل إليه ، تفتح باب القصر ، وتمشي حافية القدمين ، تصعد درجًا يؤدّي إلى غرفته ، ثمّ تفتح الباب ، وتسير على رؤوس أصابعها ، وهو يراها ترتدي قميص نوم شفّافاً ، أخذت تخلعه بتمهّل ، ثمّ تندسّ بقربه عارية إلا منْ عطرها ، ونعومة جسدها ، ودفء أنفاس تلفح جسده الذي أخذ يشتعل شيئًا فشيئًا ، إلى أنْ وجد عاطفته في عزّ أوجها كما لمْ يكن منذ أنْ غادر عمّان . حينما استلقت

بقربه وسحبته إلى حضنها ، غاب صوتها ، وحينما عاود الاتّصال جاءه إنذار إلكترونيّ (الهاتف الخلويّ المطلوب مغلق حاليًا) .

كمن وجد ضالّته بقي سراج يعاود الاتّصال لعدّة أيام بسوار دون أيّ إجابة . بقي يحاول أنْ يخفي توقه الشّديد ، لكنْ دون جدوى ، إلى أنْ قرّر الذّهاب إلى بيتها . كان الوقت متأخّراً حينما فعل ذلك . رغب بأنْ يلقي بنفسه في حضنها ، ويعترف لها بكلّ هزائمه ، وانكساراته التي يخفيها وراء كلّ تلك الأقنعة . راح يهذي وهو في طريقه إليها ، يحدّثها كأنّها تسمعه . كان واحدًا آخر غير الذي عرفته في لقاءاتهما القليلة . حينما وصل بوّابة بيتها رأى سيّارة تعبر ، وتصطفّ أمام الباب حيث خرجت سوار ، وعانقت شابًا بدا يصغرها بسنوات كثيرة ، ثمّ ذهبا إلى الدّاخل وأغلقا الباب وراءهما . بقي لدقائق يتأمّل الباب وما رآه ، ويتأمّل شرفة بيت سليمان الطّالع التي كانت فارغة في تلك اللّحظة إلى أنْ غادر مسرعًا ، وضحك هستيريّ يتلبّسه ، كأنّه خارج منْ مسرحيّة كوميديّة .

دخل غرفته ، وتجرّد منْ ملابسه وضغط على زر التّشغيل في الرّيموت كونترول فجاءت موسيقى التّشيللو هادئة وحزينة ، كأنّ يدًا ما خفيّة تمسك بقوس وتجرّه على أوتار في روحه . وقف في منتصف الغرفة ، وراح ينظر إلى جسده كيف تتخاطفه المرايا المعلّقة على جدران الغرفة . يقترب منْ كلّ مرآة كأنّه يفتّش عنْ درب للولوج إليها ، وما إنْ يصطدم بإحداها حتّى يذهب نحو الأخرى دون فائدة ، إلى أنْ هشّم إحدى المرايا فسال الدم منْ يده ، واستحال شكل جسده إلى صور مشتّتة .

***

صباح الجمعة حيث لم يكن في القصر غيره ، كان سراج ما يزال في الشّرفة ، يرتدي ملابسه نفسها التي أمضى بها سهرة الخميس في نادي النّخبة . قرع جرس هاتفه ، إذْ كانت سوار تتحدّث إليه بصوت فيه الكثير منْ كسل الصّباح . كانت ما تزال في سرير النّوم وهي تعتذر عنْ أيام الغياب ، وتتذرّع بعطل في هاتفها ، ومنْ ثمّ بسفر مفاجئ خارج البلاد . لم يقل شيئًا . طلبت منه أنْ يلتقيا ، ويمضيا نهار الجمعة سويًا ، فدعاها إلى قصره . أقفل سمّاعة الهاتف واستحمّ ، ثمّ بدّل ملابسه . على شاشة التّلفاز كان سليمان الطّالع يتمنّى صباحًا خيّرًا للمشاهدين الذين يتابعون برنامجًا صباحيًا يبثّ كلّ صباح جمعة ، بينما سراج منشغل بتهيئة نفسه للقاء سوار . جلس في أريكة تقابل الشّاشة ، يراقبها بكلّ اهتمام ، يدقّق في ملامح سليمان الطّالع ، وفي ابتسامته التي يطلقها بكلّ براعة وهي تنفذ إلى قلب كلّ منْ يراها ، وفي حركة شفتيه حين ينطق بكلمات تمجّد الوطن . دقّق النّظر بشعره الاصطناعي فاحم السّواد رغم عمره ، وبجلد وجهه اللاّمع ، وتفكّر بنوع المستحضرات التي يستخدمها ذلك الرّجل . رأى رغم كلّ هدوء سليمان الذي يقدّمه على أيّ كلمة يقولها ، وأيّ حركة يبديها ، أنّ خوفًا شديدًا من الشّيخوخة يقبع وراء كلّ تلك التّفاصيل الوهميّة .

ما إنْ وصلت سوار تستقل سيارة أجرة هبطت منها عند بوّابة القصر حتّى هبط سراج إلى الحديقة ، دون أنْ يدري لماذا ارتدى ملابس زاهية ، وتضمّخ بالعطر ، وارتدَت روحه مزاجًا جديدًا . فتّش في خوابي أحاسيسه عنْ مشاعر مثل تلك ، لكنّه لمْ يجد ما دفعه للذّهاب نحو بيتها في وقت متأخّر ليلة أنْ وجدها تستقبل رجلاً وتعانقه ثمّ يختفيان في الدّاخل . وهو يفتح الباب رآها تتجه نحوه ، ونقرات حذائها تضبط

مشيتها التي كان فيها كثير من الدّلال ، ومن انهماك خفيٍّ لامرأة تخطّط لاصطياد رجل . كانت ترتدي بنطالاً أبيض ضيّقًا ، وقميصًا أبيض خفيف القماش . تضع على عينيها نظّارة شمسيّة سوداء اللّون . ألقت بشعرها النّاعم على كتفيها شبه المكشوفين . حينما عانقته علق بوجهه عطرها الباريسيّ الفاخر . إنّه منْ ذلك النّوع الرّبيعيّ الذي يحيل منْ يشمّه إلى حديقة يشقّ اخضرارها نهرٌ لامع تحت شمس هادئة .

- استقللت سيارة أجرة لأني مللت ضجيج من حولي . هربت منهم إليك .

قالت ذلك وخلعت نظّارتها ، ثمّ أخذت تحدّق بأرجاء الحديقة . حينما عبرا باب القصر وقفت في منتصف الصّالة تراقب لوحات علّقت على الجدران ، وتنظر إلى الأثاث كيف اختير بعناية ، وتنصت لصوت حسّاسات الضّوضاء ، والإضاءة ، والروائح التي كانت تجعل سامعها يحسّ كأنّه في مستشفى يولي اهتمامًا كبيرًا بمرضاه . قالت وهي تقترب من حسّاس الضّوضاء :

- قصرك جميل لكن ما هذه الأصوات التي أسمعها تنبض بانتظام .

- إنّها أصوات حسّاسات إليكترونيّة تقيس الضّوضاء التي تحدث في الصّوت ، والبصر والرّوائح . وأشياء أخرى كثيرة .

قالت مستغربة وهي تنظر في وجهه :

- يبدو أنّك تخشى هذا العالم كثيرًا .

- ليعيش الواحد منّا عليه أنْ يخشى ، بل يخشى كثيرًا .

وقفت إلى النّافذة حيث لاحت عمّان كاملة من ذلك الجبل الذي أقيم عليه القصر ، وحدّقت فيها بعمق :

- لكنّ الحذر بهذا الشّكل المفرط إمّا هو وليد فجيعة كبيرة، أو خوفٌ منْ فجيعة أكبر.

قال وهو يضع كوعيه على كتف النّافذة، ويطوّح بصره نحو عمّان:

- الأمر واحد، لا يختلف في معناه كثيرًا.

أزاحت خصلات شعر هبط على عينيها، ففاحت رائحته:

- انظر كم تبدو عمّان جميلة! وكيف تكبر بسرعة.

- نعم إنّها تكبر بسرعة قصوى، وتتحوّل إلى كتلة إسمنتيّة. ولكنْ تبدو كما لو أنّ مهندسًا واحدًا عكف على تصميم هذه البيوت ثمّ منح تصاميمه للبّنائين وغاب. المدن الجميلة عليها أنْ تكون متنوّعة. تمامًا مثل رهط من الطّلبة وهم يذهبون نحو المدرسة بأجناس وأعمار وملابس وأمزجة متفاوتة رغم أنّهم يذهبون إلى مكان واحد. إنّها الرّوح يا سيّدتي. الرّوح التي تجعلك تقعين في غرام مدينة عن سواها. عمّان التي تهزّ شجر قلبي، هي ما تبقّى منْ دلائل التّاريخ، والبيوت والحارات والشّوارع القديمة التي في كلّ حجر منْ حجارتها ذاكرة. أخذت هذه البيوت تتلاشى شيئًا فشيئًا لصالح ما رأيته مزاجًا غريبًا. المدن ليست المتاجر، ولا النّوادي اللّيليّة، ولا المقاهي الفارهة، ولا الشّوارع بالأنظمة الحديثة، ولا الأبراج الشّاهقة. المدن هي الشّرفات الوفيّة للحكايا، والأرصفة التي تحفظ شكل الخطى، والحجارة التي يسند ما في ذاكرتها قامة المدينة.

كأنّ قناعًا قدْ ذاب منْ وجهها اكتسبت ملامحها حمرة خفيفة، وبدت كطفلة تنصت لحكاية تعنيها كثيرًا:

- ما تقوله هو الصّواب يا سراج.

دعاها للجلوس في شرفة الطّابق الثّاني للقصر. قال لها إنّ هنالك

مطبخًا يمكنهما فيه تناول أيّ شيء يريدانه . تساءلت وهي تصعد الدّرج عنْ سرّ وحدته ، وعن خلوّ القصر حتّى من الخدم . لكنّه لم يجبها سوى بابتسامة خفيفة . لم تكترثْ في ذلك الصّباح بصمته ، كلّ ما احتفت به هو توقها الشّديد لتكون بقربه . كانت تريده كما تريد كثيرًا من الرّجال الذين كلّما امتدح أحد أنوثتها رغم تقدّمها في السّن تبحث عنْ رجل آخر .

أعدّ لها فنجان قهوة ، وحضّر لنفسه كأسًا من شاي الأعشاب الطّبيعيّة محلّى بالعسل . من المسجّلة أطلق العنان لموسيقى بيانو هادئة ، ثمّ حمل ما أعدّه منْ شراب ، وذهب إلى الشّرفة . كانت سوار تقف إلى الجدار المنخفض ، تأكل حبّات توت قطفتها من الشّجرة . قالت وهي تأخذ من يده الفنجان ، وعيناها مصوّبتان على الجبال الغربيّة ، وأشعّة شمس الصّباح تخضّب رؤوسها للتوّ :

- أعتقد أنّ هذه الطّبيعة هي سبب هدوئك .

جلس على كرسيّ سحبه نحو طاولة زجاجيّة صغيرة :

- الطّبيعة يد ما تزال تدفع بصدر الإسمنت عنْ بدنها . لكنْ إلى متى ستصمد هذه الأشجار ، وهذه التّشكيلات العشوائيّة الجميلة قبالة زحف العمران ونهمه؟ الإنسان بلا طبيعة حقيقيّة ، محض كائن تملأه شحنات كهربائيّة تجعل منه نسلاً للآلة لا أكثر .

جلست على كرسيّ قربه ، وكتفها تلاصق كتفه ، فأحسّت بدفء جسده يتسلّل إليها :

- ما يعجبني فيك أنّ لديك رأيك الخاصّ بكثير من الأشياء ، وأنّ لديك صدقًا كبيرًا لم أجده عند الكثير ممّن عرفت .

نظر نحوها ، فرآها جميلة رغم التّجاعيد التي أخذت تنتشر في

وجهها ، وفي عنقها . قال وهو يراقب طائرًا حطّ على سور الشّرفة ، ثمّ حلّق في الهواء فرحًا بانعتاقه :

- انظري إلى هذا الطائر الذي كلّما رأيته هو وغيره على هذه الشّاكلة أدركت أنّ ما منْ كائن يكذب إلا الإنسان . هل رأيت فراشة توهم أحدًا أنّها غير متيّمة بالضّوء؟ وهل رأيت عصفورًا لا يعود إلى عشّه بكلّ ذلك الوضوح؟ الكذب طريق ابتكرها الإنسان رغم أنّه يعلم عواقب المضيّ فيها .

شعرت أنّه يوجّه لها نقدًا خفيًا ، وأحسّت بكلماته سكاكين تُغرس في روحها . قالت بعد أنْ أشعلت سيجارة وراحت تنفث دخانها :

- لا يكذب الإنسان إلا حينما يصل إلى قناعة بأنّ الفجيعة حدثت منذ زمن .

التفتت إليه وحركات جسدها تنبئ بتوتّر واضح :

- سأعترف لك بشيء . أنا لم أكذب إلا حينما امتدّت يد كمال وفعلت بي جرحًا داخليًا لا أحد يقوى على مداواته إلاّ هو . وحينما وصفني بالمرأة المحنّطة ، ووجّه لي ما وجّه منْ إهانات ، بقيْتُ لزمن مندهشة كيف قالها أمام حبٍّ عظيم كالذي كان بيننا . هل تعرف ما معنى أنْ تفقد الثّقة بشيء أمضيت عمرك تؤمن به . إنّها الحالة القصوى من التّيه ، وهنا لا ضوء يغدو نافعًا أكثر منْ ضوء الكذب الزّائف .

حينما فرغت من كلامها ألقت برأسها على كتفه ، وتنهدت ، ثمّ سكنت كأنّها ترغب بإغفاءة قصيرة ، بينما موسيقى البيانو ما تزال تتهادى إليهما من الدّاخل . لم يحسّ سراج بما أحسّ به ليلة أنْ ذهب

إلى بيتها مدفوعًا بكلّ ذلك الشّغف والتّوق الشّديدين . لكنّه جعل أصابعه تتخلّل خصلات شعرها وتغور به . كان يفتّش عن أشياء تائهة منه ، ويبحث عن توق منْ نوع خاصّ يعيد ترتيب إيقاع العالم عبر حواسّه التي ترهقه . مدّتِ يدها ، ولامست يده . امتدحت دفئها وملمسها ، ومداعبته لشعرها بذلك الحنوّ . رفعت رأسها عنْ كتفه فصار وجهها قريبًا منْ وجهه ، لا تفصلهما سوى رغبة عارمة منها بقبلة لم يبادر بها ، فقبّلته بشغف ، وأنفاسها تتعالى . اقتادها إلى غرفته وأغلق الباب وراءه . وراح يتشبّث بوهج ضئيل لعاطفة تجيء منْ أقاصي خوابيه . حينما تعرّيا تمامًا ، كانت مرايا الغرفة تتناوب على مشهدهما وهما يتعانقان ، وسوار تتلّذذ بفكرة أنّها ما تزال مرغوبة . أمّا سراج فقد كان يرى نفسه يعانق امرأة أخرى لا تفارق ذاكرته . شمّ عطرها ، وحظي بملمسها ، وكابد أنفاسها الحارقة ، وهي تهمس بأذنه كلمات اعتادها . في السّرير تعانقا بشغف ، واستشاطت عاطفته ، فعبر بابًا أدّى به إلى الهذيان . لكنْ لم تسمع سوار أنّ سراجًا كان يهذي باسم غير اسمها ، ولم يسمع سراج أنّ سوار كانت تعانق طيف رجل آخر . في المرآة رأى امرأة أخرى . رأى سوار وهي تعانق رجلاً عند باب بيتها . استلقى في السّرير إذْ رأى لوحة السّقف ، فأخذت عاطفته تهوي إلى نهر متجمّد ، فأسرع نحو سوار يحاول معاندة ما يحسّ به لكنّه فشل . حمل سلسلة المفاتيح ، واقتادها وهما عاريان نحو الممرّ الذي تقع فيه الغرف السّتّ . راح بتوتّر وأنفاسه تتعالى يجرّب المفاتيح إلى أنْ عثر على مفتاح الغرفة الثّانية فأشرع بابها ، وسحب سوار إلى الدّاخل وكثير من الذّهول والخوف يتلبّسانها . أغلق الباب بالمفتاح ، وهي تستطلع ما في الغرفة ، خزائن زجاجيّة تنتصب على امتداد الجدران .

اقتربت من الخزائن وارتعاش جسدها ما يزال يجعل خطواتها ملتبسة . رأت فيها كاسيتات أغنيات قديمة لمطربين عرب وأجانب . كانت الكاسيتات مرفقة بأوراق تشير تواريخها إلى سنين ماضية . راديو ترانزستور قديم ما عاد أحد يقتنيه . مسجلة قديمة منْ نوع (هيتاشي) . ميكروفون بدا أنّه لحطّة تلفزيونيّة . لعبة (باربي) منْ ذلك النّوع النّاطق . قيثارة ممدّدة في الخزانة الزّجاجية بدت كأنّها جثّة محنّطة . التفتت نحو سراج حيث كان يقف مرتعشًا قرب سرير وضع في منتصف الغرفة . لم تفهم شيئًا ممّا يحدث ، ولماذا هي الآن مع هذا الرّجل الغريب . شعور عارم بالخوف أخذ يزداد ويمنعها حتّى عن الكلام . اقترب سراج منها وراح يشمّ جسدها ، وهمهمات غريبة تأتي منْ فمه . أخذ يقبّلها وهي مستسلمة ، واستغراب وخوف شديدان يحتلانها . اقتادها إلى السّرير بكلّ حنوّ ، وعاد يقبّلها ويلتصق بها ، لكنّ عاطفته خارت تمامًا . قالت وهي تتملّص منه :

- لا حيلة لك يا سراج . أنت عاجز .

نهض من السّرير ، ثمّ عاد يقرفص أمامها ، وقال بما يشبه الفحيح :

- لست عاجزًا . لم أفعل كلّ ما فعلت لأجعلك تنتصرين عليّ .

مشى بسرعة نحو الخزائن . التقط كاسيتًا قديمًا ، وفتح خزانة ثانية ، وأخرج مسجّلة الهيتاشي ، وألقمها الكاسيت فجاء صوت (ديمس روسس) حانيًا وهو يغنّي (Far away) ، فراح يطوّح جسده يمينًا وشمالاً في رقصة يغمض عبرها عينيه تارة ، ويفتح ذراعية يدور حول نفسه تارة أخرى . مدّ يده بحنو نحوها ، وأخذها نحو فسحة فارغة بقرب السّرير :

- أتسمعين صدى الذّكريات؟ ارخي عنان حاسّة السّمع لديك .

لمْ أكن أعي أنّها يمكن أنْ تأخذنا إلى إشارات نحو مستقبل لا ندري عنه إنْ أمعنا الإنصات جيّدًا في الأشياء ، سنجد دلائل لما يمكن أنْ يحدث .

ضمّها إليه وأمسك بيدها ، وجعل يده تحتضن خصرها ، وراح يراقصها ، ويدندن بمعيّة الأغنية :

- ها أنا أراك تغافلينني وتذهبين إليه ، بعد أنْ تركت قناعك على المشجب ، دون أنْ أراه . أتسمعين يا حبيبتي؟ أنصتي جيّدًا للأغنية ، إنّ فيها إشارات لما أقول .

صرخت سوار بخوف ، وبصوت تتخلّله حشرجة البكاء :

- أنا سوار يا سراج .

فرّ منها ، وأخذ كاسيتًا ألقمه المسجّلة ، فجاء صوت لامرأة تحكي عنْ ليلة عيد ميلاده ، وعن وعدها له بحياة أبديّة ، تعاند حتّى الموت . مشت سوار نحو المسجّلة وأغلقتها ، ثمّ قالت بحنوّ :

- أنا سوار يا حبيبي .

قال بما يفوق الهذيان :

-كلاكما واحدة .

أمسك بكتفيها ، وراح يهزّهمها :

- حينما ذهبت في تلك اللّيلة بعد أنْ أمضى هاتفك أيامًا بلا إجابة عن اتّصالاتي ، ورأيتك تعانقين رجلاً قرب باب بيتك ، ثمّ تختفيان في الدّاخل ، أدركت أنّكما شيء واحد . لا تختلفان إلاّ في الملامح . أنت خائنة .

تملّصت سوار منْ يديه ، وجلست بطرف السّرير وصدرها ينزّ عن بكاء مرّ :

- نعم أنا خائنة مع سبق الإصرار والتّرصّد ؛ فالخيانة قرار تصنعه المرأة . لكنْ قل لي منْ خنت . هل خنت زوجًا ألقى بي بعيداً كما يلقي صفحة منْ كتاب لا يؤمن بما فيها . نعم ، لقد طلّقني لأنّي غنّيت ، وأنا التي كانت تعتقد أنّه يدرك ما معنى أنْ أغنّي ، وأنْ أضيف لجناحي ريشًا آخر لأحلّق كما كنت أشتهي . في الوسط الفنيّ كنت كغزالة تتقافز بوسط قطيع من الضّباع ، لكنّني حافظت على أنْ لا يفترسني أحد ممّن كانوا حولي . وحينما ذهبت إلى كمال وصفني بالعاهرة ، ورآني امرأة مُحَنَّطة تخفي ملامح التقدم بالسن بالمساحيق . حسنًا ماذا كان عليّ أنْ أفعل؟ أنا كنت أنتقم من الرّجال في كلّ رجل ألتقي به . ما إنْ أحسّ به ، يقترب من الذّروة حتّى أدفعه عني بعيدًا ، فأتلذّذ بكوني امرأة ما أزال مرغوبة .

قرفص سراج قربها ، ووجهه مليء بالتّوتّر :

- الخيانة لا تُبرّر .

دفعت به وراء فسقط على الأرض . وراحت تحاول فتح الباب ؛ لتغادر . لكنّه أمسك بها ، ودفعها إلى السّرير ، وفي عينيه تتعالى ألسنة شهوة الانتقام .

مذكّرات سراج

٢

لم أعد ألتقي كثيرًا بسعيد عبد الباري ، افتقدت الوقت الذي كنّا نمضيه سويّة ، نذرع عمّان مشيًا ، نمرّ بالمكتبات ، وببسطات الكتب ، وبالمطاعم الشّعبيّة ، وبالمقاهي ، ونسخر حتّى من الهواء الملوّث بأدخنة العربات ، ونحن نسطر أحلامنا ونراها تتقافز فوق على كلّ شيء . كان سعيد بالنّسبة لي يساوي ما تساويه الحبيبة للحبيب ، فالصّديق الحقيقيّ مرآة لا تلد إلا الصّور الحقيقيّة ، بعكس ما تمنحه المرايا المقعّرة .

أصبح سعيد أحد السّائقين الخصوصيّين الذين يعملون لدى سليمان الطّالع ، وبات يتلقّى راتبًا جيّدًا ، فتحسّن مزاجه رغم التّعب الكبير الذي يتكبّده . قال لي إنّ أحد أقاربه قد دبّر له هذه الوظيفة إلى حين أنْ يأتي دوره في ديوان الخدمة المدنية ، لكنّه ما عاد يرسم إلا في يوم عطلته الأسبوعيّة . انقطع عنْ حضور كلّ الفعاليّات الثّقافيّة التي كنّا نواظب عليها ، أيام كان في جعبتنا الكثير من الوقت . أما أنا فقد وقعت بحبّ ريفال سريعًا ، ربّما أحببتها منذ التقينا في معرضي الفنيّ . لم نكن نشبه بعضنا في كثير من الأشياء والقناعات ، لكنْ كانت قناعتي أيضًا أنّ ثمّة مساحة في الحبّ تحتمل الاختلاف ، فليس شرطًا أنْ يحبّ رجل امرأة تشبهه . سيفسد الرّوتين حياتهما سريعًا ، ويدفن الحب في مقبرة أوّل خلاف عابر بينهما . لم نكن نتشاجر ولا نختلف على شيء رغم اختلافنا . لم يعد لأيّ من لحظات

حياتي قيمة دون ريفال ، أصحو صباحًا على صوتها توقظني من النوم ، فتجسّر تلك الهوة ما بيني وبين نهار يفيض بالمتعة ، وأنام على إيقاع صوتها وهي تستسلم للنّعاس . عملت بنصيحتها بأنْ أفتتح متجرًا للعطور ، إذْ تقدّمت بطلب قرض صغير وافتتحت ذلك المتجر . في البدء كان الأمر صعبًا عليّ ، لكنّه صار أكثر يسرًا مع مرور الأيام ، إذْ إنّ ثمّة مسافة تقع دائمًا بينك وبين الشّيء الذي تحبّه بحاجة لشيء من العناد والصّبر حتّى تتلاشى . مع الأيام أخذ زبائن متجري يتزايدون ، خاصّة أنّي تعرّفت أكثر على أمزجتهم وما يحبّون منْ عطور ، بل حتّى أنّني رحت أجتهد في ابتكار روائح كنت أزعم أنّها ليست موجودة . أصبح متجري شهيرًا في عمّان ، فانبثقت عنه عدّة فروع في أكثر منْ مدينة ، وعيّنت في كلّ فرع موظفًا يديره ، واكتفيت بإعداد التّركيبات والتّأكّد منْ سلامة تنفيذها . أما باقي وقتي فرحت أمضي جزءًا منه في مرسم كان في الأصل بيتًا مهجورًا في اللّويبدة ، استأجرته وأخذت أعكف على لوحاتي فيه ، والجزء الآخر بمعيّة ريفال التي بعد أربع سنوات من افتتاح متجر العطور ذاك ، وادّخار مبلغ بسيط ، تزوجتها . عشنا حياة هانئة كما يعيشها أيّ موظّف . لم تكن حياة ترف ، ولم تكن حياة معوزين . كنت سعيدًا بأنّي أعيش بمعيّة امرأة أحبّها ، في بيت متواضع منحني كثيرًا من الدّفء . بتّ متصالحًا مع أشياء كثيرة في هذا العالم ، حتّى إنّ نظرتي للمدينة باتت مختلفة عمّا كان يسيطر عليّ في زمن كنت فيه رهينة ما يمكن أنْ تخلقه البطالة في النّفس . فالحبّ قادر على أنْ يجعلك تمتلك الصّبر على كثير ممّا يحدث لك ، تمامًا كالصّوفي وهو يمشي حافيًا على الجمر .

رسمنا على ورق أيامنا أحلامًا كنا ننتظرها أن تبزغ من أفق وقت

تمضيه بحب طالما غبطت نفسي عليه . أكثر ما حلمت به أنْ تتطوّر تجربتي في الرّسم ، وأصبح ذائع الصّيت . أمّا ريفال فكانت تحلم أنْ تمتلك محطّة فضائيّة ، وتصبح إعلامية شهيرة . كنت أضحك حينما أسمعها ترسم بالكلمات مخطّطاتها لما تحلم به ، لكنّي في نهاية الأمر أرْبتّ على كتفها ، فكثير من الأحلام تتحقّق بمجرّد إيماننا بها .

- سأضع خطّة إستراتيجيّة تُخرج المشاهد من الرّتابة التي يعيشها جرّاء إعلام سطحيّ .

قالت ذلك وهي تشير إلى التّلفاز ، بينما كان يعرض مادة إعلانيّة ليس فيها كثير من الذّكاء حتّى تصل لمستَهدَفيها . حينما انتهت ، ضجّ من الشّاشة وجه سليمان الطّالع الذي تفشّى اسمه سريعًا في وسائل الإعلام ، وبين النّاس ، وتقلّد أرفع المناصب . رأيته أكثر شبابًا ممّا عهدته قبل كلّ تلك السّنين حينما استدعينا للمخفر يوم ضربت ابنه جعفر ، ويوم لكمه والدي بعد مشادّة كلاميّة بينهما . صار الآن مسؤولاً كبيرًا ، لا تتجرّأ الذّبابة بأنْ تحطّ على رأس أنفه . قرأت في أكثر منْ صحيفة خارج البلاد أخبارًا تشير إلى تورّطه بصفقات مشبوهة ، وعمليّات فساد جعلت لديه ثروة مفاجئة لا تقوى حتّى النّيران على أكلها . في البرنامج الذي أعدّ للحديث معه ، أخذ سليمان الطّالع يتحدّث عن الوطن بعبارات تدخل القلب سريعًا ، وتخلق بسامعها شعورًا متفرّدًا ببكاء عادة ما تخلقه المشاعر الجيّاشة . نهضت إلى غرفتي وأحضرت صحيفة نُشر فيها مقال عنه . اعتقدت أنّ ثمّة لبسًا في الأمر ، ربّما أنّ أحدًا ما يتجنّى على ذلك الرّجل . لكنْ ليس هنالك منْ دخان دون نار ، هذا ما يحدث دائمًا ، وهذا ما حدّثني به أبي الذي يعرف سليمان الطّالع جيّدًا . عاصره منذ كان للأحلام قيمة ، ومنذ

كان يعتقد الحالمون أنّهم على مقربة منْ أنْ يعيشوا في بلاد لا تطالها أياد تمزّق قمصانها .

في تلك اللّيلة لم تعقّب ريفال ، بعدما انتهيت منْ حديث استمرّ لنصف ساعة متواصلة عنْ سليمان الطّالع وتحوّلاته ، إذْ بقيتْ صامتة . حينما سألتها قالت إنّها قلقة حيال عدم حملها ، رغم مرور وقت على زواجنا . بعد مضيّ سنين بتّ قلقًا حيال هذا الوضع ، لكنّ انشغالي بمعارضي الفنيّة التي أخذت تحصد شيئًا منْ نجاح أبعدني عن التّفكير بمولود له أنْ يبدّد شيئاً منْ كدر طفق على بيتنا . وهذا ما حدث مع ريفال أيضًا ، فقد عيّنت فيما بعد في محطّة فضائيّة شهيرة ، وباتت تمضي كثيرًا منْ وقتها منشغلة بالعمل . قالت لي إنّها خضعت لاختبار حيال وظيفتها في المحطّة فقدّروا كفاءتها . أخذت صور ريفال تظهر سريعًا في الصّحف بين الفينة والأخرى ، وراح اسمها يلمع شيئًا فشيئًا وهي تجري حوارات مع شخصيّات مهمّة ، وتلبّي دعوات لحفلات عشاء في سفارات وقنصليّات وصالونات سياسيّة . كنت قد أفسحت لها المجال حتّى تحقّق حلمها ، وأشغلت نفسي أكثر منْ ذي قبل بالعمل على لوحاتي ، وبلقاءاتي مع سعيد عبد الباري . لكنْ لم يدر بخلدي في تلك الأيام أنّ ثمّة شيئًا يحدث في الخفاء .

***

في المرسم وفي إحدى الصّباحات حيث كنت قد بدأت صباحي بفنجان قهوة ، فاحت رائحته وأحدثت بي ذلك الدّوخان اللّذيذ الذي عادة ما يجعلنا نعي شكل نهاراتنا ، وكيف وما ستكون عليه ، جلست في صوفة تتوسّط المكان ، ورفعت ساقي على مسندها ، ورحت أتلذّذ بالقهوة ، وأراقب عمّان وأسراب الحمام تعلو وتهبط في سمائها كأنّ

أطفالاً يرسمون أشكالاً عشوائية في صفحة زرقاء . ثمّة أغنية لفيروز كانت تتهادى كلماتها إليّ عبر راديو يتّكئ على كتف النّافذة بثّت في المكان روحًا رشيقة . منْ يرى المدينة في صباحاتها يدرك أنّ حالاتها محضّ تقلّبات لرجل يعاني القلق في سرير النّوم . عمّان مدينة قلقة مثل طفل يقف على مفترق طرق ويحار أيّهما يسلك . من يراها في اللّيل يكتشف عوالم لا تنام طوال النّهار ، كأنّها لا تمتّ لجسد المدينة النّهاري بصلة . عوالم تنتمي في صحوها لليل يجيء بالسّكارى ، والحزانى عابري الطّرق والذين لم يؤتهم النّهار شيئًا من الأمل ، والعشّاق الخائبين الذين عادت قلوبهم أدراجها بيدين فارغتين .

بقيت أعمل على لوحاتي إلى أنْ شعرت بالتّعب ، حيث انتصفت الشّمس في السّماء ، وأخذت تخدّر كلّ شيء تصله أشعّتها الحارقة . استلقيت في الصّوفة ، ورحت أطالع صحفًا أقرأها في وقت مثل ذاك . ثمّة صور لسليمان الطّالع كانت تستوطن صفحات الجريدة ، مرفقة بأخبار تتطرّق لإنجازاته إلى جانب مقالات تدافع عنه ، وتشيد بنزاهته وما أنجز . هذا الرّجل تمدّد سريعًا كما يتمدّد عشب ضارّ في حقل . بدا لي المصوّرون الذين التقطوا له الصّور قد اجتهدوا في اقتناص زوايا مؤثّرة لدى منْ يشاهدها . صورته التي تتوسط قسمًا من أقسام الصّفحة الثّانية ، أوحت ونظّارات القراءة على مقدمّة أنفه بانهماكه بالتّفكير وهو يطالع أوراقًا على طاولة مكتبه . ثمّة صور له في صحف أخرى التقطت بعناية بينما يتحدّث وراء الميكروفون ، وإحدى يديه تمسك بالقلم وترتفع في الهواء .

قرع هاتفي النّقال لمرّات متتالية وأنا مستغرق بقراءة الصّحيفة . كان اتّصالاً منْ سعيد عبد الباري . جاءني صوته متوتّرًا حينما أجبت :

- أنت في المرسم؟

قلت له والصّحيفة ما تزال بيدي :

- نعم في المرسم . ما الأمر؟

تنهّد عميقًا :

- أريدك أنْ تأتي حالاً إلى مقرّ عملي . أنت تعرف العنوان . سأنتظرك عند بوّابة (الفيلّا) . تعال بسرعة .

لم يمنحني سعيد فرصة لأستفسر منه عمّا يحدث ، لهذا استحكم بي القلق طوال الطّريق التي أخذتني خارج عمّان ، وبعيدًا عنْ ضوضائها . احتمالات كثيرة بقيت تنبثق منْ مخيّلتي ، إلى أنْ وصلت جبلاً بنيت عليه (فيلا) تستفرد بمكان تنمو فيه الأشجار الحرجيّة بكثافة . كان سعيد ينتظرني عند البوّابة التي تتوسّط سورًا عاليًا يشبه أسوار السّجون . قال وهو بالكاد يلتقط أنفاسه لشدّة التّوتّر :

- طلبت منك أنْ تأتي لترى ما رأيت .

دون أنْ أفكّر بالأمر وجدتني أتبعه عبر البوّابة ، ومرورًا بحديقة توسّطتها أشجار زينة كثيفة . بدا المكان كأنّ لا أحد فيه ، إلاّ منْ صوت موسيقى كان يعلو كلّما مضينا في ممرّ ضيّق يتوسّط أشجارًا وورودًا إلى أنْ وقفنا قرب كوّة مخفيّة في جدار . حينها أشّر سعيد نحو تلك الكوّة ، وقال كمن استجمع قواه ونطق بآخر الكلمات :

- انظر .

الذي رأيته كان أقسى ممّا يمكنني أنْ أصفه ، حتّى إنّني لم أستطع أنْ أستعيده بعد دقائق منْ مشاهدتي له . لم أحظ لحظتها إلا بصمت مرعب ، كأنّ كلّ الأصوات تلاشت مرّة واحدة . حينما لفظتني البوّابة خارج الفيلاّ التي تقع على مرتفع يطلّ على عمّان منْ جهتها الغربيّة

وجدتني كمومياء تخرج منْ صندوقها الحجريّ وتكابد ضعف خطواتها . حينما حدقّت بعمّان منْ ذلك الجبل رأيت البنايات تتهاوى ، وتذوب ، ويتصاعد منها الغبار والأدخنة كأنّ قنبلة نوويّة هبطت للتوّ على مدينة أحببتها بعاطفة تفوق عاطفة رجل وقع في عشق امرأة .

لم أنتبه لزعيق السّيارات وهي تأمرني بأنْ أغادر إلى الرّصيف حتّى لا أعيق مسيرها . بعض ممّا أتذكّره أنّ ثمّة سيّارة أجرة قدْ توقّفت بقربي ، وأقلّني سائقها إلى بيت والدي . عبر الطّريق بدت لي كلّ الأشياء محض اختلاط لعاصفة مفاجئة . لم تكن هنالك صورة واضحة لأيّ شيء . ولا صوت يمكنني أنْ أميّزه عن الأصوات الأخرى إلاّ صورة سليمان الطّالع ووجهه ينبطح على شاشة التّلفاز ، يبتسم برزانة ويده ترتفع ما بين الفينة والأخرى ممسكة بالقلم تارة ، وبنظّارة طبيّة تارة أخرى . وصورة ريفال ترتدي فستانًا ورديًا وتشرع لي الباب ، وأنا أعود للبيت ، يداي ملطّختان بالألوان والأصباغ .

في بيت والدي دخلت غرفتي ، وألقيت ببدني على سريري الذي كان ما يزال في المكان نفسه هو وبعض موجودات الغرفة رغم انتقالي إلى بيت آخر . نِمتُ سريعًا ، وحينما استفقت اعتقدت أنّي نمت لساعتين أو ثلاث دون أنْ أدري أنّني نِمت ليومين متتالين . وجدت والدتي قرب رأسي تنظر إليّ بإشفاق . أخبرتني أنّ سعيد عبد الباري أتى يسأل عنّي ثمّ غادر . لم أقل لها شيئًا سوى أنّني كنت متعبًا وبحاجة للنّوم . لكنّها لم تصدقني ؛ إذْ لم أكن أدري أنّ وجهي كان يُقرؤها ما في داخلي .

في تلك الأيام بقيت حبيس غرفتي ، حتّى ستارة النّافذة لم

أشرعها . لمْ تكن بي أدنى رغبة للاستماع أو لرؤية أيّ أحد . كنت صامتًا فحسب ، لا أفكّر بشيء . إنّه السّهو الموجع بالفراغ ، الفراغ الذي ما كان يجيء منه سوى رياح باردة تنذر بالموت . رياح جعلت شيئًا خفيًا بي يتململ ، ويدفعني للرّحيل .

بعد أسبوع قرّرت أنْ أغادر غرفتي . كان ذقني قدْ استطال ، وانتفخ ما تحت جفني ، واكتسب وجهي عتمة لم أشهدها منْ قبل ، وألمّ بخطوتي ثقل غريب . حلقت ذقني واستحممت ، ثمّ بدّلت ملابسي وخرجت . طلبت منْ سائق سيّارة الأجرة أنْ يقلّني إلى السّفارة الأمريكيّة بعد أن حملت معي عدة وثائق . كنت أنصاع لرغبتي في أنْ أغادر البلاد هاربًا إلى بلاد أجد نفسي فيها محض إبرة في كومة قشّ من الأعراق والجنسيّات . كنت أشتهي أنْ أتوه ، كما يتوه ولد بدويّ في زحام مدينة عامرة بالضّجيج .

عند بوّابة السّفارة وقفت في طابور منْ مراجعين يحلمون بفرصة تبدّل حياتهم . لم أكن أختلف عنهم كثيرًا ، فقد جئت لأجل فرصة ، لا لتغيّر حياتي ، بل لتمنحني واحدة بدلاً من التي سرقها منّي سليمان الطّالع حين مدّ يده إلى جيب مدينتي ، وجيب قلبي ، واختطفها كما يختطف جائع شره اللّحم ، ويترك العظام تتسلّى بها قطط تفتّش حاويات القمامة في آخر اللّيل ، فتبات موهومة بالشّبع .

بعد ساعات من الانتظار جلست وراء حاجز زجاجيّ يفصلني عن موظّفة أمريكيّة شقراء ، تفحّصت أوراقي ، من وراء نظّارة بعدستين مستديرتين خلعتهما بعد دقائق وحدّقت بي :

- لماذا تريد الذّهاب إلى أمريكا سيّد سراج .

- لأفتّش عنّي هناك .

ابتسمت :

- هذه إجابة تقولها لمعجب بإحدى لوحاتك ، لكنّنا هنا نريد منك إجابة أكثر واقعيّة .

- صدقيني هذا هو السّبب الوحيد الذي أتى بي إلى هنا يا سيّدتي .

دوّنت بضع كلمات في النّموذج ، ثمّ جعلت الختم يهوي عليه ، ونظرت إلي مبتسمة :

- نتمنّى أنْ تجد نفسك في أمريكا . مبروك ، خلال أيام ستكون معاملتك جاهزة . ويسكونسن ولاية جميلة .

***

بعد أسبوع سافرت إلى أمريكا ، بعد أنْ كتبت رسالة لسعيد عبد الباري دون أنْ ألتقي به ، أوصيه فيها بأمي التي لم أخبرها بشيء سوى أنّي ذاهب إلى خليج العقبة لأيام ثمّ أعود . لهذا ذهبت إلى المطار بمفردي لا أحمل معي سوى حقيبة صغيرة فيها قميص وبنطال ، وملابس داخليّة ، وجواز سفري ، وورقة فيها عنوان لصديقة اسمها (وداد) تعيش في مدينة ماديسون في ولاية (ويسكنسون) الأمريكية . حينما نهضت بمعيّة المسافرين ورحنا نمشي عبر ممرّ يفضي بنا إلى بوّابة الطّائرة ، شعرت بي فارغًا كحقيبة لا تضمّ شيئًا ، ورأيتُني ضعيفًا ، لم أكترث حتّى بأمي التي ستعاني كثيرًا غيابي المفاجئ ، ووحدتها القاسية بلا زوج وعائلة . حينما أقلعت الطّائرة وحلّقت في السّماء ، كنت أنظر إلى عمّان وفي البال شخص يرسم لوحة ليد تخلع شجرة ، وتلقي بها بعيدًا . أغلقت النّافذة ، وضبطت الكرسيّ على وضعيّة

الاسترخاء، وأغمضت عينيّ والتّساؤل الذي بدّل حياتي عنْ بكرة أبيها يضجّ لأوّل مرّة في البال :

(ما نفع حواسّنا الخمس إنْ لم تكنْ لها القدرة على التّنبّؤ بما يمكن أنْ يحدث لنا) .

الفصل الثّالث

دعد

(في آخر أيّ طعم تتذوّقه ثمّة هاوية ، عليك أنْ ترخي نحـوها حـواسّك لتـحلّق بجناحـيك ، فـتـأخـذك من السّقوط إلى عقر الهواء ، حيث يمكنك حينها أنْ تفهم ما الذي يجري ، وأنت توغل في بُعد جديد) .

١

كان المحقّق عدنان البادي يراقب وجوه المارّة والبنايات والعربات ، وسيل الزّحام الهادر ، وسيّارته تخلّف وراءها (قصر العدل) ، بينما عدد كبير من المراجعين والمحامين يدخلون إليه ويخرجون . كان يفكّر بأمر اختفاء (كِنْدة همّام) ، والفنّانة (سوار) في تلك الظّروف الغامضة دون أنْ يجد خيطًا واحدًا يأخذه نحو حلّ عقدة ذلك اللّغز . ثمّ راح يتفكّر بعمّان وكلّ ما طرأ عليها منْ تبدّلات . كان يرى أنّ مثلما في المدن جمالاً يخصّها وحدها ، يرى أنّ هنالك تيهًا لا تُقدّم لك حصّتك منه إلا في المدن . فالمدن عوالم سريعة النّمو ، تكبر بسرعة ، وكلّما كبرت ، تشعّبت طرقاتها ، واستحالت إلى لغز كبير .

كان وجهه متعبًا وهو يدخل مكتبه بخطوات يخنق حيويّتها الإعياء . طلب فنجان قهوة ، وأشعل سيجارة ثمّ فتح شاشة الحاسوب . أخذ دخان سيجارته يصعد بخطّ مستقيم كأنّ ماردًا ينهض منْ تجويف المنفضة ، وهو يقرأ عنوانًا في أحد المواقع الإلكترونية الإخبارية (اختفاء الفنّانة الشّهيرة سوار في ظروف غامضة يعيد التّساؤل حول اختفاء الدّكتورة كِنْدة همّام) . أشاح بصره عن شاشة الحاسوب ، وعاد يدخّن بعصبيّة ، ثمّ أخذ ينظر نحو عمّان عبر النّافذة ، كأنّه يستجدي الحلّ . استرخى في مكانه ، وراح في سرّه يفكّر :

– ما الذي حدث لتطرأ على عمّان جريمة مثل هذه؟ كلّما اتّسعت المدن ، ضاقت القلوب .

كان المحقّق عدنان البادي قد زار بيت الدّكتورة كِنْدة همّام منْ قبل ، وجمع ما توفّر منْ معلومات حولها . وزار أيضًا بيت الفنّانة سوار ، واعتنى بكلّ التفاصيل . وجد أنّها تعيش وحدها إلاّ من الحرّاس الشّخصيين الذين أخبروه أنّها في الأيام الأخيرة استغنت عن الخادمات ، وأنّ آخر نشاط فنّي لها كان في غاليري (الحواسّ الخمس) ، وأنّ آخر شخص التقت به ، هو شابّ يعمل في الإنتاج الفنيّ ، رأوه يزورها في وقت متأخّر . دقّق بمعيّة فريقه بكلّ ما كانت تقع عليه أعينهم في بيت كِنْدة وبيت سوار . الملابس ، الكتب ، الأوراق ، أواني الطعام . ودوّن مواعيد خروجها ، ومنْ تربطها بهم علاقات صداقة وقربى وعداوة . حقّق مع عدد من الأشخاص ، لكنْ لا نتيجة تفضي إلى الإمساك بخيط تلك القضيّة التي جعلت رئيسه يوجّه له لومًا على تأخّره في كشف ملابساتها . قرع أحد الموظّفين الباب ، وسلّمه تقريرًا يفيد بأنّ سوار لم تغادر البلاد ، وليست نزيلة في أيّ فندق أو مستشفى . تمامًا كالتّقرير الذي حرّر عن الدّكتورة كِنْدة همّام .

قرُع الباب ، وطلب الموظف إذنًا للصّحفي رعد عبد الجليل بالدّخول . كان متعبًا هو الآخر ؛ إذ ازداد السّواد أسفل جفنيه السّفليين ، وبدا وجهه الأسمر الممتلئ مصابًا بإرهاق كبير . راح يدخّن بنهم بعد أنْ سلّم على المحقّق بصوت مهزوم وجلس . هرس السّيجارة بعصبيّة :

- أعرف أنّي أرهقتك بزياراتي يا صديقي . لكنّك تعرف ما مأساتي؟

- (مأساة بائع الدّبس الفقير)

قال عدنان البادي ذلك وكتفاه تهتزان بفعل ضحكه ، يحاول أنْ

يهدم شيئًا منْ حزن تراكم في وجه رعد وهو يشير إلى مسرحيّة سعد الله ونّوس .

انتشرت على وجه رعد عبد الجليل ابتسامة باهتة ، لم تخفِ الأسى منْ وجهه :

- مأساتي أنّي اكتشف في وقت ضائع ذلك الحبّ الذي يعشش في روحي لكِنْدة . منذ اختفتْ بتُّ أشعر أنّ البيت محض مكان فارغ تعيث به رياح الوحدة وحشة ، ونوع غريب من الخوف الذي كانت تطرده امرأة مثلها أحبّتني بصدق .

أشعل سيجارة جديدة ، وجاءت منْ صدره عدّة سعلات متكرّرة ، أطفأها برشفة منْ فنجان قهوة وضعه الموظّف أمامه على طرف الطّاولة :

- ثمّة شكل منْ أشكال الأمان لا نكتشف خلودنا له إلا حينما ينهار جدار ما منْ جدران أيامنا ، ونحن نمرّ بقربه دون أنْ ندري أنّنا نستند إليه .

استغرق بصمت قصير ، ثمّ راح بعينين مرتخيتين يحدّق بوجه عدنان البادي ، وأكمل حديثه :

- هل تتذكّر حينما كنّا نسخر منْ صداقة سراج عزّ الدّين بسعيد عبد الباري حينما كنّا في المدرسة . لم أكنْ أعي أنّ هتاف سراج في باحة المدرسة أيام اشتعال الانتفاضة الفلسطينيّة ، سيفجّر بي شرارة الكتابة يومها . إنّه شعور شبيه بغفلاني عن أنّ كِنْدة كانت شعلة لي دون أنْ أبصر ذلك .

ارتخى في كرسيّه صامتًا كأنّه يتهيّأ للنّوم ، ونهض عدنان البادي منْ وراء طاولته ، وأخذ يتمشّى في غرفة المكتب ، ثمّ جلس قبالة رعد :

- ما يحيّرني أنْ ليس هنالك منْ رابط بين اختفاء كِنْدة وسوار، وفي الوقت نفسه أرى أنّ هنالك رابطًا خفيًا، عليّ أنْ أبذل جهدًا للعثور عليه. ما يطمئن أنْ ليس هنالك منْ دلائل تفيد بموت السّيّدتين رغم أنّ الأمر مفتوح على كلّ الاحتمالات.

في تلك السّاعات من الصّباح مكث رعد عبد الجليل لساعات يحدّث المحقّق عنْ حياته مع كِنْدة، محاولاً أنْ لا يغفل أيّ معلومة.

***

مساء ذهب رعد عبد الجليل إلى فيلا سليمان الطّالع التي تقع في الطرف الغربيّ الجنوبّي لعمّان، تلك المنطقة التي لم ينهض منها بنيان بعد. فقد انتبذ الطّالع جبلاً منْ تلك المنطقة كثيفة الأشجار، وأقام عليه تلك الفيلاّ الضّخمة؛ لتبدو كما لو أنّها برج مراقبة يطلّ على المدينة وساكنيها، ويرصد تحرّكاتهم. ليس هنالك منْ بيوت حول الجبل، فقد استولى سليمان عليه أيام كان مسؤولاً، وأقام عليه معتزله المختلف عنْ بيته في عبدون، وبيته الأوّل. يحيط الفيلاّ سور عال، تتوسّطه بوّابة معدنيّة ضخمة، تُفتَح بأمر كهربائيّ منْ حارس البوّابة التي تفضي إلى حديقة واسعة تنمو فيها الورود والأشجار والحشائش، ويتوسّطها ممرّ يؤدّي إلى بركة سباحة يلتفّ حولها سياج عال في الطّرف الغربيّ للفيلّلا.

كان سليمان الطّالع مستلقيًا على أريكة ألقى عليها جسده الضّخم، حينما دلف إليه رعد عبد الجليل، فجلس على كرسيّ تفصله عن كرسيّ سليمان طاولة عليها صندوق فضيّ اللّون لمكعّبات الثّلج، وكؤوس فارغة، وزجاجة ويسكي، وأطباق فيها خضار وفاكهة مقطّعة، وزجاجات ماء.

كان وجه سليمان محمراً ، وحركات يديه بطيئة لما حلّ به منْ ثمّالة بدت أكثر وضوحًا حينما أخذ يحدّث رعدًا :

- ثمّة أقلام تولد للتوّ بدأت تهاجمني .

وضع الكأس على الطّاولة وقد أحدثت صوتًا تردّدت أصداؤه في المكان ، وقال بصوت ثمّل :

- أنت تعرف أني صخرة تكسّرت عليها النّصال ، فما بالك بأقلام لمراهقي الصّحافة . أنت مستشاري الإعلاميّ . عليك أن تقوم بإجراء ما .

قال رعد وهو يشاهد عمّان وقد بدت له كبيدر من المصابيح المشتعلة :

- منذ أنْ أشعل (بوعزيزي) النّار بنفسه تبدّلت الأحوال يا سليمان بك .

نهض رعد ، ومشى خطوات نحو حوض السّباحة ، يضع يديه وراء ظهره ، ثمّ وقف على حافّته ، حيث قذفت المصابيح بنفسها إلى وجه الماء ، وراحت ترتعش مع اهتزازه الخفيف :

- ثمّة فضاء جديد من الحرّية ، بات يفسح الدّرب لتلك الأقلام التي تشكو منها .

جاء صوت سليمان منْ ورائه غاضبًا :

- لو أشعلوا النّار بكلّ أجسادهم لن أسمح لهذه الأقلام بأنْ تنفق حبرها ضدّي .

- لا عليك . سأحاول أنْ أجنّبك هذا السّيل الهادر .

- ما زلتُ فتيًا يا رعد عبد الجليل لأخشى هذا السّيل .

قال سليمان ذلك ، ثمّ نهض مترنّحًا ، واتّجه نحو رعد وكأسه بيده :

- أنا غلغامش، لكنّي غلغامش الذي عثر على نبتة الخلود. لا تعتقدوا أنّي سأشيخ يومًا. الصخور لا تشيخ، لا تشيخ. أنا العابر لكلّ شيء، ولا حصانة لكم منّي، سأوشّح حتّى الهواء بختمي.

كانت كلماته تصل مسمعي رعد عبد الجليل، وهو يحدّق بعمّان بأسى لم يهاجمه منذ زمن. عاد سليمان الطّالع إلى مكانه، وسكب كأسًا آخر وراح يشرب ويدخّن. قال بصوت هازئ:

- لِمَ تشيح بوجهك عنّي؟. أتراه هو الوجه نفسه الذي دخلت به السّجن حينما رحت تشنّ عليّ هجمتك. أم أنّه وجهك الجديد بعد خروجك من السّجن، ومن أفكارك البائدة؟

عاد رعد إلى كرسيّه، وسكب لنفسه كأسًا من الويسكي وراح يشرب، وينصت لارتطام مكعّبات الثّلج في جدار الكأس وهو يحرّكها، بينما سليمان قدْ استسلم لسطوة سهو مفاجئ، يأتيه منه صوت هتافات، وجلبة في مظاهرة حدثت حينما كان في الجامعة بشعره الكثّ، وبفكرته الكثّة عن العدالة.

نظر سليمان في وجه رعد عبد الجليل، وقال بصوت تشوبه حشرجة البكاء:

- كنت أسخر من عزّ الدّين، حينما كان يطلع أعضاء اللّجنة المركزيّة في الحزب على أمور لا يطلعني عليها. كان دائمًا يخشاني، ويضعني في دائرة الاتّهام. حسنًا ما الذي ربحه عزّ الدّين غير أزمة قلبيّة جرّاء تأثّره بسقوط بلاد إذا ما أمطرت سماؤها، يفتح عزّ الدّين ورفاقه المظلاّت في عمّان.

رفع كأسه عاليًا:

- أمّا أنا فلم أسقط، انظر إلى هذه المدينة: بناياتها، شوارعها،

كهربائها ، هواتفها ، مقاهيها ، وحتّى أناسها ، يسيرون في فلكي . أنا الدّائرة التي لا باب فيها ، ومن فيها لنْ يستطيعوا القفز ؛ فالطّاقة بيدي أنا .

بقي رعد عبد الجليل يستمع لسليمان الطّالع إلى أنْ نام الطّالع في مكانه ، فحمله الخدم إلى داخل الفيلاّ ، وكلماته غير المفهومة تأتيه متقطّعة .

***

كان البيت معتمًا ، كلّ مصابيحه غافية ، حينما فتح رعد عبد الجليل الباب ، فإنَّ أنينًا نكش بيت وحشة أخذت تصحو في دواخله ، منذ أنْ اختفت كِنْدة . أجرى مكالمة هاتفيّة اطمأنّ خلالها على ابنته التي عهد بها لأخته في غياب زوجته ، ثمّ دخل غرفة مكتبه ، وأشعل مصباح الطّاولة وجلس وراءها . كانت نقرات ساعة الحائط تصله من الصّالة ، فتبدو له كقطرات ماء تسقط على حجر سيتفتّت يومًا بسببها . شعر بثقل الوقت يجثم على صدره ، وشعر برغبة عارمة بالبكاء ، فبكى ورأسه على صدر الطّاولة ، بينما نحيبه يطمر صدى نقرات السّاعة ، وامتداد أصوات خفيضة تأتي من الشّارع في تلك السّاعة المتأخّرة من اللّيل . تمخّط مستخدمًا ورقة (كلينكس) ، وألقى بها في سلّة مهملات حدّق بها طويلاً وكأنّها تستفزّه لقول شيء ما ، ثمّ اختار بضع أوراق ، وراح يكتب :

(أجلس الآن قبالة بياض هذا الورق لأعترف

ثمّة أحداث في هذا الحياة تكشف لك منْ أنت ، وتسهو لوقت وأنت ترى فضاء جديدًا لم تكنْ تدري أنّه سادر فيك ويسيّرك . حدث ذلك عام ١٩٨٧ حينما وقف سراج عزّ الدّين في منتصف باحة

المدرسة ، وراح يهتف للانتفاضة الفلسطينيّة . كنت آنذاك أتهيّأ للولوج في آخر سنين المدرسة . بعد أنْ انتهت المظاهرة التي امتدّت إلى الشّارع ، رحت أراقب كلّ شيء يقع عليه بصري في ذلك اليوم كأنّني لم أره منْ قبل . البيوت وساكنوها يرفلون بعيش آمن . النّاس وهم يمرّون في الشّوارع كلّ إلى مقصده . الحَمَام وهو يحلق في سماء المدينة دونما قلق يشوب خبط أجنحته . الطّائرات الورقيّة وأيادي الأطفال تمسك بخيوطها ، مشيّعة معها ضحكات عالية تشبه زقزقات عصافير تحتفي بعشّها الآمن . كنت أراقب كلّ شيء وأنصت لكلّ الأصوات . حينها وقفت بطرف الرّصيف قبل أنْ أصل بيتي ، وقلت بزهو وعيناي تحدّقان بعمق (هذا العالم لي) .

قبل أنْ أدخل البيت اشتريت صحيفة وأمضيت ساعات أقرأ ما فيها . إلى أنْ صارت عادتي اليوميّة التي قادتني فيما بعد إلى دراسة الصّحافة ، ومنْ ثمّ العمل في صحيفة أسبوعيّة . في تلك الأيام لم أكن منْ أولئك الذين يفتّشون عن الأخطاء ليركَبوها فيلمّعون أسماءهم ، بل كنت ممّنْ يجدون في القلم مصباحًا ، يلقي ضوءه على ما يمكن أنْ يطرأ على الدّرب من حفر و(مطبّات) عليها أنْ تزول . لهذا كنت سعيداً بكوني أحمل ذلك المصباح إلى أنْ أتى منْ ألقاه منْ يدي . كنت جالسًا في مقرّ الصّحيفة حينما جاء رجلا أمن واعتقلاني . في المحكمة وجّهت إليّ تهمة التّعامل مع منظمات إرهابيّة تهدّد أمن البلاد ، فسجنت . يومها أدركت أنّ بإمكان سليمان الطّالع أنْ يلقي بي وراء الشّمس ، وأدركت أنّ تلميحي عنْ وثائق تدينه هو منْ أودى بي إلى السّجن .

حينما خرجت - وعلى غير ما توقّعت - وجدت الصّحيفة قدْ

استغنت عن خدماتي ، ووجدت كثيرًا من الصّحف قد أغلقت بابها بوجهي الذي كان آنذاك كشعر كثّ علق به كلّ غبار الأسى . في المساء جاءني اتّصال منْ رجل لا أعرفه ، وطلب أنْ نلتقي للحديث حول موضوع صحيفة ستُنشأ قريبًا . التقينا في مقهى في (عبدون) ، جلّ وجوه مرتاديه لمن لم أعتد رؤيتهم في مقاه شعبيّة ألِفت وجهي . عرّفني الرّجل بنفسه وإذا به أحد العاملين مع سليمان الطّالع ، وأنّ الطّالع يسعى لإنشاء صحيفة بتكلفة عالية . رفضت عرضه بشدّة ، واعتذرت عن العمل مع شخص مفسد امتدّت يده إلى مقدّرات البلاد وصار ثريًا بسببها . اقترب الرّجل منْ وجهي ، وقال بما يشبه الهمس :

- أستاذ رعد . سليمان الطّالع هو منْ أودى بك إلى السّجن . وهو منْ أخرجك منه . هذه فرصتك لتخطّ طريقك كما فعل الآخرون . لا بدّ أنّك ستقول لي إنّ الطّالع سيشتري سكوتك ، وسأقول لك نعم هو كذلك . لكنّ الثمّن مرتفع جداً . سليمان الطّالع يريدك رئيس تحرير لهذه الصّحيفة ، ومستشارًا إعلاميًا له .

هل تملّكني الضّعف في تلك اللّيلة؟ هل خفت؟ هل صمتّ قبالة ما قدّمه لي الطّالع منْ إغراءات ، أمام عوز جعلني وأنا اطرق أبواب الصّحف كمتسوّل لن يضع أحد في كفّه ولو قطعة نقديّة واحدة . في تلك الليلة قبلت عرض سليمان الطّالع ، وعدت وأنا أحسّ أنّه اعتدى عليّ جنسيًا . حينما نظرت بوجهي في المرآة بعدما عرّجت على غرفة كِنْدة حيث كانت نائمة لم أرني ، رأيت رجلاً آخر ، لهذا هشّمتها ، فاستفاقت مذعورة منْ نومها . أخبرتها أنّ المرآة سقطت فجأة ، وبي صوت يقول إنّي أنا منْ سقطت ، لكنّ حجم اللامبالاة أخذ يتصاعد بي بشراسة منْ يعاند قومًا ، ويتمسّك بفكرة خاطئة . صرت رئيس

تحرير لصحيفة لا تقول إلا ما يريده الطّالع ، وبتّ مستشاره الإعلاميّ ، أزوّده بآرائي حيال كثير ممّا يحدث وممّا سيحدث . كانت الأفكار المتوحّشة في إسكات الأقلام تتوالد بشراهة لديّ ، وكلّما فعلت ذلك يزداد امتداح الطّالع لي ، ويزداد ما في حسابي البنكي ، وذلك الشّكل الغريب من العلاقة ينمو بيني وبينه . شعور موجع أنْ تجد نفسك مجبرًا على أنْ تصادق منْ لن يكون صديقك يومًا ما . تحوّلت إلى شخص غير الذي كنته ، وكلّما داهمني الحنين إلى حبر الصّدق في قلمي ، ألجأ إلى الشّراب والنّساء حتّى بتّ مدمنًا . لا تخلو ليلة في شقّتي التي امتلكتها في (تلاع العلي) منْ امرأة تبقى تفعل ما يؤجّل شعوري بالسّخط على ما فعلت إلى أنْ يأتي يوم آخر ، وتجيء امرأة أخرى . بدأت العلاقة تنهار شيئًا فشيئًا بيني وبين كِنْدة التي كلّما وضعت رأسي على صدرها هاربًا من انهياري ، أجد حقل شوك نما بدلاً منْ حقل شوق أثث حياتنا لسنين . صرت ألمس تقزّزها منّي وكأنّها هي الصّوت الذي يفضحني أمام نفسي . والآن غابت كِنْدة وغابت معها الحياة ، واستشرى بي صوت ما توقّف عنْ هتك غطاء هشّ دثّرت به صورتي القديمة وهي معلّقة في جدار ذاكرة بتّ أتمّنى بعمق النّجاة منها) .

٢

للمرّة الأولى بعد عودته منْ أمريكا يلتقي سراج بسعيد عبد الباري بعيدًا عن العمل ؛ إذْ بقيت علاقتهما منذ أنْ عيّن مديرًا فنيًا للغاليري ، كطليقين يعملان في مكان واحد . لم يدرِ سعيد ما الذي اختطف صديقه منه بهذا الشّكل القاسي غير ما حدث قديمًا . فالقسوة لا تأتي فقط منْ كلمات على هيئة سكاكين تبتر ما يقع في طريقها ، ولا أفعال تخلق ذلك الدويّ في النّفس ، بل تأتي أيضًا من الصّمت الجليديّ الذي لا يمنحك إجابة حيال ما يجري . حاول حينما عاد سراج إلى البلاد بعد غياب طويل أنْ يعود لزمن صداقته ، لكنّه ما وجد منه شيئًا ، فسلكت علاقتهما مسلك الموظّف بمديره .

كانت السّاعة قد تجاوزت العاشرة بدقائق حينما مرّ سراج ببيت سعيد عبد الباري . تبادلا تحيّات سريعة ومضيا نحو جبل القلعة دون أنْ يتحدّثا إلا بقليل منْ كلمات تستطلع شأن العمل . كانت عمّان ما تزال على قيد الصّحو حينما افترشا التّراب في المكان نفسه الذي كانا يجلسان فيه أيام كان شغف الرّسم يقودهما إليه .

- عمّان جميلة يا سعيد . انظر كيف تبدو في هذا الليل كأنّ احتفالاً بحدث ما ، ما يزال مستمراً .

قال سراج وهو يشعل سيجارة على غير عادته ، ويراقب طائرة تتسلّق الهواء للتوّ مغادرة مطار ماركا ، بينما سعيد ينظر إلى خطّ إنارات

الشّوارع المتعرّج ، إذْ قال بعد أنْ فرّت مِنْ صدره تنهيدة مَنْ يرتاح مِنْ عناء الطّريق :

- عمّان جميلة ، وصدرها واسع . الحروب في كلّ مكان ، وأبوابها ما تزال مشرعة لمن طالتهم النّيران . إنّها تبدو كالأمّ التي تحوم بين أبنائها ، تتأكّد منْ أنّ الجميع تناول طعامه ، وتدثّر بفراشه ، رغم ضيق اليد ، ورغم الظّلم .

صمت سعيد قليلاً ، ثمّ عقد يديه على صدره :

- عمّان تغيّرت كثيرًا ، سيبدو لك ذلك جليًا حينما تتجوّل فيها لا بقدمك فقط ، إنّما بكلّ حواسّك . ستكتشف أنّها تخيفك أكثر ممّا تحنو عليك .

حلّ بينهما شيء من الصّمت بدّده سعيد بسؤاله :

- لماذا طلبت أنْ نلتقي هنا؟

قال سراج وهو هذه المرّة ينظر بوجه سعيد :

- أبحث عنّي يا سعيد .

التفت إليه سعيد بكلّ حماسة ، وهو يحسّ بأنّه استردّ صديقه للتوّ :

- منذ أنْ عدتَ وأنا أبحث عنك فيك .

- وهل وجدتني؟

- وجدتك يا صديقي ، لكنْ هنالك ما يقنّع سراجًا الذي عرفت . هذا القناع الكبير بحاجة ليد قويّة تشجّه وتلقيه بعيدًا .

قال سعيد ذلك ، وصمت لبرهة من الوقت ، ثمّ عاد يحدّثه بنبرة عاتبة :

- يوم توفّيت أمّك وهي تهذي باسمك عدت إلى البيت بعد أنْ

واريناها التّراب ، وبقيت أكتب لك رسالة مطوّلة ، غضبت فيها وعتبت وحزنت ، ثمّ بكيت عند آخر كلماتها ، ومزّقتها حينما اكتشفت أنّي أكتب رسالة للمجهول . فقد تغير رقم هاتفك النافذة الوحيدة المطلة عليك . بعد سنين وحينما رحت أرى صورك في المجلاّت العالميّة ، وأشاهد ما تبثّه قنوات التّلفاز عنك انتابني شعور بالاطمئنان بأنّك ما تزال على قيد الحياة ، لكنّي كلّما أمعنت النّظر بك أجد واحدًا غيرك .

اقترب سعيد مِنْ وجه سراج كأنّه يتجاوز عائقًا بينهما :

- أنت لا تتخيّل كيف كان شعوري حينما وجدتك بالباب ليلة عودتك . بقيت لوقت أتفحّص ملامحك وقد اختلط عليّ الأمر . حينما تعانقنا شعرت بأنّ خطوتي عادت إلى مكانها . الصّديق سيّد مَنْ يضبطون إيقاع خطواتنا حتّى لا ننحرف عن الطّريق .

خيّم الصّمت منْ جديد بينهما حينما توقّف سعيد عن حديثه ، بينما كانت أعينهما ترنو إلى عمّان والأصوات فيها تتراجع مفسحة مجالاً للنّعاس أنْ يؤدّي إلى بحر النّوم العميق . قال سراج بصوت معتذر :

- أمضيت عشرة أعوام اعتقدت أنّي تعافيت منْ دمامل الأسى ، وحينما عدت وجدت أنّ ذلك محض وهم .

- الذي حدث يا سراج ربّما يحدث لأيّ واحد منّا . لكنْ إلى أيّ درجة يمكن لنا أنْ نترك أحزاننا تأخذنا إلى التّيه .

نهض سراج ، وراح يتمشّى بين أحجار القلعة المتناثرة :

- الأمر ليس حزنًا فقط يا سعيد ، إنّها الخيبة . تخيّل أنْ تؤمن بشيء وتكتشف فجأة أنّ إيمانك هذا محض خدعة ، كان يمرّرها الوقت إليك لا أكثر .

بدا صوته مشوبًا بحشرجة باكية وهو يفكّ ربطة عنقه :

- لماذا تحدث المفاجآت الموجعة؟ لماذا تنام حواسّنا كلّ هذا النّوم عمّا سيجيء إلينا .

- نحن لسنا آلهة يا صديقي ، نحن بشر لا علاقة لنا بالغيب .

- نعم بشر ، ولكنْ علينا أنْ ننظر إلى الجبال ، لعلّنا نرى نيران الغزاة فنتجهّز لما سيحدث . انظر إلى عمّان في نهاراتها وفي أماسيها ، في زحامها وفي سهوها . أنت رسّام . لكنْ قل لي ماذا ترسم؟ ترسم ما يحدث؟ لماذا لا ترسم ما سيحدث؟ راقب الوجوه . فالحزن الذي يختبئ في الملامح دليل على أنّ هنالك ما يحيلها إلى هذا الشّكل . لكن كم ستستوعب الملامح ما يحال إليها . لا بدّ أنّها ستنفجر ، ستنفجر يا سعيد . وهذا ما لا نريده .

جلس سراج قريبًا منْ سعيد ، بينما أنفاسه تبدو مضطربة ؛ إذْ غادره هدوؤه :

- أنا خائف يا سعيد . خائف . فالذي حدث لي ربّما يتكرّر ، وهنا الكارثة .

حينما هبطا الجبل عائدين كان اللّيل قد استحال إلى سكون خالص ، حيث خلت الشّوارع إلاّ منْ مرور قليل لعربات تسرع المسير إلى وجهاتها .

***

على غير عادته لم يصحُ سراج باكرًا منْ نومه ، ولم يذهب إلى عمله ، فهو لم ينم جيّدًا ليلة أنْ كان بمعيّة سعيد عبد الباري . فقد أمضى حينما افترقا وقتًا امتدّ إلى ساعات الصّباح الأولى يعمل على تأليف الأوبيريت . أراحه الحديث الطّويل الذي غرقا فيه في جبل

القلعة قليلاً ، ثمّ أخذه إلى حيث يكون القلق . حينما خلد إلى النوم كانت أشعّة الشّمس للتوّ تتسلّل عبر نافذته ، تجلب معها زقزقة العصافير ، وجلبة خفيفة يحدثها البستانيّ في الحديقة ، ومرورًا خفيفًا للسّيّارات في تلك المنطقة . كان والإغفاءة تتسلّل إليه يفكّر بكونه بنى قصره على مرتفع يطلّ على عمّان منْ جهتها الغربيّة ، وكون سليمان سطا على ذلك الجبل الذي نمت به أشجار السّرو والصّنوبر بكثافة ، فشيّد (الفيلاّ) على قمّته . كلاهما يقف إلى النّافذة وينظر إلى عمّان ، لكنّهما لا يتقاطعان في نظرتهما .

عند العاشرة صباحًا استفاق منْ نومه ، تفقّد حواسّه كما يفعل كلّ صباح ، وحلق ذقنه ثمّ استحمّ ، لكنّه ارتدى ملابس خفيفة دلّت على أنّه سيمضي نهاره في القصر ، وهبط إلى الحديقة . حينما رأته وداد أخذت تحدّثه معتذرة بلهفة واضحة :

- رأيتك مستغرقًا في النّوم ، ففضّلت أنْ لا أزعجك . كنت أنصت إلى صوت البيانو وأنت تعزف بعد أنْ عدت ليلة البارحة . فقد جافاني النّوم .

في ذلك الصّباح تناول سراج إفطاره في الحديقة كما رغب . كان يراقب وداد بتمعّن وهي تقوم على خدمته . دقّق النّظر في قوامها الرّشيق ، ووزنها المتوافق مع طولها . لها عنق صاف جميل ، زاده السّلسال الذّهبي جمالاً حينما هبط أسفل القميص . كان وهو يتتبّع مشيتها التي لم تخلُ منْ إيقاع الدّلال بعينين مشتهيتين ، يعاند رغباته المتبلّدة . بعد أنْ غابت وداد في الدّاخل ، عادت تحمل الصّحف ، وكأس عصير مزيجًا من الفراولة والبرتقال . طالع الصّفحات الأولى ، إذْ قرأ عنوانًا يتطرّق لخيمة اعتصم فيها عدد من الشّباب المتعطّلين عن

العمل ، يعتصمون لأجل أنْ تلبّى مطالبهم . قلّب أوراق الصّحيفة فرأى إعلانًا تجاريًا لمجموعة سليمان الطّالع وقد أخذ مساحة الصّفحة كلّها . طواها ووضعها جانبًا ، ثمّ راح يشرب منْ كأس العصير ، وينظر نحو بوّابة القصر حيث كان كنان يقف بها متأهّبًا . لم تغب وداد طويلاً ، إذْ عادت إليه تسأله عمّا إذا أراد شيئًا ، فطلب منها أنْ تجالسه . استغربت طلبه ، وبقيت تسهو به ، وهي ما تزال واقفة قرب الطّاولة ، لا تنطق ولو بكلمة واحدة ، لكنّها جلست حينما حرّك الكرسيّ ، ثمّ أشار لها بيده أنْ تتّخذ مكانها . في البدء لم يقل شيئًا ، كان يراقب الحديقة ، وبوّابة القصر ، ويشرب ما في كأسه ، بينما وداد تنظر إليه بمتعة منْ تمنّى شيئًا ، ورأى أنْ أول ملامحه بدأ يتحقّق . قال لها وهو ينظر نحو كنان ، وذاكرته تستحضر كيف تعرف به :

- هل تقومون بخدمة حارس القصر كما يجب؟

شرحت له كيف يعاملونه باهتمام ثمّ أضافت :

- لم ألتق بحارس يقرأ بهذا النّهم منْ قبل . رأيت في غرفته كتبًا في الأدب والفلسفة والفكر والسّياسة .

قالت ذلك وهي تلقي لسراج تساؤلها الموارب حول معرفته بكنان بذكاء يدفعه فضول الأنثى . حينها وجدت ابتسامة ترتسم على فمه :

- سأقصّ عليك كيف عرفت كنانًا :

(في صباح اليوم الثّالث لعودتي منْ أمريكا هبطتُ إلى قاع المدينة . لم تمنحني نافذة الفندق الذي أقمت فيه ما كانت روحي تتعطّش إليه ، منذ أنْ وجدتني ككرة زجاجيّة تتدحرج في شوارع (ويسكونسن) إلى لا مستقرّ لها . ما رأيت إلاّ اسمنتًا يهزأ بالعلوّ ، ويناكف إسمنتًا آخر يتباهى برعونة الهندسة . ثمّة روح لا يمكن أنْ

تمسّك إلاّ في أماكن تبدو ككتاب عتيق بتلك الألوان البنيّة الغامقة ، وبأوراق تبدو لك متهرّئة ، تفوح منها رائحة تأتي منْ مسامات الزّمن . ما إنْ هبطتُ منْ سيّارة الأجرة حتّى وجدتُني أقف عند ذلك المنحنى الذي ما يزال يقع على رصيفه (مطعم هاشم) ، أملأ عينيّ وقد قفز البصر يصافح الأمكنة بحرارة العائد إلى قصيدة يمكن فهم مراميها . أخذتني الرّوائح والأصوات والزّحام والإيقاع الخفيّ إلى مسير لا جهات معيّنة يقصدها ، فذرعت (وسط البلد) وكأنّني أنصت للحن ألّفَه عازف يسيّره الحنين . توقّفتُ عند إحدى (البسطات) أشاهد ما يعرضه شابّ متوسّط القامة ، عضلات صدره بارزة تمامًا مثل عضلات ذراعيه المفتولتين . بوتيرة فيها شيء من الاستجداء للمارّة ، وبصوت جهوريّ كان ذلك الشابّ ينادي على بضاعة جلُّها من الأشياء رخيصة الثمّن : أمشاط ، ألعاب للأطفال ، زجاجات عطر مقلّدة ، ملابس داخليّة من ذلك النّوع الرّديء ، وأشياء أخرى من البضائع الصّينيّة التي راجت في البلاد مؤخّرًا . كان للتوّ قد أخذ يعرض عليّ بضاعته حينما هجم عليه فجأة ومن الخلف ثلاثة شبّان وأوسعوه ضربًا بهراوة إلى أن سقط على الأرض مغمى عليه ، ولاذوا بالفرار . كانت الدّماء تسيل منْ رأسه ومن كتفيه وعنقه بينما المارّة يرمقونه بنظرة سريعة ويمضون في طريقهم دون أنْ يهرع أحد إليه ويسرع بإنقاذه . كان المشهد صادمًا لي ، شعرت بأنّ شيئًا قدْ تبدّل في سلوك المدينة ، وأنّ هنالك نمطًا جديدًا من الخوف اقتحم قلوب النّاس . بعد الحديث مع سائقي أربع سيّارات للأجرة رفضوا أنْ يحملوه بسيّاراتهم ، نجحت بأنْ أقلّه إلى المستشفى . بعد أيام كان مغمى عليه فيها ، وحيث كنت أجلس قرب سريره ، أنتظر استفاقته فاستفاق ، عرفت بعد حديث قصير معه أنّ اسمه كنان ،

ويسكن أحد الأحياء الشّعبيّة ، ولا عمل له غير تلك (البسطة) . اختفى والده الذي كان يدعى (القبضايْ) في ظروف غامضة ، وسُجن شقيقه ، وتوفيت أمّه ، وما تبقّى في بيت العائلة سواه .

بعد أسابيع شفي كنان . كنت قد زرته صباحًا بعد أنْ عقدت اجتماعًا مع المهندسين الذين سيقومون ببناء القصر ، ومن ثمّ الحديث حول فكرة بناء الغاليري . بدا لي يفتش عن كلمة معيّنة وهو يتلعثم بحديثه الممتنّ لي حول ما فعلت لأجله ، وعيناه على أهبة أنْ تغرقا بالدّمع حينما غيّرت مجرى الحديث :

- لماذا ضربوك؟

راح يتلفتّ كأنّه يفتّش عن شيء ما ، ثمّ حدّق بي وعيناه ما زالتا تكابدان انتفاخهما بسبب الضّربات التي تلقّاها . رفع ذراعه مستعرضًا عضلاته :

- كنت نحيل القامة حينما اخترت أنْ أعمل في هذا السّوق بعد أنْ وجدتُني بلا عائلة . تدبّرت أمري بمبلغ بسيط واشتريت بضائع خفيفة ، ورحت أنادي عليها كما يفعل الآخرون ، حينما وجدوا أنّ هنالك إقبالاً على ما أبيع ، أخذت قوتهم تجبرني على أنْ أبدّل في كلّ حين مكاني ، وأنسحب في مرّات كثيرة . تمامًا كما أجبرني وضع عائلتي المتردّي على أنْ أنسحب من المدرسة ، وأتنقّل بين أعمال بالكاد كانت تؤمّن لي دينارين أو ثلاثة في اليوم . في بيتنا قمت بصناعة أوزان من الإسمنت ورحت أستفزّ عضلاتي إلى أنْ صرت على هذه الحال ، حينها صار بإمكاني أنْ أفرض بقوّتي ما أريد ، لكنّها قوّة مفردة أمام ما بات يسمّى (مافيا البسطات) التي لها منْ يديرها ، ولها أفرادها . حتّى إلى عوالم الفقراء أخذت أيادي الأثرياء تتغلغل بكلّ

شراهة . إمّا أنْ تكون أحد أفراد تلك المافيات وتؤمن بقوانينها ، وإما يجري لك ما جرى لي . صرت أشعر أنّ غولاً يفتتح أيامنا بدلاً من الشّمس التي يتغزّل بسطوعها المترفون . وهذا الغول بات يكبر بسرعة كأنّه يتغذّى على شيء سريٍّ لا نعلم ما هو . كان لهذا الغول أنْ يأخذني إلى زقاق التّيه العامرة بالمخدّرات ، واللّواط ، والعنف . لكنّ الكتاب أنقذني منْ نداءاته . هنالك كتب تباع بسعر زهيد وكأنها سلعة يمضي عليها زمن وتنتهي صلاحيتها . حينما أعود إلى البيت أهرب من الوحدة إلى الكتاب ، أجدني بجناحين يأخذانني إلى زمن متخيّل . للخيال قدرة فائقة على إنقاذنا منْ وجع الواقع .

كان كنان بالنّسبة إلي اكتشافًا لعبثيّة الواقع ، كأنْ تكتشف شمسًا سقطت في جحر ، وتكابد طريقها للخروج إلى العلن . حينما عيّنته حارسًا للقصر لم أكن أدرك أنّي انتبذته حارسًا لي من الانهيار ، وناهيًا لي عن الانصياع لنداءات ذلك الغول)

بقيت وداد تنصت لما يقوله سراج وعيناها تراقبان كنان كأنّها تراه للمرّة الأولى ، بينما كنان يتمشّى ببوابة القصر يؤدّي واجبه الوظيفيّ .

٣

تأمّل سلميان الطّالع شيئًا ما في باله وهو يجلس في مكتبه الفاخر في مقرّ مجموعة سليمان التّجاريّة ، والذي يقع في آخر طوابق إحدى بنايات (بوليفارد العبدلي) . تعتريه لحظات مثل تلك حينما يكون وحده فتزول منْ وجهه تلك القسوة ، وتلك الحدَّة في نظرة عينيه ، وتغادره حركاته المتوتّرة ، فيصبح كطفل يلهو بالسّهو وبالفراغ . قرع جرس هاتفه النّقال ، وعلى شاشته لعج اسم ريفال تمامًا كما يلعج في حقل قلبه الذي دونها سيحلّ به الجفاف ، وسيهزأ تقدّمه في السّنّ بكلّ أحلامه بالخلود . حينما أجابها أتاه صوتها مُضافًا إليه شيء من الغنج ، وبحة صوت أنثويّة يحبّها ، إذْ تثيره وتعيده إلى شبقه القديم . قالت له إنّها ستذهب إلى غاليري (الحواسّ الخمس)حيث ستشرف على طاقم المصوّرين لإعداد حلقة متميّزة عن ذلك المكان الغريب . كان في صوتها شيء من التّبرير ؛ لأنّ مالك الغاليري ومديره هو زوجها السّابق سراج عزّ الدّين . تعلم ريفال أنّ سليمان يرصد كلّ تحركاتها ، ولم تعترض على ذلك منْ قبل .

حينما أقفل سمّاعة الهاتف استدار بكرسيّه إلى اليمين ، حيث لاح له مبنى غاليري (الحواسّ الخمس)عبر نافذة مكتبه كشيء يعترض طريقه ، ويثير فيه ريبة وهواجس لم يعتد عليها ، فكلّ العقبات في طريق سليمان الطّالع مذلّلة ، ولا يعجز إزاء أيّ شيء يقلقه . فكّر عميقًا بتلك اللّحظات التي ضبط فيها ريفال منصاعة لشرودها العميق

بالغاليري ، وهي تجلس في شرفة البيت في عبدون . استذكر تفاصيل اللّيلة التي جمعهما فيها السّرير بعد عشائهما في المطعم الذي يقع في جبل اللّويبدة . كان قد استحم ودهن جسده بكريم مرطّب ، وخضّب عنقه بشيء منْ عطر فاخر ، وتناول حبّة (الفياغرا) . حينما عاد إلى ريفال حيث كانت تجلس في أريكة تقابل شاشة تلفاز تواجه السّرير وترتدي قميص نوم يشي بتضاريس جسدها الفاتن ، قال لها بعد أنْ سكب كأسين من النّبيذ ، وجلس في أريكة تجاورها :

- حينما رأيت هذا القميص في (الشانزلزيه) تذكّرت حكاية (سالومي) ، وتلك الغلالات التي كان لها تأثير قوي في أنْ تجعل رأس يوحنا المعمدان يتدحرج على الأرض . اشتريته لك لأنّني أعي شكل الغواية حينما تأخذني إلى عوالمك . عوالمك وحدها تجعلني أقف قويّاً أمام كلّ ما يمكن أنْ يطيح بي .

رسمت ريفال على وجهها ابتسامة عجلى ، وعادت تراقب خبرًا على شاشة التّلفاز يحكي عن خيمة لشباب يحتجّون عبرها على ضياع فرصهم في العمل . التقط الرّيموت كونترول وأغلق التّلفاز ، ثمّ قرع كأسه بكأسها :

- دعينا نحتفي بهذه اللّحظة كما يحتفي اثنان بلحظتهما الأولى .

لأوّل مرّة لم تنجح ريفال في أنْ تقصي انتباه حواسّها عن لهاثه وهو يقبّل عنقها بنهم غريب ، وعن جسده المترهّل ، ووخزات شاربه على جلدها النّاعم . كانت تحسّ في تلك اللّيلة بثقل سلسلة من الجبال على صدرها ، وذاكرتها تجلب لها منظر غاليري ((الحواسّ الخمس)) ، وتلك المرأة وهي تنظر إلى يديها الفارغتين . لم يعرّها من قميص نومها الذي يبدو كقميص سالومي ، بل دفع بها إلى السّرير ،

وراح يقْبل على جسدها كما يقبل مريض على دواء له أنْ يُسكت قرعات المرَض في جسده . كان السّقف في تلك اللّحظات ملاذًا قصيراً لها ، إلى أنْ يفرغ سليمان الطّالع ممّا يريد . لكنّها أخذت تحس به يهبط على صدرها فيزيده ثقلاً . حينها دفعت به عنها دون ذلك الوعي الذي كان يجعلها صامدة أمام رغباته . حلّت بينهما لحظات صمت بدّدتها باعتذارات فحواها أنّها تشعر بتعب ، وأنّ عليه أنْ يعذرها . لم يقل شيئًا لحظتها . غادر البيت بعد أنْ قبّلها على خدها ، ومسح بيده على شعرها الذي كان مبعثرًا .

أشعل سليمان الطّالع سيجاره وراح يحاول أنْ يتناسى أمر تلك اللّيلة ، لكنّ تفاصيلها بقيت تلحّ عليه إلى أنْ غادر مكتبه عائدًا إلى بيته في عبدون . حينما دخل غرفته فتح على الفور خزانتها ، وأخذ يلامس ملابسها ، ثمّ دخل الحمّام حيث وجد ملابسها الدّاخليّة التي بدّلتها قبل أنْ تغادر إلى عملها . أخذ يشمّها بعمق ، يفتّش عن رائحة تأخذه إلى شكوك باتت تستبيحه في الأيام الأخيرة . غادر إلى غرفة النّوم وفتّش كلّ أشيائها ، أوراقها ، كتبها ، ملابسها ، وحينما شغّل حاسوبها الشّخصيّ وجد أنّه مزوّد برقم سريّ على غير ما اعتاد عليه .

في مكتبه المنزليّ أجرى مكالمة هاتفيّة . كان أثناء الحديث متوتّرًا ، ويدخّن بعصبيّة . طلب ممّن كان يتحدّث إليه أنْ يباشر بمفاوضات شراء غاليري (الحواسّ الخمس) . حينما أنهى المكالمة صعد إلى غرفة نومه ، ثمّ عبر بابًا يفضي إلى الشّرفة وجلس ينظر نحو مبنى الغاليري . كانت السّماء صافية حينما أخذت عيناه تريان المبنى تارة ، وتريانه قد اختفى منْ مكانه كأنّه لم يكن تارة أخرى .

***

كان كلّ شيء فيها مرتبكاً والسيارة تعبر بوّابة مبنى غاليري (الحواسّ الخمس) . طلبت من السّائق أنْ يتوقّف فهبطت ، وراحت من وراء نظارتها الشّمسيّة تنظر إلى امرأة الغاليري . منْ مكان قصيّ في ذاكرتها ثمّة صور قديمة تجمعها بسراج ، كانت تأتي متتابعة ، وثمّة أصوات حميمة ، وصدى لقبلات ، وكلمات حانية . كادت عيناها أنْ تذرف دمعة لولا أنّها قمعتها بقسوة ، وهي تدرك أنّ أصعب ما يمرّ به الإنسان هو أنْ يعيد دمعة إلى مخبئها ، إنّه أكثر أشكال الانتصار وهمًا .

مشت بخطوات بطيئة ، تحسّ بأنّها تقترب منْ صندوق أسرار يعنيها . توقّفت أمام بوّابة المبنى التي اتّخذت شكل بطن امرأة ، تلك البوّابة تُفتح أوتوماتيكيًا ليروح الزّائر في عوالم ذلك المكان الاستثنائيّة . أخذ قلبها يتقافز في مكانه مرّة ، ويكابد قفصها الصّدري للفرار مرة أخرى . لجمت خيل أحاسيسها ، وذكّرت نفسها بأنّها قادمة لأجل مهمّة للعمل ، رغم أنّه ليس منْ مهامّها كمديرة للقناة التّلفزيونيّة التي يملكها سليمان الطّالع أنْ تشرف على تصوير ريبورتاج يُعرض في حلقة برنامجها الأسبوعيّ (السرّ) ، وهذه أوّل حلقة ترافق المصوّرين للإعداد لها . كانت ريفال قد تواصلت بسعيد عبد الباري ، وطلبت منه أنْ يكون سراج ضيف برنامجها ، فوافق سراج على أنْ ترسل إلى سعيد محاور اللّقاء وأسئلته عبر البريد الإلكترونيّ .

فُتحت البوّابة ووجدت ريفال نفسها داخل المبنى حيث داهمت مسامعها موسيقى (فيفالدي) التي طالما رافقت أمسياتهما هي وسراج عزّ الدّين في بيتهما الذي بُني الغاليري في مكانه . مسحت المكان ببصرها كأنّها تحمل كاميرا وتوثّق تفاصيل المشهد ، حيث كان اللّون

الأرجوانيّ يداهم روحها منْ كلّ زوايا المكان، وحيث كلّ ما يشي بحاسّة السّمع. مجسمات، لوحات، تخطيطات تشكيليّة. وموسيقى جعلتها تغمض عينيها، وتنصاع لشهيق بكاء كان يحدث وراء جبل في روحها، ودوار لذيذ يلمّ بها، لكنّ فيه قسوة لم تحتملها، لذا جلست في أريكة على هيئة أذن، وعادت تحاول فكّ لغز المكان.

حينما خرج سعيد عبد الباري منْ مكتبه راح يمشي نحوها بخطوات متردّدة وعاتبة، وفيها توجّس منْ شيء حدث، وخلّف وراءه آلامًا كثيرة. حينما صافحها كانت يدها باردة، وفيها رعشة لم تنجح بمداراتها، وكانت كلماتها وليدة حالة قصوى منْ التّلعثمّ:

- في الحقيقة هذه الحلقة مهّمة بالنسبة لي، لذا جئت أشرف على طاقم التّصوير الذي سيعدّ للرّيبورتاج المتعلّق بالحلقة.

في داخلها - وبينما سعيد يشرح لها بتوتّر - كابدت سؤالاً عنْ سراج، لكنّها لا تدري شكل الإجابة التي ستسمعها، رغم أنّ سعيدًا رأى ما تفكّر به يلوح في عينها الحزينتين، حينما خلعت نظّارتها الشّمسيّة، وأبقتها في يدها المرتجفة. في تلك الأثناء مرّ عدد من العميان وتجاوزوا بوّابة كتب أعلاها (الأذن عين ترى. هنا نعيد الهيبة لفكرة الإنصات، حيث يمكننا أنْ نرى ما يحدث الآن، وما سيحدث غدًا).

في طريقهما إلى مكتبه أشار سعيد نحو المعهد الذي يؤمّه غير المبصرين:

- هنا يأتي مَنْ فقدوا بصرهم، ليروا مِنْ جديد.

حينما دخلا المكتب وجلسا قال وهو يعبث بقلم بين أصابعه:

- سراج يجسّد أحلامه بهذا المبنى. هذا المبنى يشبه مخيّلته. إنّه النّور قبالة الظّلام.

ثمّة كلمات كانت ترتعش على شفاه ريفال، لكنّها كانت تعود إلى مكانها، فيخيّم صمت موجع على وجهها، أبعده سعيد بالحديث حول الرّيبورتاج الذي سَيُعَدّ عن الغاليري. تحدّثا لنصف ساعة حول ذلك الموضوع، ثمّ خرجا وقد أخذ المصورون بالتقاط مشاهد للغاليري بكلّ أقسامه، وأجريا حديثًا قصيرًا مع سعيد ومع بعض مرتادي المكان. رافق سعيدٌ ريفال هي وطاقم البرنامج إلى الطّابق الثّاني. ثمّة إحساس آخر كان يشوب دهشة ريفال بالمكان.

كمن يتتبّع التّفاصيل ليصل إلى نتيجة في باله، راقبت كلّ شيء في ذلك الطّابق الذي ضمّ متحفًا ومعهدًا يعنى بأطفال الإشارات الضّوئيّة، والأطفال الذين أجبروا على ترك المدرسة لأجل العمل في مهن لا تناسب أعمارهم. وجدت اللّون الورديّ يتدفّق بغزارة حينما رأت الجدران قد زوّدت بدلاً من الطّلاء بمخمل ورديّ اللّون. تلفتّت إلى كلّ الجهات حيث رأت مجسّمات لأصابع، ولوحات لأياد بأكثر منْ لون. عندما لامست الجدار كأنّها تلمس شيئًا يعنيها، كان سعيد يقف قريبًا منها:

- هذا الطّابق لحاسة اللّمس. كان سراج يمتلك إحساس الأعمى بمعرفة الأشياء وقت لمسها. حواسّه مشتعلة. ورغم أنّها لم تكن وفيّة له، ها هو كما ترين يعوّل عليها منْ جديد.

كان طاقم البرنامج قد هيّأ المعهد الذي يقع في ذلك الطّابق الثّاني للتّصوير، ولإجراء حديث مع أحمد أحد الأطفال الذي اختاره سعيد، وقد عرفه سراج مؤخّرًا عند إشارات وادي السّير الضّوئيّة. جلست ريفال في كرسيّ، وأخذت تراقب المكان بعينين تصارعان الدّهشة فيهما حزن عتيق. كان المكان عبارة عن قاعة تدريس، انتشرت فيها

بشكل منظّم طاولات حولها عدد من المقاعد . ثُبِّتَ على الجدار المقابل لها بأكمله شاشة مسطّحة كبيرة ذات أبعاد ثلاثة ، ووزّعت في زوايا القاعة سمّاعات متطوّرة للصّوت . من القاعة ينفتح ثلاثة أبواب ، واحد لمرسم ، وآخر لغرفة لتعليم الموسيقى ، وآخر للقراءة . أثار المكان دهشة الجميع ، تلك الدّهشة التي ازدادت حينما أخذ سعيد عبد الباري يشرح مهمّة المعهد :

- أنتم الآن في معهد نفتّش عبره عن المعنى الحقيقيّ للحياة ، وعن جيل يحبّها ، جيل باتت مؤخّرًا أماكن الإشارات الضّوئيّة ، ومحالّ تصليح السّيّارات ، والزّقاق تعج بعدد منهم . في غاليري (الحواسّ الخمس) نحن نُعلي من شأن الحواسّ لاستشراف المستقبل . لذا يقوم الغاليري بواجبه حيال أطفال إنْ تُركوا دون أنْ يعيشوا طفولتهم ، ودون وعي حقيقيّ سيكون المستقبل غير آمن ، ليس فقط مستقبل الأطفال الفرديّ ، إنّما مستقبل البلاد . هنا في هذا المعهد نأخذ الأطفال إلى تلمّس المعنى الحقيقيّ للحياة ، عبر الرّسم والموسيقى والقراءة . حينما يقرأون فإنّهم يقرأون في غرفة معدّة خصّيصًا للقراءة بهوائها وموسيقاها ، وسبل راحتها . وحينما يرسمون إنّما يرفعون منْ رايات أمنياتهم قبل أنْ نأخذهم إلى جانب الحياة الذي على الشّمس أنْ تشرق عليه . غاليري (الحواسّ الخمس) يتكفّل بتعليم هؤلاء الأطفال ، وبتحسين وضع أسرهم المعيشيّ .

التفت سعيد نحو ريفال ، وردّد كمن يلقي قصيدة عبارة (غاستون باشلار) «لا يمكن للعصافير أنْ تبني أعشاشها لولا إحساسها بالدّفء» .

٤

لم يكمل سراج طريقه نحو مكتبه في ذلك الصّباح ، بل مرّ بالطّابق الثّالث في غاليري (الحواسّ الخمس) . ما إنْ غادر المصعد حتّى هجم عليه اللّون الأبيض كحدث مفاجئ وسارّ . كلّ الأشياء كانت بيضاء . الجدران ، والمقاعد التي كانت في ردهة الاستقبال ، واللّوحات التي تشير إلى حاسّة التّذوّق ، ومجسّم لسان يقبع في زاوية الرّدهة ، وشاشة مسطّحة تعرض مشاهد تتعلّق بحاسّة الذّوق ، تصاحبها موسيقى فلوت هادئة .

هرعت إليه موظفة الاستقبال ، وأخذت ترحّب به ، لكنّه أعادها إلى مكانها بابتسامة ، وبحركة من يده . بقي عند باب المصعد يستعيد اللّحظات التي وضع فيها مخطّط الغاليري ، وكيف حلم بأنْ يراه حقيقة كما هو الآن ، إذْ صار حديث كلّ من رآه ، وصار مزارًا ، وعنوانًا تتخاطفه وسائل الإعلام .

عند نافذة لاح منها جبل القلعة واضحًا ، حيث كانت الشّمس تتجاوزه فبدت حجارته ذهبيّة اللّون ، وقف لدقائق كمن يقف برأس جبل يرقب عودة أحبّة مضوا عميقًا في دروب الرّحيل ، ثمّ مشى عبر ممرّ قصير أخذه نحو بوّابة تفضي إلى معهد معنيّ بفلسفة التّذوّق ، والوعي بالغذاء . قرع الباب ودخل . للتوّ كان المنضمّون إلى تلك الدّورة التي تستمرّ لخمسة أشهر من الجنسين ومنْ مختلف الأعمار يجلسون في مقاعدهم . ثمّة محاضرة كانت (دعد سامي) سوف تلقيها . دعد

خبيرة الأغذيّة ، وصاحبة زاوية يوميّة في إحدى الصحف . لديها وجهة نظر عميقة في علاقة الإنسان بالطّبيعة وغذائها ، وهي من أكثر الأصوات محاربة لما ينتجه العصر الحديث من أغذية يفتك جزء منها بالإنسان ، عبر تراكمات زمنيّة . تؤمن بأنّ الطّبيعة بأصواتها ، وألوانها ، وهوائها ، وغذائها تحقّق للإنسان ما ينقصه . لأوّل مرة منذ عملها في الغاليري تلتقي دعد سامي بسراج . طالما سمعت الكثير ممّا نسج حوله منْ حكايات ، لكنّها لم ترسم له صورة في مخيّلتها . مشت نحوه بخطوات بدت مرتبكة وخجولة ، رغم شخصيّتها الطّاغية التي تتميّز بها ، وصافحته . أخبرها أنّه يرغب أنْ ينضمّ لمحاضرتها ، فجهّزت له مقعدًا فضّل أنْ يكون في الخلف ، وعادت إلى مكانها وراء الطّاولة . حينما شرعت بإلقاء محاضرتها ، بقي سراج لما حلّ بيده من دفء أثناء التقاء يدها بيده ، لثوان ينظر إليها بعينين متفحّصتين دون أنْ ينتبه لما تقول . كانت لها عينان متوسّطتا الاتساع ، لكنّ فيهما بريقًا لا يخفى على مَنْ يعي كيف للعينين أنْ تقولا ما يخبّئه القلب . بدا له أنّ لها وجه امرأة قرويّة لا تحتاج إلى ما تفعله المساحيق . تميل بشرتها إلى سمرة ازدادت قليلاً في شفتين كلّما انفرجتا ، بانت أسنانها ناصعة البياض . راقته الفطريّة في جمالها ، وقامتها المتوّسطة تتحرّك بإيقاع متفرّد أثناء حديثها . كأنّه تدارك سهوه المفاجئ بها ، أخذ ينتبه لما تقوله عندما التقت عيناها بعينيه . حينها التفتت نحو مَنْ أمّوا قاعة المحاضرة ، وأكملت ما بدأت به الحديث :

– علينا أنْ نعود إلى الطّبيعة ، أمّنا التي لن تخوننا . في هذه الأيام يخون الإنسانُ الإنسان . غذاء مزوّر ، غذاء فاسد ، غذاء لعبت به التّكنولوجيا وتغافل عن الإنسان . هذا العصر تحكمه ثلّة منْ أثرياء لا

ترى في الآدميّ غير كائن يشتري بضاعتهم، وما منْ دكّان صالح لحاجاتنا سوى دكّان الطّبيعة. الطّبيعة وحدها هي التي تحرّرنا منْ عبوديّتنا.

أمضت دعد ساعة كاملة تلقي محاضرتها، بينما سراج ينصت لها باهتمام، وفي نفسه غبطة كبيرة لما يرى منْ أحلام له تتحقّق في غاليري (الحواسّ الخمس). حينما فتحت باب النّقاش، وقف سراج يعقّب على ما قالته في المحاضرة:

- الصّدفة هي من قادت الإنسان الأوّل لاكتشاف فكرة الطّهوّ. اشتعل حريق في الغابة، فطالت النارُ الحيوانات التي ما كان لها أنْ تدري آنذاك أنّها ستخلد إلى أمعاء آدم بعد رحلة في أتون الحرارة. رائحة الشّواء هي التي دفعته إلى أنْ يتذوّقها. ومنْ هناك، وحيث البدائيّة الأولى، عرف آدم تلك الفكرة. ومن تلك البدائيّة اكتشف طعم الأشياء بالتّذوّق، وعرف حواسّه. حواسّه الأخرى هي التي قادته لاكتشافاته. طعم الماء، طعم العشب، طعم الفاكهة، وحتّى طعم القُبلة. فلا يمكن لحاسّة واحدة أنْ تُعلي منْ مهامّها بشكل منفرد. على الحواسّ أنْ تتآلف لنكتشف حقيقة العالم، ولنكتشف طريقنا الصّحيح. طريقنا الذي منذ صرخة الولادة الأولى ونحن نفتّش عنه، ونحلم به، كأنّه على مقربة منْ أقدامنا التي هي الأخرى عرفت بمحضّ الصّدفة فكرة المشي.

دُهشت دعد لما سمعته. إذ شعرت بأنّ سراجًا اقتادها نحو البدائيّة الأولى، حيث بدأ الإنسان في اكتشاف نفسه، واكتشاف أوّل دروبه نحو العالم. حينما ذهب الجميع في استراحة، راح سراج بمعيّة دعد يتجوّل في المعهد كأنّه زائر، وكأنّ فكرته لم تأت منْ عقر

أحلامه . رأى غرفة لتعليم الطهوّ السّليم ، ورأى غرفة فيها مكتبة بصريّة تضمّ أفلامًا وموسيقى عن الطّبيعة . وكذلك مكتبة ضمّت كتبًا كثيرة حول هذا الموضوع . عندما غادر رافقته دعد إلى باب المصعد . كانت تمشي بارتخاء أنثويّ يضبطه فرح بمعرفة هذا الإنسان الذي طالما وجدته سرا عصيًا على الفهم ، والآن يأخذها غموضه إلى سعي منظّم نحو اقتحام عوالمه . عند باب المصعد وقفا على مقربة من بعضهما ، دون أنْ يتحدّثا . كانت كلماتها ما تزال ترنّ في مسمعيه ، وهي تتحدّث عن حاسّة التّذوّق ، والوعي بالطّبيعة . قالت له إنّ لديها عددًا منْ المقالات حول موضوع محاضرتها ، وأنّ بإمكانها أنْ ترسلها له عبر البريد الإلكترونيّ ، فتبادلا العناوين . حينما غاب سراج وراء باب المصعد بقيت دعد واقفة في مكانها ، وقد أطلقت تنهيدة طويلة ، ومخيّلتها تستعيد عطره ، وعينيه ، ولمسة يده الدّافئة .

مساء جاءته رسالتها الإلكترونيّة . أرفقت بالرّسالة مقالات وأبحاثًا حول الطّبيعة وضرورة العودة إليها ، لمجابهة ما يفتك بالإنسان . أمضى وقتًا منْ ليلته في قراءتها ، ثمّ أمضى باقي وقته يعمل على تأليف الأوبيريت ، وصوت دعد يأخذه إلى مفاتيح البيانو ، ويدفع بقلمه ليسجّل الكلمات في دفتره . رآها تردّد كلماته عن الشجر والأنهار والرّيح ، وهي تمرّ بين الأشياء وتخلق رتمًا موسيقيًا فطريًا . وكلّما استباحت مخيّلته أكثر ، أحسّ بحبّة فراولة طريّة تذوب على شفتيه ، وسائلها ينتقل إلى لسانه ، حيث تشيع مساماته طعم ما ذاقه . في سريره سعيًا للنّوم ، تقلّب لأكثر منْ مرّه يشعر بتوق غريب لدعد . لم يشأ أنْ تتوه منه الفرصة ، إذْ وجد في نفسه توقاً لها . أخذ يراها تعبر الباب وتستلقي بقربه ، وتطوّق عنقه بيد ، وبالأخرى تلامس وجهه .

حينما همّ بها ، سقطت رغبته في قعر بئر عميقة تحتلّه الرّطوبة والماء الآسن ، ووهم الصّدى حينما تستحيل الكلمة إلى آلاف الكلمات .

نهض منْ سريره ، وأمسك بالورقة التي دوّن فيها عنوان دعد . كان سيهاتفها ، لكنّه تراجع . ماذا سيقول لامرأة عرفها للتوّ . وكيف سيكشف صفحته أمامها ، لعلّها تكتب فيها ما يريد ، وما ينقصه . أشعل ضوء الغرفة فوجد نفسه في المرايا ، كلّ مرآة تدفعه إلى الأخرى . وكلّما هُرع إلى مرآة ليمسك بنفسه ، يفرّ إلى مرآة ثانية ، إلى أنْ هجم على البيانو ، وراح يعزف بوتيرة عالية أخذت تميل إلى الهدوء ، إلى أنْ وضع رأسه على المفاتيح ، وراح يبكي بمرارة .

٥

في الفيلّلا التي تقبع على رأس الجبل المحاط بالأشجار كأنّها تحرسه ، التقى رعد عبد الجليل بسليمان الطّالع بعد مكالمة هاتفيّة . في طريقه كان رعد يفكّر بأمر اللّحظات التي يحبّ سليمان أنْ يمضيها معه . إنّه نوع غريب منْ التّعلّق ، فالطّالع هو مَنْ أودى به إلى السّجن ، بعد تلك التّلميحات الخطيرة حول تورّط سليمان بقضايا فساد جعلته نتائجُها ثريًا ومتنفّذًا . وهو مَنْ دجّنه ، وجعله ينحرف عن مساره كصحفيّ ملتزم . تذكّر رعدًا كيف استفاق ذلك الوحش فيه ، بحيث راح ذهنه يتفتّق عن أفكار كثيرة تصبّ في خانة مصلحة سليمان . دجّن كثيرًا منْ الصّحفيين ، وأسكت العديد ممّن كانوا يسعون لكشف أوراق فساد سليمان . بل حتّى إنّه راح يلمّع شخص سليمان بطرق ذكيّة لم تخطر ببال أحد ، حتّى صارت له محبّة لافتة بين النّاس . فهم رعد عبد الجليل شخصيّة سليمان الطّالع كأنّه عايشها منذ البدء ، ونقّب عن كثير من أسراره وحكاياته التي لا يعرفها إلا عدد قليل ممّن عرفوه . استغلّ اللّحظات التي كان فيها سليمان يصل إلى لحظة قصوى من الثمّالة ، وأنصت جيّدًا لبوحه ، واعترافاته . وفي ضوئها كان يعامل سليمان ؛ إذ أخذ يفعل ما يحبّ ، ويجنّبه ما يكره إلى أنْ صار الطّالع غير قادر على التّخلي عن رعد ، رغم ما يضمر له منْ كره شديد .

حينما دخل رعد إلى حيث يجلس سليمان الطّالع في ركنه قرب حوض السّباحة ، كان صوت (أم كلثوم) يخضّب المكان بالحنين . وكان

سليمان يميل رأسه يمينًا وشمالاً مع تدفّق اللّحن والكلمات ، وأمّ كلثوم تغنّي «فكّروني» ؛ إذ بدا وجهه هادئًا ، كأنّه ليس لسليمان الذي اعتاد ملامحه . في عينيه سهو عميق ، وشرود خارج مكانه ولحظته . قال لرعد بعد أنْ اتّخذ له مكانًا قبالته :

- ليس هنالك منْ صوت قادر على نبش خوابي الحنين أكثر منْ صوت أمّ كلثوم .

شرب سليمان منْ كأسه ، وقال بصوت هادئ كأنّه يحدّث نفسه :

- كان في بيتنا حينما كنت ما أزال في آخر سنة في المدرسة راديو كبير يعمل بالبطّاريّات . لم تصل الكهرباء في تلك الأيام للقرية ، فحينما يغمرها اللّيل تشتعل القناديل التي تعمل بالكاز تباعًا ، ورغم أنّ ضوءها باهت ، إلاّ أنّها كانت قادرة على أنْ تذيب شيئًا منْ وحشة تخلقها العتمة . تستحيل القرى في اللّيل إلى صمت فيه شيء من الخوف ، لكنّ فيه شيئًا منْ سكينة تدبّ حينما يغرق الجميع ببحر النّوم . ثمّة فسحة قبالة الغرفة التي آوي إليها تطلّ على طرف القرية الجنوبيّ ، حيث يتدفّق اللّيل بيسر دونما شيء يصدّه . ومع اللّيل تجيء الخيالات والأحلام والأفكار . كنت أستمتع بذلك الشّكل من التّأمّل ، خاصّة وأنا أستلقي في فراشي وفي الهواء شيء من النّدى . ما إنْ ينام أبي حتّى أستعير الرّاديو ، وأبقى أفتّش عن محطّة تبثّ أغنيات أمّ كلثوم ، حيث تمنحني نوعًا غريبًا منْ حنين يجلب معه نوعًا هادئًا منْ بكاء ، حينما أتوغّل به أبدّل موجة المحطّة ، وأفتّش عن محطّات تبثّ نشرات أخبار وبرامج سياسيّة . عبر ذلك الرّاديو أبحرت إلى بلدان كثيرة في هذا العالم ، ومنْ هناك تفتّح وعيي بما يحدث ، وبما يجب عليه أنْ تكون عليه البلاد .

توقّف سليمان الطّالع فجأة عن حديثه وكأنّه تنبّه لتدفّق ذكرياته السّريّة . سكب لنفسه كأسًا ، وأتى عليه مرّة واحدة ، ثمّ أشعل سيجارة ، وأمّ كلثوم ما تزال تطلق صوتها بكلّ حميميّة في المكان (كلّموني تاني . فكّروني . فكّروني) . دون إرادة منه للمضيّ بالصّمت عاد يتحدّث كأنّه يحكي عن شخص يسكنه ، ويشتاق إليه بلوعة :

- عندما جئت إلى عمّان كانت هذه المدينة ككتاب مفتوح لا أسرار فيها . ليس صعبًا أنْ تعرف ماذا سيتناول جيرانك على مائدة الغداء . وليس صعبًا أنْ تفهم لماذا يتضاحكون بكلّ ذلك النّهم . وليس صعبًا أنْ تدرك سبب حزنهم إنْ حزنوا . كانت عمّان عبارة عن قرية كبيرة . وحينما تكبر المدن تصبح كالإخوة الذين يعيشون في بيت واحد ، ما إنْ يتزوّجوا وتصير لهم بيوت حتّى تغلق بينهم تلك الأبواب ، وترتفع بينهم الأسوار . كانت عمّان قرية حميمة .

سكب كأسًا جديدة وراح يشرب وقد تمكّنت الثمّالة منه ؛ إذ أخذت حروف كلماته تخرج ناقصة ، وبدت عيناه محمرّتين :

- حينما خرجت في أوّل مظاهرة في الجامعة كان صوتي هو الأعلى ، لهذا حملوني على الأكتاف أردّد الشّعارات . كنت أعتقد أنّ العالم سيتغيّر بعد تلك المظاهرة ، لكنّ الذي تغيّر هو أنا .

وضع الكأس على الطّاولة فأحدثت ضجيجًا ، واكتسبت ملامحه شيئًا من الغضب ، ونظر في وجه رعد عبد الجليل حينما كان يستمع له باهتمام كبير :

- أتعرف لماذا أكرهك يا رعد؟ أكرهك لأنّك هُزمت أمامي . كنت أراني فيك ، وقلمك يعتمر كلّ تلك الجسارة . وددت لو أنّك عاندتني . حينما حاربتك إنّما حاربت ذلك القابع فيّ ولا يريد مغادرتي .

نهض سليمان الطّالع وراح يترنّح في فناء الحديقة ، يردّد أغنيات الشّيخ إمام بصوت نائح ، وبقي رعد يركن لثمالته الصّامتة ، يفكّر بكِنْدة التي غابت دون أنْ تترك وراءها أيّ أثر ، أو دليلاً يشير إلى موتها ، أو بقائها على قيد الحياة . حينما عاد الطّالع إلى مكانه جاءت رسالة إلى هاتفه النقّال . ورغم ثمّالته إلا أنّه قرأها وتبيّن جهتها الدّوليّة . كانت عبارة عن كلمة باللغة الإنجليزية (start) . ألقى بالهاتف جانبًا ، ومرّ بالقرب منْ رعد عبد الجليل ، وسار نحو طرف حوض السّباحة ، ثمّ راح ينظر نحو عمّان واللّيل يهبط بغزارة على بدنها دون نجوم أو قمر أو شهب ، ونيازك تهوي منْ صدر السّماء في تلك اللّيلة . أفرغ في جوفه ما تبقّى في الكأس ، والتفت نحو رعد إذْ كان هو أيضًا يغرق بثمّالة حزينة لفقده كِنْدة . قال سليمان بكلمات مشوّشة وكأنّه يحدّث أحدًا يقبع في العتمة التي بقيت تقف خجولة وراء السّور العالي ، لما في حديقة الفيلّا منْ غزارة في الضّوء اشتعلت في رأس ذلك الجبل :

- ولم لا . النّاس يشكون الفقر ، وأينما ذهبت تجدهم . في (المولات) ، في المطاعم ، في الأسواق . في البنوك . يركبون سيّارات ، ويسافرون ، ويبنون بيوتًا ، ويستأجرون شققًا . يلبسون ، يعشقون ، ينامون ، يأكلون . يعيشون حياة غير التي يحتاجون لأجلها . هم إذن ليسوا فقراء .

عاد يحدّق بالمدينة وكأنّ الثمّالة قد سقطت على غفلة منه في حوض السّباحة :

- لم لا أبداً . لن أكترث بمقاصد مَنْ أرسلوا لي الرّسالة . سأهتمّ بما سأجنيه أنا .

في تلك الأثناء التقط رعد هاتف سليمان الطّالع ، وقرأ الرّسالة ، ثمّ قرأ رسائل قديمة منْ المصدر نفسه ، ففهم ما سيحدث .

بعد أيام شاع بين الناس أنّ مكاتب (بورصة) جديدة توفّر لمن يدّخر لديهم ربحًا شهريًا كبيرًا . تدافع الناس عليها حتّى إنّ هنالك مَنْ باع بيته لأجل ذلك الرّبح المفاجئ .

٦

على طاولة مكتبه كان سراج ينظر نحو صورتين واحدة له وهو بعمر أحمد، وأخرى لأحمد. غرقت عيناه بتينك الصّورتين؛ إذ صارتا صورة واحدة لم يستطع أنْ يفرّق بينهما. راح يستعيد لحظات لقائه الأوّل به، ويقارن تلك الأيام بما هو عليه الآن. فقد تبدّلت أحوال أحمد، وغادرت وجهه أمارات الأسى التي شهدها سراج يوم التقى به عند الإشارة الضّوئيّة، وجاء مكانها ألق يتبدّى أكثر وهو ينكبّ على الرّسم. قال سعيد عبد الباري إنّه رآه يرسم بوعي غريب، وبنهم مَنْ يأخذ منْ جعبة في داخله خوف أنْ تنفد، رغم صغر سنّه. بين لوحاته خيط لا ينقطع، فهو دائم التّطرّق للطّفولة، وكأنّه ينبّه أحدًا منْ مغبّة ما يحدث لجيل بأكمله. ففي إحدى لوحاته رسم أطفالاً يقفون عند منحدر طريق تؤدّي إلى نار تطوّف حولها كائنات وحشية بهيئات آدميّة. دهش سعيد عبد الباري حينما رأى تلك اللّوحة، ودهش أكثر حينما رأى لوحة أخرى لبندقيّة مهشّمة ملقاة على الأرض، بينما منْ بين شقوقها نهضت ورود وحشائش، وكأنّه يعلي منْ شأن الوردة أمام لغة البارود. تلك اللوحة التي باتت شهيرة تناولتها الصّحافة المحليّة والعربيّة، وحتّى العالميّة منها، وبات أحمد اسمًا لامعًا ومعروفًا، أقام الغاليري له معرضًا للوحاته إلى جانب لوحات الأطفال الآخرين. لكنّ الحدث الأبرز هو دخول لوحة (الوردة والبندقيّة) في مسابقة عالميّة أخذ سراج ينتظر نتائجها بشغف وقلق، وكأنّه ينتظر نتيجته هو. ففي الأيام

الأخيرة ما عاد سراج يفرّق بين أحمد وبينه ، فقد كان شيئًا مقلقًا ومبهجًا في نفس اللّحظة أنْ يرى إنسان ما طفولته تعود إليه بشكل غرائبيّ مثل هذا ، حتّى إنّه لجأ إلى طبيبه النّفسيّ الذي ما رأى في ذلك إلا محض تشابه لا أكثر ، دون أنْ يقنع سراج بحقيقة ما يحدث .

تذكّر سراج موعد لقائه بصائد الثّعالب فهاتفه ، لكنّ الرّجل أخبره أنّ سيّارته (البك أب) المتهالكة قد تعطّلت . لهذا قرّر سراج أنْ يذهب إليه حيثما يقيم في المنطقة المتاخمة لمدينة بيادر وادي السّير الصّناعيّة . حينما وصله كان الرّجل ينتظره قبالة بيت شيّد من الصّفيح المعدنيّ ، وهو عبارة عن غرفة واحدة ، ابتعد عنها بأمتار قليلة مرحاض ، بني هو الآخر من الصّفيح . حول الرّجل تناثر ثلاثة أطفال بأعمار قريبة منْ بعضها .كانوا حفاة ، وبشعور كثّة وطويلة ، تنسدل على وجوه لوّحتها الشّموس وعلاها الغبار . أطلّت منْ باب البيت امرأة نحيلة القامة ، بوجه شاحب . يتعربش صدرها الضّامر طفل بدا أنّه لم يكمل عامه بعد . بدا الرّجل خجلاً منْ تكبّد سراج عناء الطّريق غير المعبّدة والحافلة بحفر وحجارة وأشواك . جلسا قبالة البيت في كرسيّين خشبيين مختلفي اللّون والطّراز ، بدا أنّ الرّجل قد عثر عليهما فيما يجمعه ممّا استغنى عنه سكّان أحياء الأثرياء في عمّان . قال الرّجل بعد أنْ نادى بصوت أجشّ آمرًا أنْ يعدّ أهل بيته إبريقًا من الشّاي :

- أحمد الله أنّي أمتلك هاتفًا نقّالاً .

ضحك بسخرية :

- في الحقيقة أنا وجدته في القمامة ، واشتريت له شريحة . تخيّل أنّي أمتلك هاتفًا نقّالاً يمكنني عبره حسبما سمعت أنْ أتّصل بأيّ مكان في العالم ، وأنا أعيش في هذا المكان الحقير .

ضحك سراج بدوره، وراح ينظر إلى البيت، ثمّ إلى أطراف عمّان، وقد نشأت فيها بنايات الحجر بغزارة. جاءت المرأة بإبريق الشّاي، ووضعته على الأرض بينهما، والطّفل ما يزال يُقْبل على ثديها الضّامر، ثمّ غادرت تجرّ حذاء بلونين وماركتين مختلفتين. تساءل سراج:

- ألم يكن لك عمل منْ قبل؟

ارتشف الرّجل منْ كأس الشّاي، وجفّف بكم قميصه ما علق بشاربه:

- كان لي عمل، ولي حكاية. ولدتني أمّي في موسم الحصاد؛ إذْ كانت قامة الرّجل آنذاك تختفي في حقول القمح في سفوح (عبدون) لطوله ولغزارته. كانت حسبما روت لي قبل أنْ تفارق هذه الحياة، تنقل بمعيّة أبي سنابل القمح إلى البيدر حينما أتاها المخاض. لم يكن حولها أحد سوى الشّمس، وهي تقف في منتصف السّماء، توسع الأشياء حرارة ملتهبة. تدارت وراء كومة سنابل القمح، وأخذت ترسل صراخها لريح ساكنة في تلك السّاعة، إلى أنْ رأت القشّ والتّراب يعلق ببدني الضّئيل. بحجر صوان حادّ قطعت حبلي السّريّ، ثمّ نفخت بفمي، فجاء صراخي يحزّ سكون تلك الظّهيرة الحارقة. لفّتني بمنديلها، وتحزّمت بحبل، وراحت تمشي مترنّحة نحو خيمة صغيرة في الحقل فاستظلّت بها، وأخذت ترضعني. إلى أنْ أودعتني ذلك الظّل الضّئيل، وعادت بهمّة قليلة تحمّل الدابة سنابل القمح، لتنقلها إلى مكان البيدر. كان أبي يعود للتوّ راكبًا حماره، حينما رآها تكابد تعبًا شديدًا، وتسوق الدّابة نحو البيدر. تفرّس بوجهها المغبرّ، وبعينها الذّابلتين، وسألها بصوت مستوضح:

- علامج يا مره؟

- ما في شي . جبت وليد . يا الله خلينا ننقل باقي القمح عالبيدر .

قالت لي إنّ أبي لحظتها ، أوسع المدى غناء ورصاصًا منْ بندقيّته ، قبل أنْ يغادرا إلى بيتنا المكوّن منْ غرفتين تطلّان على الشّرق في سفح ذاك الجبل ، كحال البيوت القليلة المتناثرة في ذلك المكان .

وعيت على هذه الحياة فتى أرعى الأغنام ، وحينما كبرت وتزوّجت ، ورحل والداي ، صار عندي عدد كبير من الشّياه والماعز ، ثروتي التي تغنيني عن أيّ عمل ، قبل أنْ يزحف العمران بكلّ هذه الشّراهة نحو المراعي في عبدون والمناطق المجاورة . ليس منْ أحد كان يمكنه أنْ يتخيّل أنّ هذا الجبل وهذه السّفوح سوف تختنق بكلّ هذه البيوت الحجريّة ، وتطردنا منها كأنّنا لم نكن منها . حينما يحلّ الشّتاء أهبط إلى الغور حيث الدّفء . وحينما يجيء الرّبيع أغادره إلى حيثمّا ينمو العشب . لكنّ الله في السّنوات الأخيرة ما قيّض للأرض ذلك الشّتاء الذي يكسو الأرض عشبًا يطعم أغنامنا . لذلك لجأنا للأعلاف بكثرة ، لكنّ هذه الأعلاف ارتفعت أسعارها . أدركت أنّهم لا يريدون أغنامًا ولا رعاة في هذه البلاد ، حينما قالوا لنا إنّ سعر الأعلاف قد ارتفع عالميًا أخذت الدّيون تتراكم ، فأنفقت ما بحوزتي ، وبعت البيت ، وبعت عددًا كبيرًا منْ أغنامي التي ما تبقّى منها إلا القليل . بعد أنْ صار سكّان البيوت الجديدة في عبدون يتبرّمون منْ أشكالنا ، ومنْ شكل خيمتنا التي صارت بيتنا . بعد أنْ ضاقت الأرض وضاق الأفق جئت إلى هذا المكان ، وبنيت هذا البيت ممّا عثرت عليه منْ صفيح معدنيّ ، وصرت جامع قمامة ، وأخيرًا صائد ثعالب كما ترى .

أشعل سيجارة، وبدا الحزن جليًا في عينه، وهو يحاول أنْ يطرده بضحكات سريعة:

- ها أنا أدّخر ما تعطيه لي لأجل أنْ يكون لي بيت.

عند صندوق السّيّارة حيثما وضع الرّجل الثّعلبَ، وأخذ ثمنه، قال يُطمئن سراجًا:

- اكتشفت أنّ الثّعالب كثيرة يا سيّدي، لا تقلق منْ نفادها. لم يعد تواجد الثّعالب مقتصرًا على الصّحراء، والقرى، بل صارت تتواجد حتّى في المدن. أصبحت ماهرًا في اصطيادها، أعرف أمزجتها، وما يغريها، وما هي مطامعها. كلّما تكاثرت الثّعالب اقترب حلمي بالبيت يا سيّدي. لا ضير لو فكّرت بهذه الطّريقة، ما دام الكثيرون يفكّرون بها.

عبر مرآة السّيّارة رأى سراج صائد الثّعالب وعائلته يلوّحون له، وعلى وجوههم ابتسامات كالحة.

كانت الشّمس والسّيّارة تسلك دربها المعتاد نحو المنحدر، تعصر آخر ما تبقّى لديها من الضّوء، وتتهيّأ لأنْ تلقي قماشًا أسود على الأشياء، حيث يجيء النّوم، والخيالات والأحلام.

ما إنْ فتح سراج الصّندوقَ للثعلب بيد، وبالأخرى يمسك بندقيّته حتّى فرّ الثّعلب مختلطًا على نفسه لثوان إلى أنْ تبيّن دربه سالكًا الوادي، ثمّ صاعدًا الجبل، والخوف يزيد منْ سرعته، خاصّة حينما أطلق سراج طلقة في الهواء دون أنْ يصوّبها نحوه:

- هذه المرّة لن أصوّب البندقيّة نحوك. سأكتفي بأنْ تسمع دويّها. لكنّ الرّصاصة ذات يوم ستستقرّ بين عينيك. هذا الدّويّ صدى القادم نحوك. ضحاياك لم يموتوا. الموت يحدث لك ولمنْ هم على شاكلتك،

أمّا ضحاياك فهم أحياء ، ودربهم إليك سالكة . أقدامهم لا تكترث بأشواكك ، ودماؤهم التي تسيل هي أغنيات الجوع ، الجوع الذي سبّبته يدك الطّويلة .

كان الثّعلب قد صعد الجبل ، ووقف لبرهة هناك كأنّه يهزأ بسراج . ثمّ عاد يجري إلى أنْ توارى في العتمة التي سقطت على المكان ، كما يسقط مطر غزير بشكل مفاجئ .

***

حينما وصل سراج إلى القصر كانت وداد تجلس قبالة التّلفاز ، تتابع نشرة الأخبار . تعرف أنّه في هذا اليوم يذهب إلى مكانه السّريّ الذي لا يعلم أحد عنه ، ولا يعلم ماذا يفعل . لكنّها لم تر سيّارة البك آب القديمة تتوقّف قرب بوّابة القصر ، حيث يودع سائقها ذلك الصّندوق في سيّارة سراج . رأت أنّ حذاءه وملابسه يعلوهما الغبار ، فقدّرت أنّه كان في مكان بعيد عن المدينة . فكّرت أنْ تسأله أين أمضى ما تبقّى منْ وقته بعد العمل ، لكنّها تراجعت عن ذلك ، فتلك اللّيلة كانت بها رغبة شديدة للحديث إليه ، خاصّة أنّه جالسها في الحديقة قبل أيام ، وأخذ يحدّثها عن كنان . رأت أنّ في الحديث طريقًا إلى قلبه ، ربّما يتبادلان الآراء حول أمر ما ، وحينها ربّما يرتاح لها ، ويزول ذلك الحاجز الغريب بينهما . طلبت منه وهي تبتسم -كأنّها تحدّث طفلاً عاد من اللّعب في الحارة - أنْ يصعد إلى غرفته ويستحمّ إلى حين أنْ تعدّ العشاء . غاب لنصف ساعة وعاد بعدها يرتدي بيجامة ، و(روب) حريريًا أسود فيه تمويجات بيضاء . حينما جلس إلى الطّاولة طلب منْ وداد أنْ تتناول معه العشاء . لم تقل له إنّها تناولت عشاءها دونما رغبة وهي تجلس وحيدة في القصر . لكنّها وجدت

شهيّتها للطّعام تتجدّد ، فأخذت تشاركه طعامه ، وهي تشعر بخيط من الفرح يرفو ثوب سعادتها الذي أخذ يتمزّق منذ أنْ مات والداها ، فوجدت نفسها رهينة سلطة أخوة لا يريدون منها إلاّ أنْ تكون حبيسة في البيت ، خوفًا من العار إلى أنْ هاجرت إلى أمريكا ، وعادت بعد أحلامها المشروخة بحبّ سراج ، وتلك المشاعر الغريبة التي تستبيحها في بلاد رغم أنّها احتوت الجميع إلاّ أنّها لم تجد ذاتها فيها .

تراقصت على فمها كلماتُ أكثر من سؤال حول مشواره الأسبوعيّ الغامض بمعيّة ذلك الصّندوق ، وعن أمر تلك الغرفة التي تقع قرب كراج السّيّارة حينما يدخلها ويغيب فيها لنصف ساعة ثمّ يعود ، وعن تلك الغرف السّتّ . لكنّها أعادت الكلمات إلى مكانها ، وتساءلت ببراءة راقته :

- قل لي كيف تحوّلت إلى ثريّ في أمريكا؟ حينما عدتُ إلى عمّان كنتَ مجرد عامل في فندق .

كان يمضغ الطعام بطريقته الهادئة ، حينما عادت تحدّثه :

- أعرف أنّ سؤالي متسرّع . اعتبره فضول أنثى ، عرفتك منذ زمن .

في تلك الأثناء التفتت نحو شاشة التّلفاز ، حيث كان المذيع في إحدى المحطّات يتحدّث عن اختفاء فنّانة وأستاذة جامعيّة في ظروف غامضة ، وأخذ يهاجم الجهات الأمنيّة ، ويرى أنّها أخفقت في أنْ تثبت سرعتها ومهنيّتها المعهودة في الكشف عن ملابسات تلك الجريمة . ما إنْ انتهى حديثه حتّى وجّه سؤالاً لضيفه في البرنامج ، وكان أستاذًا في علم الجريمة وعلم النّفس . رفعت وداد بعد أنْ استأذنت منْ سراج منْ مؤشّر صوت التّلفاز ، وأخذا ينصتان إلى ما يقوله ذلك الرّجل :

(هنالك تغيّرات كثيرة طرأت على عمّان، تغيّرات ديموغرافيّة، وسياسيّة، واقتصاديّة، واجتماعيّة. هذه التّغيّرات كان لها الدّور الأكبر في نشوء شكل جديد من الجرائم المنظّمة. تلك الجرائم التي لم نكن نسمع عنها إلا في المسلسلات والأفلام الأمريكيّة، حيث المدن التي تعاني الضّغط السّكانيّ. فيما مضى لم تكن عمّان إلا مدينة يعرف النّاس فيها بعضهم بعضًا، رغم اختلاف طباعهم وتشابهها في بعض الأحيان. حينما تتضخّم المدن تتلاشى منها الحميميّة، وإنْ تلاشت الحميميّة تغلق الطّرق بين النّاس، ويصبحون غرباء عن بعضهم.)

نهض سراج عائدًا إلى غرفته. وهو في منتصف السّلم ألقت عليه وداد سؤالها:

- هل أنت مع ما يقوله هذا الرّجل؟

قال دون أنْ يلتفت إلى الوراء:

- ربّما يكون على حقّ.

ما هي إلا دقائق حتّى أخذ صوت البيانو يصل مسمعي وداد، بينما سراج يعكف على تأليف الأوبيريت، ومشهد الذئب يضجّ في مخيّلته إلى جانب مشاهد أخرى كثيرة.

٧

قبيل طلوع الفجر بقليل هاجمه الكابوس ذاته فرأى نفسه يذبح امرأة بسكّين حادّة، لكنّه هذه المرّة رأى الثّعلب أيضًا وقد تضخّم، وصار بحجم المدينة، حيث كان يمشي وقوائمه تهدم بيوتها، بينما يفرّ النّاس كأنّ ما يجري هو يوم القيامة. استفاق سراج منْ نومه مصابًا بالعطش. شرب كأسين من الماء، وجلس في منتصف السّرير، يكابد لهاثه ويقاسي بقايا ذلك الكابوس. تفقّد هاتفه النّقّال فوجد رسالة منْ دعد سامي:

(حديثك في نهاية المحاضرة عن البدائيّة الأولى فجّر بي ينابيع كنت أعتقد أنّ يدًا ما سدّت فوّهاتها)

دلف إلى الحمّام، وراح يقوم بطقوسه اليوميّة منْ حلاقة واستحمام وتنظيف لجسده، بتمهّله واهتمامه المعهودين. كان أثناء ذلك يختبر حواسّه التي اشتعلت منذ ولادته. أنصت للأصوات القادمة من الخارج. شمّ الهواء بكلّ تعمّق. لامس كلّ شيء، وتذوّق الماء، وحدّق بوجهه في المرآة. حينما عاد إلى سريره، أعاد قراءة الرّسالة. أحسّ بانجذاب نحو دعد. تذكّر لون شفتيها السّمراوين. تذكّرهما أكثر حينما دلف إلى الشّرفة، وقطف بضع ثمّرات منْ شجرة التّوت، وغسلها ثمّ راح يمضغها بهدوء وتجلّ. أغمض عينيه فرأى شفتي دعد. شعر بأنّ عاطفته تستفيق، وأحسّ بنمنمات لذيذة في جسده. كتب لها ردًا عبر رسالة إلى هاتفها النّقّال:

(وكلّما كنتِ تنطقين بكلمة أجد حواسي ترفع حاسّة التّذوّق على أكتافها ، تمامًا كما يرفع لاعبو كرة قدم كبيرهم على أكتافهم بعد الفوز)

بقيا في ذلك الصّباح يتحدّثان إلى أنْ أدركا أنّ كل واحد منهما يخفي إعجابًا بالآخر . اتّفقا على أنْ يلتقيا مساء ذلك اليوم . قالت له إنّها تحبّ شارع (الرّينبو) فانتبذا مطعمًا هناك واتّفقا على أنْ يلتقيا فيه . في ذلك اليوم ذهب سراج باكرًا إلى هناك ؛ إذْ رغب بأنْ يتمشى في الشّارع قبل موعد لقائه بدعد . ركن سيّارته قرب الدّوار الأوّل ، حيث يبدأ الشّارع وبقي لدقائق يستعيد لقاءه قبل ما يزيد على ثلاثة عشر عامًا بوداد . تذكّر تلك اللّيلة التي ضحكا فيها ، وأطلقا كثيرًا من الأغنيات أثناء عودتهما بعد منتصف اللّيل . رأى أنّ الشّارع قد تغيّر كثيرًا ، صار أكثر جمالاً ، فقد انتشرت على طرفيه مقاه ، ومطاعم ، ومحال ، وعجّ بالمارّة وبمرتادي تلك الأماكن . رأى كثيرًا من العشّاق يتوسّدون أيدي بعضهم بعضًا . كان يراقبهم وفي قلبه غمامة حنين إلى شيء مجهول .

حينما التقيا كانت دعد ترتدي فستانًا أسود ، وكان شعرها قد هبط على كتفيها ، إذ بدا ناعمًا ، كلّما تحرّك رأسها غطّت خصلاته عينيها الجميلتين . حينما تصافحا ، شعرا بالدّفء الذي شعرا به في لقائهما الأوّل . بدأ حديثهما متقطّعًا وهما يجلسان إلى طاولة تقع قرب نافذة المطعم التي أطلّت على ليل عمّان . قالت تشعل فتيل الكلام بينهما :

- لديك ثقافة واسعة في الحواسّ .

- إنّها ليست ثقافة . هي محض سمات وجدتها بي منذ ولدت .

لم تستغرب مّا قاله ، لكنّها تساءلت حتّى يأخذ الحديث طريقه الذي تنتظره :

- كيف؟ .

قال بعد أنْ أشاح بصره عنها ، وأخذ ينظر عبر النّافذة وهي تطلّ على جبل عمّان ، حيث أخذت بيوت كثيرة من تلك البيوت القديمة تتلاشى ، أمام أبنية حديثة تتفاخر بحجارتها البيضاء الجديدة :

- لا أدري كيف . ولكنّي وجدت أنّ بي براعة في استخدام حواسي ، في كثير من المواقف . كأنْ أعثر على شيء مفقود عن طريق رائحته .

- وحاسّتك السّادسة؟

قالت ذلك وهي تشرب منْ كأس الماء وقد ترك أحمر الشّفاه أثرًا على حوافّها كقبلة على خدّ أبيض . كان سراج لحظتها قد انهى نظرته العميقة لما هو خارج النّافذة ، وعاد يراقب عينيها كيف تغالبان ابتسامة عريضة ، تكاد ترتسم في وجهها :

- هي الأخرى كانت مشتعلة .

صمت قليلاً ثمّ أضاف بنبرة صوتيّة تراجعت حدّتها بعد أن شرب من كأس ماء أمامه :

- حواسّنا تخوننا في بعض الأحيان ، لكنْ منذ زمن وأنا أتساءل : ما الذي يجعل الحواسّ تخون . إنّه سؤال غامض .

- حقًا سؤال غامض .

منذ تلك اللّيلة صارا يلتقيان كثيرًا ، وكلّ منهما لديه رغبة بلقاء الآخر . حتّى إنّ سراجًا صار يمضي معها كثيرًا من الوقت ، فيعود على غير عادته عند منتصف اللّيل . يمضيان وقتهما بحديث في مواضيع

كثيرة دون أنْ ينبش أيّ واحد منهما دفتر الآخر، كأنّهما يريدان بعضهما مجرّدين منْ تاريخهما. وهذا ما حدث، فلا يعرف سراج عن دعد شيئًا سوى أنّها تعمل في الغاليري، ولا تعرف دعد عن سراج سوى أنّه مالك الغاليري ومديره العامّ. لم تكن تختلف عن أيّ شخص يأخذه فضوله لاكتشاف أسرار سراج، لكنْ ما كان يهمها هو أنْ تحافظ عليه حتّى لا تنتهي علاقتها به سريعًا كما انتهت بعديد من الرّجال الذين عرفتهم منْ قبل.

ولدت لديها رغبة بأنْ تختم ولعها بالرّجال بسراج الذي رأت أنّها وقعت هذه المرّة في غرامه بقوّة صارت تخشاها، فباتت تخاف منْ لحظة يفارقها فيها كما حدث لها سابقًا مع مَنْ عرفتهم. اعترفت له بحبّها بعد أنْ وجدته قد أمضى كثيرًا من الوقت بمعيّتها دون أنْ يفصح لها عن حقيقة مشاعره نحوها. لكنّها حينما فعلت ذلك، ووجدت نفسها تبكي لفرط إحساسها به، رأت أنّ عليها أنْ تأخذه إلى دفتر حكايتها كأنّها تتطهّر منْ ماضيها قبل أنْ تدخل بابًا تعرف أنْ لا عودة منه. كان يوم الخميس إذ لم يذهب سراج إلى نادي النّخبة الذي يرتاده بالعادة في يوم مثل هذا، إنّما ذهب بمعيّة دعد إلى وسط البلد واختارا مقهى ليس فيه كثير من الجلاّس إلاّ منْ طاولتين يجلس إلى كلّ منهما رجل وامرأة.

قالت له وفي عينيها يخفت البريق الذي ألفه:

- أنت لا تعرف عنّي شيئًا، لذا سأقصّ عليك حكايتي.

شربت ما تبقّى منْ فنجان قهوتها، وراحت تخبره عنها:

(لا أدري لماذا لم أحظ بقصّة حبّ كالتي حظيتْ بها زميلاتي وصديقاتي في المدرسة، ومنْ ثمّ الجامعة فيما بعد، رغم أنّه ليس

هنالك ما ينفرّ في شكلي ، ورغم أنّي مستمعة جيّدة ومتحدّثة لبقة . جمالي منْ ذلك النّوع العادي ، لكنّ الغريب أنّ ذلك لم يكنْ يؤرّقني كثيرًا ، إذ كنت أشعر بسعادة غامرة وأنا أنصت لحكايات منْ عرفت من زميلات وصديقات ، وأُسدي إثر ذلك النّصائح والإرشادات كأنّي عشت تجارب تركت أثرًا في نفسي . صرت مثل خبيرة نفسيّة أتنقّل بين زميلاتي أدلّهن إلى الدّرب الصّحيح . نلتقي في الجامعة ، وفي البيوت ، وفي المقاهي . أنصت بشغف لما يقلنه ، وأتحدّث باهتمام . مع الأيام أخذن يختفين منْ حياتي إلى بيوت الزّوجيّة شيئًا فشيئًا ، إلى أنْ وجدتُني وحيدة بعد التّخرّج من الجامعة ، وغير قادرة على أنْ أجيب عن التّساؤل الذي بات يقلقني (لماذا لا يطرق بابي رجل؟ ولماذا لا يحدث لي مثلما يحدث لسائر الفتيات؟) . توقّفتُ فجأة - ولا أدري لماذا - عن قراءة الرّوايات ، وعن مشاهدة الأفلام والمسلسلات التي تحكي عن العشق ، وبتّ أمنح عملي كلّ وقتي ، حتّى حينما أعود إلى البيت أجعله محور تفكيري . إذ إنّني عيّنت مسؤولة تغذية في إحدى المستشفيات الحكوميّة . ما إنْ أصل البيت قادمة منْ عملي حتّى أخلد إلى النّوم لساعتين ، بعد أنْ أجالس عائلتي المكوّنة منْ شابّين وبنتين . عائلتي التي اعتادت على عزلتي واقتصادي في الكلام ، واستوعبت مع مضيّ الوقت أنْ ما من صديقات في حياتي ، وأنّه ما عاد لديّ رغبة في الخروج ، وارتياد المقاهي ودور السّينما والمسارح . مرّة واحدة أقلعت عن الاستماع إلى الأغنيات والموسيقى ، واستعضت عن لذّتها بموسيقى ما كان يسمعها أحد سواي . تأتيني تلك الموسيقى حينما أطفئ الضّوء ، وأغلق عينيّ وأنا في سريري أتهيّأ للنّوم . أرى الغابات والأشجار والأنهار والنّباتات التي قرأت عنها في الكتب ، تؤلّف لحنًا

موسيقيًا، يعبر مسامعي نحو قلبي الذي يخلد إلى السّكينة شيئًا فشيئًا، إلى أنْ يأخذني سلطان النّوم إلى عوالمه. أحلم دومًا بحياة الإنسان الأوّل، وكيف نشأ، وكيف نشأت الحياة دون تلك التّعقيدات التي تسيطر على حياتنا هذه الأيام. تطوّرت في عملي، ورقّيت إلى خبيرة تغذية، وصارت لديّ خبرة واسعة في هذا الشّأن جعلتني أدوّن آرائي التي وجدتْ صدى لدى رئيس التّحرير في الصّحيفة حينما أرسلت له أطلب النّشر. ومن ذلك اليوم صار لي زاوية يوميّة عرفني النّاس عبرها، وصرت منْ أكثر المؤيّدين للعودة إلى فلسفة الطّبيعة. كانت مقالاتي تطرق عقول النّاس بأسلوب ليّن، تبدّل فيما بعد حينما تبيّن أنّ والدتي أصيبت بسرطان المعدة. كانت صدمة كبيرة للعائلة، وفجيعة كبرى لي، فقد أمضيت شهوراً أرافقها في المستشفى إلى أنْ فارقت الحياة بعد أكثر منْ عمليّة جراحيَة. ما زلت أتذكَر ذلك اليوم حينما توقَف نبضها. رحت أهشّم كلّ شيء حولي، وهجمت على الأطّباء والممرّضات أنهال عليهم صراخًا وضربا، وأنا ألعن كلّ مَنْ لوّث غذاء النّاس، ورفع نسبة هذا المرض الخبيث دون اكتّراث بعدد الضّحايا الذين يسقطون جرّاءه. لكنّي في نهاية الأمر اقتنعت أنّ أمّي ما عادت على قيد الحياة، رغم أنّي أشاهد طيفها يتحرّك في كلّ مكان من البيت.

حينما عدت لكتابة مقالتي تحوّلت إلى أكثر المناهضين لما يصدّره لنا العصر الحديث منْ أغذيّة تهدم صحّة البشر. وبتّ أشنّ حملات على مصانع وشركات أغذية لا تلقي بالاً لما سوف يحيق بصحّة النّاس منْ أمراض. حتّى إنّني تعرّضت إلى تهديدات كثيرة منْ أصحاب مصانع الأغذيّة، وتعرّضت إلى إغراءات كثيرة ليضمنوا سكوتي،

لكنّي لم أتراجع عن موقفي . أصبحت ذائعة الصّيت ، وبات كثير من النّاس يتداولون اسمي وآرائي ، لكنْ ما منْ رجل اقترب منّي وهمس بأذني بتلك الكلمة التي مهما أشغلت نفسي عنها ، إلاّ أنّها تبقى الكلمة الأهمّ ، والتي تشيع الاخضرار في بدن المرأة وروحها . لا أنكر أنّ لي حاجات جسديّة بقيت تؤرّقني ، وتقضّ مضجعي ، فأبقى إثر غياب مَنْ يحقّقها لي ، أتقلّب في سريري حدّ البكاء . إلى أنْ حدث ما حدث ، إذْ عدت ذات يوم إلى البيت ، وبعد أنْ تناولت الغداء ودخلت إلى غرفتي أتهيّأ إلى القيلولة ، جاءت أختي الكبرى وجلست بطرف السّرير ، وأخبرتني أنّ امرأة منْ سكّان الحيّ أتت تطلب يدي لابنها الذي يعمل مسؤولاً فنيًا للآلات في إحدى مصانع سليمان الطّالع . كان هذا أوّل رجل يطرق باب بيتنا ، تقبّلت نصيحة شقيقتي في أنْ ألتقي به . لم أنم في تلك اللّيلة التي سبقت قدومه إلى بيتنا . بقيت أحاول أنْ أرسم له شكلاً في مخيّلتي ، وأتخيّل طباعه ، ومزاجه ، وكلّ شيء متعلّق به . أكثر ما أوجعني أنّي رحت أفكّر بذلك الرّجل بطريقة كلاسيكيّة لا تليق بدعد سامي التي باتت شاشات التّلفاز تتناقل أحاديثها ، وباتت الصّحف تنشر أخبارها ومقالاتها . لكنّي ليلتها نمت وأنا أحلم به رجلاً يخرجني منْ بين جدران بتّ حبيستها منذ تخرّجي من الجامعة .

في مساء اليوم الثّاني جاء فارس . اسمه فارس ، طويل نوعًا ما ، عريض المنكبين ، له وجه ممتلئ وعينان واسعتان ، وشارب خفيف فوق فم جميل ، يرتدي بذله زرقاء داكنة وقميصًا أبيض ، وربطة عنق حمراء موشّحة بلون أزرق داكن ، يفوح منه عطر (جاكومو) . حينما صافحني ونطق بكلمات قليلة شعرت بأنّه متعجرف ، لكنْ ما إنْ بقينا

وحدنا ، وأخذ يحدّثني عن عمله ، وعن أحلامه ، وعن سبب تأخّره في الزّواج حتّى اكتشفت أنّه طيّب وحنون . تعلّقت به منذ اللّقاء الأوّل ، وشعرت أنّي أعرفه منذ زمن ، ربّما لأنّه ذلك النّوع من الرّجال القادرين على تهشيم الحواجز التي عادة ما يضعها خوف الأنثى من المجهول . طلبت منه أن يأتي إلى بيتنا لأكثر منْ مرّة قبل أنْ نقرّر أمر الزّواج ، ليس لأنّني أردت اختباره ، بل لأنّي أردت أنْ أعيش لحظات لم أعشها منْ قبل . صرنا نلتقي يوميًا في بيتنا ، وفي المطعم الذي اعتدنا الذّهاب إليه . كلّما تقرّبت منه ، أجدني أحبّه أكثر . كانت له لمسات دافئة ، وصوت حنون ، وطريقة رائعة في الاعتناء بي . شعرت أنّي بدأت أحظى بغمامة منحتني سلامًا داخليًا لم أحظَ به منْ قبل . ذات ليلة وحينما توقّفت سيّارته قبالة بيتنا بعد عشاء في المطعم ، اقترب مني ، فحظيت بأوّل قبلة في حياتي . بعد أسبوعين منْ ذلك اليوم تزوّجنا . كانت اللّيلة الأولى لنا في بيتنا الذي استأجره في (ماركا) قريبًا من المصنع الذي يعمل به . عاملني برفق حتّى إنّني لم أخف ممّا تخاف منه الفتيات في ليلة الدّخلة . كان رقيقًا جدًا كأنّه شاعر يكتب قصيدة عن البحر . بعد ظهيرة اليوم الثّاني غادرنا إلى خليج العقبة . أمضينا أسبوعًا حظيت به بحبّ جعلني أنسى كلّ ذلك الألم الذي داريته في حياتي وراء اهتمامي بالعمل . كنّا ما إنْ نخرج حتّى نعود سريعًا إلى الفندق ، ونمارس الحبّ كأنّنا اثنان انتظرا بعضهما سنين طويلة ، وأخذا يلعنان العطش بالارتماء بحضن الماء . بعد عام بدا لي أنّ تلك الجرعة العالية من الفرح قدْ أخذ تأثيرها يتناقص شيئًا فشيئا ، فقد شاب مزاجه شيء من الحدّة والتّعكّر ، وأخذت الأوقات التي يمضيها معي في البيت تصبح أقلّ مع مرور الأيام . اعتقدت أنّ

هذا ربّما يكون عائدًا إلى تفشّي الرّوتين بيننا ، لهذا رحت أقرأ كتبًا تقدّم نصائح حول الحياة الزوجيّة ، وأطبّق ما يقلنه زميلاتي اللائي نجحن في طرد الرّوتين منْ حياتهن . لكنّ ذلك ما أتى بأيّ نتيجة تذكر .

مع إنجابي لأوّل مولود أخذت حياتنا تتبدّل ، إذ ضاق ذرعًا بصراخ الطّفل ، وازداد تبرّمه حدّة مع قدوم مولودي الثّاني والثّالث . كان قد مرّ آنذاك على زواجنا ، وعلى تلك الأيام الجميلة ، أربع سنوات ، فقدت بعدها الأمل في أنْ أحظى بما حظيت به . تفاقمت الأعباء الماليّة ، وصارت الحياة أكثر صعوبة منْ قبل ، وما عاد ما نجنيه منْ مال يكفينا ، ثمّة خلل كان يحدث ، تأكّدت منه حينما اكتشفت أنّه مدمن على الكحول والمخدّرات ولعب (القمار) . أصبح يعود إلى البيت ثمّلاً يهشّم كلّ ما تقع عليه عيناه ، ويعتدي عليّ . لم ينجح أحد - سواء منْ أهله أو أهلي - بأنْ يثنيه عمّا هو ماض فيه . وبتّ أقنع نفسي والسّنوات تمرّ بأنّي بتّ متصالحة مع سلوكه ، لكنْ تفاقمت الأمور أكثر حينما باع السّيّارة ، وصار يأخذ منّي نصف راتبي دون أنْ أستطيع أنْ أقف بوجهه . كنت وحيدة إزاء هذه المشكلة ، وأنا أرى أولادي يكبرون ، إلى أنْ شارف اثنان منهم على الانضمام إلى الجامعة . في تلك الأيام أحيل فارس على التّقاعد ، وفي نهاية كلّ شهر وحينما يقبض راتبه يخرج في سهرة تمتدّ حتّى الصّباح ، يلعب فيها القمار ويضاجع النّساء ، ويتعاطى المخدّرات . باتت العلاقة بيني وبينه لا تنحصر إلا في السّرير حينما يريدني ، وباقي وقته يمضيه خارج البيت ، منفقًا ما يأخذه منّي تحت التّهديد ، إلى أنْ أصيب بالسّكري ، هذا المرض الذي جعل قدرته الجنسيّة تصل إلى أقصى درجات ضعفها ، وتجعلني أقاسي نداءات

الجسد التي لا يقوى آدمي على صدّها .

مع الأيام ومع ما مني به من مشاكل وأزمات ، أصيب فارس بالاكتئاب الحادّ ، فأودعته في مصحّة نفسيّة ، فلا أريد لأولادي أنْ يعيشوا بلا أبّ . ولا أريد لأحد أنْ يمسّهم بكلمة واحدة تتعلّق بسمعته ، فكرّست حياتي لأجلهم . في آخر اللّيل أذهب إلى السّرير وحيدة ، إلا منْ وسادة خالية قربي . في طريقي إلى العمل كنت كلّ يوم أصادف أحد رجال الحيّ في طريقه إلى عمله . راح في البدء يرسم على وجهه ابتسامات موجّهة لي ، ثمّ تحولّت تلك الابتسامات إلى تحيّات صباحيّة ونحن في انتظار الحافلة . وكأيّ امرأة تقع في الحبّ ، وقعت في حبّ ذلك الرّجل ، فأخذنا نلتقي في مقهى لا يبعد كثيرًا عن مكان سكناي ، إلى أنْ التقينا في بيتي بعد منتصف ليل أحد الأيام . كانت رجولته طاغية بالقدر الذي ما كان لامرأة مثلي يحتلّها العطش أنْ تصمد أمام اشتعاله . بعد أنْ غادر عانيت صوتًا خفيًا كان يؤنبّني ، لكنّه مع تكرار اللّقاءات بيننا أخذ يخبو إلى أنْ مات .

كأنّه ملّ منّي ، راح عدد المرّات التي نلتقي فيها - أنا وذلك الرّجل - يتناقص إلى أنْ انتهت تمامًا ، فأخذت أتقرّب منْ زميل لي في العمل ، يعيش وحده في بيته بعد أنْ طلّق زوجته . بقيت على علاقة معه امتدّت لأشهر ثمّ انتهت . وكلّما انتهت علاقة ، ألحقها بأخرى .

كبر أولادي ، ودخلوا الجامعة وتخرّج أحدهم ، وخرج زوجي من المصحّ النّفسيّ ، وأصبح يمضي جلّ وقته في البيت ، يتعاطى الكحول حتّى طلوع الفجر ، ثمّ ينام ليصحو قبيل الغروب . لكنّي رغم كلّ ما يحدث حافظت على أنْ أؤمّن حياة كريمة لأولادي . فقد اشتريت لهم

بيتًا ، وأنفقت على تعليمهم في الجامعة ، وحافظت على أنْ لا يصبح أبوهم نقطة سوداء في صفحات حياتهم . تمامًا كما حافظت على أنْ لا يكشف أمري فيما يخصّ علاقاتي المتكرّرة بالرّجال) .

بقي سراج ينظر بوجه دعد حينما انتهت منْ اعترافاتها ، وأخذت تجفّف دموعًا هبطت على خديها . لا يدري لماذا اشتهاها بشكل جارف ، وفي وجهها كلّ ذلك الحزن والانكسار . ربّما لأنّ حكايتها أخذته نحوها ، وهو يرى كيف أنّ الشّبق كان سرًا تداريه عن الجميع ، وتمارس ما يطفئه خفية عن النّاس . مدّ يده نحو يدها ، فكانت دافئة أكثر ممّا أحسّ بها منْ قبل . قالت له بصوت مستجدٍ :

- أرجوك ابقَ معي ، فأنا حقًا أحبّك .

اقترب منها :

- هيّا نذهب إلى البيت .

٨

دهشت دعد حينما رأت قصر سراج، وحينما لاحظت ذلك النّظام الغريب الذي يسيّره. كان صوت جهاز الإنذار المخصّص للرّوائح غير الصّحيّة قد تعالى، عندما أشعلت سيجارة، فوقفت مذهولة ممّا ترى. في البدء لم تستوعب ما حدث، إلاّ حينما شرح لها سراج الأمر. تجوّلت في صالة الضّيوف الفسيحة، وفي صالة الجلّوس، وفي المطبخ كبير المساحة، ثمّ عادت، وإذا بسراج يراقب خطواتها. تساءلت عن سرّ الصّمت في القصر، وعن خلوّه حتّى من الخدم. إلاّ أنّه أمسك بيدها واتّجها إلى أريكة في الصّالة ثمّ جلسا.

كان سراج في تلك اللّحظات يحتفي بسعادة غامرة سببها توقه الشّديد لها، وإحساسه نحوها برغبة عارمة، كلّما تنامت، شعر بأنّ ما تركته فيه الهزيمة التي لحقت به قبل رحيله إلى أمريكا قد تلاشى. أكثر ما يجعله يشعر بالهشاشة، هو إحساسه بالهزيمة إزاء ما حدث، لكنّها هشاشة مستترة، يجاهد أنْ لا يلمس كلّ من يراه أيّ ملمح لها. قال لها وهو يمسك بيدها يتلذّذ بدفئها المميّز:

- الفرح لحظة يا دعد. والسّعيد هو منْ يعرف كيف يستثمرها. هذه أوّل مرّة في حياتي أنحاز لقناعة مثل هذه.

قالت وهي تمسح وجهه بكفّها:

- وهذه أوّل مرّة في حياتي أجدني كما كنت أتمنّى. وهذا ما كان ليحدث لولا أنّي معك.

نهض نحو المسجّلة ، وأطلق العنان لمقطوعة موسيقيّة ، وراحا يرقصان . كانت دعد تضع رأسها على كتفه ، بينما يداه تطوّقان خصرها :

- ذات مرّة قرأت حوارًا للرّوائية والفيلسوفة الأمريكيّة منْ أصل روسيّ (جين راند) تتحدّث فيه عن مفهومها للحبّ ، وبالذّات عن أولئك الذين يضحّون على حساب سعادتهم لأجل الآخرين .

أبعدت رأسها عن صدره وحدّقت بعينيه :

- كانت (راند) ترى أنّ ما من شخص يستحقّ أنْ نهدم بيت سعادتنا لأجل سعادته . ربّما رأيها هذا هو ما جعلني أتنقّل بين أحضان الرّجال ، بعد أنْ أفنيت سنين منْ عمري ، أصلح شؤون رجل لم أدرِ أنّه آيل للخراب منذ البداية .

حينما وجدَت سراجًا صامتًا لم يعقّب بشيء ، أدركت أنّها يجب أنْ لا تعود إلى ما أسرّت به له ، وأنّ عليها أنْ تلقيه إلى نار النّسيان . لكنّ سراجًا في الحقيقة لم ينتّبه لما قالته ، إذ كان يتتبّع إيقاع كيمياء الرّغبة في جسده ، وينصت لصوت ينبّئه بأنّه لم يهزم . حينما عادا إلى الأريكة قبّلها كأنّه لم يقبّل امرأة منْ قبل . لم يمتثل لطلبها حينما همست بأذنه أنْ يصعدا إلى غرفة نومه . خشي أنْ تهاجمه الخيالات التي تعيده إلى برودة الصّفر في جسده . في الأريكة العريضة تعرّيا ، وأقبلا على بعضهما . كان صدى أنينهما يرتطم بالجدران ويعود إليهما فيشعل بهما مزيدًا من الحبّ . شيئًا فشيئًا أخذت الخيالات القديمة لريفال تهاجمه بضراوة ، وأخذ وجه سليمان الطّالع يطلّ منْ مخيّلته هازئًا به . عجّل في أنْ يهمّ بها ، لكنّه كلّما اقترب أكثر خارت قواه ، إلى أنْ فقدها تمامًا . جلس في طرف الأريكة مصابًا بارتعاش وتعرّق ولهاث شديدين . قالت بصوت لاهث وهي تلمّ شعرها :

- دعنا نصعد إلى غرفتك .

لم يصعدا إلى غرفة نوم سراج ، بل ذهبا عبر الممرّ الطّويل إلى الغرفة الثّالثة من الغرف السّتّ . حينما رأت دعد السّرير في منتصف الغرفة اعتقدت أنّها غرفة نومه .

- غرفة نومك غريبة . ما هذه الخزائن الزّجاجيّة؟ وما الذي فيها؟

قالت ذلك ، وراحت تستكشف ما في الخزائن . رأت مجسّمات بلاستيكيّة لأكثر منْ صنف لفاكهة . ورأت حبّات تفّاح الشّام ، وعبوات زجاجيّة فيها عسل ، وأخرى احتوت على مربّى الورد . شاهدت حبّات زيتون ذابلة ، وكثيرًا من الأشياء التي يمكن لها أنْ تؤكل . عادت إلى سراج تسأله :

- ما هذه الأشياء؟ ولم كلّ هذه الغرابة في غرفتك .

ضمّها إليه ، ولهاثه يزداد ، وأنفاسه تتعالى ، ووجهه يكتسب ملامح غير الملامح التي عرفتها فيه :

- إنّها ذاكرة التّذوّق يا حبيبتي .

ضمّها إليه أكثر ، إلى أن توجّعت :

- هل نسيت؟ هذه هي الأشياء التي كنت تحبينها .

قالت دعد مستغربة :

- هذه الأشياء لي؟

- نعم إنّها لك يا حبيبتي . في هذه الغرفة لا مجال للحديث عن خطيئتك التي لم تكن سوى ضربة لي ، وللمدينة التي أحبّ .

أبعد دعد عنه قليلاً لكنّه بقي ممسكًا بيدها :

- أتعرفين ما الذي يشيع الوحشة منْ حولنا؟ إنّها الأيادي التي تمتدّ خلسة دون أنْ ندري ، وتنهك أماكننا التي نحبّ .

سحبها نحو السّرير وألقاها فيه ، ثمّ استلقى فوقها :

- لكنْ أخبريني : كيف كان لحواسّي أنْ تغفل كلّ ذلك الغفلان؟ ألم تكن أمّي تسمّيني صاحب الأنف الكلبيّ؟ ألم تسمّيني سيّد (الحواسّ الخمس)؟

أخذ يقبّلها بنهم غرائبيّ ، رغم أنّ جليدًا يحيط بعاطفته . حينها دفعته عنها :

- منْ هذه التي تحدّثها . اصحُ يا سراج . أنا دعد . دعد سامي .

- لا فرق . صدّقيني لا فرق .

وقف في منتصف الغرفة ، وأخذ يؤشّر بيده نحوها :

- أنت تحبّين فارس . حديثك عنه بكلّ تلك الدّقة في التّوصيف دلالة على حبّك العميق له . مع هذا خنته . خنته كما تخون العين حينما تغفو سائقًا على الطّريق فتنقلب به سيّارته . أخذت تتنقّلين بين أحضان مَنْ عرفتهم ، ورحت تبرّرين أنانيّتك بأنّك ما عدت تؤمنين بأنّ سعادة الآخرين تبنى على سعادتك .

قالت بصراخ ، وكأنّها استفاقت منْ منام طويل :

- نعم أحبّه . وعليك أنْ تعلم أنّ الخيانة ليست خيانة الجسد التي تزول مع قليل من الماء تحت (دوش) الاستحمام . الخيانة هي خيانة القلب .

اقترب منها وهي جالسة في منتصف السّرير تغالب خوفها :

- هذا هو منطقكم ، أنت والسّياسيّ الذي يخون بلاده . يخونها ثمّ يتنطّع بحبّها .

نهضت من السّرير ، وراحت تحاول فتح الباب بيد ، بينما بيدها الأخرى تمسك بملابسها ، لكنّه حملها وألقى بها إلى السّرير ، فارتطم رأسها بالجدار وأغمي عليها .

مذكّرات سراج

٣

وصلتُ ماديسون - عاصمة ولاية ويسكنسون الأمريكيّة مساء ١٠سبتمبر ٢٠٠١ - تتبعني ريح ما توقّفت عن رشقي بعواصف من الشّوك . دخلت غرفتي في الفندق ، وجلست بطرف السّرير لا أفكّر بشيء ، بل أنظر ببلاهة حزينة إلى كلّ ما يقع في مرمى البصر . عبر النّافذة لاحت لي بحيرة (ميندوتا) ساكنة كأنّها تعهد ببدنها لنوم عميق . ورأيت إنارات (جامعة ماديسون) تستأثر بالحصّة الكبرى منْ تنافس الإضاءات التي تسطع في سماء المدينة . ثمّة سيّارات تعبر الشّوارع في تلك السّاعة المتأخّرة من اللّيل ، تجيء أصواتها ما بين الفينة والأخرى فتكسر حاجز صمت لا يتخلّله سوى هسيس الأشياء النّائمة . ثمّة ساعة إلكترونيّة تقف على منضدة السّرير كأنّها جسد ميت ، لا إيقاع لها رغم مؤشّرها الذي يلعج عند كلّ ثانية . حينما كنت في عمّان كانت ساعتي البيولوجيّة هي التي تقودني إلى مواعيدي ، ساعتي التي لم تنفد كهرباؤها يومًا ؛ لذا كنت أضحك ساخرًا في ليلة الألفيّة الجديدة ، والعالم يخشى انهيارًا في بياناته ، كون خانة جديدة ستضاف إلى خانات الوقت في الحواسيب . الآن ساعتي البيولوجيّة في سبات عميق .

بقيت أحدّق عبر النّافذة بارتخاء ، ثمّ عبرت إلى الحمّام وأمطرت جسدي بشيء من الماء السّاخن ، وعدت إلى السّرير وأطفأت الضّوء ،

مبقيًا على إنارة خفيفة منه . امتدّت يدي كأنّها جزء منفصل عني ، تتحسّس عيني ، وأنفي ، وفمي ، وأذني ، ورؤوس أصابعي . كنت أفعل ذلك كأنّي أعاتبها ، وأحمّلها وزر ما حدث . في مرآة تقابل السّرير كان وجهي ينزلق هناك دون ملامح تذكر . جفلت ممّا رأيت فأغمضت عينيّ أستجدي النّوم يأتي وينقذني منْ تلك البلاهة الموجعة ، وهي تهاجم عصبًا في روحي وتضغط عليه بشراسة . راح وجه ريفال يتماهى بوجه سليمان الطّالع ، يضحكان بوتيرة عالية لا تنقطع . استدرت إلى اليمين ، ثمّ رحت جاهدًا أستجلب النّوم إلى أنْ أتى رغم تقطّعه .

عند الثّامنة والرّبع صباحًا استفقت من النّوم . ثمّة إبريق كهربائيّ على منضدة صغيرة ، بقربه بعض أكياس من القهوة والشّاي والسّكر . جهّزت لي كوبًا من القهوة ، وجلست في أريكة قريبة من النّافذة . من الشّارع تأتي أصوات أبواق سيّارات الشّرطة وهي تجوب المدينة . ثمّة حركة غريبة كانت تحدث في الشّارع وفي الفندق . قلت ربما أنّها إحدى طباع هذه المدينة وحالاتها . وقفت قريبًا من النّافذة أحاول أنْ أفهم شيئًا ولكن دون جدوى . أبواق سيّارات الشّرطة يزداد أكثر ، وغضب غريب تبدّى لي في وجوه المارّة . فعدت أجلس في الأريكة ، لكنّ شعورًا جديدًا من القلق أخذ ينتابني . أخرجت الورقة التي تشير إلى عنوان صديقتي وداد ، واتّصلت بها . لم تجب رغم اتّصالي لثلاث مرّات متتالية ، فتركت لها رسالة صوتيّة تبيّن عنوان الفندق الذي أقطن فيه . كنت قد قرّرت منْ قبل أنْ أخلد إلى الرّاحة بما فيه الكفاية ، ثمّ التقي بوداد ، فقد فضّلت أنْ لا تراني بالحالة التي كنت عليها . لم أكن سأطلب منها أكثر منْ أنْ تتدبّر لي عملاً بسيطًا يقضم أغلب وقتي ويترك لي شيئًا منه للنّوم .

بعد دقائق جاءني صوتها عبر الهاتف حزينًا وخائفًا :

- أرأيت ما حدث يا سراج؟ افتح التلفاز . سيكون ١١ سبتمبر ٢٠٠١ تاريخًا عالميًا فاصلاً .

قالت ذلك ، ثمّ أنهت المكالمة وهي تعدني باتّصال آخر ، دون أنْ أفهم ما الذي يجري .

حينما فتحت التّلفاز ، كانت القناة تعيد مشهدًا لطائرات ترتطم ببرجي التّجارة العالميّ في (منهاتن) ، وتعرض صورًا لأناس يتدافعون هربًا من المكان . كان الهلع مشهدًا كبيرًا لم تتوقّف الكاميرات عن نقله وهو يتبدّى في الوجوه المعكّرة بالغبار والرّماد والخوف . نهضت ورحت أذرع الغرفة مصابًا بقلق شديد . كانت حاجتي الماسّة لسيجارة في تلك اللّحظة تشبه حاجتي لها حينما رأيت ما رأيت في فيلا سليمان الطّالع ، لهذا أشعلت واحدة منْ تلك التي اشتريتها منْ سوق المطار ، وتراجعت فيما مضى عن تدخينها . كنت أدخّن بتوتّر ازداد حينما انطلقت صافرة إنذار الحريق في الفندق . ما هي إلا دقائق حتّى أخذ الباب يُقرع ، دون أنْ أعي أنّ حسّاسات الحريق قد أخذت تنبّه غرفة التّحكّم السّفليّة بسبب دخان سيجارتي .

فتحت الباب فهرع رجل أمن وبمعيّته آخر منْ موظفي السّلامة في الفندق . حينما رأوا السّيجارة بيدي ، صرخ بي أحدهم :

- أيّها العربيّ ، ألا يكفي ما فعلتموه اليوم ، وها أنت هنا تنوي إشعال الحريق بالفندق .

كانت ملامحهما غاضبة ، بينما كان التّلفاز يعرض صورًا لعرب مشتبّه بهم في هجوم ١١ سبتمبر . ما إنْ غادروا حتّى اتّصلت بوداد :

- أرجوك تعالي خذيني منْ هذا الفندق .

لم يكن من المجدي في لحظة مثل تلك أنْ أتكفّل بمهمّة الدّفاع عن بني جلدتي ، لأنّ حجم الغضب الذي كان في وجوه أولئك الرجال كبير .

هبطّت إلى مكتب الاستقبال ، وألغيت حجزي في الفندق . لم تتأخّر وداد كثيرًا ، ما هي إلا نصف ساعة حتّى وصلت .

وداد فتاة أردنية محبّة للفنّ ، عرفتها في عمّان حينما كانت في زيارة للبلاد . التقيت بها في معرض لأحد الأصدقاء . كانت متزوّجة منْ أمريكي منْ أصول نيجيريّة ، وانفصلت عنه مؤخّرًا لما حلّ بينهما منْ جليد لن يذوب على حدّ قولها .

عانقتني بحرارة حينما هبطت إليها أحمل حقيبتي ، وأحمل في وجهي حزنًا لرجل منكوب ، تناثرت في روحه شظايا قنبلة شرسة . لم تسألني لحظتها حينما رأت بي رغبة لمغادرة الفندق ، وحينما حدّقت بوجهي لبرهة . أخذت ترحّب بي مبتسمة كأنّ لا شيء حصل . في الطّريق أخبرتها بما حدث لي في الفندق فامتعضت ، وكسا وجهها قلق لم تستطع أنْ تداريه . قالت وفي صوتها كثير من الأسى :

- مؤسف أنْ يموت كلّ هذا العدد من النّاس . ومؤسف أنّه من الآن فصاعدًا ، سنصبح إرهابيين في نظر الجميع .

كانت الطّريق إلى بيتها تعجّ بسيّارات الشّرطة ، بينما يتناقص عدد المتجولّين اتّباعًا للأوامر التي وجّهت لهم تحسّبًا لوقوع هجمات أخرى في أيّ مكان منْ أمريكا . كان راديو السّيارة يبثّ تغطية إذاعيّة للحدث تركّزت على جنسيّات الإرهابيين ودوافعهم .

توقّفت السّيارة أمام البناية التي تقع فيها شقّة وداد . عند بوّابة المصعد خلعت نظّارتها الشّمسّية عنْ عينيها النّاعستين ، ثمّ اتّكأت

على الجدار والمصعد يقلنا نحو الطّابق الرّابع :

- أهلاً بك يا سراج .

دخلنا إلى شقّتها ، وجلست في أريكة تواجه مكتبة ضمّت بضعة كتب بالإنجليزيّة ، وعددًا قليلاً من الكتب العربيّة . قلت لها بعد أنْ سمحت لعينيّ بأنْ تطوفا بالمكان :

- لا أجد في بيتك ما يشير إلى بلادك الأصليّة .

كانت آنذاك تعود حاملة بيدها كوبي قهوة سكبتهما منْ سخّان على (كاونتر) غرفة المعيشة . وضعتهما على الطّاولة الخشبيّة المغطّاة بلوح زجاجيّ تستقرّ تحته صور لأناس لا أعرفهم . أشعلت سيجارة وراحت تنفث دخانها بطريقتها الهادئة :

- وما معنى بلادي الأصليّة؟ تقصد مسقط الرأس ، وبلاد أجدادي وعاداتهم وتقاليدهم؟ أتيت إلى هذه البلاد هاربة منْ كلّ شيء يا سراج .

صمتت قليلاً ، ثمّ بدت لي شاردة وخيط الدّخان يتصاعد منْ سيجارتها ، كأنّ ماردًا سوف يطلّ منْ بين أصبعيها النّحيلين الجميلين :

- ربّما تتاح لك الفرصة يومًا يا صديقي أنْ تنظر في قلبي لتجد الإجابة عن سؤالك فيه .

ضغطت على زر التّشغيل في (الرّيموت كونترول) فجاءت شاشة التّلفاز بأخبار مانهاتن ، إذ قامت بجولة بين المحطّات . كان العالم يشتعل غضبًا وحزنًا ، ويصاب بالوجوم جرّاء ما حدث . ضحكت بسرّي وتساءلت بمرارة (كيف يحدث هذا في أوّل صباح لي ، في بلاد أتيت لأتوه فيها) .

كانت وداد تنظر إليّ وأنا غارق في سهوي ، وفيما يأتيني به ذلك

الصّوت الدّاخلي . قالت وهي تختصر المسافة بيننا في الأريكة :

- سراج أنت بخير؟

هززت رأسي ، دون أيّ قـدرة لي على قـول كلمـة واحـدة . ثمّ أرخيت ظهري على مسند الأريكة ، لا أتبيّن لي أيّ إحساس بشيء ، سوى أنّني رغبت فجأة بأنْ أغادر . قلت لها :

- هل لك أنْ تبحثي لي عن فندق آخر غير الذي غادرته؟

- وهل تعتقد أنّني سأتركك تغادر في ظرف مثل هذا؟

قلت معتذرًا :

- لكنّك تعيشين وحدك .

- نحن في أمريكا يا صديقي . لا تقلق .

منحتني وداد غرفة في منزلها التي تعيش فيه وحيدة بعد طلاقها . رغم أنّنا لم نلتقِ سوى مرّة واحدة ، ورغم عدد من المكالمات الهاتفيّة ، والرّسائل حينما غادرت عمّان قبل عامين . بحسّ المرأة التي لها أنْ تقرأ خريطة الوجه جيّدًا كانت تعي أنّي سقطّت منْ مرتفع اعتقدت أنّي سأمكث عمري متربّعًا على عرشه الوهميّ . في ذلك الصّباح لم نتحدّث كثيرًا ، بل أمضينا وقتًا حتّى ما بعد الظّهيرة نتابع أخبار مانهاتن . كانت تراقب ما يحدث بخوف وأسى . خوف ممّا قد سيأتي في الأيام القادمة على حدّ قولها ، وأسى على أنّ القتل أصبح مجانيًا بهذا الشّكل في العالم . اعتذرتُ عن تناول الطّعام حينما نهضت تنوي تحضير شيء نأكله .

قلت وقد استجمعت آخر ما تبقّى بي من طاقة على الكلام :

- وداد ، أعرف أنّي ضيف ثقيل الظّل . كلّ ما أطلبه منك في هذه اللّحظات هو أنْ أنام .

كانت يدي ترتعش ، وأنا أحاول أنْ أعلّقها في فتحة القميص ، مدارياً سطوة تلك الحالة . أمسكت بيدي :

– ليست يدك التي ترتعش فقط ، إنّما كلّ شيء فيك . كلّ ما أريده منك الآن هو أن تذهب للنّوم . نمْ قدر ما تستطيع .

كنت مهزومًا بالقدر الذي جعل امرأة لم تلتقِ بي إلا مرّة واحدة ، تخبّئ دموعًا في عينيها كادت أنْ تغافلها وهي تنصت لي بكلّ اهتمام . إنّها بالتّأكيد دموع الإشفاق على رجل هبط عليها دون مظلّة ، فسقط مغشيًا عليه . دونما أيّ تفكير بشيء ، استلقيت في السّرير أحدّق بالسّقف ، فرأيت ريفال تعبر شارعًا مكتظًّا بالمارّة وبالوحل . شعرها منكوش ، بيدها فردة حذاء والأخرى ترتديها في قدمها اليمنى . منذ ذلك اليوم باتت السّقوف لوحة لذلك المشهد الذي لم يفارقني .

استفقت منْ نومي في صباح الأربعاء بعد نوم مليء بالكوابيس والأحلام . أمام المرآة المعلّقة على جدار الغرفة وجدتني ألمس برهبة عينيّ ، وأذنيّ ، وأنفي وفمي ، ورؤوس أصابعي . ثمّ أغمض عينيّ مرّة أخرى أحاول أنْ ألمس شيئًا في المخيّلة طالما آمنت به . رشقت وجهي بحفنة من الماء البارد ، وخرجت إلى الصّالة . لم أحْدث جلبة ، إذ اعتقدت أنّ وداد نائمة . حينما جلست في الأريكة رأيت ورقة على الطّاولة كُتبت لأجلي (صباح الخير سراج . لقد ذهبت إلى العمل . تصرّف في البيت كأنّه بيتك . وداد .)

ألقيت الورقة جانبًا ، ورحت أنصت لصوت باطنيّ يسخر منْ فكرة البيت التي ما عدت أجد لها معنى . البيت وطن ، والوطن بيت ، وما عاد لهما أنْ يكونا بمأمن من اللّصوص . في المطبخ استخدمت آلة

القهوة ، وسكبت كوبًا . شعرت بحاجة لسيجارة ، فعدت إلى الغرفة لكنّي لم أجد علبة سجائري التي لم أدخّن منها إلا واحدة . ما الذي كان يريده واحد مثلي ، لم يدخّن في حياته من السّيجارة غير حالة هروب قصيرة تضاف إلى هروبي الأكبر إلى بلاد أتوه فيها . ها أنا أتوه في عزلة لم أستطع احتمال بداياتها . الصّمت في العزلة صوت خفيّ يذكّرك بانكساراتك وبهزائمك . نهضت أذرع المكان مشيًا ، ثمّ وقفت إلى النّافذة . الحيّ صامت كأنّ لا سكان فيه ، حتّى الأشجار ساكنة لا هواء يهزّ بدنها . لا تعبر الشّارع إلا سيّارات قليلة ، لا حركة فيه في لحظات الصّباح تلك ، إلاّ حركة عصافير تفرّ من أغصان الأشجار إلى أشجار أخرى ، غرست على طول امتداد الشّارع الذي كسا طرفيه عشب قويّ الاخضرار .

استلقيت في صوفة قبالة التّلفاز ، ورحت أتابع أخبار الهجوم على البرجين . تنقّلت بين المحطات أبحث عمّا يبرّر وجودي في بلاد هوجمت منذ أوّل صباح لي فيها . هل كان المصير يأخذني إلى شكل من أشكال التّيه بقصد ، أم أنّ ما يحدث محض صدفة . بدّلت ملابسي وخرجت . ما كنت لأحتمل عزلتي بين جدران تمدّ ألسنتها بوجهي ، وسقف يعرض لي تلك الصّورة الغريبة لريفال .

صادفت بضعة مارّة في الطّريق ، كانوا وهم يمرّون بقربي ، يتفحّصون ملامحي باستغراب وخشية . بعضهم كانوا يتمتمون بكلمات غاضبة ويمضون . وبعض منهم يشتم العرب الذين بسببهم تعيش أمريكا حزنًا جديدًا على ضحايا فقدوا في منهاتن . هل حقًا أنا ذاهب الآن لأتوه ؟ تساءلت بسرّي حينما كنت أعبر الشّارع حيث يقع متجر كبير على الجهة الأخرى منه . أم أنّني خرجت لأشتري علبة

سجائر غير التي نسيتها في الفندق؟

في واجهة زجاجيّة في المتجر دقّقت بملامحي وراقبت كلّ شيء بي ، أفتّش عمّا يستدعي كلّ تلك النّظرات منْ بعض مَنْ كانوا في داخله . لكنّني في الزّجاج رأيت سليمان الطّالع ، ثمّ رأيت ريفال . أخذ جسدي يتصبّب عرقًا وراح الرّعاش يدبّ بي كأنّي أمشي عاريًا في مدينة متجمّدة . ثمّة طاولة حولها عدد من المقاعد ألقيت ببدني في إحداها . لم أكنْ أدري أنّ هنالك مَنْ يراقبني ، وأنَّ تصرفاتي تثير الاستغراب . حاولت أنْ أضبط نفسي إذ رحت ابتسم بوجه رجل مرّ بقربي ، فعاجلني بشتيمة تصف العرب بالإرهابيين ، رغم أنّي لم أكن العربيّ الوحيد في المتجرّ ليهيل عليّ الشّتائم . حينما تجمهر عدد آخر منهم ، مددت يدي في جيب بنطالي الخلفيّة لاستخدم محرمة أجفّف بها عرقي .

- لسنا كما تصفنا . أنت مخطئ .

هذا كلّ ما قلته لأجد أمامي شرطيًا يصوّب نحوي فوّهة مسدسه ، وعيونه المليئة بالغضب والرّيبة منْ شيء سيحدث ، بينما أناس آخرون يصيحون (إرهابيّ ، إرهابّي) ، فأخذ الجميع يتدافعون هربًا من المكان ، بينما أتى رجال الشّرطة وقيّدوني ، بعد أنْ أمروني أنْ أبقي يديّ مرفوعتين إلى الأعلى . حينما تأكّدوا منْ عدم قدرتي على الحركة فتّشوا ملابسي وجسدي ، فلم يعثروا إلاّ على منديل ، إضافة إلى حافظة نقودي وجواز سفري . فكّ أحدهم وثاق يدي ، وراح يبدي أسفه واعتذاره عمّا حدث ، بعدما اكتشف أنّي لا أشكّل خطرًا على أحد .

عندما خرجت بمعيّة الشّرطة منْ بوّابة المتجر ، هاجمت عيني

إضاءة لكاميرا صحافيّ، وصوّبت نحوي كاميرا محطّة تلفزيونيّة. كثير من الضّجيج كان يحدث في المكان لم أتبيّن منه سوى ما قاله الشّرطيّ. (ثمّة لبس في الأمر، لا أكثر).

لم أستطع أنْ أحدّد شكل إحساسي في تلك اللحظات. كنت أتصرّف كأنّي أبله لا يدري ما الذي يحدث. تحسّست رسغي وقد احمرّ لضغط شريط بلاستيكيّ قيّدوني به، ثمّ عبرت الشّارع لا أدري كيف أستدلّ على طريق العودة الذي لم يكن يعنيني كثيرًا في تلك اللّحظات.

حينما وصلت، وجدت وداد جالسة عند باب البيت تحمل رأسها بين يدها بإحساس مَنْ يقاسي وجع الانتظار. ما إنْ رأتني حتّى قفزت نحوي:

- كيف أطلقوا سراحك.

قلت بتراخ استغربتُه، قبل أنْ تستغربه هي:

- وكيف عرفت؟

- أغلب المحطّات الإعلاميّة تتحدّث عنك، في خبر مفاده القبض على إرهابيّ عربيّ في ماديسون.

حينما تنقّلت بين محطات التّلفاز رأيت صورتي وتحتها الخبر الذي نقلته لي وداد. ارتخيت في الأريكة والتقطت سيجارة منْ علبتها، وأشعلتها ورحت أدخّن وأراقب المذيع كيف ينقل الخبر:

(ألقت الشّرطة نهار هذا اليوم القبض على عربيّ مشتبه به، قيل إنّه كان يخطّط لعمليّة انتحاريّة في متجر منْ متاجر مدينة ماديسون)

أغلقت وداد التلفاز، وأشعلت سيجارة، دخنّتْ منها قليلاً ثمّ هرستها في المنفضة. قالت وقدمها تهتزّ وهي تضع ساقًا على ساق:

- هذه كارثة .

لم تتلقّ منّي أيّ تعقيب عمّا قالته ، وعمّا حدث ، وعمّا شاهدته في محطّات التّلفاز . قالت بنبرة لم تستطع أنْ تخفي تبرّمها من بلادتي :

- سراج هل تشكو منْ شيء؟

أشعلت سيجارة ثانية ، وأنا أتحسّس دوار السّيجارة الأولى :

- لا .

قلت ذلك ، ثمّ طلبت منها هامسًا :

- هل تسمحي لي بأنْ أذهب إلى الغرفة وأنام؟

لم تقل شيئًا سوى أنّها أشارت بيدها ، توافق على ما طلبت . استلقيت في السّرير أحدّق بالسّقف ، وأنفث دخان سيجارتي . لاحت لي ريفال في المشهد الذي رحت أراه مؤخّرًا . استدرت إلى يميني . ثمّة ساعة معلّقة على الجدار ، عقاربها لا تقول شيئًا رغم حركتها المستمرّة . أطفأت السّيجارة في المنفضة ، ثمّ انتفضت فجأة أتساءل :

(ماذا أفعل هنا في بيت امرأة لم ألتقها سوى مرّة واحدة . بيت أتصرّف فيه بكلّ بلادتي وبلاهتي دون أنْ تقول هذه المرأة شيئًا ، بينما العالم كلّه خارج هذه الغرفة يتحدّث عنّي) .

نهضت متعجّلاً ، وحشرت أغراضي القليلة في حقيبتي الصّغيرة ، وتركت الغرفة . كانت وداد ما تزال جالسة في السّرير ، تنظر عبر النّافذة دون أنْ ترمش لها عين . انتبهت لي وأنا أقف أمامها :

- أريد أنْ أغادر .

- أرجوك اجلس .

قالت ذلك واقتربت منّي ، وقد جاءت منْ وجهها ابتسامة متعبة :

- سراج ، كيف ستمضي وأنت بهذه الحالة؟

- أنا بخير . لا تقلقي .

عقدت أصابعها ببعضها ، إذ بدت متوتّرة وهي تقمع غضبها :

- سراج ، عندما كتبت لي رسالة تخبرني فيها أنّك ستأتي إلى ويسكنسون ، وقلت إنّك اخترت هذه الولاية لأنّك لا تعرف أحدًا في أمريكا سواي ، فرحت كثيرًا ، أتعرف لماذا؟ لأنّه بات من الصعب هذه الأيام أنْ تفرح بقدوم أحد ما . حينما رأيتك أدركت أنّ هنالك شيئاً حدث لك . فصمتُّ أنتظر أنْ أعرف ما الذي يجري . صحيح أنّنا التقينا لمرّة واحدة ، واقتصرت صداقتنا بعد ذلك على رسائل واتّصالات بين الفينة والأخرى ، إلاّ أنّني أزعم أنّي أعرفك جيّدًا . لهذا أنا قلقلة عليك . الذي حدث نهار هذا اليوم خطير جدًا ، والأخطر هو ردّة فعلك . فكيف سأجعلك تغادر وصورتك في كلّ وسائل الإعلام كإرهابيّ ، في وقت يغلي فيه كلّ العالم .

على شاشة التّلفاز ، طرأت أخبار تقول إنّ اشتباه الشّرطة بالعربيّ سراج في إحدى متاجر ويسكنسون ما هو إلا سوء تقدير في مرحلة صعبة تمرّ بها البلاد .

قلت لوداد :

- أرأيت ، ها هم يعتذرون .

كانت تحدّق بي دون أنْ تدري ما عليها قوله في لحظة مثل تلك . قلت لها وأنا أشدّ على يدها :

- أريد منك أنْ تجدي لي فندقًا مناسبًا ، وعملاً قبل أنْ ينفد ما معي منْ مال .

في ذلك اليوم غادرت بيت وداد ، إلى فندق لا يبتعد كثيرًا عن

بيتها ، وبعد أسبوع هاتفتني ، تخبرني أنّها وجدت لي عملاً في الفندق نفسه الذي أقطن فيه . فمدير الفندق أمريكيّ منْ أصول لبنانيّة ، تعاطف مع ما حدث لي في اليوم الثّاني لوصولي إلى المدينة ، لذا تدبّر لي أمر الإقامة حتّى تسير الأمور بشكل قانونيّ . انتقلت إلى شقّة صغيرة في حيّ لا يبعد كثيرًا عن مكان سكنى وداد ، وبتّ أتنقّل ما بينها وبين الفندق ، إلاّ منْ مشاوير قليلة في نهاية الأسبوع ألتقي فيها وداد ، وأحيانًا أمشي بمفردي في الحديقة ، وفي الشّارع .

***

لمرّات متتالية أخذت وداد تقرع هاتفي ، تصرّ على إيقاظي . فمنذ ذلك اليوم المشؤوم ما عاد لأيّ ساعة القدرة على إيقاظي ، وانتشالي منْ بحر النّوم العميق . وما عاد لساعتي البيولوجيّة أنْ تؤدّي دورها كما كان يحدث لي طوال عمري . ضغطت على زرّ الإجابة في الهاتف ، فجاءني صوتها مشوبًا بحشرجة الصّوت بفعل النّوم :

- انهض يا سراج . علينا أنْ نخرج إلى الحديقة هذا اليوم . عليك أنْ تستثمرّ عطلتك .

مشيت نحو الحَمّام متكاسلاً ، وبي رغبة أنْ أعود إلى السّرير ، لأعاود النّوم حتّى لو استمرّ يومًا آخر . بعد أنْ استحممت وقفت قبالة المرآة التي علّقت في جدار الحمّام ، ابتعدت قليلاً ثمّ رحت أحدّق بي ، وأنا ألامس كلّ أعضاء حواسّي الخمس :

(كيف نامت حواسّي كلّ ذلك الوقت ولم تنقذني ممّا حدث؟ وأنا الذي بقيت حواسّي تشتعل جنونًا كلّ تلك السّنين التي مضت . ثمّة علامات كان عليها أنْ تلتقطها ، وتحيلني إلى تأمّل في شيء غامض . هلْ ستنقذني حواسّي ممّا سيأتي غدًا؟ وماذا لو فقدت إحداها ، ربّما

أصبح كمن يمشي نحو حفرة عميقة ، دون أنْ يدري أنّ شيئًا خطيرًا سوف يقع له) .

خرجت من الحمّام فارًا منْ تساؤلاتي ، ومن الصّور التي رأيتها تطلّ عليّ من المرآة . سكبت كوبًا من القهوة ، وجلست قرب النّافذة ثمّ رحت أدخّن بشراهتي الجديدة . بدت لي سماء ماديسون صافية في ذلك الصّباح الذي خلا من الضّجيج . ستعاتبني هذه المدينة التي مضى عليّ عام فيها على عقوقي بحقّ جمالها الذي لم أره كما ينبغي ، تمامًا مثلما ستعاتبني وداد على برودي كلّ ذلك الوقت ، دون أنْ تدخّر جهدًا إلاّ وقدّمت منه الكثير تجسّر المسافة بيننا ، دون أنْ تعلم أنّني ما عدت ذلك الرّجل الذي التقته ذات يوم في عمّان ، وضحكت بمعيّته ضحكًا مستمرًا ، بقيت أصداؤه تتقافز بين جدران البنايات ، ونحن نترك المكان في أواخر اللّيل .

مضى عليّ عام في ماديسون ، ودربي درب نملة لا تعرف غيرها . أخرج صباحًا إلى الفندق وأعود مساء إلى البيت . لا أعرف أحدًا إلا وداد ، التي سرّت حينما كتبت لها قبل مغادرتي عمّان :

(لا أعرف أحدًا في أمريكا سواك يا وداد ، لذا أنا قادم إلى ويسكونسن . بالتّأكيد لن يكون أبراهام راكنر ، وتوماس أيكنز في انتظاري في صالة الاستقبال في المطار . ولن يكون همنجواي في انتظاري جالسًا على حافّة الرّصيف يتأمّل بحره المفتقد . أعرف أنّ أحدًا لن ينتظرني سواك) .

تفقّدت خانة الرّسائل في هاتفي النّقّال . والدتي تحثّني على العودة بعدما أخبرتها بمكاني وبأنّي أتيت إلى هنا أبحث عن فرصة عمل تؤمّن لي مستقبلاً جيّدًا . وداد تذكّرني بأنّ «الحياة قطار لا

يحتفي كثيرًا بمن يمكثون طويلاً في المحطّات» .

تأمّلت رسالة وداد جيّدًا ، أعدت قراءتها لأكثر منْ مرّة . قلت بسري (عليّ أنْ أصحو ممّا أنا فيه) . كانت رسالة وداد مرفقة بصورة لها . تمدّ لسانها للكاميرا ، وفي عينيها ابتسامة كبيرة . منذ أنْ وصلت ماديسون أخذت تعتني بي كأمّ تحبّ ابنها ، دون أنْ أدري ما الذي جعلها تفعل ذلك في بلاد تمنحها الكثير منْ مبرّرات تجاهل واحد مثلي ، ونسيان أمره تمامًا .

ألقيت الهاتف جانبًا وأشعلت سيجارة أخرى ورحت أتأمّل . مرّ عام على اتّصال سعيد عبد الباري بي في المرسم ، فصار يومًا فاصلاً كما صار ١١ سبتمبر يومًا فاصلاً في مسيرة الإنسانيّة التي أخذت تتهاوى وتحترق تباعًا . استعدتُ تفاصيل كوابيس راحت تهاجمني في منامي منذ أنْ غادرت عمّان ، أكثرها رعبًا أنّي أرى نفسي بلا أيّ عضو منْ أعضاء حواسّي الخمس ، كأنّي كائن مسخ أتنقّل في قاعة تعجّ بأناس لا يراني منهم أحد ، وهم يحدقون بجدران تعجّ بساعات الحائط .

جاء اتّصال وداد يخرجني منْ سهوي :

- أنا عند باب البيت هيّا تعال .

ارتديت ملابسي ببلادة ، رأيت وداد تواجهها بالصّبر ومحاولة اعتيادها . حينما وصلت سيّارتها كانت تجلس وراء المقود وتحرّك أصابعها عليه بمعيّة أغنية أمريكيّة راقصة ، وي الوقت نفسه تدندن بكلمات الأغنية . ارتدت بنطالاً أزرق ، وقميصًا أبيض ، طبع عليه طيف لرجل وامرأة يتعانقان . زمّت عقصة شعرها بمشبك أزرق ، وغطّت عينيها بنظّارة شمسيّة سوداء . حينما فتحت باب السّيّارة وجلست ، اقتربت منّي وعانقتني :

- صباح الخير .

منْ عنقها تدلّى عقد حمل حرف (س) . حينما رأتني أختلس نظرة إليه ، مدّت يدها في فتحة القميص والتقطت العقد ، فبان شيء من نهديها الأبيضين . قالت مبتسمة وكأنّها تبرّر أمرًا ما :

- (س) الحرف الأوّل منْ اسم سوزي ، ابنتي .

اندفعت السّيّارة في الشّارع بهوادة ، كهوادة شكل الأشياء في نهايات الأسبوع وهي تبدو ساكنة . التفتت نحوي ثمّ نظرت في وجهي ونظّارتها تهبط قليلاً عن عينيها المبتسمتين :

- والحرف الأول منْ اسمك أيضاً .

ثمّة مطعم لبنانيّ في طرف ماديسون بقيت وداد تتّجه نحوه بسرعة خفيفة ، تحدّثني مرّة بمواضيع خاطفة ، وأخرى تدندن مع الأغنيات التي كانت المسجلة تبثّها . قالت إنّها اشتاقت للأكل العربيّ على حدّ قولها ، فالعمل يشغلها رغم مهارتها في الطّبخ ، وأنّ الحياة بإيقاعها السّريع سلبت كثيرًا منْ طاقتها . عبر الطّريق كانت ماديسون ما تزال تغطّ في نومها ، ترسل الشّمس أشعّتها على العشب ، فيكتسب نضارة استثنائيّة .

حظيت جدران المطعم اللّبنانيّ بصور لعدّة مناطق للبنان ولمطرّزات لشجرة الأرز ، وبضعة معالم لبنانيّة . جلسنا في طاولة قرب نافذة تطلّ على الشّارع . كانت فيروز تدغدغ حتّى الهواء بكلماتها وصوتها يئنّ (أيه عندي أمل فيك) .

سكبت وداد كأس ماء وشربت شيئًا منه ، وراحت تدندن بكلمات الأغنية ؛ إذ بدا عليها أنّها في ذلك الصّباح تتقدّم نحو الفرح دون أنْ تنتظره ليأتي . حينما وضعوا الطّعام على الطّاولة أخذت تتلذّذ

بتذوّقه ، وتطلق نكاتًا بين الفينة والأخرى وكتفاها تهتزّان وهي تضحك مغلقة فمها بورقة (كلينيكس) ثمّ تضرب كفّها بكفّي ، دون أنْ تأبه لبلادتي ولضحكتي التي بالكاد تظهر إثرها أطراف أسناني .

بعد أنْ فرغنا منْ طعامنا ، قالت بصوت هامس مازح :

– أنا مدخّنة سيّئة ، تعال لنخرج إلى الحديقة حيث الهواء الطّلق ؛ لندخن كما نشاء .

ونحن نعبر ممرًا نفر منْ بين شقوق حجارته العشبُ ، امتدّت يدها إلى يدي وأمسكت بها . كانت يدها تحظى بشيء من العرق فشعرت بكفها ناعمه ملساء ، تمامًا مثل نعومة أصابعها التي تشابكت بأصابعي ، وأخذ إصبعها الشّاهد يتحرّك على ظاهر يدي ، ينهر بي شعورًا لم أحظ به منذ عام . إنّها العاطفة التي افتقدتها منذ غادرت عمّان . فما عدت أتتبّعها ، رغم شعور السّخط الذي ولد بي جرّاء هذا البرود الجنسيّ . لم نلتفت نحو بعضنا ونحن نعبر الممرّ نحو مقعد في الحديقة ، يطلّ على بركة يعوم فيها البطّ ، وترفرف في سمائها بضعة طيور . حينما جلسنا أفلتتْ يدي منْ يد وداد . أشعلتْ سيجارة بتعجّل ، كأنّها تردم هوّة خلّفها انفصال أيدينا بلحظة مفاجأة . نفثت دخانها في الهواء وقالت وهي تحدق بزهرة مائية تطفو على وجه بركة الماء :

– أتعرف يا سراج ، حينما أتأمّل الحياة هنا ، وأتأملني أجد أنّ ثمّة هوّة ما في تكويني ، ربّما تحتاج لشيء بسيط حتّى يردمها . انظر إلى هذه الوردة التي تطفو على سطح الماء ، تنمو وتترعرع ، بينما لا يمكنك أنْ تأتي بوردة منْ أصيصها ، وتلقي بها في الماء وتنتظر منها أنْ تنمو بهذا الشّكل .

شبكت يديها على صدرها بعد أنْ أطفأت السّيجارة ، ووضعت ساقًا على ساق ، وضيّقت عينيها كمن يركّز بشيء في المدى :

- أتعرف كيف أتيت إلى أمريكا؟

قالت ذلك ولم تنتظر إجابتي :

- لم آتِ إلى هنا بحثًا عن فرصة تدفع بي إلى عالم الثّراء . بل أتيت هنا لأعيش في مجتمع لا يحدّد حريّتك ، ويقف لك بالمرصاد طوال يومك . توفي والداي في العام نفسه ، كانا مسنين وأنا آخر مواليدهما ، إذ سبقني في العمر أخوان . كنت آنذاك قد تخرّجت منْ معهد حصلت منه على دبلوم في فنّ الدّيكور . أحببت هذا المجال كثيرًا ، وحلمت أنْ أعمل به ، لكنّ كلّ الطّرق آنذاك كانت تؤدّي إلى لا شيء . لا وظائف في هذا المجال ، إلا لمن يذهب مسنودًا بتوصية منْ شخصيّة كبيرة . فعملت في شركة تؤمّن وجبات الطّعام للشّركات والمصانع . كنت في البدء مجرد عاملة تنظيف في المطبخ ، لكنّ تدخّلاتي واقتراحاتي أحيانًا جعلت المسؤول عن الطّهاة يخلّصني منْ مهمّة التّنظيف ، ويعينني في مجال الطّبخ الذي برعت به في تلك الأيام . أحببت عملي كثيرًا ، لأنّك حينما تجد نفسك تصنع رضا منْ حولك ، فإنّك تكون قد صنعت رضاك ، وهذا يحيل إلى سعادة لا بأس بها . لكنّ تلك السعادة صارت منقوصة . فما إنْ توفي والداي ، حتّى أخذ شقيقاي ينصّبان أنفسهما أوصياء عليّ . انقطعت بناء على أوامرهما علاقتي بصديقاتي ، وفيما بعد أجبرت على ترك العمل بذريعة خوفهم عليّ منْ اختلاطي بالرّجال الذين أعمل بمعيّتهم . فقد أصبت بالأنفلونزا ذات يوم ولم أذهب إلى عملي ، فجاء أحد زملائي يزورني في البيت . ما إنْ انتهت الزّيارة حتّى صدر القرار منْ قبل

إخوتي بأنْ أتوقّف عن العمل . ما زلت أتذكّر قول أكبرهم (اختلاط الرّجال بالنّساء كاقتراب الوقود من النّار) . حينما سافر أخي الأكبر بمعيّة عائلته إلى الخليج للعمل ، اعتقدت أنّ ثمّة أملاً سوف يخلّصني ممّا أنا فيه ، لكنّ شقيقي الثّاني صار أكثر ضراوة منه . في تلك الأيام فقدت الأمل في كلّ شيء ، وما عادت لي أمنية سوى أنْ أعيش كما تعيش أيّ فتاة . تمنّيت الزّواج كخلاص ممّا يحدث لي ، لكنْ كيف لي أنْ أتزوّج وأنا رهينة أربعة جدران . كنت ذات مساء أتابع فيلمًا أمريكيًا يحكي عن علاقة حبّ بين رجل وامرأة عرفا بعضهما في الشّارع . ثمّ قرّرا بعد أنْ تبادلا الشّكوى فيما بينهما حول الملل منْ رتابة الحياة ، الهروب إلى حياة الأدغال . تساءلت لحظتها عن معنى أنْ يقرّر آدميّ شكل حياته ، وماذا لو لم يكن يملك القرار حيال ذلك . في تلك اللّيلة وجدت نفسي منْ أولئك الذين اكتفوا بلعق جراحهم ، والبكاء عليها . فقرّرت الهروب لكنْ إلى أين والبلاد صغيرة لا يمكنك فيها أنْ تخبّئ شيئًا ما؟!

تذرّعت بمراجعة طبيبة نسائيّة ، فتقدّمت بطلب فيزا إلى أمريكا . كنت أعرف أنّ ذلك لن يكون سهلاً ، لكنّها كانت محاولة نجحتْ من المرّة الأولى .

غادرت في ليلة شتائيّة باردة ، بعد أنْ كتبت رسالة مطولة لأخي أشرح فيها سبب هروبي .

حينما وصلت (ويسكونسن) مكثت لشهر في فندق لم أدفع الكثير لقاء المبيت فيه . تعرّفت بسيّدة أثناء تناول الإفطار ودبّرت لي عملاً في مطعم . منذ ذلك اليوم نسيت أنّ لي أمنية بالعمل في مجال الدّيكور ، وصرت خبيرة طهي تنقّلت منْ فندق إلى فندق ، حتّى

استقررت في فندق يدفع لي جيّدا . تعرّفت برجل أمريكيّ منْ أصول نيجيريّة ، يعمل في الفندق الذي أعمل فيه . أحببته كثيرًا ، وأحبّني هو بالمثل . كان مثلي يبحث عن شكل منْ أشكال الاستقرار ، وعن حياة تمنحه شيئًا من السّعادة . تزوّجنا وأمضينا معًا أوقاتًا جميلة ، أنجبنا عبرها ابنتنا سوزي . لكنّي لم أكن أعي أنّ أوقاتًا مثل تلك لا بد لها أنْ تنقضي . فقد أدمن على الكحول ، والمخدّرات ، وباتت حياتنا لا تطاق ، فانفصلنا . بقيت سوزي الجهة التي تذهب نحوها بوصلة قلبي ، إلى أنْ اختطفها القدر مني . أصيبت بالرّبو ، فوجدتها ذات ليلة مختنقة في فراشها . عندما ماتت شعرت برغبة كبيرة بالعودة إلى عمّان . لا أدري ما الذي حلّ بي ، فقد وجدت أنّ هوّة بي لا يمكن ردمها . فلم يشفع لي أنّي رحت أتصرّف كأمريكيّة في كلّ طباعها ومعتقداتها . ففي أحيان كثيرة تجد منْ يشير إليك بأنّك لست منْ هذه البلاد التي ما انفكّت عن الحديث عن الحريّة والإنسانيّة في العالم . رغم لباسي المتحرّر كنت كلّما تعرّف بي أحد يربطونني باسم ابن لادن . وبأنّني منْ تلك البلاد التي ما يزال أهلها يرعون الجمال ، ويعاملون المرأة كأنّها دابّة . لا أنكر أنّ هذه البلاد منحتني حرية هربت منْ بلادي سعيًا إليها ، لكنّ ثمّة هوّة باتت تقلقني .

بقيت وداد في ذلك اليوم تأخذني في رحلة بين صفحات حياتها إلى أنْ أوغلت السّاعة فيما بعد الظهر ونحن نتجوّل في الحديقة .

كان الوقت قريبًا من الغروب حيث بدأت أنوار ماديسون تتأهّب لكرنفالاتها اللّيليّة حينما تركت سيّارة وداد ، وقد كانت تنظر إليّ غير راغبة في أنْ نفترق سريعًا . قالت وهي تداري خجلاً شرقيًا لم تستطع أنْ تتخلّص منه :

- ألا تدعوني لفنجان قهوة؟

لم تنتظر إجابتي التي جاءت معتذرة عن غفلاني عنها ، فتركت سيّارتها وسبقتني نحو مصعد أخذنا نحو شقّتي . كانت تراقب ماديسون عبر النّافذة حينما أتيت بفنجاني قهوة . قالت بعد أنْ احتست منْ فنجانها ، وأشعلت سيجارتها ونفثت دخانها في الهواء :

- شعور موجع أنْ يساورني الحنين لأشخاص لا يرون بي إلا امرأة قابلة لجلب الفضيحة . في الليالي الباردة لما فيها منْ وحدة في مجتمع اكتشفت أنّه لا يمكن أنْ يقبلك بكلّ تلك السّهولة التي تتوقّعها ، وجدتني أحنّ لإخوتي . فكّرت أنْ أرفع سمّاعة الهاتف واتّصل بهم . لكنْ كيف لي أنْ أفعل ذلك ، وفي بالهم الآن أنّي تمرّدت على ما يؤمنون به ، وبالتّالي فأنا امرأة فاسقة .

أطفأت سيجارتها بتراخ ثمّ نظرت إليّ وفي عينها ملامح دموع على أهبة أنْ تسحّ على خديها :

- أنا بحاجة لمنْ يحتضنني يا سراج .

قالت ذلك ثمّ اقتربت منّي وجثت على ركبتيها قريبًا من الأريكة التي كنت أجلس فيها ، وألقت برأسها على صدري ، ثمّ راحت تبكي كطفلة خائفة . كان بكاؤها يغور في مكان مستتر فيّ ، ويرتدّ إليّ مشوبًا بالصّدى ، فأبعدتها قليلاً عن صدري ، ورحت أمسح دموعها عنْ خديها :

- أرجوك توّقفي عن البكاء .

شيئًا فشيئًا هدأت وأصابعي ما تزال تلامس وجهها ، حتّى حينما ما عادت دموعها تنهمر منْ عينيها اللتين لأوّل مرّة أرى فيهما كلّ ذلك الصّفاء . شعرت بدفء وجهها وكفّاي تحتضناه . بقيت للحظات أحدّق

بعينها إلى أنْ اقتربت وقبّلتها ، ثمّة وهج أذاب الجليد الذي جمّد كلّ عاطفتي منذ رحيلي عن عمّان . في السّرير تعرّينا سريعًا تدفعنا اللّهفة نحو العناق . وجدتني أستعيد رجولتي ، مصابًا بما يصاب به الآدميّ حينما يتوق بشدّة . من السّقف ونحن نتقلّب في السّرير ، جاءتني ملامح المشهد الذي أرى فيه ريفال تمشي في الشّارع مصابة بالأسى . تجاهلته لمرّات ، لكنّني لم أنجح . خارت قواي العاطفيّة ، وصار جسدي يتصبّب عرقًا لشدّة التّوتّر . شعرت بكره شديد لوداد ، وشعرت باختناق شديد . فطلبت منها أنْ تغادر . تفهّمت ذلك وأقفلت الباب وراءها دون أنْ تنطق بكلمة واحدة .

في صباح اليوم التّالي راجعت طبيبًا وقمت بإجراء كلّ الفحوصات الطّبيّة . لكنْ لم يكن هنالك أيّ سبب عضوي يستدعي كلّ ما يحدث لي .

بعد ذلك اللّقاء ازداد هاجسي بفشل حواسّي الخمس ، وبخوفي الشّديد عليها . صرت حذرًا بشكل بات يستغربه الجميع . إنّها المدارة حدّ الهوس المرضيّ الذي أخذ يحدّد شكل حياتي منذ ذلك اليوم .

***

مضت خمسة أعوام عليّ في ماديسون ، حصلت بعدها على الجنسيّة . وبقيت أشتغل عامل خدمات في الفندق ، أنظّف الغرف بعدما يغادرها قاطنوها . عبر تلك السّنوات كنت ألتقي بوداد دون أنْ يذوب الجبل الجليديّ بيني وبينها . كتبت لي ذات مساء رسالة اعترفت عبرها أنّها أحبّتني منذ أنْ التقينا في عمّان . قالت في رسالتها إنّ حبّها لي لم يتراجع ، رغم أنّها لم تجدني ذلك الرّجل الذي التقته ذات ليلة في عمّان . بعد شهرين منْ تلك الرّسالة ، جاءتني منها رسالة أخرى :

(سراج

ما عدت أحتمل تلك الهوّة التي ما انفكّت الوحشة القادمة منها تجلدني بسياطها . أمريكا بلاد جميلة ، وأناسها طيّبون ، وفيها ما يجعلك تستمتع بحريّتك كآدميّ لا يمكن أنْ يعيش دون هذا الماء . حظي السّيئ أنّي لم أستطع أنْ أذوب في ذلك المجتمع ، فملامحي ، وثقافتي تقف بوجه أيّ محاولة منْ ذلك النّوع . ولا أدري في الأصل هل كنت جاهزة لذلك الذّوبان أم لا . حينما رأيتك تصل هذه المدينة ، شعرت بأنّ الهوّة سوف تتلاشى ، لكنّي كلّما اقتربت منك ، رحت تنأى بعيدًا ، دون أنْ تعلم أنّ الهوّة تتّسع ، وأنّ الوحشة تتزايد . سأعود إلى عمّان ، ولن أكتفي بلعق جراحي ، بل سأرفع صوتي وأقول لا ، بوجه كلّ منْ تمتدّ يده لتخنق حريّتي . إنّها حياتي وهي حَرّيّة بأنْ أعيشها كما ينبغي .

وداعاً)

دققّت في تاريخ الرّسالة ، فوجدتها قد وصلت هاتفي منْ أيام ، دون أنْ أنتبه كعادتي . لذا كان هاتفها مغلقًا حينما اتّصلت بها . فأيقنت أنّها غادرت إلى عمّان ، لتجترح شكل حياتها التي تريد . رغم لقاءاتنا القليلة في الأيام الأخيرة إلاّ أنّ غياب وداد خلق لديّ هوّة ما ، واكتشفت أنّي أعاني ما تعاني ، فرحت أبدّد ما يتبقّى لي منْ وقت ، في القراءة ، وفي الذّهاب إلى الحديقة برفقة كتبي . بعد أنْ أتأنّق بشكل مفرط ، يصل إلى حدّ الهوس بأنّ كلّ شيء سليم بي ، وأنّ ما منْ شيء يدعو إلى النّفور . ذلك الهوس الذي استغربه طبيب أراجعه للتّيقّن منْ سلامة حواسّي الخمس . باتت حياتي روتينيّة ، وباتت ردّة فعلي حيال تلك الحالة أكثر برودًا مّما مضى ، دون أنْ أدري أنّ هنالك ما هو قادم ، وسوف يبدّل حياتي ، ويقلبها رأسًا على عقب .

الفصل الرّابع

ليلى

(أطلق بصرك في الأشياء فحتّى للانهائيّ نهاية ، يمكنك مشاهدتها ، يمكنك هناك أنْ ترى ما تريد أنْ ترى ، وأنْ تشرب عيناك ما عطشَته لسنين ، فليس كلّ ما تراه تراه ، وليس كلّ ما لا تراه عدم) .

١

ما إنْ تناقلت وسائل الإعلام اختفاء دعد سامي ، حتّى انتشر الخوف بين نساء المدينة ، فأخذ الأزواج منْ خشيتهم على نسائهم يرافقونهن إلى حيث يعملن وإلى حيث يخرجن . وأخذت العائلات تخاف حتّى على بناتها ، رغم أنّ الجميع لاحظوا أنّ النّساء اللائي اختفين متزوّجات . تناقصت المرّات التي تخرج النّساء فيها إلى الشّارع ، لقضاء الحاجات أو للتّزاور . وانطلقت شائعات في المدينة ، تضخّمت ، وأخذت أشكالاً عديدة . لكنّ الشّكل الأكثر تداوّلاً هو أنّ سفاحًا يختطف النّساء لأسباب غامضة ، ربّما تكون روحيّة . فقد تداولت بعض صفحات الفيس بوك ، وبعض المواقع الإلكترونيّة أنباء عن أنّ رجلاً يتخفّى بزيّ امرأة ، يستدرج النّساء ويختطفهنّ ، ثمّ يقوم بقتلهنّ في طقوس روحيّة ، ويستخدم دماءهن لأجل أنْ يستخرج دفائن ذهبيّة بات يسعى لأجلها الكثير في الأيام الأخيرة . إلاّ أنّ هذا السّفاح الغامض لا يتعامل إلا مع رجال الأعمال الذين يدفعون مبالغ طائلة لأجل استخدام هذا السّحر ، وبالتّالي الكشف عن الذّهب . وتحدّث البعض أنّه منذ اختفاء النّساء الثّلاث ، عثر على الذّهب في أكثر منْ موقع . وكتب شخص خبرًا في صفحته على الفيس بوك تداوله آلاف المستخدمين ، أنه رأى رجلاً يدلق دمًا في أحد المواقع المهجورة ، فكُشف الذّهب فيه . لذلك تحرّك المحقّق عدنان البادي ذات يوم ودون قناعة إلى أحد الأحياء الشّعبيّة ، حينما وردته معلومة عن

رجل له تصرّفات غريبة ، يستقبل النّساء في بيته . حينما داهموا ذلك البيت ، وجدوا رجلاً منْ جنسيّة عربيّة يعاونه آخرون ، يمارس الجنس ، بحجة أنّه جنّ مع نساء أتين لحلّ مشكلتهنّ في عدم الحمل ، ويتقاضى منهنّ مبالغ ماليّة كبيرة .

صار السّفاح شغل المدينة الشّاغل ومحور حديثها ، لهذا خرج المندوب الإعلاميّ للجهات الأمنيّة للنّاس على شاشة التّلفاز ، وقرأ بيانًا نفى فيه كلّ ما يتناقله النّاس ، وبيّن أنّ التّحقيق جار في أمر اختفاء النّساء الثّلاث . وقع المحقّق عدنان البادي في حرج كبير أمام مرؤوسيه لعدم تمكّنه منْ كشف ملابسات القضيّة . فقد ازدادت الانتقادات في الصّحف للجهود الأمنيّة ، وكثرت التّحليلات حول ظاهرة غريبة على هذا المجتمع ، لذا كثف منْ جهوده لحلّ لغز اختفاء النّساء ، وخاصّة حينما قرأ مقالة نشرتها دعد سامي عن غاليري (الحواسّ الخمس) قبل اختفائها بأيام .

وجد عدنان البادي أن اثنتين من النّساء اللواتي اختفين كنّ قد زرن غاليري (الحواسّ الخمس) منْ قبل ، وواحدة منهنّ تعمل فيه ، لهذا قرّر أنْ يزور الغاليري لعلّه يجد ما يفكّ لغز تلك القضيّة . كان قد أمضى وقتًا من التّحقيق مع أشخاص اعتقد أنّ لهم علاقة بالقضيّة مثل الشّاب الذي أمضى ليلة مع سوار في بيتها ، ومع أحد الخدم الذين استغنت عنهم في الأيام الأخيرة . لم يحقّق بشكل رسمي مع رعد عبد الجليل ، إلاّ أنّ شكوكًا قد ولدت في نفسه حيال رعد ؛ فعلاقته بكِنْدة حسب ما عرفه لم تكن على ما يرام في السّنوات الأخيرة ، إذ اعترف أنه ضربها لأكثر منْ مرّة ، وأنّه ضيّق الخناق عليها ، حينما تطاولت عليه في الكلام . لكنّ أكثر الأشخاص الذين شكّ

بهم هو زوج دعد سامي الذي أمضى وقتًا في المصحّة النّفسيّة ، وبقي يراجعه بعد خروجه منه . لكنّ نتائج التّحقيق لم تؤدِ إلى شيء ، وحتّى لم يكن هنالك أيّ رابط بين اختفاء النّساء الثّلاث ، إلاّ إذا كانت حوادث فرديّة وقعت بالصّدفة . أصيب البادي بالإحباط جرّاء شعوره بالعجز إزاء هذه القضيّة ، لكنّ الأمل عاوده منْ جديد جرّاء اكتشافه أنّ النّساء الثّلاث قد زرن الغاليري .

لم يزر عدنان البادي غاليري (الحواسّ الخمس) منْ قبل ، إنّما قرأ وسمع عنه ، ورآه عن بعد فقط ، لكنّه حينما وقف قريبًا منه ثمّ دخله انتابه شعور غير مريح ، وأحسّ بأنّ له علاقة باختفاء النّساء . فرح حينما رأى سعيد عبد الباري فتعانقا ، إذ إنه زميل قديم لسعيد في المدرسة . ازداد فرحه حينما علم أنّ المدير العام للغاليري ومالكه هو سراج عزّ الدّين . تحوّلت الزّيارة منْ مهمّة تتعلّق بقضية اختفاء النّساء إلى حديث مع سعيد ، عاد بهم إلى زمن المدرسة حيث ذكريات الأيام التي لم يقتلها إيقاع الحياة السّريع بعد . أُخذ عدنان البادي بالغاليري حينما رافقه سعيد بجولة فيه ، واستغرب منْ الفكرة التي قام عليها . أمضيا ساعة يتجوّلان في الطّوابق الخمس ، إلى أنْ وصلا مكتب سراج . كانا ينتظران أمارات المفاجأة على وجهه ، حينما يراهما . لكنّ سراجًا لم يبدِ دهشة كبيرة . صافحه بهدوء ، وملامحه ساكنة لا توحي بشيء . كان يتحدّث بكلمات قليلة ، بخلاف عدنان الذي انبرى يتحدّث عن زمن المدرسة ، وعن ذكرياتهما فيها بفرح أنار جبينه ، رغم أنّ ما منْ صداقة عميقة ربطتهما في تلك الأيام . كان سراج مستمعًا ، بينما سعيد عبد الباري وعدنان البادي قد أمضيا ساعة كاملة استذكرا فيها الكثير من الحكايات ، وضحكا كثيرًا حينما استعادا حكاية سراج

مع جعفر سليمان الطّالع ، الذي عرف عدنان البادي أنّه يدير شركة كبيرة في أمريكا .

×××

ما إنْ وصل عدنان البادي مكتبه حتّى رفع الهاتف وطلب تقارير جديدة أكثر دقّة عن النّساء اللائي اختفين . تقارير تتحدّث معلوماتها بالتّفصيل عن أيامهنّ في المدرسة والجامعة وعملهنّ ، ومنْ ثمّ حياتهن الزّوجية . ثمّ طلب تقريرًا مفصّلاً عن سراج عزّ الدّين ، يضاف إلى ما يعرفه عنه منذ أيام المدرسة . استعاد لقاءه بسعيد عبد الباري وسراج عزّ الدّين ، بينما صورة المرأة التي أقيم الغاليري على هيئتها لا تفارق مخيلته .

٢

أخذ الشّرود ريفال بعيدًا عن وقتها الذي كان يمضي وفق برنامج، كأنّه أعدّ لآلة ميكانيكية. صارت تأوي كثيرًا إلى الشّرفة، تسرّح بصرها تارة بالفراغ، وتارة بغاليري (الحواسّ الخمس)، وفي عينيها كثير من الكلمات التي لا يمكن لشيء أنْ يقولها أكثر منْ دموع لا تريد لها أنْ تهبط على وجه لاح فيه التّعب عنوة، تمامًا كما تكنس الرّيح بقايا القمح عن البيدر فتتّضح صورته.

استغنت عن أغلب الأوقات التي تمضيها خارج البيت، فقد مالت إلى العزلة والصّمت على غير عادتها. كانت وهي تراقب غاليري (الحواسّ الخمس) وأضواؤه تتفوّق على أضواء بنايات وبيوت عمّان، تفكّر بموافقة سراج على أنْ يظهر في برنامجها التلفزيونيّ (السّر). استسلمت لنداءات ذكريات تتهادى إلى قلبها منْ عمق الذاكرة. لم يحدث أنْ مرّ يوم ونسيت فيه سراجًا. لكنْ لا أحد يعلم أنّ تلك الأيام التي أمضتها بمعيّته كانت سببًا بالابتسامة التي أحبّها كلّ مشاهديها، وعشقها إثرها سليمان الطّالع. ولا أحد يدري أنّها كانت تتّكئ على تلك الأيام تسعى لكلّ نجاحاتها التي وراءها سراج عزّ الدّين، وليس ما أنفقه عليها سليمان الطّالع. أرخت بدنها على الكرسيّ وانصاعت لزمن أثّث روحها بالنّجوم وبالأغنيات.

من بوّابة الشّرفة دخل سليمان الطّالع بخطوات متلصّصة. لم تحسّ به في البدء، لكنّها حينما توغّل في خطواته نحوها، استفاقت منْ عالم

ذاكرتها، وتركته يمارس تلصّصه. لا يدري سليمان أنّ ريفال لم تحبّه قطّ، فقد كان لها محض جسر عبور ممّا تركه الفقر، وعالم الحيّ الشّعبيّ في نفسها، إلى عالم الثّراء. حينما التقته لأوّل مرّة في مؤتمر دعا إليه كلّ وسائل الإعلام، وحدّد لها موعدًا خاصًا في مكتبه دون أنْ تخبر سراجًا آنذاك، أدركت أنّ عليها أنْ تأخذ قلبها وتضعه في صندوق مليء بمكعّبات الثّلج، دون أنْ تدري أنّ هذا الثّلج لن يصمد طويلاً أمام حرارة ما في قلبها منْ ذكريات. وهذا ما حدث لها. فمنذ أنْ رأت غاليري (الحواسّ الخمس)، وعرفت أنّ مالكه سراج عزّ الدّين، شعرت بأنّها عاشت وهمًا طويلاً رافقها كلّ تلك السّنين التي كانت تتخطّى عبرها أخباره، وقد صار وجهًا معروفًا، تتناقل وسائل الإعلام أنباءه.

شعرت بلمسته باردة حينما وضع سليمان يده على يدها، بعد أنْ جلس قربها في المقعد. كانت فيما مضى تتقمّص كلّ الأدوار التي لها أنْ تجعل سليمان الطّالع يعتقد أنّها تحبّه. ما إنْ يخرج من البيت حتّى تهاتفه، تسمعه كلمات يحب أنْ يسمعها، كلمات تمتدح شبابه الذي لم تنتصر عليه السّنين، وكلمات تجعله يهدأ أمام محاولات أعدائه للنّيل منه. توصيه بصحّته وماذا عليه أنْ يأكل ويشرب، إلى أنْ يعود مساء فتكون قد استحمّت وخضبّت جسدها بعطر يجعل مسام جسدها تفوح روائح مثيرة كلّما تحرّكت. ترتدي تلك الأنواع التي يحبّها منْ قمصان النّوم، خاصّة تلك التي تشبه ما قال التّاريخ عن ثوب سالومي ذات الغلالات السّبع. يتناولان العشاء ويشربان الويسكي الذي يحبّه سليمان كثيرًا، ثمّ ترقص له. ترقص بضراوة إلى أنْ تحمرّ عيناه، وما يعود له قدرة على أنْ يصبر عن جسدها كثيرًا. تأخذه إلى السّرير، وتفعل ما يريد منْ نزواته المتطرّفة. نزوات تشي بنفسيّة معقّدة ليس من السّهل فهمها.

لكنّ ريفال استطاعت أنْ تفكّ طلاسمه النّفسيّة . تضربه في البدء برفق ، ثمّ تزداد حدّة الضّربات ، ثمّ تتركه يمارس عليها عبوديّته . فكلّما شعر بها ذليلة في الفراش ، تستشيط فيه الرّغبة ، إلى أنْ ينتشي ، فيطلق خوارًا مخيفًا يرتمي إثره في السّرير ، فينام كأنّه مغشيّ عليه . بينما تلقي ريفال بجسمها تحت زخّات الماء في الحمّام ، تستحمّ باهتمام كمن يستحمّ بعد سقوط في حفرة ماء ملوّثة . حينما تتصاعد نداءات جسدها تلوذ بنفسها ، وتشرع مخيّلتها على تلك اللّحظات التي كانت تحدث مع سراج ، تراه حاضرًا بكلّ قوّته ، يشرع أبواب رغباتها بكلّ مهارة العاشق ، فيروحان إلى علوّ شاهق من الحبّ .

حرّك سليمان يده مرة أخرى على يد ريفال :

- ما زلت ساهمة بهذا المكان الغريب ، رغم جلوسي قربك؟

التفتت إليه دون تلك القوّة في التّقمّص التي كانت تستعيرها سابقًا :

- لا حبيبي ، هو مجرّد استسلام للهدوء . ألا تلاحظ هدوء عمّان في لحظات مثل هذه؟

أشعل سيجارة وأرخى بدنه على المقعد :

- عمّان؟ عمّان لم تكن هادئة ذات يوم . قدرها أنْ تمور بالأحداث . قدرها أنْ يطعن خاصرتها الكثير ، وأنْ تكون كالقِدر التي يغلي ماؤها على نار ، مرّة تتصاعد ألسنتها ، وأخرى تخبو ، لكنّها لا تموت . عمّان توهم مَنْ يراقبها بهدوئها ، لكنّها أبدًا ليست هادئة .

نظرت ريفال إلى عينيه ، وحدّقت بذلك البريق الذي لم تره منْ قبل وهي تستغرب ما تسمع . التفت نحوها وقد اكتسبت وجهه ملامح حانية تراها للمرّة الأولى :

- انظري إلى تلك البيوت . ففي كلّ بيت حكاية ، وفي كلّ حكاية وجع . لكن أتعرفين ما يميّز عمّان عن غيرها؟ إنّها طيور الفرح التي لم تتوقّف أجنحتها يومًا عن الطّيران ، حتّى والأدخنة تتصاعد منْ بدنها . هذا ليس فقط في هذه الأيام ، إنّما منذ كلّ تلك الحضارات التي تعاقبت عليها ، لكنّ التّاريخ لا يُذكر بأمانة .

صمت سليمان الطّالع ، وراح يدخّن دون أنْ يكترث بصمت ريفال ، وأخذ يراقب غاليري (الحواسّ الخمس) ، وريفال تنظر إليه ، إلى أنْ اختفت تلك الملامح الهادئة منْ وجهه ، وحلت محلّها ملامح سليمان التي عهدتها منذ زواجها به . النّظرة الحادّة ، القسمات القاسية ، النّبرة المتعالية ، وحبّه النّرجسي . ففي حبّه لها ثمّة نبرة نرجسيّة تمقتها ريفال ، نبرة تشي برجل يرى أنّه قادر على امتلاك كلّ شيء ، دون اكتراث بإحساس ريفال بأنّها إحدى ممتلكاته ؛ إذ حدث ذات مرّة أنّه همس بأذنها وهما في السّرير (أريد أنْ أكتب اسمي على بطنك . لكنّي لا أطيق أنْ يرى جسدك أحد غيري)

قالت له بعد أنْ تنحنحت ، وعدّلت منْ جلستها :

- وافق صاحب غاليري (الحواسّ الخمس) أنْ أستضيفه في برنامجي .

عبّ نفسًا عميقًا منْ سيجارته ، وضاقت عيناه وهو يتأمّل الغاليري :

- تقصدين سراج عزّ الدّين ، زوجك السّابق .

عقدت يديها على صدرها ، وحدّقت هي الأخرى بالغاليري :

- تقصد طليقي يا سليمان . ثمّ إني في برنامجي أستضيف شخصيّات عامّة تخدم القناة .

شعر سليمان بأنّ ما كان عليه أنْ يضعف أمام هواجسه ، فله أنْ يخسر كلّ شيء إلا ريفال . هي نبتة خلوده ، إنْ غادرته سيصبح كامرأة خبّأت أثر السنين على جسدها بعمليّات التّجميل ، وحينما توقّفت عنها انهال ذلك الأثر مرّة واحدة . طوّق عنقها بيده ، وقبّلها على خدها متقمّصًا لأوّل مرّة دور الرّجل الحاني :

- بالطّبع هي شخصيّات عامّة تخدم القناة .

قال ذلك وغادر متعذّرًا بأمر عليه أنْ ينجزه . كان قد أخبر عرّافة يزورها حينما يحتاج لها بموعد قدومه . عبر الطّريق إلى العرّافة ، كان غاضبًا وحزينًا ، وكانت به رغبة عارمة بالبكاء . بقي يشعل سيجارة تلو أخرى ، ومن دواخله تطلّ عليه شخصيّتان ، واحدة تلك التي جاءت من القرية بكلّ رومانسيّتها وأحلامها ببلاد تميّزها العدالة ، وأخرى تلك التي تريد أنْ ترى اسمها على كلّ مكان تشاهده . بقيت هاتان الصورتان تتناوبان عليه ، إلى أنْ داس كوابح السّيّارة ، فصرّت صريرًا مزعجًا . نظر بوجهه في المرآة :

(لن أسمح لكَ بأنْ تلطخني بضعفك هذا . لن أسمح)

جلس في مقعده قبالة العرّافة ، وصدره لاهث ، وعيناه حزينتان ، وجسده منهك . نظر في وجهها الذي استغربه منذ أنْ رآه للوهلة الأولى . وجه مجعّد ، وحافل بأكثر منْ وشم . لها عينان فيهما من الشّراسة ما لا يصلح لامرأة .

قالت وهي تنثر بخورًا في إناء فيه بضع جمرات ، فتصاعد الدّخان في الغرفة التي لم تحظ إلا بضوء باهت يثير الوحشة في المكان :

- قلت لك في زيارتك السّابقة : إنّك ستأتي والوجع يحتلّك أكثر ممّا مضى .

نثرت مزيدًا من البخور ، وعادت تحدّثه دون أنْ تنظر في وجهه :

- مَنْ الذي قادك إليّ؟ سليمان الذي كان يركض وراء عصافير الدّوريّ في الحقل ويصطادها ثمّ يطعمها للجوعى؟ أم سليمان الذي تزداد شهوته كلّ يوم أنْ يرى اسمه على كلّ ما تراه عيناه؟

- كلاهما .

قال ذلك بصوت حزين وإحساس خاسر . وضعت يدها على جبينه وراحت بإبهامها تفركه :

- ومحظيّتك؟ ألم تدفعك للمجيء هنا؟

- ريفال؟ اكتشف هذه الأيام أنّ كلّ تلك السنين التي مضت ، ما هي إلا وهم مُعدّ بعناية .

- قلت لك سابقًا إنّ مَنْ هم مثلك عليهم أنْ لا يتمسّكوا بشيء . عليهم أنْ يكونوا كلوح صابون الميت ، ما إنْ تمسكه حتّى ينزلق . الخطورة تكمن في الرّكون إلى شيء بحدّ ذاته . حينها سوف يقتلك ، لكنّك لن تموت . مَنْ هم مثلك لا يموتون ، حتى لو أحرقوهم . مَنْ هم مثلك يتناسخون منْ بعضهم ، ولا يوقف هذا التّناسخ إلا إذا صارت الأصوات صوتًا واحدًا ، حينها لن يكون لمسمعيك قدرة على المقاومة ، ستسقط في حفرة النّسيان . انتبه يا سليمان منْ أنْ تتحدى الأصوات .

- تبصّري لي ، فقد رميت للنّاس شبكة صيد كبيرة ، سيأخذهم الطّمع ، ربّما الحلم بواقع أفضل ، وسيدلقون كلّ ما يملكون في حضني دون أنْ يعلموا . عندها إمّا أنْ تسكن أصواتهم ، وإمّا يكون السقوط .

ألقت البخور على الجمر ، وحدّقت به طويلاً ، ثمّ نظرت في عينيه :

- لا أرى شيئًا ، لكنّي أسمع أصواتًا قادمة .

٣

على غير عادته، هبط سراج منْ غرفته، فالأرق الذي أخذ ينتابه في الأيام الأخيرة حال بينه وبين النّوم. لم يجد وداد تشاهد التّلفاز كعادتها، لمحها عبر النّافذة الزّجاجيّة العريضة للصّالة، تجلس بمعيّة كنان قرب نافورة الماء الواقعة قريبًا منْ البوّابة، يتبادلان الحديث ويضحكان. شعر بشيء من عدم الارتياح، لكنّه تجاوزه بأنْ أدار شاشة التّلفاز. تقلّب بين المحطّات، فاستقرّ على واحدة كانت تبثّ أخبارًا عن خيمة المتعطّلين عن العمل. تابع الخبر باهتمام، ثمّ أغلق الشاشة وعاد إلى غرفته، بعد أنْ ألقى نظرة متفحّصة عبر النّافذة نحو وداد وكنان.

في غرفته جلس إلى البيانو، وراح يحاول أنْ يكمل عمله على الأوبيريت، لكنّه ما وجد له مزاجًا يعينه على ذلك. جلس في الشّرفة حيث كان اللّيل يتدفّق منْ وراء الجبال بغزارة، كأنّ دهّانًا خضّب الأشياء بالأسود. صور كثيرة كانت تحوم في باله كذرّات غبار تحوم في بقعة من الضّوء، في غرفة رطبة ومعتمة. صورة ريفال حينما عرفها للمرّة الأولى، وصورة لها حينما افترقا. صورة لعراكه مع جعفر سليمان الطّالع، وصورة لوالده ليلة أنْ وجدوه ميْتًا وراء طاولته. صورة لسليمان الطّالع وهو يقصّ شريطًا لمشروع خيريّ يعود لمجموعته التّجاريّة. صورة لخيمة المتعطّلين عن العمل.

غادر الشّرفة، واستلقى في سريره، وراح ينظر نحو لوحة السّقف. شعر بأنّ السّقف سينهال عليه، فنهض مذعورًا؛ إذ وجد نفسه قبالة

المرايا . أحسّ بها تتحرّك نحوه دون أنْ يرى نفسه فيها . فرك عينيه لأكثر منْ مرّة لكنّه لم يجد نفسه . اختبر حواسّه كلّها بشكل سريع ، فوجدها كما هي . حدّق عبر النّافذة ، ونظر إلى الأشياء داخل غرفته وفي الشّرفة . لكنّه حينما عاد إلى المرايا لم يجد فيها شيئًا . نظر في مرآة الحمّام فكانت النتيجة هي ذاتها . هبط إلى الصّالة ووقف أمام المرآة المعلّقة عند الباب ، فما رأى نفسه .

عبر نافذة الصّالة رأى كنان ووداد ما زالا يتبادلان الحديث . عاد إلى غرفته ورشق وجهه لأكثر منْ مرّة بالماء البارد ، وقدّر أنّ هذه حالة مؤقّتة ستزول . فكّر بشيء يجابه به أرقه ، لم يجد رغبة بأنْ يذهب خارج القصر ، ولا رغبة بأنْ يهاتف سعيد عبد الباري ، ولا أنْ ينضمّ لوداد وكنان . اختار كتابًا منْ عدّة كتب على طاولته كان قد اشتراها منْ (وسط البلد) . كان عبارة عنْ مجموعة قصصيّة لكاتبة اسمها (ليلى إياد)ضمّ الكتابُ عدّة قصص ، لكنّ قصّة فيه أخذته إلى عوالم استثنائيّة . قصة بعنوان (عصافير الحدس) ، تتحدّث عن امرأة جميلة عمياء تخرج كلّ صباح إلى حديقة بيتها ، وتطعم عصافير الدّوريّ التي تسمع زقزقاتها وهي تقف على أغصان الشّجرة . مع الأيام ألفتها العصافيرُ ، وصارت تقف على نافذتها إلى أنْ تستفيق من النّوم ، وتأخذ حبّات القمح والشّعير ، وتنثرها لها . ازداد عدد العصافير ، وصار لافتًا لكلّ مَنْ يرى منظرها ، تهبط بكثافة أسفل الشّجرة حيث تجلس المرأة وتطعمها ، وتطعم عصافير قلبها ، حيث أخذت منذ معرفتها بتلك العصافير تشعر بسعادة غامرة ، وبخروج سلس منْ عزلتها ، وصارت تغنّي للعصافير أغنيات تحكي عن شكل آخر منْ أشكال البصر غير الذي عهده النّاس ، تمجدّه ، وتدفع النّاس إلى الاعتناء به ليكون نورًا

في دروبهم حتّى يسلكونها دون عثرات .

حينما أقفل الكتاب ، ودخل الحمام وجد نفسه في المرآة كأنّ تلك الحالة لم تحدث . قرأ معلومات الكاتبة المدرجة في آخر الكتاب ، وعبر محرّك البحث (غوغل) رآها تظهر في صورة لها بملامح خجولة . امرأة أربعينيّة جاءت مع زوجها منْ خارج البلاد واستقرّت في عمّان كما جاء في سيرتها الذّاتيّة التي ليس فيها ما يلفت غير أنّها ربّة منزل . بدأت كقارئة لما ينشر في الإنترنت منْ قصص قصيرة ، ثمّ أنشأت لها مدوّنة باسم وهميّ ، وأخذت تنشر فيها قصصها القصيرة . ثمّ مؤخّراً أخذت تنشر مجموعاتها القصصيّة ورقيًا .

منْ سيرتها الذّاتية أخذ عنوان بريدها الإلكترونيّ ، وكتب لها رسالة يمتدح فيها مجموعتها القصصيّة ، وخاصّة قصّتها (عصافير الحدس) . جاء الرّد سريعًا ، تشكره على رسالته اللّطيفة . فكتب لها رسالة أخرى يحكي فيها كيف أخرجته هذه القصّة منْ مشاعر قاسية كانت تلمّ به ، وحكى لها كيف أنّ للأدب أنْ يكون ناطقاً رسميًا باسم ما يعانيه الإنسان ، ودليلاً له في دروب حياته . أعجبت ليلى إياد بحديث سراج إليها ، فاقترحت عليه أنْ ينضمّ لبرنامج للدّردشة ، يمكنهما عبره أنْ يتحدّثا كتابة ومباشرة دون اللّجوء لكتابة رسائل عبر البريد الإلكتروني . اختار سراج اسمًا وهميًا ، وأمضى بمعيّتها وقتًا امتدّ حتّى منتصف اللّيل . قبل أنْ يغادر أخبرها باسمه وعمله ، فدهشت منْ تلك الصّدفة الغريبة . أخبرته أنّها طالما تمنّت أنْ تزور غاليري (الحواسّ الخمس) لفرط ما سمعت عنه ، ولما رأته منْ غرائبيّة جميلة في الطّريقة التي بني فيها . انتهى حديثهما وقد اتّفقا أنْ يتحدّثا مرّة أخرى .

٤

ثمّة مشاعر خليطة من الدّهشة والاستغراب كانت تهاجم عدنان البادي وهو يمرّ مستقلاً سلّمًا كهربائيًا ، يمرّ عبر يدي المرأة التي شيّد غاليري (الحواسّ الخمس) على هيئتها . تَعَجَّب منْ كون مكتب سراج يقع في رأس تلك المرأة ، وتعجّب منْ كثير من الأشياء التي رآها غريبة في الغاليري . عيناه هذه المرّة كانتا عينيْ المحقّق المهموم بفكّ رموز القضيّة ، وليستا عينيْ عدنان الصّديق لسراج عزّ الدّين .

كان سراج منهمكًا بالعمل على أوراق تخصّ الغاليري ، حينما أخبرته السّكرتيرة أنّ عدنان البادي يطلب مقابلته فأذن له على الفور . استغرب عدنان منْ تلك الحيويّة التي كان سراج عليها ، بخلاف اللّقاء السّابق ، حيث كان يركن لسكونه الغريب . طلب له فنجان قهوة وجلس قبالته ، يسأله عن أحواله . لكنّ إجابات عدنان البادي كانت مقتضبة دون أنْ يدري سراج ما الذي يفكّر به زميله القديم في المدرسة .

قال عدنان وهو ينظر نحو مجسّم للغاليري وضع على طاولة سراج :

- عدد كبير من وسائل الإعلام محليًا وعربيًا وحتّى بعض الوسائل الأجنبيّة تحدّثت عن الغاليري ، وعن كونه مؤسسة غير ربحيّة ، تستقبل أطفال الإشارات الضّوئيّة ، والعميان ، وله وجهة نظر خاصّة حول العودة إلى فلسفة الطّبيعة في الغذاء والعيش . ولديكم متحف ومقهى ضخم ومسرح ، ودومًا لديكم أنشطة مهمّة . هذا شيء جميل ومبهر يا سراج .

ابتسم سراج بعد أنْ شرب منْ كأس العصير :

- سعيد أن يُعجب أحد زملاء المدرسة بما صنعت .

- تصميم الغاليري جميل ، لكنّه غريب ، وكأنك عبره تودّ أنْ تقول شيئًا .

وضع سراج ساقًا على ساق ، وعقد يديه على صدره :

- في الغرابة مساحة لا بأس بها من الجمال .

- وسمعت أيضًا أنّ حتّى قصرك فيه هذه المساحة الغريبة الجميلة .

- ننجز مخادعنا بالطّريقة التي تمنحنا الرّاحة .

شرب عدنان البادي ما تبقّى في فنجانه ، ونظر إلى سراج بعينين مبتسمتين :

- بالتّأكيد . لكنْ أخبرني : لماذا شيّدت الغاليري على هيئة امرأة تنظر إلى يديها الفارغتين؟

- لأنّي أؤمن أنّه ما منْ مدينة تتطور دون نسائها ، النّساء دلائل المدن على النّمو ، وعلى اخضرار روحها .

- لكنْ لماذا تنظر إلى يديها الفارغتين؟

- ومَنْ قال لك إنّهما فارغتان . الذي تراه فارغًا ربّما يحمل مجازًا آخر ، عليك أنْ تتأمّله جيّدًا لتراه .

نهض عدنان البادي ، ووقف قرب لوحة معلّقة في الجدار ، صمت قليلاً ، ثمّ قال دون أنْ يلتفت نحو سراج :

- من المؤكّد أنّك سمعت عن اختفاء النّساء الثّلاث .

قال سراج وهو يمسك بكأس العصير ويحركّها بين يديه :

- نعم سمعت .

- وإحدى تلك النّساء امرأة كانت تعمل هنا في الغاليري .

- نعم جاء رجالك وحقّقوا مع الموظفين .

- هل تعرفها . أقصد دعد سامي . هل التقيت بها منْ قبل؟

- أعرفها بحكم عملها هنا فقط .

ارتفعت وتيرة عدنان الصّوتيّة فجأة :

- لكنّ أحد رجالك قال إنّه رآك بمعيّتها في شارع الرّينبو .

نهض سراج وعاد ليجلس وراء طاولته ، وعلى وجهه تظهر ملامح للتّوتّر :

- إذن هذا تحقيق يا عدنان ، وليست زيارة .

- لا هذا مجرّد حديث يا سراج .

- لا . يبدو أنّك توجّه لي اتّهامًا .

- قلت لك هذا مجرّد حديث .

بنبرة غاضبة احتجّ سراج على ما يقوله عدنان البادي :

- أرفض هذا الحديث ، وإنْ أردت حديثًا حول هذا الشّأن ، اطلبني بشكل رسميّ للتّحقيق ، وتحدّث كما تشاء .

عند الباب صافح عدنان البادي سراج . وقبل أنْ يخرج التفت نحوه :

- أغلب النّساء اللّواتي اختفين زرن الغاليري . إنّها صدفة عجيبة . أليس كذلك؟

عند الباب التقى سعيد عبد الباري بعدنان البادي ، تصافحا وتبادلا تحيّات قصيرة ، ثمّ غادر عدنان . حينما دخل سعيد إلى مكتب سراج ، وجده هادئًا ومبتسمًا . أخبره عن مندوبي مجموعة سليمان

التّجاريّة الذين جاءوا يعرضون فكرة شراء الغاليري :

- ألحّوا كثيرًا وقدّموا مبلغًا خياليًا للمرّة الثّالثة ، لكنّني قلت لهم إنّ المدير العام يرفض ذلك .

قال سراج وهو يشعل سيجارة على غير عادته :

- سليمان الطّالع يريد التهام كلّ شيء يا سعيد . كنت أعرف أنّه لن يصبر طويلاً حتّى يقدّم لي مثل هذا العرض . لكنّي لن أبيع ؛ لأنّي لو فعلت سأكون قد أخليت السّاحة له .

قال سعيد ولديه شعور غير مريح لرؤية عدنان البادي في ذلك اليوم :

- ما الذي كان يفعله عدنان البادي هنا؟

- يعمل لأجل قضيّة النّساء الثّلاث اللّواتي اختفين . جاء هنا كون دعد سامي إحدى موظّفاتنا . أمر روتينيّ لا غير .

لم يكمل سراج عمله على الأوراق التي كان ينشغل بها قبل مجيء عدنان البادي . حاول أنْ يشغل نفسه بشيء آخر ، لذا بحث عن ليلى إياد في الغوغل ، وراح يقرأ ما كتبت سابقًا . أعجب بطريقتها في الكتابة ، وبتلك المواضيع التي تطرقها . وجد قصة (عصافير الحدس) منشورة في (الإنترنت) . قرأها من جديد ، وشعر بشيء يربطه بهذه القصة . حينما انتهى من القراءة فتح برنامج المحادثة وكتب رسالة لها ، لكنّها لم تكن هناك . شعر برغبة في أنْ يغادر عمله ، فأخبر السّكرتيرة بذلك وغادر .

كانت السّاعة تشارف على الحادية عشرة صباحًا حينما عبر بوابة القصر دون أنْ يجد كنان . وجد القصر وما حوله ساكنًا وقد خلا منْ أيّ أحد ، لا البستانيّ ، ولا كنان ، ولا حتّى الخادمتين اللتين يساعدان

وداد في القصر . خشي منْ مكروه ربّما يكون قد وقع لوداد ، لهذا ما كان أمامه سوى أنْ يذهب إلى غرفتها . في طريقه سمع صوتًا جعله يطمئنّ لكونها في الدّاخل ، لكنّ الصّوت كان غريبًا ، ممّا دفعه لأنْ يفتح الباب دون استئذان ، فوجد كنان بمعيّتها في السّرير . أغلق الباب ، وغادر ، وهو يسمع خطواته تحدث دويًا ، كأنّ كلّ خطوة منها بمثابة صدى لقذيفة مدفعيّة . مرّ بالحمّام الذي يقع في صالة الضّيوف ، رشق وجهه بشيء من الماء البارد ، ثمّ خرج وبقي يمشي إلى أنْ دخل الغرفة التي تقع لصق الكراج .

٥

كانت وداد تنتظر سراجًا في غرفة المعيشة ، إذ وضعت الأطباق على طاولة الطّعام ، رغم أنّه ما عاد يتناول عشاءه منذ أنْ رآها بحضن كنان . فمنذ ذلك اليوم أخذ يرتاد مطعمًا يعود منه بغير موعده . قالت وهو يصعد الدّرج متوجّهًا إلى غرفته بكسل باد في خطواته :

- سأحضّر لك العشاء .

- لا داعي .

لم يكن لدى وداد أيّ قدرة على فهم ردّة فعل سراج حيال ما رآها عليه بمعيّة كنان . هل كانتْ غيرة؟ هل كان غضبًا منْ كون ذلك يحدث في قصره؟ وإنْ لم يكن لا هذا ولا ذاك ، فأيّ المشاعر تلك التي تجعله يتّخذ منها موقفًا مثل هذا .

طلبت منه بصوت متوسّل أنْ يتحدّثا ، لكنّه لم يستجب . سمع وهو يعبر الممرّ ، صوت أطباق تتهشّم ، ثمّ تناهى لمسمعيه صدى نشيج يتوارى شيئًا فشيئًا كلّما اقترب منْ غرفته .

حينما انتهى منْ استحمامه جلس إلى البيانو وراح يعكف على تأليف الأوبيريت ، إذ وجد نفسه في عالم خارج غرفته ، بل خارج حياته كلّها . تدوس أصابعه مفاتيح البيانو بنهم كمنْ ينثر بذارًا في الحقل تارة ، وأخرى ينظر نحو السّماء الملبّدة بالغيوم . يدوّن في دفتر النوتة ما اقتنصته مخيّلته منْ جمل موسيقيّة . ويدوّن في دفتر الأغنيات كلمات وفي باله المرأة التي رآها في قصّة (عصافير الحدس) . يمشي في الغرفة ويدندن

بصوت مسموع ، ثمّ يجلس إلى البيانو ويأخذ بالعزف .

كان منشغلاً بتدوين تخطيطات للأوبيريت حينما قُرع باب غرفته الذي يعرف أنّ ما منْ أحد يقرعه غير وداد . كان وجهها وهي تقف بالباب حزينًا تفارقه تلك النّضارة التي تميّزه ، إذ بدا له وجهًا فيه كثير من أمارات الشّيخوخة والاستسلام . نهض منْ كرسيّه ومشى نحوها ، يحمل مشاعر أسى مباغتة جرّاء تلك الحالة التي رآها عليها . ودّ لو يشرع ذراعيه ويحتضنها بعمق . حينها كانت ستبكي بمرارة . هو يعرف ذلك ، ويعرف شكل الحزن الذي يستبيح قلبها منذ أنْ وجدت الطّريق مغلقة إليه . لكنّ صوتًا آخر فيه ، كان يأتيه قاسيًا ، ينهاه عمّا يريد ، كأنّه يتلذّذ بتعذيبها ، وفي الوقت نفسه لا يوغل بذلك . أحسّ بنفسه مرتبكًا ، ويعاني عراكًا داخليًا مريرًا وهو يقف قريبًا منها بالباب .

أخبرته بأنّ المحقّق عدنان البادي يريد مقابلته ، ثمّ غادرت وهي تفرك يديها ببعضهما .

حينما هبط إلى صالة الضّيوف ، كان عدنان البادي يتنقّل بين اللّوحات التي علّقت على الجدران ، وينظر إليها بتعمّق .

- لا أرى لك لوحات . هل أقلعت عن الرسم؟

تساءل عدنان البادي بعد أنْ صافح سراجًا ، ثمّ جلسا في أريكتين تقابلان نافذة زجاجيّة عريضة تطلّ على الجهة الجنوبيّة للقصر . قال سراج مستغربًا زيارة المحقّق :

- ربّما أعود للرّسم ذات يوم .

- قصرك جميل سيّد سراج . هل لك أنْ تأخذني بجولة فيه؟

- منْ يريد أنْ يتجوّل في القصر؟ عدنان المحقّق أم عدنان زميل المدرسة؟

- المحقق .

قال عدنان ذلك ثمّ مدّ يده نحو سراج ، يقدّم له إذنًا بالتفتيش . فأخذه يطلعه على أرجاء القصر ، إلى أنْ وصلا الممرّ الذي تقع فيه الغرف السّتّ . تردّد سراج في أنْ يسمح لعدنان بالدّخول إليها ، إلا أنّه لم يجد مناصًا منْ ذلك . استغرب عدنان البادي ممّا رآه في تلك الغرف . راقب كلّ شيء بدهشة واستغراب شديدين ، وحملق بوجه سراج كأنّه يحاول أنْ يجد رابطًا ما بين ما يراه منْ الخزائن وما فيها . لم يوجّه أيّ سؤال له ، بل غادر مكتفيًا باعتذار على اقتحام وقته الخاصّ ، بينما بقي سراج يراقب سيّارته عبر نافذة غرفة نومه ، إلى أنْ توارت تمامًا .

كانت أضواء عمّان في تلك الليلة ساطعة أكثر منْ ذي قبل ، فالأفق صاف وخال من الغيوم ، تناقصت منه حدّة أدخنة العربات والمصانع . بقي سراج لدقائق يقف بالنّافذة ، ويعاين أشياء بعيدة في مرمى بصره ، وأخرى في ذاكرته .

ترك النّافذة واستلقى في الأريكة ، فاستعاد مشاهد خاطفة منْ طفولته ، وشعر بحنين لأحمد ، إذ راح يقلّب دفتر ذاكرته الذي رأى أحمد في صفحاته وكأنّ يدًا خلطت تلك الأوراق . فكّر أنْ يهاتفه ، لكنّه قدّر أنّه نائم في تلك السّاعة ، فلم يفعل .

فتح كتاب ليلى إياد ، ثمّ أخذ يقرأ فيه قصّة جديدة ، ما إنْ انتهى منها حتّى استخدم حاسوبه النّقّال ، وأشرع نافذة برنامج الدّردشة وكتب لها :

- ما زالت (عصافير الحدس) تأخذني إلى عالمها .

- أنت عالم بحدّ ذاته ، فكيف لقصّة متواضعة مثل هذه أن تأخذك؟

- لا أدري ما السّر في هذه القصّة . كلّ الذي أعرفه أنّي تعلّقت بها جدًا ، وأنّي رأيتك عبر كلماتها .

- يقولون الكلمات مرايا .

- نعم مرايا ، لهذا يلوذ البعض بالصّمت حتّى لا يُفضحوا .

- وهل أنت متوار عن الأنظار لهذا السّبب؟

- ربّما .

- لأوّل مرّة أسترسل في الحديث مع رجل عبر برامج الدّردشة .

- ولماذا؟

- ظرف خاصّ .

- هل لي أنْ أعرفه؟ . ربّما يبدو طلبًا غريبًا منْ رجل لا تعرفينه .

- على العكس ليس غريبًا . الأجمل في الأمر أنّنا لا نعرف بعضنا . لهذا سأخبرك بالحكاية .

- ها أنا أنصت لك عبر كلماتك .

- قطنت هذه المدينة حينما تزوّجت برجل يعمل في مجال (حقوق الإنسان) . هذا المجال الذي كان السّبب المباشر في تفاؤلي بحياة مرنة معه . لكنّ ذلك جاء خلافًا لتوقّعاتي ، إذ وجدت أنّه منْ ذلك النّوع الذي لا يتيح مستوى من الحريّة في الخروج ، وارتياد الأماكن العامّة ، والاختلاط بالرّجال . كان هذا أوّل فرمان وجّهه لي ليلة الدّخلة ؛ إذ وجدتني أفكّر بنتائجه في اللّحظة نفسها التي فضّ فيها بكّارتي ونام . لذا أيقنت أنّي سأقاسي الكثير في حياتي ، خاصّة مع افتقاري للجرأة على قرار الانفصال في مجتمع يرفض المرأة المطلقة ، ويلفظها . حينما شعرت بأنّي سجينة جدران أربعة في غيابه ، طلبت منه أنْ يحقّق رغبتي بالعمل فلم يوافق ، ولم يتح لي مجالاً للحديث في هذا الأمر مرّة ثانية .

عندما كان يستبدّ بي الملل، يأخذني بمعيّته إلى مطعم، أو متنزّه أو زيارة للأقارب. يحدث هذا مرّة، أو مرّتين في الشّهر، دون أنْ أحسّ بالمتعة التي تتحقّق للواحد منّا في ظروف مثل هذه. يخرج إلى عمله في الصّباح الباكر، ويعود ما بعد غياب الشّمس. هذا في الأوقات التي يكون فيها داخل البلاد؛ إذ إنّه كثير السّفر لما تتطلّب مهنته منْ تجوال دوليّ. كنت أنتظر عودته حينما يسافر، بفارغ الصّبر لما يتراكم حولي منْ رتابة وملل كبيرين. مع الأيام تشكّل بيننا ذلك النّوع من الحبّ الذي تؤدّي إليه بعض الزيجات. لكنّه ليس الحبّ المحاط بنوع استثنائيّ من الشّغف. يمكنك أنْ تقول إنّه حبّ الاعتياد. مع انقضاء العام الأوّل منْ زواجنا أخذ يقلقني أنّنا لم نرزق بأبناء. كنت أعوّل على الأطفال أنْ يخلقوا إيقاعًا جديدًا في حياتي. اعتقدت أنّ السّبب عارض صحيّ لديّ، لكنّ الفحوصات الطّبيّة أظهرت أنّ زوجي لا يمكنه أنْ ينجب. آلمتني هذه الحقيقة كثيرًا، إذ أدركت أنّي سأكون وحيدة بمواجهة بيت أمضي فيه أكثر من نصف يومي صامتة، والنّصف الآخر أمضيه بمعيّة رجل لا يتحدّث كثيرًا. رجل فقدت معه كلّ أشكال المتعة الجنسيّة والعاطفيّة، ومتعة الألفة بسبب غيرته الشّديدة، وتحجيمه لكلّ تحرّكاتي التي لا تكون في الأصل إلا بمعيّته إنْ غادرنا البيت. في السّرير أقدّم له جسدي حصّة طازجة يأخذ منها ما يشبعه ثمّ ينام. وفي عزلتي كنت أحسّ بأنّني عمياء لا أرى شيئًا، تمامًا كما كنت أحسّ قبل زوَاجي. عشت طفولتي في بيت لم تتح لي فيه كلّ تلك الحريّة التي تصوغ شخصيّتي. وبعد أنْ غادرته اكتشفت أنّي أودعت سجنًا جديدًا مزوّدًا بأثاث، وأدوات كهربائيّة، وزوج يعتقد أنّي إذا ما نظر إليّ رجل سأفرج ساقيّ له على الفور.

ضقت ذرعًا بحالي، فطلبت منه أنْ يشتري لي حاسوبًا نقّالاً ويزوّده بالإنترنت، بعد أنْ شاهدت في التّلفاز برامج تشيد بهذه التّقنية. كنت أعي أنّه لن يوافق على ما أردت، لكنّه فاجأني بأنْ حقّق لي ما أريد. كانت هذه الخطوة بمثابة نافذة أطلّت منْ غرفتي المملّة على عالم مليء بالنّاس وبالحركة والحيويّة. في كلّ يوم كنت اختار دولة وأبحر نحوها، عبر الصّور والأفلام وما كتب عنها. أمارس شغفي بسفر طالما تمنيته، وها هو يتحقّق لي بشكل آخر. لقد كان ذلك الإبحار شكلاً منْ أشكال رفضي للسّجن من دون أنْ أدري. أمضيت عامًا زرت فيه كلّ البلدان عبر تلك الشّاشة السّحريّة. شممت روائح الأشجار في الغابات. لامست مياه الأنهار. مشيت عارية على الشّواطئ. مارست رقصات لم أسمع عنها منْ قبل. غنّيت بجسارة مَنْ يحتاج الغناء. مشيت في أزقّة وشوارع ومدن مزدحمة. التقيت بأناس ألمتهم الحياة، وآخرين يطاردون الفرح. كلّ ذلك كان يحدث وأنا جالسة وراء شاشة كان لها الفضل بأنْ تحرّرني منْ سجني. تعلّمت الطّباعة عبر هذا الحاسوب، فرُحت أدوّن انطباعاتي حول تلك البلدان التي زرتها افتراضيًا. اكتشفت فيما بعد أنّي أكتب سيرة تلك الأمكنة من زاوية جديدة. أغراني ذلك بالقراءة، فرحت من دون حاجتي لاقتناء كتب ورقية أقرأ إلكترونيًا. وجدت ملايين من الكتب والمخطوطات والمقالات والأبحاث. كان أول اختياراتي رواية، أخذتني فيما بعد إلى عوالم الحكايات. ما إنْ أنهي كتابًا حتّى أبدأ بقراءة غيره. بعد زمن شعرت بأنّ عليّ أنْ أعبّر عن حياتي، وأنْ أذهب إلى شكل جديد منْ أشكال الخروج منْ عزلتي، ومنْ رفضي لما أعيشه، ما دمت غير قادرة على أنْ أغادر هذا الواقع الموجع. فما كان هنالك منْ

فضاء قادر على أنْ يمنحني حريّتي أكثر من الكتابة . رحت أمضي جلّ وقتي في كتابة القصص ، ومع تقادم الأيام صار عندي عدد لا بأس به منها . فتوقّفت مؤقّتًا عنها وأنشأت مدوّنة باسم وهميّ ، ورحت أنشر فيها ما كتبت . شيئًا فشيئًا أخذ عدد متابعي المدوّنة يزداد ، وكنت أجد بينهم أسماء لكتّاب لهم حضورهم في السّاحة الثّقافيّة . حينها رحت أتواصل مع بعضهم لأستنير بآرائهم حول ما أكتب ، وكيف لي أنْ أجد الطّريق إلى ناشر يتبنّى تلك الكتابات ، لكنّي اكتشفت أنّ ما أسعى إليه لن يأتي بسهولة ، خاصّة حينما راودني ناشر عن نفسي . لهذا أقلعت عن التّواصل مع الجميع ، واكتفيت بنشر قصصي في مدوّنتي التي صارت شهيرة دون أنْ يعلم أحد أنّها تعود لي أنا ليلى إياد . لاحظ زوجي أنّي بتّ أمضي كثيرًا منْ وقتي وراء شاشة الحاسوب ، لهذا صار يمتعض منْ ذلك ، فرحت أطلعه على ما أكتب ، حتّى إنّي أخبرته أنّ لي مدوّنة أنشر فيها قصصي . جنّ جنونه ممّا فعلت ، وأمرني أنْ أتخلّص من الحاسوب ، لكنّه تراجع عن قراره هذا حينما علم أنّ المدوّنة باسم وهميّ لا يعرّف عليّ . مع الأيام صرت متمكّنة أكثر من الكتابة ، لفرط ما قرأت ولما كتبت بشكلّ يوميّ . تعرّفت بناشر جديد عبر مدونتي ، وألحّ عليّ كثيرًا أنْ أنشر قصصي في كتاب ، وهذا تطلّب مني الكثير من الإقناع والإلحاح إلى أنْ وافق زوجي ، لكنّ موافقته كانت مشروطة ، فلا حفل توقيع ، ولا علاقات بالكتّاب . هذا يعني كاتبة مع وقف التّنفيذ .

***

بعد تلك اللّيلة التي أخبرت فيها ليلى إياد سراجًا بحكايتها تبادلا أرقام الهاتف ، وصارا يتحدّثان بشكل يوميّ في الأوقات التي يغيب

فيها زوجها في عمله . أعجبا ببعضهما ، ثمّ تحوّل هذا الإعجاب إلى حبّ لوّن حياتها ، وصار لها سماء تأخذها برفق منْ عالم عزلتها القاسي ، ومنْ تلك الحياة التي تفتقد فيها لأيّ شكل منْ أشكال المتعة . وجد سراج أنّ في تلك المرأة ما يأخذه إليها بكلّ شغف ، ووجدها امرأة بكر . كانت حينما تتحدّث ينصت لها باهتمام كبير ، يتفكّر في كلّ كلمة تقولها ، وفي كلّ اعتراف تدلي به . فقد اعترفت له بما لم تبح به لأحد ، كأنّه ظلّها الذي يرافقها منذ سنين طويلة . أخبرته أنّها لم تكن ترى رجالاً إلا إخوتها وبعض أقاربها ، ومنْ تراهم خلسة عبر النّافذة . حينما كانت تلوذ بغرفتها ، وتستسلم لمخيّلتها تفرّ منها سريعًا . تخشى منْ أنْ يتسلّل أحد منْ إخوتها إلى مخيّلتها ويكتشف ما تفكّر به . حينما كانت تدخل لتستحم لا تطيل النّظر كثيرًا إلى جسدها الأبيض المصقول ، ولا تمضي كثيرًا من الوقت في الاستحمام . فما إنْ تحسّ بدبيب الرّغبة يتهادى منْ قصيّ الجسد ، حتّى ترتدي ملابسها وتهرب منْ تلك الأحاسيس . حتّى العطر كانت تخشاه ، فإنْ أسرفت به سئلت عن السّبب ، وإنْ استخدمت القليل منه رأت رجلاً يجيء منْ مخيّلتها ويمسك بيدها فتداهمها الرّجفة . ذات مرّة رأت رجلاً في المنام لم تره منْ قبل . أمسك بيدها ، وداعب شعرها بحنوّ ، ونظر في عينيها طويلاً ، ثمّ قبّلها عدّة قبلات دافئة . همس لها بكلمات حارّة ، ثمّ بقي يضمّها إليه ، إلى أنْ انتشيا . حينما استفاقت من النّوم أخذت تبكي مذعورة ، ومصابة باللّذة في الوقت نفسه . خافت على عذريّتها ، وخافت منْ أنْ يظهر شيء على وجهها يشي بما حدث ، فتكون الكارثة . لم تجرؤ أنْ تنظر بين قدميها لتطمئنّ على عذريّتها ، فأخبرت أمّها بذلك . ضحكت الأمّ وهي تشعر بنصر

خفيّ بأنّ ابنتها لا تعلم شيئًا ، وربتّت على كتفها (لا تخافي ، لم يحدث شيء . إياك أنْ يتكرّر هذا الأمر) . لكنّ هذا الأمر صار يتكرّر كثيرًا ، وما عادت ليلى تخبر أمّها بما حدث . باتت تنتظر ذلك الرّجل يزورها في المنام . حفظت ملامحه ، قسمات وجهه ، شكل عينيه ، لمسة يده ، نبرة صوته ، وهمسه الآسر . حينما لا يأتي تشعر بحزن كبير ، فتبدو عصبيّة المزاج . وعندما يزورها ، تبدأ صباحها بفرح ، فتغنّي بصوت خفيض فيه شيء منْ الخوف ، وهي تقوم بشؤون المنزل وقد غادر إخوتها وأبوها إلى العمل ، بينما تمضي أمّها وقتًا مع الجارات ، تقلّب بمعيّتهنّ دفاتر النّميمة ، وأخبار نساء الحيّ .

أسرّت لسراج أنّها حينما رأت صورته ، تأكّدت منْ أنّ ذلك الرّجل الذي بقي حتّى بعد أنْ تزوّجت يزورها في المنام هو نفسه سراج .

٦

افتقد كنان تلك اللّحظات التي كان فيها سراج يتوقّف عند البوّابة يطمئنّ عليه ، وأحسّ بحنين للمرّات التي كان فيها يهبط منْ قصره ، ويمرّ بغرفته ، ويمضيان وقتًا يتحدّثان فيه عن الفنّ والأدب ، وما قرأه كنان منْ كتب أهداها سراج له . كان قد فكّر بذلك وهو يخلّف القصر وراءه ، بعد أنْ طلب منْ وداد أنْ تخبر سيّد القصر أنّه بحاجة لزيارة أهله . في الحقيقة هو فرّ منْ تأنيب الضّمير الذي ما انفكّ يهاجمه ، فقد رأى أنّ سراجًا يحبّ وداد دون أنْ يدري . لن ينسى ذلك الرّعب الخليط بالأسى ، والذي دبّ في عينيه حينما فتح الباب ووجده بمعيّة وداد . شعر كنان لحظتها بأنّه عضّ اليد التي امتدّت إليه . فقد انتشله سراج منْ قعر بئر مظلمة ورطبة ، وجعله يحسّ بدفء الحياة . رأى النّور حينما دفعه إلى القراءة ، وجعله لا يستغني عنها ، كما لا يستغني آدمي عن الماء . فما إنْ أصبح القصر جاهزًا للسّكنى -حيث كان كنان قد عيّن حارسًا له وهو قيد الإنشاء- حتّى أخذ سراج يمضي معه شيئًا منْ وقته في اللّيل يحدّثه عن القراءة والكتابة ، ويدلّه إلى سبلها إلى أنْ أصبح متمكّنًا منها . وفيما بعد راح يعوّده على القراءة عبر خطوات منظّمة كأنّه يأخذ طفلاً بهوادة إلى عالمه الجديد . إلى أنْ أيقن أنّ كنان قادر على قراءة الكتب ، وفهمها دون مساعدته التي لا يطلبها إلاّ في أوقات قليلة . جعلته القراءة يشكّل وجهة نظر خاصّة عن الحياة ، وعمّا حوله ، لهذا ما رأى كنان إلاّ الهروب بعيدًا عن سراج كونه سبّب له

ذلك الجرح ، ومنْ وداد التي ما كان في حياتها إلا محض نزوة عابرة . فالذي حدث أنها زارته ليلاً لما شعرت به منْ ملل وسأم كبيرين . جلسا في مقعدين في الحديقة قرب نافورة تقع لصق البوّابة الرّئيسيّة للقصر . كانا يتحدّثان عمّا قرآه منْ كتب . وكانت وداد تعاني تلك الفترة التي تسبق الدّورة الشّهريّة ، حيث يتوق جسدها لأصابع تفجّر ما فيه منْ رغبات كامنة ، أشاح سراج بصره طويلاً عنها .

افترقا تلك اللّيلة ووداد تقاسي نداءات جسدها ، إلاّ أنّها لم تصمد أمامها في الصّباح ؛ إذ هاتفت كنان تطلبه أنْ يساعدها على حمل بعض الأغراض الثّقيلة منْ غرفتها . حينما أقفلت الباب وراءها ، وتعرّت منْ ملابسها ، لم يستطع كنان أنْ يقاوم أنفاسها الحارّة وهي تلفح وجهه . لكنّ حرارة ما رأى في عينيْ سراج ، كانت أكثر إيلامًا له منْ تلك المتعة التي عاشها مع وداد التي طالما قبل أنْ يلتقيها قد رافقت خيالاته اللّيلة وهو يستعيد كلماتها ، ومشيتها ، فينتفض كالحصان في سريره الواقع قرب النّافذة المطلّة على القصر .

***

عند أوّل الحيّ - حيث حطّ اللّيل حمولته على الأشياء ، وفي مقهى بني على الرّصيف من الصّفيح والأعمدة الحديديّة - شاهد كنان مجموعة من الشّباب ، يتابعون باهتمام عبر شاشة التّلفاز أخبارًا عن خيمة المتعطّلين عن العمل . وقف خلفهم لبعض الوقت ، وشاهد منْ وراء أكتافهم شيئًا ممّا يتابعونه ، ثمّ مضى وقد ابتلعه الزّقاق الضّيّق الذي تطلّ منه أبواب البيوت المتراصّة ، والنّوافذ الهابطة ، وعتبات البيوت التي استقرّت عليها الأحذية ، وصناديق معدنيّة ملأى بالقمامة . ليس في أوّل الزّقاق منْ أحد سوى أصوات تأتي من

البيوت . أصوات مسلسلات تبثّ على شاشات التّلفاز . صوت راديو يبثّ قراءة للقرآن الكريم . أغنيات راقصة . أصوات أطفال تأتي متفاوتة وهم يلاحقون بعضهم . أصوات نساء تتوسّل الأطفال أنْ يكفّوا عن الضّجيج . أصوات عاتبة . أصوات شاكية . أصوات ضاحكة . وصوت يئنّ وجعًا . وعبر مسيره نحو بيته كانت الرّوائح تأتي هي الأخرى كأنّها تذكّره بالمكان الذي يغيب عنه لأسبوع . روائح بصل مقليّ . ثوم مقليّ . روائح عطور رخيصة . روائح تأتي منْ رطوبة الزّقاق . وروائح قمامة . حينما انحنى إلى اليمين حيث اقترب منْ بيته ، اتّسع الزّقاق قليلاً واتّسعت العتمة فيه . ثمّة شبّان يفترشون الأرض ويدخّنون الحشيش . بأيديهم سيجارة واحدة ، يتناوبون عليها . انفلت شابّ نحو كنان يحمل بيده سكّينًا ، ويرفعها في وجهه ، لكنْ ما إنْ عرف أنّه ابن (القبضايْ) حتّى تراجع معتذرًا بصوتٍ خائف . ولد القبضايْ في الحيّ الشّعبيّ نفسه الذي يقطنه كنان لعائلة فقيرة لا تكاد تؤمّن قوت أفرادها ليوم . لم يذهب إلى المدرسة ، بل تلقّفته عوالم الحيّ اللّيليّة الحافلة بالمخدّرات ، والبطش ، وهو في عمر مبكّر . حلّ محلّ طفولته وعوالمها ، ما تعلّمه من الزّقاق منْ قدرة على استعمال الشّفرات والسّكاكين وقتال الشّوارع . تعاطى الكحول والمخدّرات في عمر مبكّر ، فاستأصل أسيادُ الأزقّة الخوف منْ قلبه إلى أنْ صار سيّدًا عليهم ، حينما تعارك مع سبعة منهم وهزمهم مرّة واحدة في معركة ضارية ذاع صيتها . معركة سالت فيها الدّماء وتشوّهت فيها الوجوه . أصبح القبضايْ كبيرًا للحيّ ، حوله معاونون يحملون أسلحة رشّاشة ، ويركبون سيّارات ذات دفع رباعيّ . يفرض القبضايْ (الإتاوات) على مَنْ لهم تجارة ، ويعيد الحقوق لأصحابها بأجر . سنّ قانونًا خاصًا له . ومَنْ يخالفه منْ

معاونيه يقتل . في البدء عمل في السّطو والسّرقة ، لكنّه فيما بعد تخلّى عن تلك المهمّات ، وبات يعمل لصالح رجال أعمال ، يعيد حقوقهم تحت تهديد السّلاح ، وتحت التّهديد بأكثر منْ شكل ووسيلة ، كأنْ ينصبوا لأحدهم إحدى الفتيات ويقوموا بتصويره وهو معها في السّرير . حتّى إنّ مهمّاتهم تلك قد وصلت إلى تصفية أشخاص جسديًا . تحوّل القبضايْ إلى شخص ثريّ ، وصاحب سلطة في الحيّ الذي يقطنه وفي الأحياء المجاورة ، حتّى إنّه صار كبيرًا (للجاهات) في طلب العرائس ، وفي الحوادث التي تتطلّب مصالحات ، وفي أمور كثيرة مثل هذه . عمل أولاده معه ، إلاّ كنان الذي كان صغير السّن آنذاك . أصبح القبضايْ المطلوب رقم واحد للجهات الأمنيّة ، لهذا صار يتحرّك بحذر وخفية شديدين . تعرّض لمحاولة تصفية منْ أكثر منْ عصابة مشابهة للعصابة التي يرأسها ، وخسر ما ادّخره منْ مال فجأة ، دون أنْ يعلم أحد كيف حدث ذلك . اختفى عن الأنظار ، واستمرّ غيابه لعامين . اعتقدت عائلته ، وأفراد عصابته أنّه مات ، إلى أنْ ظهر ذات يوم على الشّاشة التّلفاز كأحد قيادات الجماعات المتطرّفة التي عملت خارج البلاد . في غياب القبضايْ قتل أحد أشقّاء كنان على يد أحد أفراد العصابات ، وأودع الثّاني السّجن ، وتوفيت والدته . وما تبقّى من العائلة غير كنان .

حينما دفع كنان الباب ودخل هجمت عليه الوحشة والذّكريات ، وصارت له كسرير من الشّوك يتقلّب فيه . حينها قرّر أنْ يأوي إلى النّوم . في فراشه استعاد حكايته مع سراج ، واستعاد ما حدث بينه وبين وداد ، فوجد أنّه يحبّها رغم أنّه وجد نفسه محض رجل عابر للسّرير في لحظة دفعت بها نزوة سريعة . لكنّه قرّر أنْ يكفّ عن حبّها ،

وحتّى عن تلك الكلمات التي يدوّنها في دفتره لأجلها ؛ لأنّه رأى أنّ سراجًا يحبّها ، لهذا رأى ما رأى منْ حزن ، ودهشة في عينيه عندما رآهما في السّرير .

تقلّب في فراشه ، لكنه لم يستطع أنْ ينام رغم محاولاته الكثيرة ؛ إذ شعر بأنّه غريب عن الحيّ . أقفل البيت وقرّر العودة إلى القصر ، بعد أنْ أطفأ إنارات بيته ، وفيه إحساس يشير إلى أنّه لن يعود إليه مرّة ثانية .

٧

على طرف الشّارع ، وفي ظلال الأشجار التي غُرست على جانبيه كجنود يحرسون الطّريق ، التقى سراج بصائد الثّعالب . رآه مبتسمًا وهو يخرج منْ سيّارته التي قبل أنْ يسكت محركُّها ، أنّت أنينًا يشبه صوت بعير لفظ أنفاسه الأخيرة . وضع صندوق الثّعلب في سيّارة سراج ، وجلس بجواره ثمّ أغلق الباب وراءه دون أنْ ينتبها إلى أنّ عدنان البادي يراقبهما .

قال والابتسامة ما تزال تنير وجهه الذي تركت الشّمس فيه آثارها ، بعد سنين من الرّعي ، والرّحيل إلى حيث يكون العشب في جبال لم يغزوها الإسمنت بعد :

- ما سأقبضه منك اليوم سيكمل الدّفعة الأولى من الشّقة التي سأشتريها . أخيرًا سيكون لي بيت يا سيّدي .

ناوله سراج ثمّن الثّعلب وهو يؤازر ما طفق في وجه الرّجل من فرح ، بابتسامة عريضة . قال صائد الثّعالب بصوت ممتنّ :

- اعلم يا سيّدي أنّ الثّعالب لا تساوي شيئاً . لكنّي لا أدري لماذا تمنحني هذا المبلغ .

بقي سراج صامتًا ، يستغرق في نوتة موسيقيّة خطرت بباله ، وبكلمات أخذت مكانها في طيف الأوبيريت الذي كلّما اكتمل جزء منه أفرغه على الورق .

- أتدري لماذا قبلت بهذا المبلغ يا سيّدي؟

قال صائد الثّعالب وهو ينظر إلى الشّارع العريض ، والسيارات تعبره مسرعة كأنّ حدثًا في البعيد يتدافع النّاس إليه ، ثمّ أضاف بعد أنْ عضّ على شفتيه ، يكابد وجعًا يجيء صداه منْ ذاكرته المتعبة :

– لم أجد بك تلك النّظرة التي فيها سهام المنّة السّامّة . ذات مرة ، وحينما كنت أجوب أحياء (عبدون) أفتّش في حاويات قمامتها ، عمّا يصلح لواحد مثلي ما عاد ذلك البدويّ الذي كانت الصحراء بيته الكبير ، نادى عليّ رجل يرتدي (روب) وبيجامة ، وفي فمه سيجارة ، وهو يخرج منْ بوابّة بيته الفاخر . أعطاني كيسًا ، حينما فتحته وجدت خبزًا متعفّنًا فيه ، فاحتججت على ذلك بأنْ أعدته له . قال لي وعلى وجهه ضحكة صفراء ، وأمارات اشمئزاز :

– كانت الكلاب تشارككم طعامكم أيّها البدويّ ، والآن تتكبّرون على النّعمة؟

دون أنْ أعي وجدت يدي تتحسّس كتفي ، كأنّ بندقيّتي ما تزال معلّقة هناك . كنت لحظتها سأرديه قتيلاً ؛ لأنّ رصاصات لسانه أصابت منّي مقتلاً ما يزال ينزف حتّى هذه اللّحظة .

ربّت سراج على كتف صائد الثّعالب وهو يغادر السّيّارة ؛ إذ أمضى دقائق حتّى نجح في أنْ يدير محرّك سيّارته البك آب القديمة ، فانطلقت تتقافز على الطّريق وتتأرجح كأنّها ستنقلب .

***

حينما وصل سراج مكانه المعتاد في المنحدر كانت الشّمس ما تزال في طرف السّماء مصرّة على مهمتها ، وكأنّها تريد أنْ تعفي الأشياء من اللّيل ، فألقت اصفرارها الذّهبي على رؤوس الجبال ، فبدت أكثر ألفة . أخرج صندوق الثّعلب ، ووضعه على الصّخرة ذاتها ، ثمّ

التقط بندقيّته، وجهّز رصاصتها للانطلاق. كان يعلم أنّ الثّعالب ترتاح لليل فتتحرّك فيه كما تشاء. حدث أنْ رأى أيام طفولته ثعلبًا في النّهار بذيله الطّويل، ووجهه المدبّب، وعينيه الماكرتين. لكنّ الخوف كان يقبع في قوائمه ويديه التي تلد كلّ تلك السّرعة. فتح مكانًا ضيّقًا في الصّندوق، ثمّ توقّف، ووضع بندقيّته أرضًا وعاد إلى السّيّارة، إذ أدار مسجّلتها حيث جاء منها عزف منفرد لـ(تشيللو). افترش التّراب، وفتح زجاجة ويسكي وشرب منها قليلاً، ثمّ أشعل سيجارة، وراح يدخّن وهو ينصت للموسيقى كيف تتبختر بين الجبال كمن يراجع دفاتر أساه. كانت عينا الثعلب تطلاّن عبر فتحة الصّندوق، وفيهما ترقّب وخوف كبيران. وكان سراج يرصد أثر الموسيقى عليه، حينما رآه يتلفّت مرتبكًا. رفع منْ مستوى الصّوت، لكن ما منْ شيء تغيّر، كما لو أنّه ما كان ذلك الحيوان الذي يفرّ لأدنى حركة تحدث. أخذ يتأمّل ما يظهر منْ وجهه، محاولاً أنْ يقرأ ما في عينيه، وهو يتحسّس البندقيّة. فكّر أنْ يصوّب رصاصة إلى جبينه، لكنّه أقلع عن الفكرة. فجلّ ما يريده هو قتله طليقًا. أخذ يطلق النّار قربه، بينما خوف الثّعلب يزداد، حيث بقيت يداه تضربان جهتي الصّندوق، إلى أنْ فرّ من الفتحة، وقفز صاعدًا الجبل، وسراج يكتشف للمرّة الأولى كيف للثّعالب أنْ تهرب حتّى من الفتحات الضيّقة. منْ وراء صخرة كبيرة كان عدنان البادي يراقب ما يحدث باستغراب شديد، بينما صعد سراج الصّخرة، وراح يصرخ بالثّعلب:

- أهرب كما تشاء، لكنّك لا تعلم أنّه كلّما استطالت يدك ستتضاءل المسافات أمامك. لا جهات فيها ملاجئ لك، ضحاياك في كلّ زاوية. ستجدهم أينما وليت وجهك. هم الآن كمن يعاني ضربة

هراوة في الرّأس يعانون الدّوار . الدّوار الذي سيزول ، حينها سيكون زوالك .

***

كان سراج ثملاً حينما عبر البوّابة ، وأوقف السّيّارة قريبًا منْ كنان . حدّق به بعينين محمرّتين ، بينما صوت التّشيللو القادم منْ مسجّلة السّيّارة ما يزال يُعزَف . كانت نظرة غامضة ، لكنّ كنان رأى فيها طيور الأسى تحلّق في حدقتيه اللتين كانتا كبحر تهوي فيه شمس داكنة الاحمرار . اندفعت السّيّارة في طريقها نحو الكراج ، حيث توقّفت ، فتركها وغاب لنصف ساعة في غرفة تلاصقه . كانت وداد تراقبه عبر النّافذة وهو يتطوّح ثملاً على غير عادته . هي تعرف أنّه سيخرج منْ تلك الغرفة هادئًا كطفل بكى كثيرًا على صدر أمّه ثمّ لاذ بالهدوء . وبالفعل هذا ما حدث . بقيت منشغلة بوضع أطباق طعام العشاء ، وترتيب الشّوكة والسّكين كلّ في مكانه ، حينما فتح الباب ومرّ بقربها وصعد الدّرج ذاهبًا نحو غرفته . وهي ترمقه بنظرة جانبيّة . كان وجهه هادئًا ، لكنّ في قدميه شيئًا من التّرنّح . غاب لنصف ساعة ثمّ عاد ، وتناول عشاءه بصمت ، وهدوء ليسا غريبين عنها .

قالت بعد أنْ رأته يجفّف فمه ، ثمّ دفع بالكرسيّ إلى الوراء عائدًا إلى غرفته :

- ابقَ قليلاً أريد أنْ أتحدّث إليك .

- هنالك ما يشغلني الآن .

قال ذلك ثمّ غادر بخطوات هادئة ، تتوافق مع نقرات بندول السّاعة المعلّقة على الحائط .

***

في غرفته جلس سراج وراء طاولته، يدوّن في دفترٍ كلمات للأوبيريت يعزف على البيانو، ثمّ ينقل في دفتر النّوتة ما اقتنصه من جمل موسيقيّة. قبل أنْ يفتح حاسوبه المتنقّل، بقي لساعة مرّة يتقمّص أدواراً عديدة لأجل الأوبيريت، ومرّة يجلس ساهمًا بما يأتي منْ ذاكرته. أحسّ بتوق لليلى، توق ليتحدّث إليها، وتتحدّث إليه، وأنْ تضعه بحضنها وترضعه. إنّه إحساس مختبئ في تلافيفه السّريّة. فكّر بأنْ يقول لها ذلك، لهذا أشرع نافذة الحديث الإلكترونيّة. كتب لها تحيّة فجاءه الرّدّ سريعًا.

- اعتدتكَ. ولم أعتد رجلاً منْ قبل.

- وأنا اعتدتكِ.

- ربّما تبدو هذه الكلمة غير منصفة. الأمر ليس اعتيادًا. دعني أقول لك إنّي أحبكَ. قلتها لك في آخر حديث لنا. لكنّها الآن تحمل إيقاعًا آخر. أنت معي منذ أنْ أصحو صباحًا. نعدّ القهوة، نذهب إلى الصّالة، تحديدًا قرب النّافذة، حيث يمكننا أنْ نطلّ على عمّان، ذات الشّرفات الجميلة. لكنّ شرفة بيتنا مغطّاة، تمامًا مثلي. حينما قطنّا هذا البيت، كانت هذه الشّرفة عينًا تنظر في الأفق. في صباح اليوم الرّابع لزواجي صحوت على صوت عمّال زوّدوا الشّرفة بزجاج أسود، حيث بتّ أَرى ولا أُرى. أرى شرفات بيوت جبل عمّان، حيث النّساء يسقين الورد، ويحتسين القهوة، ويتبادلن الحديث، وحيث لغة الشّرفات التي يعرفها الهواء وتعرفها الذّاكرة. أحدّق طويلاً بتلك المشاهد وبي ما يفرحِ الشّجر وقت الشّتاء، لكنّني أعود إلى الوراء حينما أكتشف أنّي أَرى ولا أُرى. قرأت ذات مرة كتابًا يحكي سيرة هذه المدينة. حينما انتهيت منْ قراءته، اكتشفت تعقيدات عمّان

وتشابكاتها . عمّان مدينة جميلة ، لكنّها ليست متمهّلة ، كلّ شيء يحدث فيها سريعًا . الطّرقات ، البنايات ، الموضة ، والأغنيات . وكلّ شيء يُنسى فيها سريعًا .

- وأنا أحبّك . لا أدري كيف ، لكنْ كلّ ما أعرفه أنّي هذه اللّحظة أتوق لك . تمامًا كما حدث لي حينما قرأت قصصك ، ومنْ ثمّ أنصت لبوحك . في ذلك اليوم بعد أنْ قلتِ كلّ شيء واسترحتِ ، أدركتُ أنّك جئتِ بمعيّة رجل منْ أولئك الذين جاءوا إلى عمّان ، وفيهم ريبة مَنْ يخشى أنْ يمشي في شارع لم تطأه قدمه منْ قبل ، مثلما تشرع لك المدن فضاءَها لتكون كما تريد ، تمنحك فرصة ، أنْ تبني لك عالما منفصلاً ، تكون فيه كما تشتهي ، دون أنْ تفي المدينة حقّها . فحقّ المدن أنْ نفهم معانيها ، وأنْ نترك أنفسنا لها لنكون ما تريد . عمّان لوحة فسيفساء ، كلّ حجر فيها قلعة يعلو بابها وجه يبتسم للآخر ، لكنّ الطّرق بين القلاع ليست هيّنة كما يعتقد كلّ مَنْ يراها . عمّان مدينة سريعة ، لكنّ الذّوبان فيها بطيء جداً .

- لكنْ ها أنا أسعى لذلك ، رغم أنّي في قوقعه ضربت حولي . منْ داخل هذه القوقعة ركبت الكلمة ، وحلّقت حيث الفضاء الفسيح ، حيث التقيتكَ . أنت ابن مدينة ولا قوقعة لك ، لهذا بتّ أحلم بأنْ تأخذني إلى حضن روحك أكثر .

أحسّ سراج بتوقه يزداد وهو يجلس خلف شاشة حاسوبه . ثمّة طاقة تخرج إليه منْ كلماتها ، وتأخذه خارج عوالم ما تحكيه المرايا في غرفته .

- لكنّي أريد أنْ تكسري هذه القوقعة ، لأراكِ حقيقة ماثلة أمامي .

- سأفعلها الآن . ليس هنالك منْ لحظة مناسبة لأفعل ما أكتب أكثر منْ هذه اللّحظة . ها أنا قادمة إليك .

***

كانت السّاعة قد شارفت على الواحدة صباحًا ، حيث لم تغادر وداد كما هو المعتاد في كلّ يوم جمعة . بقيت في غرفتها مستفيقة ، وقد خالفت أوامر سيّد القصر الذي عادة ما ينام في إحدى الغرف السّتّ في يوم مثل هذا . استحكم الفضول بها لتعرف ما يدور في تلك اللّيلة . حينما أصطفّت سيّارة الأجرة بباب القصر ، وهبطت منها ليلى ، كانت وداد تراقبها منْ شقّ ستارة النّافذة ، لكنّها عادت إلى مكانها خوفًا منْ أنْ يراها سراج الذي كان عند الباب يجمع ما رسمته مخيّلته حول ليلى عبر الصّور التي أرسلتها له ، وما قرأه لها ، وعبر حديثها الإلكترونيّ الطّويل . دهش حينما أطلّت منْ الباب بوجهها الطّفوليّ ، والعينين اللتين رغم أثر الأسى فيهما ظلّتا جميلتين . إلى جانب شعرها الأسود النّاعم الطّويل ، وقد يهبط منْ أسفل كتفيها . كانت أكثر جرأة منه وخطواته تتمسّك بمكانها دون حراك ، حينما اقتربت منه وعانقته ، حيث أحاطه عطرها ، وملمس خدّها النّاعم ، وشعرها الذي حكّ وجهه بلطف الماء حينما يسيل بوداعة على العشب .

في الشّرفة العلويّة حيث جلسا ، وحيث صار اللّيل طريًا ، والهواء رقيقًا كأنّه موسيقى خافتة تعزفها الجبال الواقفة قبالة مرمى البصر البعيد ، تحدّثا بخجل اللّقاء الأوّل وارتباكه . كلّما تحدّث واحد منهما ينظر الآخر إليه ، كأنّه وجد فرصة ليأخذ الصّورة التي أمامه إلى مخيّلة مرّ فيها ما مرّ منْ تلك اللّيالي الافتراضيّة . قال لها حينما وجد صمتًا قصيرًا يحلّ بينهما :

- أرأيتِ كيف تنصف الطّبيعة لحظة مثل هذه؟ سكن صوت صرصار اللّيلَ، وصوت ناي الرّاعي البعيد، وصوت الهواء وهو يمرّ بين أغصان الشّجر.

قالت وهي ترفع عن عينيها شعرها الذي انهمر فجأة حينما التفتت نحوه:

- لكنّ كلّ هذه الأصوات جميلة. إنّها اللّغة التي تساند لغتنا. أنت لا يمكن أنْ تفهم صوت العصافير، والرّيح، وحتّى خرير الماء منْ أسطح المنازل في بلاد ليست بلادك.

أخذه السّهو بما تفتّح في روحه منْ توق لها وهي تحدّثه، أحسّ بنفسه قد استعاد مفقوداته. الحنين، اللّحظة التي يشتهي أنْ يلقي بنفسه فيها على صدرها ويبكي دونما سبب. اشتياق الجسد للغة الخلايا، والمسامات حينما تتعرّق إثر احتكاك حميم. فكّر بما قالته عن لغة الطّبيعة، فخشي منْ أنْ لا يفهم لغة جسدها، لكنّه طرد ذلك الهاجس بقوّة لم تحدث منْ قبل. قطف وردة منْ باقة وضعها في مزهريّة على الطّاولة:

- أوّل الأشياء افتتاحيّة رواية جميلة.

قالت وهي تلمس يده المرتعشة شوقًا:

- بل إنّ أوّل الأشياء هي تأمّل العازف قبل أنْ يحزّ جبين الوتر.

راقته مخيّلتها الدّافئة، فاقترب منْ شفتيها، وسجّل أوّل قبلة في دفتر تلك اللّيلة. لم تخذله أحاسيسه، كانت فوّارة كأنّها لم تغب يومًا. لم تكن قبلة قصيرة، بل كانت طويلة بالقدر الذي أفسح فضاء باله لطيور الهواجس أنْ تهاجمه منْ جديد، لكنّه هشها غير مكترث بمحاولاتها تهشيمه.

حينما لامست شفتاه شفتيها ، سمع خرير ماء يهبط منْ جبل غزير الحصى والحجارة . فاسترسل بالقبلة ، لكن ّمنْ أقاصي ذاكرته جاء أنين ، وجاءت صور ، وجاءت أصوات تثير فيه عواصف الوحشة . في الصّوفة لم تفارق مكانها منذ بني القصر ، وأمام نسمة الهواء التي أخذت تلاطف الأشياء ، راح يزيل عنها ملابسها ، ثمّ أخذ بيديه يلامس جسدها المصقول . صهلت به أحصّنة الرّغبة ، وتعالت حمحمتها ، لكنّ حنينًا غامضًا جعله يتكوّر في حضنها ، ويطلب منها أنْ ترضعه كما لو أنّه وليدها . أمسكت ليلى رأسه بيد ، وبالأخرى أخذت تلقمه نهدها ، كانت وهو يغمض عينيه ويبدو كطفل وديع ، تسمع همهمة طفل تجيء منْ ركن أحلامها القصيّ ، وكان سراج يسمع صراخ طفل لم يفارق مسمعيه . خبت بها نار الرّغبة ، وحلّت محلّ توقها إليه طيور بيضاء تحلّق على مقربة منْ قلبها . لكنّ الجسد لم يكن بوسعه أنْ ينتظر أمام نداءاته الحارّة . حينما اقترب منها جاءته الصّور والأصوات والرّوائح القديمة ، وصوت نائح ، ففرّ إلى طرف الشّرفة . أشرع يديه للهواء كمَنْ يتوسّل طيرًا خرافيًا له أنْ يأخذ منه ما يوجعه . لكنّه حينما عاد إليها وجد نفسه عاجزًا . اقتادها نحو الغرفة الرّابعة في ذلك الممرّ . كانت يداه ترتجفان وهو يحاول أنْ يفتح الباب ، وكانت ليلى تنظر إلى رجل غير الذي جاءت إليه مدفوعة بشغف كبير . حينما دخلا الغرفة وجدت نفسها أمام خزائن زجاجيّة ، ولوحات لامرأة واحدة ، ثمّ صورًا صغيرة وكبيرة للمرأة نفسها . دقّقت النّظر ، فوجدت أنّ تلك المرأة هي الإعلاميّة الشّهيرة ريفال . كانت تنظر نحو الخزائن تارة ، وأخرى نحو سراج الذي بدا كمن يلتقط أنفاسه وهو يقاسي لهاثه الغريب ، وتعرّقه الغزير . اقتربت منه وأخذت بظاهر كفّها تزيل عرقه ، ثمّ احتضنته ، وراحت تربّت على كتفه ، وتحثّه على

الهدوء . في السّرير الذي يتوسّط الغرفة ، حاول أنْ يهزم ما يجيء منْ ذاكرته ، لكنّه فشل ، إذ وجدته ليلى قد احتضن رأسه بين كتفيه ، وراح يبكي دون صوت ، إلاّ منْ اهتزاز بدنه يمينًا وشمالاً . اقتربت منه واحتضنت رأسه ، وقرّبته إلى صدرها ، لكنّه دفعها عنه بعيدًا ، ثمّ استدار نحوها ، وفي عينيه غضب شديد ، وفي وجهه ملامح غير التي رأتها منْ قبل . أخذ يتفرّس بوجهها وهو يقعي على يديه وركبتيه ، كأنّه ذئب على أهبة أنْ ينقضّ على فريسته :

- أنت تكتبين الصّورة التي تتمنين أنْ تكوني عليها . أنت محض امرأة خائنة . كان عليك أنْ تقولي لا لقانونه الذي لم يغطّيك فيه فقط ، بل غطّى فيه الشّرفة ونفسه . كان عليك أنْ تعودي خطوات إلى الوراء ، وتغادري مهما كان الثمّن .

اقترب منْ وجهها أكثر ، وفي عينيه ألسنة نار لا تخبو :

- أنت لست هنا إلاّ لأنّك امرأة ازدواجيّة .

- لست هنا إلاّ لأنّي وجدتك قدْ صرتَ جناحين يأخذانني منْ موت يحدث لي كلّ يوم . لكنّي أفاجأ بأنّي أمام رجل ضعيف ، يعجز أنْ يهشّم هذه الصّور ، ويمضي نحو حياته . رجل كلّ الصّور تداخلت لديه في صورة واحدة .

- أنت خائنة .

- بل أنتَ الخائن . أنتَ تخون نفسك دون أنْ تعي . أنا لي ما يبرّر مجيئي إليكَ . لكنّك لا تملك مبرّرًا واحدًا لدعوتك لي .

نهضت من السّرير ، وراحت ترتدي ملابسها ، وهو ما يزال ينظر بوجهها كأنّه ضيّع الكلمات . قفز من السّرير نحو الخزائن ، وأخذ يخرج الصّور منها :

- هذه ليست مجرّد صور . هذا زمن من الوهم عليّ استئصاله ، كما تستأصل زائدة دوديّة .

- الزّمن لا يستأصل ، لكنّنا نتعايش مع مناطقه الوعرة ، كما يتعايش المريض مع مرضه .

اقترب منها ، وأخذ يقبّلها بنهم ، لكنّها دفعته عنها :

- أنا لست جسرًا يا سراج .

دفعها بعنف نحو السّرير ، ثمّ قيّدها بحبل السّتارة وهي تصرخ بفزع .

٤

كنت في الطّابق السّادس من الفندق ، أدفع عربة تحتوي على ما سأستخدمه لتنظيف الغرف . كان الوقت صباحًا حيث منحت الشّمس شيئًا منْ دفئها بعد موجة صقيع حادّة ، حطّت على ماديسون . لا أصوات تأتي من الممرّ الطّويل للفندق ، ولا من الغرف التي لم تدرج على قائمة التّنظيف في ذلك اليوم . اشتعلت فجأة صافرات إنذار الحريق . لم يكن حولي أيّ دليل يشير إلى أنّ هنالك شيئًا يحترق ، لكنّي حينما ألقيت نظرة عبر نافذة الممرّ وجدت الدّخان يتصاعد بكثافة من الطّابق الخامس . أخذ النّزلاء يهربون بشكل مرتبك ، خاصّة حينما وجدوا المصاعد معطّلة ، وقد امتدّ الحريق للطّابق السّادس . راح الدّخان يتكاثف بسرعة ، وراحت الفوضى تزداد وأنا أقف مصابًا ببلادتي المعتادة ، وكأنّي أبله يراقب حدثًا جللاً ، دون أنْ أفهم ما الذي يحدث . راحت الأجساد ترتطم ببعضها ، وهي تركض وتتدحرج نحو الدّرج ، سعيًا إلى الهروب من الهلاك ، دون أنْ أصاب بما أصيب به النّاس منْ خوف طبيعيّ ، ودون أنْ يصفعني أحد ويذكّرني بأنّ موتًا قادمًا سيقع إنْ لم أفعل ما يفعلون . بدأت النّيران تمتدّ إلى الطّابق السّادس ، والنّاس يتزاحمون في الدّرج ، كنت أسمع صراخًا واستغاثات عبر الممرّ ، وأصوات أجساد تتدحرج ، وتأوّهات جرّاء السّقوط . نساء متوسّطات العمر . نساء كبيرات في السّن . رجال بدينو

الأجسام . رجال نحيلو الجسد . رجال بأعمار مختلفة . شيئًا فشيئًا ما عاد هنالك أحد يأتي من الممرّ هاربًا عبر الدّرج ، إذ بقيت وحدي أقف ممسكًا بمقبض العربة . ثمّة صوت استغاثة جاء منْ غرفة قريبة منّي ترك بابها مفتوحًا . تركت العربة وخطوت نحو الغرفة بتكاسل شديد . كانت امرأة في الثّلاثين منْ عمرها ، بيضاء ، بشعر أسود ناعم ، ووجه ممتلئ ، متوسطة القامة . تجلس عارية في منتصف السّرير وقد بدا أنّها تبوّلت لشدّة الخوف . تهذي دون أنْ تقوى على قول كلمة واحدة . كلّ شيء فيها يرتعش ، غير قادرة على الوقوف حتّى خلت أنّها مشلولة . بقيت للحظات ببلادتي أنظر إليها ، ثمّ حين اشتدّ صراخها الذي بدا لي أنينًا أكثر ممّا هو بكاء . التقطت رداء لها منْ على طرف السّرير ، وغطيتها به ، ثمّ حملتها على كتفي ، وعبرت النّيران والأدخنة التي تزايدت بشراهة ، مارًا عبر الممرّ نحو الدّرج حيث كنت أرتطم برجال الإطفاء الذين انشغلوا بحمل معدّاتهم .

عبر تلك المسافة ، وعبر كلّ شيء يحترق ، وجدتني ، أحمل تلك المرأة نحو الفسحة الممتدّة أمام الفندق ، وقد اصطفّت فيها عربات الإسعاف والشّرطة والمطافئ . أودعتها سيّارة الإسعاف فتكفّل رجالها بالذّهاب بتلك المرأة إلى المستشفى .

على جدار قبالة الفندق أسندت جسدي ، أراقب بذهول المبنى كيف يحترق ، بينما رجال الإطفاء يكابدون النّيران ، فنجحوا بإنقاذ بعض ممّن احتجزتهم في الدّاخل ، وفشلوا بإنقاذ عدد منهم . كانت الأجساد تتهاوى منْ نوافذ الفندق ، سعيًا إلى أمل أخير بالنّجاة .

عند الظّهيرة هدأت الأصوات ، وسكنت عربات الشّرطة والإطفاء عن زعيقها ، وما تبقّى سوى الرّماد يتساقط منْ بناية الفندق .

تحت صنبور الماء في حمّام بيتي ، كانت صور احتراق ذلك الفندق ، تتتابع في مخيّلتي ، تتقاطع بتلك الصّورة التي رأيتها لعمّان يوم أنْ غادرت فيلا سليمان الطّالع ، والأدخنة تتصاعد منها . بينما منْ مرآة الحمّام المشوّشة بتكاثف البخار كانت تأتي صورة غامضة ، ما إنْ امتدت يدي نحوها ، ومسحت البخار حتّى أطلّ عليّ سليمان الطّالع وريفال ، يمدّان لي ألسنتهما ويضحكان ضحكة معدنيّة .

في تلك اللّيلة رأيت ذات الكابوس الذي ما انفكّ يستبيحني ، أدور في قاعة تعجّ بالنّاس وأنا دون أيّ عضو منْ أعضاء حواسّي الخمس .

***

أمضيت شهرًا في بيتي ، بينما الفندق يخضع لعمليّات الصّيانة والتّرميم جرّاء حادثة الحريق التي تبيّن أنّها وقعت نتيجة لتماس كهربائيّ . بعد أنْ انقضت تلك المدّة واستدعينا لمواصلة العمل ، طلبني المدير لمقابلته . حينما دخلت إلى مكتبه ، ثمّة امرأة ثلاثينيّة كانت تجلس في الدّاخل . نهضت بعدما مشى المدير نحوي وصافحني ، ومشت نحوي ثمّ مدّت يدها نحوي تصافحني بحرارة دون أنْ تتكلّم ، بينما المدير صامت لا تنمّ عنه سوى ابتسامة مشوبة بالسّعادة . اقتربت المرأة منّي ، واحتضنتني ، ثمّ أمسكت بكتفي :

- ألا تتذكّرني سيّد سراج؟

- عذرًا . لا أتذكّركِ .

دعانا المدير للجلوس :

- أعرفّك بالسّيّدة جينفر جيرهارت . صاحبة أكبر مصنع للعطور في أمريكا . إنّها المرأة التي أنقذتها يوم حادثة الحريق .

ألقيت نظرة بلهاء نحو السّيّدة جينفر . كانت سيّدة بسيطة ، رغم الأناقة والجمال اللذين تتمتّعان بهما . بينما كانت تنظر نحوي كطفل يمتنّ لمن قدّم له قطعة شيكولاته يحبّها .

- أتت السّيّدة جيرهارت لتشكرك على ما فعلتَه لأجلها .

قال المدير ذلك ، وصمت مفسحًا لها المجال للحديث . كانت السّيّدة جيرهارت تجلس بتواضع ، كان يمكن لسيّدة ثريّة وشهيرة طالما قرأت عنها في عمّان وفي ماديسون أنْ تنظر إليّ منْ علوّ مكانتها ، لكنّها كانت كأميرة مهذّبة ، تضمّ ساقيها ، وهي تجلس على الكرسيّ ، تبتسم ببراءة :

- في الحقيقة أتيت هنا لأدعوك على العشاء ، وهناك سوف نتحدّث .

قالت السّيّدة جيرهارت ذلك ، ثمّ نظرت في وجه المدير كأنّها تستأذنه . بينما المدير يشير بيده نحوي ، كمَنْ يحيل الأمر إلى صاحبه :

- أتشرّف بلقائك سيدة جيرهارت .

قلت ذلك ثمّ نهضت ؛ إذ قالت لي بصوتها الرّقيق ، بعد أنْ دسّت في حقيبتها ورقة تبيّن عنوان سكني :

- سيأتيك السّائق عند السّاعة الثّامنة مساء .

- حسنًا سيّدتي . سأكون جاهزًا عند موعدي .

قلت ذلك وغادرت مكتب المدير عائدًا إلى عملي ، وفي جبين مخيّلتي تهتزّ شجرة خضراء تطرح ظلّها الوارف .

***

قبيل الثّامنة بدقائق، جلست أنتظر سائق السّيّدة جيرهارت. كنت قد استحممت بالهوس نفسه الذي أخذ ينتابني منذ زمن في ماديسون، والتّحسس والخوف نفسهما منْ أنّ رائحة ما تصدر منْ جسدي، أو منْ أيّ خطأ في تناسق ألوان ملابسي. منذ أنْ أتيت إلى هذه المدينة لم ألتقِ بأحد خارج العمل إلا بوداد، والسّيّدة جيرهارت تلك التي ستصبح الشّخص الثّاني الذي يلتقيه إنسان مثلي جاء ليتوه في هذه المدينة. ارتديت بذلة سوداء سموكن، وقميصًا أزرق، وربطة عنق حمراء، واستخدمت عطرًا كنت قد ابتكرته ذات ليلة هنا في ماديسون، حينما تعرّفت بمتجر بالصّدفة فابتعت منه موادّ أوليّة للعطر.

عند الثّامنة تمامًا جاءت منْ أجلي سيّارة بيضاء منْ نوع (بينتلي كونتينانتال فلاينج)، فتح سائقها الباب، وأقلّني إلى حيث تسكن السّيّدة جيرهارت. عبر الطّريق بدت لي ماديسون أجمل في ذلك المساء، حيث الأضواء تسقط في بحيرة ميندوتا، وتستلقي في سرير الماء. قبالة قصر فاخر أحاطته أشجار، وتناثرت حوله ورود ونوافير ماء وبركة سباحة، توقّفت السّيّارة، وهبط سائقها يفتح لي الباب. ما إنْ صعدت عددًا قليلاً من الدّرجات ووصلت بابًا خشبيًا مزخرفًا، حتّى أشرعت خادمة الباب، وأطلّت منْ ورائها جينيفر جيرهارت بكامل جمالها. ترتدي فستانًا أسود، يرتفع أعلى ركبتيها، ويضيق منْ عند خصرها، ويكشف جزءاً منْ صدرها الذي زيّنه وعنقها الطّويل عقد لؤلؤيّ.

- أهلاً سيّد سراج.

قالت ذلك بصوت دافئ يشبه ملمس المخمل، ثمّ وضعت يدها اليمنى على كتفي، ولامست وجهي من الجهتين بوجهها تعانقني، ثمّ

أشارت بيدها إلى صالة جلوس تطلّ عبر واجهة زجاجيّة عريضة ، على بركة سباحة اشتعلت حولها أضواء خافتة . حينما جلست في أريكة تقابل السّيّدة جيرهارت ، راحت تبتسم ببراءة وبغبطة ، جعلتا وجهها يبدو كوجه طفلة سعيدة . لم أدرِ لحظتها ما كان عليّ قوله ، فهي المرّة الأولى التي أقابل فيها امرأة أرستقراطيّة ، رغم أنّي لم أكن متحرّجًا منْ أيّ خلل سيبدو منّي حيال بروتوكولات عائلات كهذه . قلت أحاول أنْ أبدّد سهوها بي ، بعد أنْ ألقيت نظرة سريعة على عدد من اللّوحات المعلّقة على الجدران :

- بيتك جميل سيّدة جيرهارت .

قالت مبتسمة :

- أرجوك ناديني جينيفر .

أومأت برأسي مستجيبًا لطلبها :

- إنّه ينمّ عن وعي فنيّ جميل بالألوان ، والمنمنات ، واختيار اللّوحات المناسبة . فكلّ لوحة حكاية ، وكلّ حكاية تناسب مكانًا ما .

قالت وابتسامتها ما تزال تتقافز على فمها الجميل :

- أشكرك سراج . أرى أنّ لديك وعيًا بالفنّ .

قلت وطيف من الماضي يلاحقني بقسوة رحت أحاول طرده :

- نعم ، أنا فنّان تشكيليّ سابق .

قالت مندهشة بعفويّة ، جعلتها أكثر جمالاً :

- هذا جميل . لكنْ لماذا تتخلّى عن الفن وأنت بهذا العمر؟

- ثمّة ظرف خاص وراء ذلك .

قالت بعد أنْ جاءت الخادمة تدفع عربة صغيرة ، تصطفّ عليها بضع زجاجات ، وبضع كؤوس :

- ماذا تشرب عزيزي سراج؟

- نبيذًا أحمر .

حينما غادرت الخادمة ، قالت جينفر ويداها الناعمتان تحتضنان الكأس بينما أصابعها النّحيلة تتحرّكان على حوافّه :

- هل تعلم ما معنى أنْ يمضي إنسان أيامًا يبحث عن عبارة مناسبة ليشكر إنسانًا ما أنقذ حياته؟

بقيت أنصت لها ، وثمّة خيط من الأسى يرتق وجه سعادتها :

- إنّه العجز أمام الأشياء الجميلة .

وضعت الكأس على الطّاولة ، واقتربت منّي ، ووضعت يدها على ركبتي :

- أشكرك بحجم جمال هذا العطر الذي يفوح منك .

قالت ذلك ثمّ قبلتي على خديّ ، وعادت إلى أريكتها . وسرّحت بصرها عبر النّافذة ، ثمّ التفتت نحوي ، وفي عينيها بريق حزين . قالت بصوت خالطه إيقاع خفيف منْ نبرة تقترب من البكاء :

- لماذا أنقذتني يا سراج؟

ثمّة صنّارة لمعزوفة (ذكريات الماضي) لشوبان كانت تحوك ثوب ذلك المساء . حينما عقدت أصابعي ببعضها ، وحدّقت بوجه جينفر :

- لأنّ عليّ أنْ أفعل ذلك .

قالت وفي صوتها أثر لجرح ما :

- ولكنْ كان عليك أنْ تهرب مع الذين هربوا ، فكلّ شيء كان يشتعل ، حتّى المعدن . ألم تكن حياتك في تلك اللّحظة تساوي شيئًا؟

- في تلك اللّحظات ، لم أكن أفكّر بحياتي بالقدر الكافي الذي يجعلني ألقي بجسدي عبر النّافذة كما فعلها بعض النّزلاء . وحين

سمعت صوتك قادمًا من الغرفة ، ورأيتك بكلّ ذلك الخوف . شعرت بأنّ بكاءك لم يكن فقط بسبب ما يحدث ، بل بسبب شيء آخر خفيّ يوجعك . وحينما تتقاطع الآلام ، لا بدّ لواحد من الطّرفين أنْ يتحلّى بالقوّة وينقذ الآخر .

قالت ودمعة تهبط على خديها الورديين :

- وهل تقاطعت آلامك بآلامي .

أومأت برأسي ، أغالب لأوّل مرّة شعورًا عارمًا بالبكاء منذ مغادرتي عمّان . جفّفت جينفر خديها ثمّ قالت :

- سأخبرك بكلّ شيء ، فأنت الوحيد الذي يستحقّ أنْ أبوح له .

أشرعت باباً يفضي إلى البركة وسارت نحوها ثمّ تبعتها ، ورحنا نتمشّى في ممرّ يطوف حولها . قالت وكتفها ترتطم بكتفي كلمّا مشينا بضع خطوات :

- كنت على علاقة برجل اسمه (ديفد آدامز) امتدّت لستّة أعوام . أحببته بعمق كما تحبّ امرأة رجلاً له أنْ يجعل خطواتها تدبّ في أرض صلبة ، وقلبها يخلد إلى عشّ قلبه الدّافئ . تعرّفت به في حفلة عيد ميلاد لأحد أصدقائنا . كان وسيمًا بالقدر الذي يجعل خطوات أيّ امرأة ترتبك حينما تنظر بعينيه . متحدّث لبق ، وواثق منْ نفسه . له طباع الأمراء . كان يملك مصنعًا لمستحضرات التّجميل ، بدا لي طموحًا وهو يحكي لي عن خططه وأحلامه في أنْ يتطوّر مصنعه . حينما كبرت العلاقة بيننا ، وبات كلّ منّا غير قادر على الاستغناء عن الآخر ، اتّفقنا أنْ يعيش معي . فأنا أقطن وحدي ، إذ إنّني ورثت ثروتي هذه عن والدي الذي توفي هو ووالدتي منذ سنوات . وبعد زمن طرح عليّ رغبته بأنْ يساهم بما يملك ويشاركني في مصنع العطور ، وبالفعل

وافق قلبي على ذلك، وأخذ يعمل معي بجدّ. ذات يوم علمت أنّ قضية مرفوعة بحقه لديون مترتّبة عليه، فأعطيته ما دفع وانتهت تلك القضية. كنّا مؤخّرًا نرتّب للزّواج، إذ إنّني أصبحت غير قادرة على الاستغناء عنه، وباتت حاجتي ملحّة لطفل منْ صلبه. أوّل لقاءاتنا الغراميّة كانت في ذلك الفندق الذي وقعت به الحادثة، لذلك قرّرنا أنْ نستعيد ذكرى ذلك اللّقاء قبل زواجنا، ونبيت تلك اللّيلة في الفندق وفي الغرفة نفسها. مساء ذلك اليوم مرحنا كثيرًا، ومارسنا الحبّ بمتعة متناهية، ثمّ أوينا للنّوم قبيل الفجر، احتضنته بكلّ توقي للسّكينة التي يخلقها الحبّ. حينما سمعنا صفّارات الإنذار صباحًا، نهض ديفيد مصابًا بالفزع، ارتدى ملابسه وقفز من السّرير، وفتح الباب حيث تدفّق الدّخان، وحلّ محلّه بعد أنْ غادر. حينما رأيتني أبكي، كنت أبكي فكرة أنْ يتركني رجل فعلت لأجله الكثير، وأحببته جدًا. هل تعلم ما معنى أنْ يحلّ الدّخان بدلاً منْ رجل كان يساوي لي الكثير؟ لحظتها قرّرت أنْ أبقى في مكاني أنتظر النّار أنْ تأتي وتنهي حياتي التي رأيت أنْ ما منْ قيمة تبقّت لها. إنّه فقدان الثّقة المفاجئ الذي يجعلك تكتشف أنّ الوهم محض حقيقة تتحرّك بيننا. حينما عرف ديفيد آدمز بأنّي نجوت، عاد إلى البيت. كنت آنذاك قد عدت للتوّ من المستشفى بعد اختبارات طبيّة سريعة. أخذ يبدي كثيرًا من الأعذار، ويحاول أنْ يبرّر لي فعلته، لكنّني جابهته بالصّمت. ما هي إلا أيام حتّى أقلته من العمل، ودفعت له ما ساهم به منْ مال، وغادر.

حينما جلسنا في أرجوحة بطرف حوض السّباحة وحيث استعار الماء وجهينا السّاهمين، أخذني وجع جينفر إلى حقل الماضي المليء

بالشّوك . ثمّة رغبة مفاجأة داهمتني بأنْ ألقي بي في البركة لأطرد هذا الشّعور الملاحق لي ، خاصّة وأنا أرى وجه سليمان الطّالع ، ووجه ريفال يضحكان ويسخران مني . نهضت جينفر من الأرجوحة ، وجعلت وجهها ينصاع لابتسامة عريضة :

- هيّا نذهب إلى العشاء .

على طاولة العشاء ، قالت بعد أنْ مسحت فمها بالفوطة ، ثمّ أرخت ذقنها على قبضة يديها المتشابكتين :

- ما اسم هذا العطر الذي تستخدمه . إنّه عطر جميل؟

- حاسّة مضيئة .

راقها الاسم كثيرًا ، مثلما راقها العطر :

- اسم معبّر ، بل مدهش . مَنْ أنتج هذا العطر . لم أسمع باسمه منْ قبل؟

- أنا .

- هل تمزح؟

قالت ذلك بعد أنْ دفعتها الدّهشة لضحكة ناعمة . فأخبرتها عن تعلّقي بالعطور . ثمّ شرحت لها كيف أتيت بالموادّ الأوليّة منْ ماديسون ، وكيف تدبّرت أمري ، وابتكرت هذا العطر . دهشت جينفر كثيرًا :

- ولم أطلقت عليه هذا الاسم؟

- إنّه هديّتي لكلّ مَنْ في قلبه جرح . ورسالتي عبره تقول إنّ ثمّة حاسّة مضيئة داخل كلّ إنسان غير الحواس التي نعرفها ، بإمكانها إنْ لم تنقذه ممّا سيحدث مستقبلاً ، أن تجعله يتجاوز ألمه .

في تلك اللّيلة تحدّثنا كثيرًا عن العطور ، والفنّ التّشكيليّ ، وعن

أشياء كثيرة تجلب المسرّات . وصلت البيت متأخّرًا ، ونمت وشيء من البهجة يدثّرني .

الفصل الخامس

غادة

(كن وفيّا وأنت تلمس حتّى الهواء، هنالك أبواب، ستحسّ بها تُفتح فتأخذك نحو الحقيقة)

١

تفشّى الخوف في أنحاء المدينة أكثر منْ ذي قبل ، حينما تناقلت الصّحف خبر اختفاء ليلى إياد . وتداول النّاس خبر السّفاح الذي يختطف النّساء ، ويستخدم دماءهن لاستخراج الدّفائن الذّهبيّة . تداولوا أخبارًا وشائعات عديدة ، أكثرها ذلك الخبر الذي يفيد بأنّ السّفاح له ملامح لا يمكن لأحد أنْ يشكّ فيها . منهم مَنْ قال إنّه لا يُرى ، وأنّ اختطاف النّساء يحدث في الشّارع وفي البيوت ، وفي كلّ مكان من دون أنْ يستطيع أحد رؤية ذلك . قالوا إنّ له طرقًا سحريّة في اختطاف ضحيّته ، وإنّ نشاطه سوف يزداد في الأيام القليلة القادمة . لهذا خرج مندوب الجهات الأمنيّة على شاشة التّلفاز ، ينفي ما تناقله النّاس ووسائل الإعلام . لكنّ الكثير صدّقوا ما قيل . لهذا خلت الشّوارع من النّساء ، حيث بات الرّجال يتجوّلون في الأسواق ، وفي الطّرقات ، وفي أماكن العمل وحيدين . حتّى إنّ الشّرفات والنّوافذ خلت في حارات المدينة وأحيائها من النّساء ، وخلت أمكنة كثيرة كن يرتدنها ، وسيطر على المدينة مزاج كئيب وسوداويّ ، لم تنفع معه التّصريحات الحكوميّة ، والإعلاميّة وخطب المساجد في العودة إلى ما كانت عليه المدينة . افتقدت عمّان لرشاقة صباحاتها ، ومساءاتها ، ولتلك الرّوح التي تعلو دائمًا على كلّ ما يوجع ، وكلّ ما يقسو . فقد كان النّاس يعلمون أنّ الحال ليست على ما يرام . فهنالك مَنْ يسطو على المال العامّ ، من دون أنْ يكترث بمن سيجوعون . وهنالك مَنْ يأخذ حقّ غيره

في العمل ، فيهيم الكثير على رؤوسهم وهي ملأى بالأسى . وهنالك مَنْ يغادر منصبه الحكوميّ بعد أنْ يخلق مكانًا لابنه ، فيجعلك تشعر أنّك محض نزيل مؤقّت . يعلم الناس أنّ ما يأتي منْ دخل شهريّ لا يفي لعيش أسبوع واحد ، وأنّ البلاد صارت تعجّ بالهاربين منْ نيران الحروب ، ومَنْ أتوا بحثًا عن فرص في العمل ، وأنّ الشّوارع صارت تختنق بالبشر ، وبالعربات ، وأنّ الذين لا يرون في الموت غير الموت ما زالوا يهدّدون البلاد التي يعتقد الآخرون أن أبناءها ولدوا متجهّمين ، دون أنْ يدروا أنّ الصّبر يلد ملامح مثل هذه . لكنّ المدينة ، رغم صبر أهلها ، باتت ملفّعة بحزن كبير يخيّم على الجميع جرّاء ما حدث . حزن يتقاطع مع خوف وقلق الرّجال على نسائهم وبناتهم .

ثمّة ناشطة في حقوق الإنسان تعمل بمعيّة زوج ليلى إياد دعت منْ صفحتها على الـ(فيس بوك) النّساء للخروج في تظاهرة عامّة ، وبالفعل توافد عدد كبير منهنّ في الصّباح ، وعجّ الشّارع المحاذي للبرلمان بهنّ . وحينما انتشر خبر المظاهرة خرجت النّساء أيضًا من الأحياء والحارات الشّعبيّة أيضًا يطالبن بالقبض على السّفاح ، وبالحفاظ على النّساء ، وصار شعار المظاهرة الذي تداوله الجميع - حتّى نشطاء مواقع التّواصل الاجتماعيّ- (نصفكم يُختطف ، لهذا ستموت المدينة) . حتّى إنّ رعد عبد الجليل كتب مقالاً في الصّحيفة عنونه بشعار المظاهرة ، ولمّح فيه للأسباب التي باعدت بينه ، وبين زوجته كِنْدة همّام .

***

كان عدنان البادي في مكتبه يتابع التّدافع الكبير لاحتجاج النّساء ، حينما قرعت وداد الباب ودخلت ، ثمّ جلست يشوبها شيء

من القلق والتّوتّر . منذ أنْ زار المحقّقُ سراجًا في قصره ، تمنّت وداد أنْ لا تُطلب للتحقيق ، وتمنّت لو أنّ ذاكرتها تتخلّص ممّا رأته ، وممّا أثار شكوكها حيال تصرّفات سراج ، وربطها غير المباشر لتلك التّصرفات بقضيّة اختفاء النّساء . كان صعبًا عليها في ذلك اليوم أنْ تدلي باعترافات حول الرّجل الذي أخذ منها قلبها دون أنْ يعي رجل أحبّته بشكل يكاد يودي بها إلى الجنون . لاحظ عدنان البادي توتّرها فأخذ يتحدّث إليها بمواضيع لا تخصّ ما طلبت لأجله ، ثمّ ما إنْ رآها قد تمالكت شيئًا منْ أعصابها حتّى وجّه لها سؤاله :

- أخبريني عمّا يمكن أنْ يساعدنا في فكّ لغز هذه الجريمة التي يبدو لنا فيها سراج المتّهم الوحيد .

قالت وكلماتها تخرج بطيئة وخائفة :

- سأقول الحقيقة يا سيّدي . رغم قناعتي بأنّ سراج عزّ الدّين لا يمكن أنْ يكون قاتلاً ، ورغم أنّي أعلم أنّ قناعتي لا علاقة لها بقناعاتكم .

بدا المحقّق قد استنفر كلّ حواسّه وهو يحدّق بها . حينما قطعت صمتها القصير وعادت لتدلي بما تعرف :

- لسراج عدّة تصرّفات غريبة ، أهمّها أنّه يصرّ على أنْ أمضي يوم الجمعة خارج القصر . لم أجرؤ على أنْ أسأله حيال ذلك ، فرغم أنّ معرفتي به قديمة بدأت منْ عمّان ، ثمّ في (ويسكنسون) ، إلى أنْ التقاني في عمّان ، وعيّنني مدبّرة منزل لديه . لكنّ الرّجل الذي عرفته لأوّل مرّة في عمّان ، غير الرّجل الذي التقيته مجدّدًا ، بكلّ صفاته الغريبة ، بعد عودتي منْ أمريكا ، منْ هدوء وتمهّل غريب يدعو للتّساؤل ، إلى بعض التّصرفات التي لا أجد لها تبريرًا . فقد حدث أنْ

كان بيننا لقاء لكنه كان غريبًا ، بدا لي فيه الرّجل قد عجز بعدما رأيته يقبل عليّ بكلّ شغف . في السّرير كان سراج يئنّ أنين الموجوع ، لا أنين مَنْ تشتعل به الرّغبة . الغرابة واضحة في كلّ شيء ، خوفه الزّائد على صحّته وهو لا يأكل إلا طعامًا صحيًا . خشيته الشّديدة على حواسّه الخمس ، وهذا واضح في أجهزة الإنذار الإلكترونيّة التي زُوّد القصر بها . أضف إلى ذلك الغرف السّتّ التي لم يسمح لي بالاقتراب منها .

صمتت وداد لقليل من الوقت ، وبدا أنّها تفكّر بأمر ما :

- هنالك غرفة بقرب غرفة كراج السّيّارة ، يدخلها كلّ أسبوع ، ولا أدري ماذا يفعل هناك . إضافة إلى لقائه برجل غريب الملامح ، يسلّمه صندوقًا ما ثمّ يغادران .

أحسّ عدنان البادي أنّ شكوكه في مكانها رغم أنّ وداد لم تقل شيئًا لا يعرفه ، إلاّ أمر الغرفة التي تقع بقرب كراج السّيّارة . أخبرها أنّه ربّما يستدعيها مرّة أخرى قبل أنْ تغادر . في طريقها إلى القصر كانت أحاسيسها ملتبسة ، خشيت منْ أنّها قالت ما يودي بسراج إلى مصير بسبب جريمة لم يقترفها . لكنّها لم تستطع أنْ تخفي ما كان يثير شكوكها ، خاصّة أنّ البلاد تمرّ بأزمة نتيجة لاختفاء النّساء الأربع .

٢

غضب سليمان الطّالع بشدّة ، حينما علم أنّ سراج عزّ الدّين رفض بيع غاليري (الحواسّ الخمس) . عندما غادر مَنْ أرسله لأجل تلك المهمّة ، وقف إلى نافذة مكتبه ينظر نحو الغاليري ، وأسنانه تقبض على سيجار كان دخانه يمسح وجهه الذي بدا أكثر كدرًا ، وتجاعيد منْ ذي قبل . بقي يحدّق بالغاليري إلى أنْ تخيّله يتهاوى ، وتتعالى منه سحب الغبار .

هاتَف رعد عبد الجليل ، واتّفقا أنْ يلتقيا مساء في الفيلاّ الواقعة برأس الجبل . في ذلك المساء لم يتأخّر ، بلْ جاء مبكّرًا . كان سليمان الطّالع يجري مكالمة هاتفيّة حينما توقّف رعد وراء شجرة في طريقه إلى حيث يجلس الطّالع ، وأخذ يتنصّت عليه :

- أريد أنْ أتحدّث مع القبضايْ .

انتظر سليمان قليلاً وهو يمسك بهاتفه ثمّ عاود الحديث :

- إلى متى ستبقون صامتين عن غاليري (الحواسّ الخمس) ، هذا المكان الذي لا ينتج إلا فجورًا يسمونه ثقافة يا شيخ .

بقي سليمان ينصت باهتمام بعد أنْ قال ما لديه ، إذ بدا أنّ القبضايْ يتحدّث من الطّرف الآخر .

- حسنًا يا شيخ أوافقك على ما ستفعل .

قال ذلك ثمّ وضع هاتفه النّقّال على الطّاولة ، وعاد يدخّن وينفث دخانه في الهواء بمزاج متوتّر . أحسّ رعد عبد الجليل بأنّ جسده

سيتفصّد منْ بعضه حينما أنصت لمكالمة سليمان الطّالع . ورأى أنّ أيامه صارت أوراقًا أخذت تتطاير أمام عينيه ، وهو يقف مشدوهًا كمَنْ يقف في عقر عاصفة هوجاء . لكنّه أكمل خطواته حيث يجلس سليمان ، دون أنْ يدري لماذا يمضي نحوه بخطوات لا معنى لها منذ أنْ عرفه .

لم يقل رعد شيئًا حينما جلس في الكرسيّ قبالته . ألقى مكعّبات الثّلج في كأسه ثمّ سكب شيئًا من الويسكي عليها ، وشرب نصفه ، ثمّ أشعل سيجارة ، وراح يراقب نجومًا في السّماء ، يتأمّل بعضها اللائي لا تبدو متوهّجة كمثل القريبات في المسافة ، رغم أنّها كواكب مثلها مثل غيرها . أتى على ما تبقّى في كأسه ثمّ سكب كأسًا أخرى ، وشرب قليلاً منها ، وراح يغنّي ، بينما سليمان ينظر في وجهه مبتسمًا تلك الابتسامة التي ينظر فيها الصّياد إلى طائر جارح ، كيف يرفرف قريبًا منْ صيّاده ، رغم أنّ السّماء فسيحة ، ورغم أنّ جناحيه كبيران .

قال وهو يسكب كأسًا :

- أتدري لماذا دعوتك هذه اللّيلة يا رعد . الصيّاد لا يمكنه أنْ يستغني عنْ صقره . لقد فعلت الكثير لأجلي . أسكتّ أصواتًا ، وعبّدَت كلماتك الكثير من الطّرق لي . أنت بارع يا رعد ، حتّى إنّني صدقت ما كنت تكتبه عنّي . لقد أثبتّ أنّ الكلمة بندقية ، والبنادق تأتمر بأمر صاحبها .

انطلقت ضحكة عالية منْ فم رعد بعد أنْ أتى على ما في كأسه ، وألقى بعقب سيجارته في الهواء ، إذ ارتطم بجذع شجرة ، فأحدث شررًا في طرف في ذلك اللّيل الذي هوت في سمائه شهب ، وجاء منْ عمقه نباح كلاب ، وعواء ثعالب :

- ألا تخشى مخالب هذا الصّقر يا سيّدي؟

أراح بدنه إلى الوراء ودخان سيجاره يتطاير بفعل نسمة هواء هبّت للتّو :

- عاصرت صقورًا كثيرة كانت تعتدّ بمخالبها وبقدرتها على التّحليق يا رعد . ها هي الآن تغفو بأقنان الدّجاج . لكنّك كائن مختلف ، سأحافظ على أنْ يبقى مضجعك هنا على كتفي . ألا ترى كمْ أنّ كتفيّ عاليتان؟

استند رعد قليلاً إذ بدا أنّ الثمّالة أخذت تدبّ بأوصاله :

- أراه جيّدًا ، جيّدا .

قُرع جرس هاتف سليمان ، وبقي يستمع للطّرف الآخر دون أنْ ينطق إلى أنْ انتهت المكالمة . قال وهو يشعل سيجارة جديدة :

- اليوم وأنا أمرّ بالشّارع ، رأيت النّاس يتدافعون إلى مكاتب البورصة .

ضحك بصوت عال ، ثمّ أكمل حديثه :

- مشكلتهم أنّهم يصدّقون أنّ الطّريق إلى رأس الجبل سريعة بهذا الشّكل .

بقي رعد عبد الجليل رغم الثمّالة التي دبّت بأوصاله ، ينصت لسليمان الطّالع طيلة تلك اللّيلة ، يهزّ رأسه ، ويدخّن ويشرب الويسكي ، إلى أنْ ثمّل الطّالع ، فحمله الخدم كالمعتاد إلى الدّاخل .

في طريق عودته ، كان رعد عبد الجليل يردّد أغنيات فيها كثير من الأسى الذي يتقاطع مع أساه على ما وصل إليه منْ وهن لم يكن له أنْ يتوقّع ذات يوم أنْ يستسلم له .

٣

نشرت الصّحف ، والمواقع الإلكترونيّة أخبارًا عن مفاجأة يدعو غاليري (الحواسّ الخمس) لحضورها على مسرح دار الأوبرا التّابعة له . انتشر الخبر سريعًا بين النّاس ، وقرّر الكثير منهم أنْ يأتوا إلى المكان . قرأ سراج وهو في مكتبه كثيرًا من الأخبار حول ما يعدّ له الغاليري ، ثمّ غادر إلى المعهد الذي ضمّ أطفال الإشارات الضّوئيّة ، ومَنْ أجبرتهم أحوال عائلاتهم على الابتعاد عن المدرسة ، واصطحب أحمد وخرجا بعد أنْ كان يعكف في المعهد ، كرسّام كبير ، على رسم لوحة جديدة ، مرّت الرّيشة فيها على القماش ، فتركت ألوانًا زاهية من دون معنى .

حينما سأله عمّا يرسم ، قال إنّه يجرّب الألوان التي اكتشف أنّه يحبّها . تذكّر سراج بحنين حامض أوّل رسوماته ، وأوّل سؤال منْ معلّمته عمّا رسم . كان يسأله كأنّه يسأل نفسه ، وهو يعرف الإجابة مسبقًا . طلب منه أنْ يغسل يديه ، ويخلع مريلته ليخرجا . برقت في عيني الصّغير ابتسامة فرح وامتنان جعلته يركض نحو الحمّام وينظّف يديه منْ أثر الألوان ، ويندفع نحو الباب إذ وقف به قائلاً بلهفة (هيّا) .

استعاد سراج شيئًا منْ زيارته لغادة ليلة البارحة . كان الوقت قد شارف على منتصف اللّيل حينما اتّصل بها وأخبرها بمجيئه . فرحت كثيرًا ، لهذا بدّلت ملابسها ، وعطّرت الهواء ، وأعدّت له شاياً ثقيلاً ومطعمًا بالنّعناع كما يحبّه .

لو أنّها ما تزال تقطن الحيّ الشّعبيّ ، لن يكون بإمكانها أنْ تستقبل

سراجًا في مثل ساعة متأخّرة مثل تلك ، لكنّها الآن تسكن شقّة في (خلدا) ، كان سراج قد اشتراها ، وسجّلها باسم أحمد . رأت وجهها قد استعاد نضارته التي كان عليها قبل زواجها ، حينما تساءلت بسرها عن بهجتها بقدومه . استعادت تلك اللّيالي التي جافاها النّوم فيها ، وراحت تتقلّب في سريرها الجديد ، وفي غرفة النّوم التي يطلّ شبّاكها على (حدائق الحسين) و(المدينة الطبيّة) والهواء الطّريّ يعبر النّافذة محمّلاً ببرودة رؤوس الجبال الغربيّة . استعادت أحلامها السّريّة بأنْ يعبر سراج باب الغرفة ، ويأخذها إلى حضنه ، لتحتفي بمشاعر اعتقدت أنّها ماتت منذ أنْ قدّمت جسدها مقابل المال منذ أوّل مرّة . طردت تلك الأفكار منْ مخيّلتها حينما سمعت جرس الباب يقرع . جاءتها رائحة عطره قبل أنْ تشرع الباب ، فأغمضت عينيها تكابد حنينًا جارفًا إليه . اعتذر سراج وهو يدخل عن زيارته المتأخّرة . ربّما ما كانت غادة ستفهم ذلك الشّعور الذي جاء به لزيارتهم لو اجتهد بشرح ذلك . لهذا السّبب لم يفكّر بأيّ إجابة لو سألته عمّا أتى به . كانت ترتدي فستانًا عنابيْ اللّون ، وجعلت شعرها يسترسل على كتفيها . حينما رآها تعود حاملة صينيّة الشّاي الذي أخذ يشربه بتلذّذ ، ممتدحًا طريقتها في صنعه ،كانت الأصوات قد سكنت في البيت إلاّ منْ صوت خفيض لتلفاز يعرض مشاهد متتالية منْ احتجاجات وقتلى وبيوت مهدّمة وبيوت تحترق ، في بلدان عربيّة . أشاح بصره عن شاشة التّلفاز وفي وجهه امتعاض مفاجئ . أغلقت التّلفاز وهي تبتسم على نحو معتذر . سألها عن أحمد ، فأخبرته أنّه مستغرق بنومه ، فطلب أنْ يراه .

كانت غادة قريبة منه حينما انحنى وقبّل أحمد في جبينه ، فتململ واستدار إلى جهة أخرى متلذّذاً بنومه . كانت كتفها تلامس

كتفه ، وعطرها يلمس شيئًا في ذاكرته وهو يعي أنّ اللّمسة تقودنا إلى فهم جزء كبير منْ عوالم ما نلمس . إنّها تمامًا كمفتاح المصباح الكهربائيّ ، ما إنْ تضغط عليه ، حتّى تشتعل الكهرباء فيولد الضّياء .

كان سيغادر حينما أمسكت يدها بيده قائلة له بصوت طافح بالحنين :

- ابق .

سحبته بجرأة مفاجئة إلى حيث كان يجلس ، وانحنت إليه حينما عاد إلى مكانه ، فرأى نهديها الأبيضين منْ فتحة الفستان :

- أرجوك لا تغادر .

قالت له ذلك همسًا ، ثمّ عادت تجلس في مكان قريب منه ، وقد تنبّهت إلى أنّ ما تحسّ به حياله قد أخذها نحوه بجرأة ربّما لن تكون محمودة العواقب ، فقد تبدّل حال عائلتها بسبب هذا الرّجل الذي لا تعرف عنه شيئًا سوى محبتّه الغريبة لابنها أحمد ، من دون أنْ تدري أنّه بات مستسلمًا لتوق شديد ، ورغبة عارمة بها . شعر حقًا بجوع مباغت حينما اقترحت عليه أنْ يتناولا الطّعام معًا . كانت تلتفت نحوه مشيّعة ابتساماتها الدّافئة وهو يجلس في الصّالة يراقب هيئتها وهي تغسل الخضار . شعر بدفء لم يطرق باب روحه منذ زمن ، وأحسّ بأنّ أحمد الذي يغفو في سريره ، هو نصفه الطّفوليّ الذي ينعم بالرّاحة ، بينما النّصف الكبير يجلس بمعيّة امرأة فيها من الحنان ما يجعله أنْ يترك رأسه على صدرها ، فينام غير مكترث بشيء .

دهش سراج حينما جفّفت غادة يديها ، وأدارت مذياعًا أخذ يبثّ أغنية فيروز (طيري يا طيّارة) . إنّها الأغنية التي أحبّها في صغره ، حينما كان يبقى متّكئًا على النّافذة ، وعيناه تراقبان شوارع جبل

اللّويبدة حيث حركة النّاس، وأصواتهم، وكلّ ما يحدث. تأكّد منْ أنّه يسمع الأغنية ذاتها. أحسّ بأنّ ذاكرته تعيد إنتاج الزّمن بطريقة غريبة، وأنّ ثمّة تحالفًا عجيبًا بين الحاضر والماضي. لم يقل شيئًا لغادة، إنّما انصاع لتلك المتعة التي أخذت تطوّق روحه. أتت بالطّعام (قلايّة بندورة باللّحمة)، مطعّمة بالفلفل الحارّ، وطبق من سلطة الخضار، وآخر من المقبّلات. أكل باستمتاع، بل حتّى بشراهة، وكان يضحك كلّما نزّ عرقه بسبب الفلفل، بينما غادة تسقيه الماء البارد بيدها، وفي عينيها توق شديد له. حينما أنهى طعامه، أمسكتْ يده، وأخذت تجفّفها منْ بقايا الطعام. أعادت لمساتها فيه ما يوجعه غيابه، لكنّه استسلم لها كطفل ينصاع لأوامر أمّه. عند المغسلة كانت تمسك له الفوطة وهو يغسل يديه. حينما فرغ منْ ذلك بقي ينظر في عينيها، في تلك اللّحظة التي لا صوت يجيء فيها، سوى صوت أنفاسهما اللّاهثة. ما إنْ اقترب منها حتّى تعانقت شفاههما بقبلة عميقة ودافئة، رأى عبرها سماء تغسل وجه المدينة بمطر دافئ. جاء صوت أحد أطفالها من الدّاخل، فعاد إلى الوراء، ثمّ غادر.

ما إنْ انتهى سراج منْ تذكّره لما حدث ليلة البارحة حتّى غادر الغاليري هو وأحمد. مرّت السّيّارة عبر البوّابة، وبقيت تسلك دربها إلى أنْ انحدرت نحو وسط البلد. كان أحمد يراقب كلّ شيء خارج نافذة السّيّارة برويّة، وهي تسير عبر سيل الزّحام في ذلك الصّباح. بينما سراج ينظر نحوه وقد بدا له أنّ عينيه أصبحتا تقرآن ما يرى ببعد جديد. كان قد مرّ أكثر منْ شهر على انضمامه للمعهد، وعوالم غاليري (الحواسّ الخمس)، وها هو قد عاد إلى حيث يجب أنْ يكون الأطفال، يحبّون الأشياء منذ النّظرة الأولى، وينظرون إلى الوردة لا إلى شوكها.

قال له والسّيّارة تهبط إلى وسط البلد حيث ستعبر نفق الحدّادة ذهابًا إلى جبل القلعة :

– قلت لي إنك ترسم بالألوان التي اكتشفت أنّك تحبّها؟

جاء صوت الصّغير واثقًا من دون أنْ يلتفت نحو سراج ، إذ كان منشغلاً بمعاينة كلّ ما تقع عليه عيناه :

– نعم ، لكنّي لم أكنْ أدري أنّي أحبّ الألوان . من الآن فصاعدًا إنْ سئلت عن موهبتي ، سأقول الرّسم . فقد سألتني المعلّمة – حينما كنت في المدرسة قبل أنْ أتركها – هذا السّؤال ، ولم أجد ما أقوله لها .

التفت أحمد نحو سراج ، وعلى وجهه ترتسم ابتسامة عريضة :

– أنا سعيد جدًا بكلّ شيء . وسعيد بأنّي ما عدت أرى الكابوس الذي يخيفني كلّ يوم ويحرمني من النّوم .

دهش سراج وأحمد يتحدّث كأنّه يقرأ منْ دفتر يوميّات لسراج . لم يسأله عن الكابوس ، بل سأله عن المدرسة التي تركها ليطعم إخوته ، إن كان يحبّها . احتضن الصّغير رأسه بين كفيه ، وشابت ابتسامته ملامح جامدة كالتي رآها فيه حينما عرفه عند الإشارات الضّوئيّة :

– لا لم أكنْ أحبّها . كانت باردة في الشّتاء ، وحارّة في الصّيف . وحينما قلت للمعلّمة لماذا تشعلون المدفأة البتروليّة فقط لقليل من الوقت ، ثمّ تأخذونها لقاعات الدّرس الأخرى ، قالت لي إنّ اللاّجئين منْ حروب البلدان المجاورة رفعوا عدد قاعات الدّرس ، والحكومة لا تملك مالاً كثيرًا لتشتري مزيدًا من المدافئ .

رفع رأسه منْ كفيه ، وتساءل بنبرة مَنْ يريد الحصول على الإجابة ، وببراءة سراج الصّغير ذاتها :

- المعلّمة كذبت عليّ . كيف تقول إنّ الحكومة لا تملك مالاً؟ كانت أمّي تهدّدنا أنا وإخوتي بالحكومة إنْ تشاكسنا ، قالت إنّ الحكومة قادرة على كلّ شيء .

طوّح بصره عبر النّافذة والسّيّارة تصعد الطّريق نحو جبل القلعة ، حيث أخذ أحمد يرى عمّان تمتدّ أمام عينيه شيئًا فشيئًا ، ثمّ قال وبه رغبة بأنْ يرى كلّ شيء مرّة واحدة :

- في الاستراحة لم أكن أخرج . كنت أبقى في مقعدي أنجز ما عليّ منْ واجبات ، ليس لأنّي لا أريد التّمتّع بالاستراحة ، بل لأنّي لم أكن أملك النّقود لشراء السّاندويتش ، وحتّى لا يتندّر عليّ البعض . لم يكن لي أصدقاء ، ولم تكن لي (شلّة) .

دهش سراج ، وهو يرى أنّ شيئًا من الصّفحات الأولى لحياته في كتيّب هذا الصّغير . أوقف السّيّارة وهي في منتصف طريقها ، وحدّق بتمعّن في وجه أحمد ، وتساءل بسرّه (كيف لطفولتي أنْ تستعاد بهذا الشّكل الغرائبيّ) .

أمضيا ساعات في جبل القلعة يشاهدان عمّان منْ علو ، إلى أنْ اشتدّت حرارة الشّمس فغادرا .

٤

غضب سراج بعد أنْ رأى الفيديو الذي جاء به سعيد عبد الباري، وفيه يتحدّث (الشّيخ القبضايْ) عن غاليري (الحواسّ الخمس)، ويصفه بالفسق الفنيّ وبترويج الكفر، ويصدر فتوى بتحريم ارتياده. استطلع محرّك البحث (غوغل)، فوجد أنّ ثمّة حملة تشنّ ضد الغاليري. تابع ما قيل أيضًا في مواقع التّواصل الاجتماعيّ منْ قبل المتشدّدين وأنصارهم. حينها طلب منْ سعيد عبد الباري أنّ يعدّ بيانًا باسم الغاليري ويقوم بتوزيعه، ثمّ غادر إلى القصر.

وهو يهمّ بعبور البوّابة رأى كنان مصابًا بكدر كبير. قال في نفسه: لا بدّ أنّه شاهد الفيديو الذي كان فيه والده (القبضايْ) يتحدّث عن الغاليري. توقّفت سيّارته في مكانها في الكراج، وهبط منها ثمّ فتح باب الغرفة المجاورة لها ودخل. كانت غرفة واسعة، فارغة إلا منْ شظايا كثيرة لزجاج أسفل الجدار المقابل للباب. وعلى طرفي الجدار الذي أطلّ منه الباب تكوّمت كثير من الزّجاجات الفارغة منْ مختلف الأشكال والأحجام. خلع جاكيته، وعلّقه على مسند الكرسيّ الوحيد في منتصف الغرفة، ثمّ ثنى أكمام قميصه إلى الوراء، وراح يمسك بالزّجاجات الفارغة، ويلقيها بقوّة إلى الجدار. كلّما ارتطمت زجاجة هناك، وجاءه صوت تهشّمها، ورأى شظاياها تتناثر، أغمض عينيه، وشهق كمنْ يُخرج رأسه منْ تحت الماء في بركة عميقة ويتنفّس بصوت عال. كلّما قذف مزيدًا من الزّجاجات، تناقص شهيقه وحاجته

للهواء ، وبدا أكثر هدوءاً ، إلى أنْ ألقى آخر زجاجتين ، ثمّ جلس في الكرسيّ وراح يبكي بصوت عال ، بينما جدران الغرفة الفارغة تأخذ صوت بكائه ، وتحوّله إلى صدى موجع .

رأى عدنان البادي كلّ شيء ، إذْ كان قدْ دخل حينما لم يجد الباب مقفلاً ، وأخذ يراقب ما يحدث ، آمرًا وداد ، ومن معه منْ عناصر الأمن أنْ يبقوا في الخارج ، بعدما اكتشف أنْ لا وجود للنّساء المفقودات داخل الغرفة . مشى بخطوات تبادلت الجدران صداها ، ولامس كتف سراج من الوراء محتارًا فيما يمكن أنْ يقوله ، في الوقت الذي كان فيه سراج يستغرب منْ وجوده في مكان خاصّ مثل هذا . غادر عدنان البادي دون أنْ يقول شيئًا بعد أنْ ناوله أمرًا مكتوبًا باقتحام المكان .

***

لم يجد وداد حينما مرّ عبر الصّالة متوجّهًا نحو غرفته . كان الصّمت يحتلّ القصر ، إلاّ منْ صوت نقرات عقارب السّاعة ، والنّبضات الصّوتيّة للحسّاسات الإلكترونيّة . أشرع باب غرفته بإحساس يشبه التّكاسل لكنّ فيه كثيرًا من الأسى المالح . رأى جسده ذابلاً كأنّ غصنًا بُتر عن أمّه الشّجرة ، وهو يخلع ملابسه قبالة المرايا المنتشرة في جدران الغرفة . تعرّى تمامًا ، واستدعى الموسيقى من المسجّلة ، فجاءت تحمل على كتفيّ نوتاتها ، كسله الحزين .

في غرفة الحمّام ، وقف أمام المرآة وراح يلامس عينيه ، وأنفه وفمه وأذنيه ورؤوس أصابعه . ثمّ أخذ يتمتم بصوت كأنّه الأنين ، والجدران تمنحه شيئًا من الصّدى :

– كيف وقعت تلك الخديعة . ليس للجنود مهمّة القتال فقط ، إنّما لهم مهمّة الاستشراف . لهذا دامت إمبراطوريات ، وسقطت أخرى

لغفلان جندي واحد. كيف غفلت حواسّي عمّا كان يمكن صدّه. المدينة بحر من الجنود إذن، لكنْ كمْ يصحو منهم، وكمْ منهم مَنْ يهنأ بنومه الطّويل. ألهذا صارت المدينة بذاكرات قصيرة الأمد. الذّاكرات طويلة الأمد تؤدّي إلى شيء غالبًا ما تؤدّي إلى شيء. والذّاكرات قصيرة الأمد لا تؤدّي إلاّ إلى الدّوران في حلقات مفرغة. ما يحدث أنّ ذاكرات المدينة تنسى سريعًا، كأنّ حدث البارحة ما كان إلا خاطرًا مرّ مرورًا سريعًا وانتهى.

ألقى بجسده تحت الماء في الحمّام، وبقي هناك مغمضًا عينيه، مستسلمًا لخيالات وصور ومشاهد عديدة كانت تتناوب على مخيّلته. ارتدى بيجامته، ووقف إلى النّافذة ينظر نحو عمّان منْ ذلك الجبل الذي يقع عليه قصره، ويرى كيف يقف مبنى غاليري (الحواسّ الخمس) قبالة بوليفارد العبدلي الذي يقع في الطّابق الأخير منْ أحد أبراجه مبنى إدارة مجموعة سليمان الطّالع التّجارية. استعاد بحنين جارف طفولته التي ابتدأت في جبل اللّويبدة وكيف كان عبر نافذة غرفة نومه يرى النّاس والأشياء، وكيف تعمّق حبّه لكلّ ما يراه، وكيف صبغته تلك البراءة باخضرارها، فصارت تسبقه إلى أيّ شيء يراه أو يقدم عليه، إلى أنْ حدث ما حدث. كان سراج منْ أكثر الذين يعارضون الهجرات إلى دول الشّمال، وإلى الغرب. لم يكن له أنْ يتخيّل أنْ يعيش خارج عمّان. إنّ ما يحدث له يشبه تمامًا حبّه العميق لريفال، ذلك الحبّ الذي لا يمكن أنْ يحدث لامرأة أخرى؛ لأنّ حجم الذّكريات، والتّفاصيل، وما أثّث الرّوح والقلب، لا يمكن له أنْ يتكرّر مرّتين. ثمّة مدن يمكن لها أنْ تعجبنا، لكنّنا في الحقيقة نقع في غرام مدينة واحدة، وغالبًا هي المدينة التي لا يمكن أنْ ننسى ماءها السّريّ

وهو يسقي أشجارًا في أرواحنا . للمدن التي تستقرّ في أرواحنا ظلّ ، وللحبيبات ظلّ مشابه لا يأبه بجنون الشّموس ورعونتها حينما تحرن في منتصف السّماء .

ترك النّافذة وجلس إلى البيانو ، وراحت أصابعه تنقر مفاتيحه بهدوء ، وهو يغمض عينيه ، كأنّه يستسلم لجناحين يأخذانه إلى أماكن بعيدة حيث الأنهار تمشي بحضن التّراب ، وتبثّ بالعشب روح الاخضرار ، وحيث تحلّق طيور في سماء زرقاء صافية ، وحيث لا صوت يُسمع غير هسيس الطّبيعة ، وذلك الإيقاع الفطريّ للحريّة في سهل نمت فيه الأشجار على سجيّتها .

كان كلّما أوغل في تلك المقطوعة ، تسحّ منْ عينيه دموع دافئة ، وتنهض في باله حميميّة الوطن في حضن الحبيبة ، وفي فضاء الوطن . اشتدّت وتيرة العزف ، حينما رأى أنّه الخاسر في ثنائيّة مثل تلك ، تقوم عليها فكرة الخلود ، إلى أنْ داس بأصابعه آخر المفاتيح مُنهيًا ما كان يعزف .

شعر بنعاس مباغت ، لكنّه تلاشى حينما استلقى في سريره . بقي لدقائق يحدّق بلوحة السّقف لتلك المرأة التي تمشي في الشّارع حزينة ، ومهشّمة . شعر بأسى يخالطه الحنين . ذهب نحو الغرفة الخامسة . أقفل الباب واستلقى في السّرير الذي وضع في منتصف الغرفة . قبل أنْ يحاول النّوم ، شاهد الخزائن الزّجاجيّة التي وضع فيها كثيرًا من الأشياء التي لمستها يد ريفال ذات يوم . بقي يتنقّل بعينيه بين الخزائن إلى أنْ نام ، حيث وجد نفسه يجلس في شرفة بيته في جبل اللّويبدة ، يقرأ في كتاب . جاءت ريفال تحمل صينيّة عليها فنجانان من القهوة ، وكأس ماء . جلستْ تشرب قهوتها ، وتستغرق

بسهو في شيء ما . أقفل سراج الكتاب ، وقطع سهوها بسؤاله :

- ما الذي يشغلك؟

- لا شيء .

وضعت فنجانها ، وأعادت بدنها إلى الوراء ، وراحت تشاهد الشّارع الذي يفصله عن بيتهما سور حجريّ هابط ، استراحت عليه أشجار الياسمين ، حيث كان النّاس في ساعة العصاري تلك ، يخرجون كعادتهم للمشي ، ولقضاء بعض الحاجيات :

- البارحة قرأت (ميكافلّلي) . لم أقرأه منْ قبل . هذا الرّجل يكشف حقائق ما يجري . ويخطّ دروبًا استثنائيّة لمنْ يريد أنْ يصل .

قال سراج وهو ينظر إلى قميصها الأبيض الضّيّق ، وقد أبرز نهديها الوافرين :

- لكنّ ميكافلّلي غير معنيّ بالأخلاق .

- أعتقد أنّه واقعيّ بشكل لا يقبله الكثير . لقد رأى كيف يسير العالم على نحو خفيّ . تروقني عبارته الشّهيرة (الغاية تبرّر الوسيلة) .

كانت عيناه تبتسمان ، وفيهما كثير من الرّغبة . اقترب منها وقال هامسًا قرب أذنها :

- أنا لا تروقني هذه العبارة . الذي يروقني الآن وفي هذه اللّحظة ، جسدك الجميل هذا . الرّغبة لا وقت محدّداً لها . تجتاحنا فجأة ، وحينما تجتاحنا علينا أنْ نستسلم لها ، إنّها كالقصيدة تأتي بغتة . دعينا نعبر إلى الدّاخل ، لندوّن قصيدة جديدة .

في الدّاخل ، وفي سريرها الذي وضع قرب النّافذة حيث وقف عصفور دوريّ ، واتّكأ عليه غصن ياسمين ، تعريّا منْ ملابسهما ، ثمّ استلقيا وراحا يغرقان في بحر من التّأوّهات ، والملامسات

والاحتكاكات إلى أنْ فاضا بالحبّ .

استفاق سراج منْ حلمه مبلّلاً ، ومصابًا بلذّة آسرة . نظر نحو النّافذة إذ كانت الشّمس قد مالت إلى الغروب ، وألقت أشعّتها على السّتارة التي أخذت بدورها النّور الخفيف إلى الخزائن الزّجاجيّة ، وقد بدت في تلك اللّحظة كشيء منْ ذاكرة مشرعة على مصراعيها .

***

في صالة الطّعام ، كانت وداد صامتة ، وفي وجهها سحابة حزن لا تنقشع ، وهي تضع عشاءه على الطّاولة وتغادر بخطوات مبعثرة . لم يسألها عن شيء ، ولم ينتظر أنْ تخبره بمحض إرادتها . كلّ ما فعله هو أنّه شرب فنجانًا من الشّاي الأخضر ، وعاد إلى غرفته بعد أنْ نهض وأخذ يتابع نشرة الأخبار التي لم يكن فيها غير أخبار الموت في البلاد العربيّة ، وصور لمسؤولين يرتدون بذلات أنيقة ، ويطلّون على النّاس بوجوه نظيفة وناعمة .

لا يدري سراج لماذا تراجع عن فكرة الخروج التي طفقت في باله ، رغم أنّه نام أثناء النّهار ، ولن ينام بسهولة هذه اللّيلة . تفقّد هاتفه النّقّال فوجد رسالة منْ غادة تطمئنّ عليه . فكّر أنْ يذهب لقضاء وقت معها ومع أحمد ، لكنّه أقلع عن تلك الفكرة ، رغم توقه لها . لم يرغب بأنْ يحدث لقاء بينهما وأحمد في البيت . اتّصل بها ، فجاء صوتها عبر الهاتف حنونًا ومرحبًا :

– توقعّت أنْ تزورنا هذه اللّيلة .

– ربّما في ليلة أخرى سأفعل .

– أخبرني أحمد أنّك لست متزوّجًا ، وأنّك تعيش وحدك في قصرك . الوحدة بشعة .

بقي سراج صامتًا ، يحاول جاهدًا تذكّر متى حدّث أحمد عن حياته . فاستغرب كثيرًا منْ ذلك ، بل أصابته تلك الدّهشة المشوبة بخوف خفيّ .

- نعم هو كذلك .

- شعرت بذلك قبل أنْ أعرف . للرّجل الوحيد ملامح لا تخطئها عين المرأة .

بقي صامتًا حينما عادت تحدّثه :

- كنت أتمنى أنْ تزورنا اللّيلة ، كنت سأبوح لك بأشياء لا تعرفها عنّي .

- يمكنك أنْ تبوحي بها ، ها نحن نتحدّث .

- تساءلتُ كثيرًا لماذا ينقل رجل حياة عائلة كلّ هذه النّقلة . بيت جديد ، وراتب شهريّ ، واهتمام لم نحظَ به منْ قبل . لكنّي أقلعت عن هكذا تساؤل ما دامت حياتنا صارت على هذا النّحو الهادئ . أنت لا تدري ما الذي فعلته لنا بالضّبط .

توقّفت قليلاً عن حديثها ، ثمّ عادت :

- حينما قبلت بالزّواج ، كنت كأيّ بنت منْ بنات حيّنا ، أعتقد أنّ علاقة مثل هذه سوف تأخذني إلى عالم أكثر راحة منْ تلك التي كانت قليلة في بيت أهلي ، دون أنْ أدري أنّ ما يحدث هو محض انتقال منْ حالة إلى حالة أخرى ، إنْ لم تكن مشابهة ، فهي أكثر وجعًا منْ سابقتها . لم تكن لي طموحات كبيرة بصفات معيّنة للرّجل الذي سيكون شريك حياتي . ربّما لأنّني ابنة عائلة فقيرة جداً ، لم تنهَ تعليمها ككثير من الفتيات اللاّئي بتن يدركن أنّ ما منْ رجل سيقرع باب بيت أهلها طلبًا للزّواج إنْ لم تكن موظّفة ، وتجني راتبًا شهريًا . وما

منْ فتاة في الأغلب ستعيّن في وظيفة إنْ لم تلتحق بالجامعة . لهذا وافقت من دون تفكير على الزّواج بأوّل رجل جاء يطلب يدي . وأنا أستعيد الآن تلك اللّحظات التي تكاد تكون أهمّ لحظات في عمر الفتاة ، لا يمكنني أنْ أصف إحساسي إلا أنّه كان بليدًا . حتّى عندما كانت النّساء ينظفن جسدي ، يزلن الشعر ، ويخضبن كفّي يديّ وقدميّ بالحنّاء ، ويبذلن جهدًا لتمليس شعري المجعَّد ، يهيّئنني لليلة الأولى في السّرير .

بدأت حياتنا عاديّة ، لا حبّ فيها بالمعنى الذي يعرفه النّاس ، تعرّفت عبرها على شيء من المتّعة الجسديّة ، رغم ما كان يشوشها منْ فقر ، وديون تكبّدها زوجي ليكون كغيره له بيت وزوجة وأولاد . لم يكن لديه وظيفة تدرّ عليه راتبًا شهريًا ، ولم يكن حرفيًا . كان يتنقّل بين المصانع والمتاجر ، وحظّه أنّ الدّنيا كانت تسدّ الأبواب في وجهه كما يحدث مع الكثير .

ازداد عدد العائلة ، وازداد وجعنا جرّاء عجزنا عنْ تأمين ما يحتاجه أطفالنا ، الذين شمّوا ذات ليلة رائحة شواء قادمة منْ بيت الجيران ، وأخذوا يلحّون باكين على أنْ ينالوا شيئًا منْ ذلك الطّعام . أجبرت حينها أنْ أقرع باب جيراني ، وأطلب شيئًا ممّا يطهون . كانت لحظة قاسية محمّلة بالمهانة ، حينما وجدت الكلمات تخرج منْ فمي بطيئة . ليلتها أسرَّ لي زوجي بشيء ، بعد أنْ حدّثني عن محاولاته العديدة في إيجاد العمل ، إذ قال لي بصوت خائر وحزين (فكّرت أنْ أسرق ، أو أقطع طريق أحدهم وأسلب ما معه منْ مال ، وإنْ اضطررت لقتله سأفعل . وبالفعل حاولت ذلك ، فقد تلثّمت ، وأخفيت سكين المطبخ بجيبي ، لكنّي عدت منْ منتصف طريقي ، لم أستطع أنْ أفعل ذلك) .

أخبرني أنّه اتّصل ذات يوم ببرنامج إذاعي يبثّ على الهواء مباشرة، وأخذ يشرح معاناته. لم يتغيّر شيء،

لكنّ الحال تبدّل كما لم أكن أتوقّع، حينما جاء شهر (رمضان). في تلك السنة وجدت الأطفال فرحين بقدوم هذا الشّهر، صاموا رغم صغر سنّهم، ولم أكن أدري ما عليّ فعله وأنا لا أمتلك في البيت سوى قليل من العدس المجروش، وقليل من الخبز. كان زوجي آنذاك يعمل (شيّالاً) في متجر للبضائع التّموينيّة. حينما عاد ووجد الأطفال يتحلّقون حول صحن صغير من العدس، بكى كثيرًا، وراح يضرب رأسه بالجدار إلى أنْ سالت منه الدّماء، ثمّ صمت فجأة، وخرج ليعود بعد دقائق حاملاً زجاجة كاز. أغلق الباب، ثمّ قال بنبرة هاذية:

- علينا أنْ نسافر إلى الله، هناك لا حاجة لنا لا بالطّعام ولا بالبيت، ولا خوف علينا.

سكب الكاز عليّ وعلى الأطفال، دون أنْ يبالي بصراخنا، وأشعل ورقة، وهمّ بحرقي، لكنّ صراخ الأطفال الذي تزايد جعله يتراجع خطوات إلى الوراء، وراح بصمت ينظر إليهم. ما هي إلا لحظات حتّى أشعل النّار بنفسه، وفرّ عبر باب البيت إلى الشّارع، وصراخه يملأ الحيّ، إلى أنْ لفظ أنفاسه الأخيرة.

مرّت شهور كان الجيران خلالها يعهدون إلينا بالطّعام وبعض النّقود، إلى أنْ انقطعت تمامًا. عليك أنْ تعرف أنّ تعاطف مَنْ حولك معك، هو محض تعاطف مؤقّت؛ لأنّ للنّاس أزماتهم وأوجاعهم أيضًا. تلك الحادثة جعلت ثقتي تنهار حيال كلّ شيء حتّى نفسي. ما عاد لي يقين بأيّ جهة. ثمّة جار لي ما انفكّ عن التّلصّص عليّ منذ زمن. ازداد هذا التّلصّص والشّبق في عينيه حينما صرت وحيدة بلا

رجل . فالرّجال هنا يطمعون بالمطلقات والأرامل والعوانس ، يعتقدون أنّ ما منْ شيء تنشغل به الأنثى سوى ما يريده الجسد . ذات ليلة رأيته يقف بالنّافذة ، إذ كانت السّاعة تشارف على الحادية عشرة ليلاً منْ صيف ذلك العام . كانت حركاته ونظراته تشي باشتعال غير عادي ، كان شبقًا إلى درجة أنّه لم يأبه بمنْ يمكن أنْ يراه واقفًا بالنّافذة ويتلصّص عليّ . حركة واحدة منْ يدي جعلته بعد دقائق قليلة يقف قبالتي لاهثًا وشبقًا كأنّه لم يلمس امرأة منْ قبل . مددت له كفّي (ادفع لقاء ما ستحصل عليه) . وبالفعل دفع لي عشرة دنانير ، بقي بعدها ينهش جسدي بضراوة وحش لم يذق شيئًا منذ زمن . منذ تلك اللّيلة فقدت إحساسي بجسدي ، وتحوّلت إلى عاهرة تفتح رجليها لأيّ رجل يدفع . إلى أنْ جئتَ ، وأعدتَ لي تلك المرأة التي كانت تخجل حتّى من النّظر إلى جسدها ، وأعدتَ لي إحساسي بجسدي ، ومنحت قلبي للمرّة الأولى في حياتي شعورًا بالحبّ . نعم يا سراج ، لا مناص من الاعتراف بأنّي أحبّك .

٥

استلقت ريفال في سريرها ، وأسندت ظهرها إلى وسادتين ، ووضعت الحاسوب المتنقّل على فخذيها ، ثمّ داست بسهم المؤشّر على موقع غاليري (الحواسّ الخمس) ، ففتحت خانة تضمّ صورًا له . أشعلت سيجارة وسحبت منها نفسًا ، ووضعتها في منفضة ، بقي خيط الدّخان يصعد منها ، دون نسمة هواء تشتّته . راحت تقلّب الصّور ، فتوقّفت عند صورة التقطت عن بعد ، يبدو فيها الغاليري كاملاً وهو يتّخذ شكل تلك المرأة . منْ ملف إلكترونيّ في حاسوبها ، أطلقت العنان لموسيقى (فلوت) رقيقة ، يمرّ عبرها خاطر حزين . أمسكت بسيجارتها ، وأرخت رأسها إلى الوراء وراحت تدخّن ، وتنظر إلى الصّورة ، تكابد حنينًا يجيء لها منْ أماكن قصيّة في قلبها . قالت في نفسها بعد أنْ مسحت برؤوس أصابعها دموعًا سحّت عنوة على خديها (حينما نكبت الحنين فإنّنا بيدينا نحفر حفرة لحياتنا ، ونطمرها دون أنْ نعي فداحة ما نقوم به)

نهضت متعجّلة كمَن جاءه خبرٌ ، وأخذ يسرع بالخروج ، ثمّ راحت ترتدي ملابسها . لم تحترْ بما ستقوله لسليمان الطّالع ، حينما فتح الباب فجأة من دون استئذان على غير عادته ، وسألها إلى أين ستذهب . قالت له إنّها ستزور صديقة لها لم تلتقِ بها منذ سنين . كانت تسرّح شعرها أمام المرآة ، حينما رأى صورة الغاليري في حاسوبها المتنقّل . لم تكترث به ، حينما رأته يقف إلى النّافذة ويشعل سيجارة ويدخّن بنهم

وهو صامت . هي تعلم أنّه يدقّق في كلّ شيء يخصّها ، ويبحث عن إجابة لتساؤلاته ، في حاسوبها ، وأوراقها ، وملابسها ، وحتّى في أحلامها . حتّى إنّها اكتشفت منذ أسابيع ميكروفونًا قرب رأسها في السّرير ، يسجّل ما يمكن أنْ تقوله وهي نائمة . لكنّها بقيت هادئة إزاء كلّ ما يفعل .

لم تقبّله على خديه ، كما تفعل عندما تخرج وحدها في المرّات القليلة التي حصلت في حياتهما ، بل غادرت بخطوات عجولة وهبطت الدّرج ، بينما سليمان يقف إلى النّافذة ، فرآها تصعد سيارتها وتنطلق ، ثمّ غابت في شوارع عبدون .

أغلق باب الغرفة بالمفتاح ، وأشرع خزانتها ، ثمّ راح يفتّش كلّ شيء تقع عليه عيناه ، حتّى إنّه راح يشمّ ملابسها ، كما يفعل كلّ مرة ، يبحث عن رائحة ، تثبت ظنونه . لكنّه لم يجد شيئًا ، فجلس في الكرسي يراقب الغرفة كيف تحوّلت إلى فوضى .

***

عبر بوّابة الغاليري مرّت سيّارة ريفال ، وبقيت تسير ببطء ، إلى أنْ توقّفت في مكان مخصّص لسيّارات الزوّار . هبطت منها بخطوات رخوة ، وراحت تنظر نحو الغاليري ، كأنّها ما رأته من قبل . مشت متمهّلة نحو مقعد في حديقة الغاليري التي بدت لها شبيهة بحديقة (متحف اللّوفر) ، وجلست فيه ساكنة ، تقلّب عينيها بين جهات الغاليري ، ويداها تستريحان على فخذيها ، تمامًا كما تهبط يدا المرأة التي أقيم الغاليري على هيئتها . أشعلت سيجارة وراحت تدخّن ، وعيناها لا تتوقّفان عن التّحديق بالمبنى . كانت تفكّر بتلك النّبضات الأولى لهذا الغاليري في دواخل سراج ، هي تعرفه أكثر منْ أيّ

شخص يمكن أنْ يعاشره . تذكّرت أحلامه وحديثه عن مشروع مثل هذا ، لكنّه لم يحدّثها عن ذلك الهوس الشّديد بالحواسّ ، ولا بهذا الشّكل الذي يقوم عليه المبنى . منذ أنْ رأت الغاليري ، وتجوّلت في أروقته ، وطوابقه ، أدركت حجم الفجيعة التي مني بها رجل مثل سراج ، رأى فيها كلّ شيء ، وعوّل على كلّ شيء عبرها . تذكّرت أنّها كادت أنْ تقول له ذات ليلة أنْ لا يعوّل على شيء في هذه الحياة . ربّما كانت تعي أنّها مقبلة على حدث سوف يجعل منه إنسانًا آخر ، غير الذي أمضت بمعيّته سنين لا يمكن لذاكرتها أنْ تجرؤ على نسيانها . وكانت تدرك أنّه لا يمكن لقلبها أنْ يشكّ بحقيقة حبّها الكبير له .

رآها سراج عبر نافذة مكتبه . لم يكن هنالك منْ أحد في الحديقة سواها ، ولم يكن بحاجة لتحديق أكثر ليعرف أنّ الماثلة في مرمى بصره هي ريفال ، المرأة التي تجلس وراء بيانو في ردهة قلبه وتعزف مقطوعة لا يسمعها سواه . ثمّة أغنيات وروائح وهمس ، وصوت خطوات ، وضحكات قادمة منْ ذاكرته ، راحت تطرق مسمعيه . أحسّ بالحنين يختطفه ويسرق منه جاذبيته ، وفيه رغبة بأنْ يقفز من الطّابق الخامس محلّقًا نحوها .

أحبّ سهوها بالمكان ، وأحبّ سكونها الذي لا يبدّده غير حركة يدها وهي تدخّن . بقيا ساهمين لوقت . هي تنظر للغاليري ، وهو ينظر نحوها . شعر بحاجة لسيجارة ، فترك النّافذة وأخذ سيجارة وأشعلها ثمّ عاد إلى النّافذة ، لكنّ المقعد كان خاليًا . كاد يصدّق أنّ ما رآه محض مشهد قدّمه الخيال في تلك اللحظة . نزل منْ مكتبه ، مستقلاً السّلم الكهربائيّ الذي يمرّ عبر يدي المرأة . عند نهاية المصعد الذي يقع في الطّابق الأوّل التقيا . كانت بينهما مسافة ضئيلة ، ودهر من الذّكريات .

بقيا ينظران نحو بعضهما ، وبينهما أصوات قديمة ، وأغنيات ، وكلمات ، وضحكات ، وأوراق تتطاير مع الرّيح . شعر بإعياء في روحه ، رغم النّهر الذي تدفّق وبات يهبط منْ أعالي قلبه . خلعت نظّارتها الشّمسيّة ، وراحا يحدقان مليًا بعيون بعضهما ، كلّ منهما يحاول جاهدًا أنْ يقول شيئًا ، لكنّ الكلمات بقيت حبيسة مخابئها ، حتّى حينما مرّا عبر البوّابة ، وبقيا يمشيان متجاورين ، إلى أنْ افترقا .

***

وهو يعبر بوّابة القصر رأى كنان مستغرقًا بسهوه ، فلم ينتبه لدخوله . وحينما دخل صالة القصر ليصعد إلى غرفته ، وجد وداد ساهمة هي الأخرى ، ولم تنتبه له إلاّ حينما أخذ يصعد الدّرج بخطوات رخوة .

- هل أعدّ لك الغداء؟

دون أنْ يلتفت نحوها ، أخبرها بعدم رغبته بذلك ، ثمّ واصل طريقه . في غرفته خلع ملابسه ليستحمّ ، فرأى في إحدى مرايا الجدار وجهه حزينًا ، وفي مرآة أخرى وجده مضاء بالفرح . في المرآة الثّالثة وجده ساكنًا لا يوحي بشيء ، وفي الرّابعة لم يجد وجهه . أغمض عنينه ، وراح يراقب المرايا التي استحالت إلى شاشات تعرض مشاهد منْ حياته الماضية . استحمّ بعجالة ، ونام . نام بسرعة كأنّه لم ينم منذ عام .

استفاق مساء منْ نومه . كانت السّاعة تشارف على التّاسعة منْ يوم الخميس . في تلك اللّيلة أقلع عن فكرة الذهاب إلى نادي النّخبة ، وترك لنفسه أنْ يستمتع بلحظات ما بعد الصّحو ، إذ كانت مشوبة بانفعال عاطفيّ . ضمّ قدميه يغالب رغبة حادّة ، ويستشعر فَرحًا بما فيه

منْ أحاسيس . امتدّت يده إلى قبعة نسائيّة قرب رأسه . شمّ رائحتها بعمق ثمّ أعادها إلى مكانها . عبر الرّيموت كونترول أرخى العنان لتيّار موسيقى أخذ يتهادى في الغرفة ، ويمسح قلبه بماء الحنين . تفقّد هاتفه النّقّال إذ وجد رسالة منْ غادة ، تشكره فيها على الإنصات لها في تلك اللّيلة . شعر بحنين جارف لها ، وبرغبة لم يستطع مقاومتها ، فكتب لها :

– لم تعد الوسائد تقوى على الإنصات لثرثرتي . ثمّة أشياء مع مرور الوقت تملّ إلحاحنا على الحزن واستجراره ، وثمّة أناس أيضًا يضربون بأسطواناتنا عرض الحائط . ربّما كان عليّ أنْ أقول كلّ النّاس يفعلون ذلك . ليس هنالك منْ آدميّ له أنْ يصبر على عَدْوك في دائرة مغلقة ، خوفًا منْ أنْ يدخلها .

– رغم أنّي لا أفهم كلّ ما تقوله هنا ، لكنّي أحسّ به . أحسّ بوحدتك ، وأحسّ بخشيتك منْ أنْ يلاحظ النّاس ملامح الهزيمة في وجهك .

– أنت الوحيدة التي يمكنني أنْ أعترف لها ، دون أنْ أدري السّبب . لهذا سأقرّ بخوفي من الهزيمة . وهذا لا يعني أنّي لم أُومن بها منْ قبل . حياتنا محض سلسلة من الهزائم ، لكنّ شيئًا تجذّر فينا يجعلنا نتوهّم النّجاة ، إنّه ليس ذلك الإحساس المتجاوز للفجيعة والذّهاب إلى آخر النّفق المظلم ، بل إنّه الوهم بعينه . سأقول لك شيئًا يا غادة

– قل .

– في آخر لقاء لنا في بيتك ، شعرت بأنّ العالم بكلّ أفراحه وأتراحه ، بكلّ ويلاته ، وتشابكاته ، يقبع وراء بابك . ليلتها وجدتني

عاريًا إلاّ منْ سَكينة جعلتني كطفل يودّ لو يغفو بحضنك وينام لأيام متتالية . قبل قليل صحوت منْ نومي . قادني إليك توق غريب ، توق يشبه عثورنا على بيت مضاء وسط مدينة مهدّمة جرت فيها معركة ضارية ، وفعل الرّصاص والقذائف فيها فعله العبثيّ .

- تعال . ها أنا أشرع لك ذراعيّ .

- أريد أنْ نكون وحدنا ، بين جدران لا يراها سوانا وهي تشهد على انهماري في حضنك ، تمامًا كما تسقط شجرة تعبت منْ وقوفها لليالٍ بوجه الرّيح .

- سآتي إليكَ .

***

ما إنْ رآها تعبر الباب حتّى سألها عن أحمد ، فأخبرته أنّه في بيت أهلها هو وباقي إخوته . تلاشى قلقه ، وغابت بعض الملامح الغامضة منْ وجهه . همس لها وهما يصعدان السّلم نحو الطّابق الثّاني (أنت جميلة كإحساسي بك هذه اللّيلة) . لم تقل شيئًا ، كانت خجولة كأنّ ما منْ رجل لمسها منْ قبل . كانت عذراء حتّى في مشيتها ، وصوتها الخافت وهي تمتدح المكان الذي يعيش فيه . في الشّرفة كان قد حضّر طاولة عليها طبق فاكهة ، وعصير طازج ، وجعل مسجّلة غرفة نومه تمنحهما خيطًا منْ موسيقى لها مكان في ليلة رائقة مثل تلك .

بدت له مستغرقة بالظّلمة القادمة بسكينة يعرفها هو جيدًا ، حينما جلست ، وأمسكت بيده :

- عليّ أنْ لا أنسى هذا الدّفء الذي يطوّق قلبي بمعيّتك .

- كلّ ما أعرفه الآن أنّي لم أفرح منْ قبل .

قالت ذلك بصوت خفيض وخجول ، وألقت برأسها على صدره ، ثمّ همست بصوت نائس :

- ضمّني إليك أكثر ، لأصدّق حقيقة هذه اللّحظة .

ضمّها إليه ، ثمّ أبعدها عن صدره ، وراح يطبع على خديها وفمها قبلات خفيفة ، أعقبها بقبلة عميقة جعلتها تتأوّه ، وتصاب بدوار ، كأنّها عذراء تحظى باللّقاء الأوّل . استشاطت به الرّغبة أكثر منْ ذي قبل ، ووجد نفسه معافى منْ كلّ ما يوجع روحه . رافقها إلى غرفته ، وهناك راحا في السّرير يتعانقان بكلّ شغف وتوق . وجد ذكورته بأكملها كأنّها لم تنقص شيئًا ، فأصابه فرح غامر بما حظي به ، فرح ازداد حينما التصق جسداهما ، وراحا يهذيان بالرّغبة ويصعدان جبل النّشوة . لكنّه هوجم مرّة أخرى بخيالات وصور وكلمات وصراخ موجع فخارت قواه . لم ينتظر كثيرًا ، إذ حملها نحو الغرفة الخامسة . كانت بين يديه مصابة بفرح غامر ، ولأوّل مرّة في حياتها يحملها رجل . لم تنتبه ما الذي حدث لسراج ، كانت نشوانة تغلق ذاكرتها ومخيّلتها عن أيّ حدث يمكن له أنّ يشوّش صفاء تلك اللّحظة .

ألقاها في السّرير وراح عبر إقباله بنهم مفتعل على جسدها ، يعاند ما يحيق به من صور موجعة ، إلى أنْ رفع الرّاية البيضاء في حربه التي يخوضها منذ زمن .

بدا هادئًا وهو يمشي نحو النّافذة ويشرعها ، لتقفز عمّان مرّة واحدة أمام عينيه المحمرّتين لفرط الأسى . نظر عميقًا إلى البنايات ، والأفق الملبّد بسواد أدخنة العربات والمصانع ، ووضع يديه على رأسه كأنّه يستسلم لعدوٍّ يصوّب نحوه بندقيّة .

نهضت من السّرير وراحت تنظر نحو الخزائن الزّجاجيّة ، وقد

ضمّت كثيرًا من الأشياء التي لمستها يد ريفال ذات يوم . لم تفهم شيئًا وهي تقترب من الخزائن ، وتمعن النّظر في محتوياتها . سجائر ، أقلام ، كتب ، مناديل ، ميكروفون ، وحتّى حجارة ، وقطع أخشاب . مشت نحو سراج وهو يقف إلى النّافذة . ما إنْ وضعت يدها على كتفه ، حتّى جفل كأنّ تيّارًا كهربائيًا أصابه . همست في إذنه بصوت فيه كثير من الدّلال :

– ما بك يا حبيبي؟

فجأة نزَّ عنه أنين موجع ، كأنّه يلفظ أنفاسه الأخيرة ، أعقبته صرخة أجفلت غادة ، وجعلتها تتراجع إلى زاوية الغرفة حينما كان يمشي نحوها ، باكيًا وفي وجهه غضب حارق . هبطت إلى الأرض وهو يقترب منها بملامحه المخيفة ، ثمّ قبض على رقبتها :

– ألم أقل لك إنّ الذي نراه في آخر النّفق محض ضوء زائف ، وإنّ الإحساس المتجاوز للفجيعة والذّهاب إلى آخر ذلك النّفق المظلم ، ما هو إلا الوهم بعينه .

أرخى يديه عن عنقها ، وعاد إلى الوراء يحدّق بها بعينين محمرّتين :

– كنت أعتقد أنّ حضنك ما يزال كما هو ، لكنّي اكتشفت أنّه استحال إلى دمار . الحروب حينما تحدث في المدن لا تترك منها شيئًا . والذي ينجو لا ينجو إلا في شائعات المهزومين .

صمت قليلاً وجدران الغرفة الواسعة تشهد صدى أنفاسه المتوتّرة . ثمّ قال بصوت منخفض مليء بالغضب :

– أنت خائنة يا غادة . خنتِني دون أنْ يرفّ لقلبك جفن .

قالت بصوت مشتّت :

- كيف خنتك يا سراج؟ ما الذي تقوله؟
- خنتِني قبل أنْ نلتقي . خنتِ أحمد .
- لا أفهم شيئًا ممّا تقوله .
- قتلتِه ، وقتلتِني .
- وما شأنك أنت بأحمد . أخبرني أرجوك ما الذي يحدث .
- نحن واحد .

لم تكن غادة تفهم شيئًا ممّا يقول ، كانت تلمّ جسدها ، وتضع رأسها على ركبتيها ، وتبكي بصوت خافت مرتجف . وهو يمشي نحوها . أخذت تحاول قول شيء ما قبل أنْ يغمى عليها ، ويدا سراج تنزلقان على عنقها المتعرّقة .

***

تأزّم حال المدينة أكثر منْ ذي قبل ، عندما أخذت وسائل الإعلام تنشر خبر اختفاء المرأة الخامسة ، وازداد ذلك التأزّم حينما كتبت صحيفة خبرًا منْ أنّ عناصر الأمن قد عثرت على جثة في أحراش (متنزّه عمّان القوميّ) . لكنّ الصّحيفة فيما بعد نشرت خبرًا مفاده أنّ الجثّة تعود لامرأة أخرى ، وأنّ الجريمة لا علاقة لها بجرائم السّفّاح . صارت حركة النّساء خفيفة في المدينة ، وفي اللّيل تكاد تكون معدومة . وسادت المدينة أجواء من الحذر والتّرقّب والخوف . تعالت أصوات جديدة تطالب بالكشف عن لغز اختفاء النّساء الخمس . ما عاد للنّاس منْ حديث غير خبر اختفاء النّساء ، حتّى إنّ النّاس ما عادوا يصدّقون أنّ عدد اللّواتي اختفين فقط خمس ، إذ انتشرت شائعات تقول إنّ العدد تعدّى المئة ، وإنّ الحكومة تتكتّم على الحقيقة . أخذ التّجار يتذمّرون جرّاء تراجع الإقبال على البضائع النّسائيّة . فقد

قدّمت لائحة إلى مجلس النّواب موقعة باسم تجّار العطور ومُواد التّجميل، والملابس، ونوادي تخفيف الوزن، وكثير منْ أصحاب المحالّ ذات البضائع النّسائيّة. فقد ضربت المدينة أزمة اقتصاديّة، وبات الوضع أكثر سوءاً ممّا هو عليه منْ قبل. وراجت شائعة جديدة تفيد بأنّ أحد المشعوذين يصنع حرزًا يحمي النّساء منْ فتك السّفّاح، وبالفعل تدافعت النّساء بحماية منْ رجالهن على بيت ذلك الرّجل الذي يسكن في غرفة في جبل النّصر. وحينما علمت الأجهزة الأمنيّة بما يحدث اعتقلت ذلك الرّجل وأودعته السّجن بعد أنْ تمّت محاكمته.

أمام هذا التّأزّم لم تجد الحكومة مخرجًا إلا أنْ تعلن عنْ إلقاء القبض على السّفّاح، وأنّ التّفاصيل لأسباب أمنيّة سوف تعلن لاحقًا. لهذا أخذ الهدوء يعود شيئًا فشيئًا رغم التّوجّس والحذر.

ربط عدنان البادي وهو يتحدّث لأحد معاونيه في مكتبه بين اختفاء النّساء الخمس وغاليري (الحواسّ الخمس) وما فيه منْ طوابق خمس. وبين القصر الذي شاهد فيه ستّة غرف، حينها توقّع أنّ سيّدة سادسة ستختفي، وتيقّن أنّ سراج عزّ الدّين هو سفّاح المدينة. لكنّه رأى أنْ يضعه تحت المراقبة، للوصول إلى ضحيّته الجديدة، وإلى اللّحظة المناسبة التي يفترض أنْ يتمّ إلقاء القبض عليه فيها.

مذكّرات سراج

٥

ربّما أني لم أحبّ جينفر كما ينبغي لرجل أحبّته امرأة ، قلبها يشبه بحيرة وادعة تتوسّط عشبًا لا يفارقه الاخضرار . لكنّها جعلت لها في قلبي مكانة متفرّدة ، لا ينافسها عليها أحد ، مكانة تبدو أسمى منْ مكانة الحبّ الذي مثله مثل كثير من الأشياء ينتهي رغم إيماننا بأبديّته . ليس لأنّها امرأة جميلة وثريّة ، بل لأنّها المرأة الوحيدة التي قرأت دفتر قلبي بعين قلبها ، وهي تراقب عن بعد ، ما خفي بي منْ آثار الوجع ، وما ظهر . إنّها منْ أولئك الأشخاص الذين تشعر أنّهم مثل نصف لصورة ، ما إنْ يلتصق بالنّصف الآخر حتّى يتّضح المعنى . ونحن في هذه الحياة محض كائنات تبحث عن معنى لوجودها ، ولا تتوقّف عن طرح الأسئلة .

اتّصلت بي ذات مساء جاء بعد دعوتها لي على العشاء في تلك اللّيلة ، وقالت بصوت هادئ ، تمهّد الطّريق إلى صفحة أخرى منْ صفحات معرفتها بي :

- الذي ينقذ طائرًا علقت جناحاه بأسلاك شائكة ، ويطلقه إلى شهوته بالتّحليق ، فقد حلّق دون أنْ يعي ، ودون أنْ يحسّ أنّ هذا الطّائر سيبقى يخاف الجميع ، فلا يأمن أنْ يحطّ إلا على كتف مَنْ تكبّدت يده عناء تمزيق تلك الأسلاك ، حتّى لا تُكسر تلك الأجنحة ، ولا تموت فكرة الطّيران .

كان في صوتها توق كبير نحوي ، وصدق ما كان بإمكاني أنْ أبقى صامتًا إزاءه ، لهذا رحت أطرد كلّ الخيالات التي تقف لي بالمرصاد ، وهي تأتي من الماضي اللّعين :

- تستحقين التّحليق يا جينفر ؛ لأنّي أحس بجناحيّ يصفّقان بيسر .

في ذلك اليوم ذهبنا إلى حديقة (أولبريتش) الشّاسعة التي تشبه صورة الفردوس في مخيّلات البشر . بقينا نتحدّث إلى أنْ حلّ الغروب ، فغادرنا إلى مطعم في ماديسون وتناولنا العشاء . ونحن في طريق العودة طلبت جينفر أنْ أعمل معها في مجال العطور . قالت إنّ ما أمتلكه منْ حسّ يجب أنْ يبلور في عطور تصل للنّاس ، كما تصل القصائد لعاشقيها . وأوّل عطر عليه أنْ يصنع هو العطر الذي ابتكرته : (حاسّة مضيئة) ، وسيسجّل باسمي إنْ وافقت .

قالت حينما رأتني أصمت إزاء هذا العرض :

- الرّجل الذي يمتلك القدرة على أنْ يجعل المرأة تنسى كلّ الإساءات التي آلمتها ، رجل جدير بالحبّ .

عند باب بيتي هبطتُ من السّيّارة دون أنْ أنطق بكلمة واحدة . بقيت حائرًا في مكاني ، كأنّني في منتصف عاصفة تطوف ألسنة رياحها حولي . لكنّ صوتها حينما نادت باسمي جاء كالمطر الذي جعل تلك العاصفة تتراجع :

- ما بك يا سراج؟

عدت إلى داخل السّيّارة حيث تجلس جينفر في المقعد الخلفيّ ، وعانقتها :

- ما إنْ أفرغ منْ إجراءات استقالتي منْ عملي في الفندق حتّى أكون معك .

قلت ممازحًا :

- وهل لواحد مثلي أنْ يرفض عرضًا سخيًا مثل هذا .

بعد أسبوعين منْ ذلك اليوم ، وقبالة الشّرفة التي تطلّ على وسط ماديسون ، جلست وراء طاولة مكتبي في الطّابق الرّابع في مصنع جيرهارت للعطور . كنت أعي أنّ جينفر قد كافأتني بسبب ما فعلته لأجلها منْ جهة ، ومنْ جهة أخرى رغبت بأنْ تستثمّر خبرتي الفطريّة في ابتكار العطور . منذ ذلك اليوم رحت أمضي كثيرًا منْ وقتي في البحث في مجال العطور . ما وجدت كتابًا حول هذا الشّأن إلا وقرأته باهتمام ، أضيف لحاسّتي الفطريّة في الرّوائح ما يمكن أنْ يجعلها أكثر قوّة .

بعد عام منْ عملي في المصنع أُنتج عطر (حاسّة مضيئة) ، وأطلق في حفل كبير جاءت إليه وسائل الإعلام منْ مختلف أنحاء العالم ، وتصدّر شاشات التّلفاز فيلمٌ دعائيّ لذلك العطر مرفق به عبارتي حوله ، والممثّل يردّدها (ثمّة حاسّة مضيئة داخل كلّ إنسان غير الحواسّ الخمس التي نعرفها ، بإمكانها - إنْ لم تنقذه ممّا سيحدث مستقبلاً- أنْ تجعله يتجاوز ألمه) . بينما صورتي تأخذ كلّ مساحة إحدى جهات علبة العطر الفاخرة .

في الحفل لم تفارقني جينفر . كلّما ابتعدت تعود إليّ تضع يدها بيدي ، بينما المصوّرون يلتقطون لنا صورًا ، نشرت فيما بعد في المجلاّت والصّحف ، مرفقة بخبر مفاده أنّ السّيّدة جيرهارت تعيش قصّة حبّ جديدة مع رجل عربيّ .

ليلة ذلك الحفل خرجت بمعيّتها إلى العشاء ، حيث رتبتْ لذلك

اللّقاء في ركن مخصّص لي ولها في المطعم الذي كانت عبر نافذته تلوح بحيرة ميندوتا وادعة وساكنة . سقطت على المكان أضواء خافتة ، خلقتْ حميميّة ازدادت مع نقرات بيانو كانت تؤدّيها فتاة عزفت (ضوء القمر) لبيتهوفن . أتى النّادل وسكب لنا كأسي نبيذ كانت حمرته تتوهّج أكثر بفعل شمعة توسّطت الطّاولة .

كانت جينفر جميلة أكثر منْ ذي قبل في ذلك المساء . تتحدّث وفي عينيها بريق خاطف من البهجة ، وفي وجهها شمسُ مَنْ تعافى ممّا يوجعه . قلت لها بعد سهو بها استمرّ طيلة حديثها عن عشقها للعطور :

- كنت أرى صورك وأخبارك في مختلف وسائل الإعلام كأيّ نجمة عالميّة . حينما حملتك من الفندق يوم الحادثة قلتُ في نفسي - والأمر يختلط علي - إنّ ذلك مجرد شبه . لكنْ حينما التقينا فيما بعد تساءلتُ : ما الذي ستجنيه امرأة وكلّ الأضواء تهفو إليها منْ عامل تنظّيفات في فندق؟ في حفل إطلاق العطر كان الرّجال يحومون حولك كالفراش حول الضوء . كلّما التفّوا حولك رأيتك تفتّشين عنّي ، وتقتربين كأنّ لا أحدَ في ذلك المكان ، وفي عيونهم تساؤل عن هذا العربيّ الصّامت .

قالت وهي تضع كوعيها على وجه الطّاولة وتقترب بحيث صار لأنفاسها أنْ تلفح وجهي :

- كلّ ما تراه محض عالم وهميّ يا سراج . أنت الحقيقة الوحيدة في عالمي هذا .

كانت عازفة البيانو ما تزال تنثر في المكان روح بيتهوفن ، وجينفر توغل في حديثها :

- الأمر أبعد منْ فكرة أنْ ينقذ رجل امرأة . هذا يحدث في أيّ مكان من العالم . لكنْ أنْ يأتي رجل لامرأة قرّرت أنْ تنتظر النّار لتنهي حياتها في لحظة سريعة ، وتبعًا لقرار سريع ، ويدرك ما الذي يجري ، فهذا حدث لا يتكرّر كثيرًا . أنت أنقذتني من الوهم ، وهذا ما جعلني أتقرّب منك أكثر .

انتشرت في وجهها ابتسامة عريضة :

- شيء مثير لانتباه القلب أنْ تصادف امرأة عامل تنظيفات يرسم ، ويفهم بالموسيقى ، وبالعطور ، وله نظرة متميّزة حيال الكون . قلت في نفسي بعد لقائنا الأوّل : لا بد أنّ في حياة هذا الرجل - الذي دون أنْ يدري خلّصني منْ وجعي- ما يؤلمه . لكنْ في أحيان كثيرة يغدو نبشنا في دفاتر مَنْ يعنون لنا شيئًا أمرًا خاطئًا . الأمر ليس متعلّقًا ببوح يفضي إلى الرّاحة والتّخلّص منْ تلك العوالق ، إنّما يعني هذا أنّنا ربّما نقطع طريقه في تخلّصه ممّا يقلقه .

احتضنت يدُها يدي :

- رأيت ما في دواخلك على وجهك يا سراج ، وحينما تقرّبت منك ، لم أتقرّب لأساعدك على التّخلّص ممّا أنت فيه ، إنّما لأنّي وجدت روحي تتخلّص منْ قلقها بمعيّتك .

بعد أنْ فرغنا من العشاء أمرت جينفر السّائق بأنْ يتركنا ويعود ، ثمّ طلبت منّي أنْ نمشي في الشّوارع . كانت كمَنْ يقاتل لأجل لحظاته السّعيدة ، ويسعى إلى أنْ لا تنتهي ، ونحن نتبادل النّكات والضّحك والقفز منْ رصيف إلى رصيف . لأوّل مرّة منذ مجيئي منْ عمّان يساورني الفرح بكلّ ذلك الألق . ولأوّل مرة لم تهاجمني أطياف كوابيسي ، وعوالق الماضي . كنّا كطفلين عائدين منْ حفلة سيرك ، نملأ

الشّارع هزلاً ومرحًا . حملتها على ظهري وقدماها تتأرجحان في الهواء كجناحي طائر يرفرف في الهواء .

في قصرها لم تأبه جينفر بالحرّاس ، وبمن يعملون هناك . تراكضنا حول حوض السّباحة ، ثمّ ألقت بي إلى الماء فجأة ولحقت بي . كان الماء دافئًا كدفء وجهها وهي تقترب منّي وتضع يديها على وجهي فتحتضنانه ، فكانت القبلة الأولى بيننا . في غرفتها الوثيرة خلعنا ملابسنا المبتلّة بلهفة ، واستلقينا في السّرير نسعى إلى عناق حميم . في البدء صرنا جسدًا واحدًا ، لكنّ انفجارًا لمشاهد لريفال وسليمان الطّالع حالا بيني وبينها .

كأن جبلاً من الجليد حلّ بيننا ، لم أستطع أنْ أخترقه حتّى بالتّحايل والإيهام . كلّ ما فعلته أنّي وضعت رأسي على ركبتي ورحت في بكاء مرير ، دون أنْ أقوى على قول كلمة واحدة قبل أنْ أغادر ، وأترك جينفر صريعة تساؤلاتها .

***

مكثت لثلاثة أيام في البيت دون أنْ أخرج للعمل . كنت رهينة حالة نفسيّة مشوّشة . هاتفي وباب البيت مغلقان . مثلهما مثل كلّ شيء في حياتي التي بات يلفّها القلق والتّشظّي أكثر منْ أيّ وقت مضى . عند المساء قرع الباب ، كنت أعرف أنّ جينفر سوف تأتي ، لذا تأهّبت إلى أنْ أخبرها بكلّ شيء . كان عليّ أنْ أقول كلّ شيء لامرأة أحبّتني بكلّ ذلك الصّدق ، بعد أنْ ألقت وراء ظهرها كلّ ذلك العالم الذي رأته وهمًا لا يحقّق لها لحظة سعادة كالتي سعت إليها بمعيّتي .

حينما فتحت الباب أطلّ عليّ رجلان ، أبرز أوّلهما بطاقة أشارت إلى أنّه محقّق في الشّرطة . حينما وجدوا كلّ ذلك الكسل والبلادة

والإعياء يسيطران عليّ قيّدوني بهدوء ثمّ اقتادوني دون أنْ أعلم ما الذي يحدث. حينما وصلنا مبنى الشّرطة أودعوني غرفة تحقيق يسقط فيها ضوء على طاولة مستطيلة زوّدت بكرسيين، ومروحة في السّقف، وأخبروني أنّ جينفر قد قتلت. لم يطل الوقت ليكتشفوا أنّ ديفيد آدمز عشيقها السّابق هو مَنْ قتلها بعد أنْ امتلأت الصّحف ونشرات أخبار التّلفاز بأخبار تشير إلى أنّ جينفر جيرهارت قد قتلت على يدي عشيقها العربيّ. بتّ أشهر منْ نار على علم في أمريكا، وفي باقي بلدان العالم لمرتين: مرّة حينما ألقوا القبض عليّ في المتجر يعتقدون أنّي إرهابيّ، والثّانية حينما اتّهمت بقتل جينفر جيرهارت.

(إذن ماتت جينفر!)

تمتمت بسرّي وأنا أعود إلى بيتي، وقد أطلق سراحي، بعد أنْ أوسعتني (فلاشات) الكاميرات وعيون كاميرات المحطّات التّلفزيونيّة صوراً، وأسئلة منْ مندوبي تلك المحطّات والصّحف عن ردّة فعلي حول موت جينفر، وما اتّهمت به. فما نطقت بشيء.

بدت لي شوارع ماديسون ضيّقة، والمدى معتمًا رغم جسارة الشّمس في إبريل الذي عادة ما يثير في النّفوس أغاني البهجة. ثمّة لحن موغل بالأسى كان يجيء منْ شرخ في روحي، ويثير بي رغبة عارمة للبكاء. كان صوت جينفر يأتيني صافيًا ورقيقًا منْ جعبة الذّاكرة. وهي تحكي لي عن العطور كأنّها مقطوعات موسيقيّة، وعن الحبّ الذي على حدّ قولها لم تحظَ به حقيقيًا إلاّ حينما التقت بي، وعن المدن التي لا تقدّم لك فرحك بكلّ السّهولة التي يعتقدها الآدميّ.

عند قبرها الذي بدا كأنّه يستلقي على العشب، ألقيت وردة

وجلست أحدّق بالمدى الأزرق الصافي ، وبالشاهدة التي نقش عليها اسمها وتاريخ وفاتها . كان صوتها يجيء لي بكلّ تلك الرّقّة التي مسحت شواطئ روحي بسكينة لن أنساها ، كأنّها معي ونحن نمشي في شوارع ماديسون :

(لا معنى للوجود دون أنْ تفهم أنّ رائحة الأشياء تؤلّف اللّحن الأبديّ الذي لم ينصت له الجميع كما ينبغي لإنسان يسعى لفهم الحياة وحقيقتها الجميلة . العطر محاولاتنا الحثيثة للتّعبير عمّا تكتنزه هذه الحياة منْ جمال) .

في ذلك اليوم بقيت قرب الشّاهدة إلى أنْ غابت الشّمس كأنّها تعلن نهاية شيء غامض لم أستطع فهمه . حينما غادرت وصرت ببوّابة المقبرة ، ألقيت نظرة عميقة على القبر حيث رأيت جينفر تجلس على العشب ، تمسك بوردة وتشمّها بتلذّذ .

في بيتي وجدتُني أعود إلى عزلتي منْ جديد ، تهاجمني الكوابيس ، وتساؤلات الحواسّ ، وجبل الجليد الذي يجثمّ على صدري دون رغبة لي بأيّ شيء في هذا العالم .

بعد أيام قرع باب بيتي منْ جديد . كنت أتساءل عمّن أتى إليّ وأنا أمشي متثاقلاً دون رغبة منّي أنْ ألتقي أحدًا ما دامت جينفر رحلت عن هذه الحياة . حين فتحت الباب وجدت رجلاً في الأربعين منْ عمره ، عرّفني بنفسه بعد أنْ صافحني :

– أنا المحامي دانيال جون منْ مكتب المحامي جوزيف إيثان .

طلب أنْ يدخل لنتحدّث قليلاً ، فسار نحو صوفة في الصّالة وجلس ، ثمّ أخذ يحدّق بي :

– أبدي أسفي لما حدث للسّيّدة جيرهارت .

- لا بأس عزيزي .

قلت له ذلك ثمّ قدّمت له كوب قهوة ، وأشعلت سيجارة ورحت أدخّن منتظرًا معرفة سبب زيارة ذلك الرّجل .

- في الواقع أنا أتيت إلى هنا لأجل خبر سيفرحك كثيرًا .

قال ذلك وراح يتتبّع أثر ما قاله على وجهي الذي لم يجد به أيّ أثر لما بحث عنه ، فأكمل حديثه بنبرة متحمّسة :

- في الحقيقة حاولنا الاتّصال بك ، لكنّنا وجدنا هاتفك مغلقًا . عليك أنْ تراجع مكتب السّيّد جوزيف إيثان . فقد أوصت لك السّيّدة جيرهارت بنصف ثروتها ، والنّصف الآخر للجمعيّات الخيريّة .

بقي الرّجل يردّد كأنّه آلة ميكانيكيّة وهو يستغرب بلادتي :

- ألستَ فرحًا بالخبر؟

لم أكن أفكّر بالمال في تلك اللّحظة ، إنّما بما جعل جينفر تفعل ذلك ؛ إذ أخذت الصّور والأصوات تتتابع في مخيّلتي منذ حادثة الفندق حتّى اليوم الذي جلست فيه طويلاً قرب شاهدة قبرها ، أصلّي لأجل روحها النّقيّة في عالم لا تتوانى فيه كثير من الأيادي عن تلطيخ بياض إنسانيّته .

غادر المحامي بعد أنْ ضرب لي موعدًا في المكتب ، وبقيت أجلس قبالة النّافذة حيث بدت ماديسون كلوحة تؤثّثها البيوت والبنايات الشّاهقة والأشجار والبحيرة ، ومنْ ورائها صوت جينفر كأنّه لحن فلوت يصلح منْ هيئة الحياة في بالي المتعب .

***

مرّ عامان دون أنْ يفارقني طيف جينفر ، ودون أنْ تفارقني عيناها وهما تنظران نحو العالم ببراءة ، قليل منّا مَنْ يحتفظ بها وهو يتقدّم

بعمره . أرحت بدني في الكرسيّ وعيناي تنظران إلى صورتها وهي معلّقة في الجدار المقابل لطاولة مكتبي في مصنع جيرهات للعطور تبتسم لعدسة الكاميرا بفطريّة استثنائيّة .

تذكّرت كم كان التّحوّل صعبًا عليّ منْ سراج الهارب ممّا رآه في بيت رجل مدّ يده على جيب وطنه وصار ثريًا حتّى في العبارات التي يروّجها الإعلام لأجله ، إلى سراج الذي يمتلك أكبر مصنع للعطور في العالم ، وبحوزته أموال لا تأكلها النّيران .

عبر العامين المنصرمين لم أستطع أنْ أكون ذلك النّجم الذي يتصرّف على شاكلة جينفر حينما كانت تدير المصنع ، وتقيم حفلات لإطلاق العطر . رغم أنّ الإعلام ما توقّف عن متابعة أخباري ، وعن نشر أخبار وشائعات لم تحدث في الأصل كشائعة علاقتي بممثّلة شهيرة قامت بالترويج دعائيًا لعطر جديد ، قمت بتصميمه تخليداً لذكرى جينفر ، وقد حمل اسمها . كلّ ما كان يهمّني هو أنْ أمضي بدرب كانت جينفر تحلم بأنْ تذهب عبره إلى مناطق بعيدة منْ بهجة الإنسان بإنسانيّته .

ما إنْ ينتهي وقت عملي حتّى أعود إلى بيت جينفر حيث أقمت ، وأبقى فيه أترك لكلّ حواسّي أنْ تتبّع أثرها معاندًا فكرة موتها المفاجئ ، ورحيلها الذي جعلني ، رغم كلّ الصّخب الذي حولي ، كائنًا يفهم ما معنى أنْ تكون وحيدًا قبالة كلّ ذلك الضّجيج . أخرج لمرّات قليلة إلى حيث جمعتني اللّحظات بجينفر ، وأعود وحيدًا لا ألوي إلاّ على ذكريات لولاها لتمكّن منّي نوع غريب من الهشاشة ، وأخذني إلى هاوية لا عودة منها .

في السّنوات الأخيرة أخذت عمّان تلحّ على باب القلب بقوّة تمامًا

كأمّ تشيّع صوتها عبر الرّيح لابنها الذي لا يكتمل معنى حضنها إلا بوجوده قريبًا ومعافى منْ كلّ شوك الغياب .

في وقت متأخّر منْ ليل ١٧ ديسمبر ٢٠١٠ ، وحيث كنت أشاهد التّلفاز ، أخذت نشرات الأخبار تعرض فيلمًا لشاب تونسيّ يشعل النّار بنفسه ، احتجاجًا على مصادرة السّلطات عربة الخضار التي يعتاش منها ، وعلى الصّفعة التي وجّهتها له شرطيّة أمام الملأ . ما هي إلا أسابيع قليلة حتّى غادرت ويسكونسن عائدًا إلى عمّان ، حيث كلّما كانت الطّائرة تصعد درج السّماء ، يصغر كلّ شيء ، ويسكونسن ، المقبرة ، بحيرة ميندوتا ، وفي جعبة القلب كمَنْ يخبّئ شيئًا في جيبه ، كنتُ أنصت لصوت جينفر وهو يتناهى لمسامعي هامسًا لي بمعنى مختلف للحياة . الحياة التي كلّما تلطّخ جبينها بالوحل لا بد أنْ تجد يدًا تحمل الماء إليه ، فيعيد إليه ألقه .

الفصل السّادس

لست إلهًا حتّى أرى في الما وراء ، لكنّي كنت أعوّل على حواسّي أنْ تضع في طريقي إشارات تنبئني عمّا يمكن أنْ يحدث . إنّه الحدس ، الحدس لا غير .

سراج عزّ الدّين

١

كان سراج يجري مكالمة هاتفيّة ، وهو يقود سيّارته مقتربًا من البوّابة يتأكّد منْ أنّ الخادمة التي عهد لها بالاعتناء بأبناء غادة تقوم بعملها ، فقد مرّ شهران على اختفاء والدتهم . حينما أنهى مكالمته هبط منْ سيّارته وصافح كنان ، بعد وقت منْ جفاء حدث حينما رآه بمعيّة وداد في غرفتها في تلك الظّهيرة التي لا يحبّ أنْ يستعيدها . تذكّر وهو يتفرّس بوجه كنان تلك اللّيالي التي أمضاها بمعيّته يتحدّثان عن الكتب ، إلى أنْ أدمن كنان القراءة ، فتحوّل إلى شخص غير الذي عرفه في تلك الظّهيرة في وسط البلد . أخبره أنّ ثمّة مفاجأة ستكون على مسرح دار الأوبرا في الغاليري ، وأنّ عليه أنْ يكون هناك هو ووداد . وأخبره أنّ الغاليري بدأ منذ أسابيع بالإعلان في الصّحف ، وسائر وسائل الإعلام عن إطلاق تلك المفاجأة ، وأنّ الدّعوة عامة . كان كنان يهزّ رأسه وسراج يحدّثه ، وثمّة حزن يخيّم على وجهه الذي كان متعبًا . صمت سراج لبرهة من الوقت ، ثمّ حدّق بوجه كنان :

– ما بك؟

وكأنّ كنان كان ينتظر سؤالاً مثل هذا ، أخذ يتحدّث بانفعال لم ينجح بأنْ يقصي نتائجه عن بدنه الذي أخذ بالارتعاش :

– أشعر بعدة خيبات ، أولّها أنّي خنتك حينما استسلمت لوداد ، والثّانية حينما لم أستطع أنْ أمكث طويلاً في بيت خلا منْ عائلتي ، والثّالثة حينما وجدت أبي قد تحوّل إلى متطرّف بهذا الشّكل .

- هل تحبّها؟

قال سراج ذلك بعد أنْ جلس في كرسيّ قبالة البوّابة ، وراح يتأمّل عمّان منْ ذلك الجبل ، وقد لاح له مبنى غاليري (الحواسّ الخمس) ، وهو يقف قبالة البرج الذي تقع في آخر طوابقه مكاتب شركة سليمان الطّالع التّجاريّة .

جلس كنان على حافّة حوض نمت فيه ورود أزهار ، وحدّق بدوره نحو عمّان :

- حينما رأيتها للمرّة الأولى تدخل بمعيّتك إلى القصر اعتقدت أنّها محبوبتك . لحظتها غبطتك عليها ، فهي امرأة جميلة لم تنسَ ذاكرتي رائحة عطرها يوم تناثر في المكان . كانت النّظرة الأولى وهي تلقي عليّ التّحيّة بعد أنْ سلّمتَ عليّ كفيلة بأنْ تجعلني أخبّئ صورتها بجيب القلب . عيناها المبتسمتان دومًا ، أنفها الجميل ، وهو يقف أعلى فم يبدو لك جماله أكثر حينما تتحدّث ، وتبتسم . وصدرها المكتنز بتناسقه مع كتفين جمليتين يتّضح جمالهما حينما تضحك . أنا رجل لا خبرة له بالنّساء ، لذلك ربما يكون وصفي لما شعرت به ، وما زلت أحسّ به حيالها ، فطريًا . لكنّي سأخبرك بالمزيد يا سيّدي . فما جعلني أتعلّق بها هو ماضيٍّ الذي يشبه بيتًا مهدّمًا تعيث به الرّياح وحشة وبردًا ، في بلاد تجعلك تحسّ في أحيان كثيرة أنّها ليست لك ، إنّما لأولئك الذين يركبون السّيّارات الفارهة ، ويعيشون في بيوت فخمة لا تجرؤ حتّى على أنْ تقترب منها ، ويرتادون أماكن ستلفظك أبوابها لمجرد اقترابك منها . أولئك الذين أيقنت أنّهم سيحملون حقائبهم ويغادرون إنْ تعرّضت البلاد لشيء .

شيء موجع أنْ يطردك برد الشّارع إلى بيت يترع بالبرد . لم أقل

لك يا سيّدي إنّ هذا البرد يطاردني منذ أنْ وعيت على الدّنيا فوجدتني أصغر الأبناء لعائلة كبيرها قاطع طرق، ومحصّل إتاوات، تحوّل فيما بعد إلى زعيم جماعة لا ترى الحياة إلاّ عبر ثقب ضيّق ابتكرته هي. حينما وجدتني وحيدًا دون عائلة، وفي بلاد عليك أنْ تعتمر قبّعة القسوة لتعيش، بتّ أنتظر لحظة الانهيار، لهذا كنت أهرب إلى الكتب التي قدّمتها على رغيف الخبز حتّى أحيا، إلى أنْ جئتني أنت دون أنْ أدري أنّ القدر قد خطّ لي طريقًا إلى شكل فريد من الأمان، حظيت به بمعيّة امرأة ليست لي. امرأة مثل وداد جعلتني أحسّ بأمان لم تطأ قدماه أرض قلبي منْ قبل. حينما دعتني إلى غرفتها في ذلك اليوم واقتربت منّي، كنت أعتقد أنّها أحبّتني مثلما أحببتها، إلى أنْ سمعتها تهذي بك، وتردّد اسمك وهي بحضني. إنّها أعالي القسوة يا سيّدي أنْ يجد الرّجل جسده جسرًا للعبور إلى رجل آخر. لهذا كنت على وشك المغادرة حينما فتحتَ الباب.

بقي سراج ينصت لكنان متفرّسًا بملامحه وهو يفتح دفاتره السّريّة له، إلى أنْ نهض ومشى نحو سيّارته، ثمّ التفت نحوه:

- عليك أنْ تكون أكثر شجاعة في حبّك هذا. حتّى الطّيور تدافع عن أعشاشها التي تجد فيها دفئها وأمانها.

***

لم تكنْ لكنان وجهة أخرى غير بيت عائلته التي ما تبقّى منها أحد، حينما غادر في إجازة ليومين. عبر الطّريق المنحدرة نحو الشّارع الرّئيسيّ الذي يدخل عمّان منْ جهتها الغربيّة، كان القصر وراءه يصغر شيئًا فشيئًا، وهو يلتفت نحوه، كأنّه ذكرى راحت الأيام تحتّها بريحها العاتية. استعاد وهو يمشي بتمهّل ما قاله لسراج، وتأمّل المرّات القليلة

التي تحدّث فيها لوداد، فغمرته مشاعر دافئة، تلاشت حينما تذكّر ترديدها لاسم سراج وهي في حضنه، وأنفاسها الحارّة تلفح عنقه. شعر بحنين لأمّه وتمنّى لو أنّها ما تزال على قيد الحياة، يلقي برأسه على صدرها ويبكي إلى أنْ يغفو كمَنْ قال كلّ شيء لديه واستراح. شعر بحنين لأبيه. لكنّ الصّورة التي رآه عليها وشاشات التّلفاز تتناقل بياناته الحادّة، وأحكامه المسبقة ما عادت تعنيه.

مرّ بكشك بطرف الشّارع، واشترى صحيفة، ثمّ صعد الحافلة التي ستقلّه إلى مجمّع رغدان حيث سيستقلّ (السّرفيس) إلى الحيّ الذي يقع فيه بيته. ارتدى نظّارة أخذ باستعمالها مؤخّرًا منذ أنْ وجد نفسه يدمن القراءة. قرأ عناوين الصّفحة بعجالة، لكنّ عينيه استقرّتا على خبر يتحدّث عن هروب المسؤول عمّا سمي بمكاتب البورصة التي أودع النّاس فيها بهوس أغلب ما يملكون، وبين ليلة وضحاها طارت أموالهم وطارت أحلامهم بالثّراء السّريع. قرأ خبرًا لا يبتعد عن صلب الموضوع، مفاده أنّ عددًا من المودعين أموالهم لدى تلك المكاتب قد أصيبوا بأزمة قلبيّة، منهم مَنْ فارق الحياة ومنهم مَنْ يرقد على سرير الشّفاء. رأى عنوان مقالة تتحدّث عن سفّاح المدينة، لكنّه لم يقرأ تفاصيل الخبر. طوى الصّحيفة ووضعها في الفسحة الجانبيّة بين كرسيّه وجدار الحافلة التي لم يكن فيها سوى ستّة رجال وامرأة عجوز يشارف عمرها على السّبعين، ترخي يديها على عكّازها، وتحدّق بوجوه ركّاب الحافلة. تنصت بصعوبة لرجلين كانا في البدء يتحدّثان عن هروب مَنْ أسّس مكاتب البورصة، ثمّ راحا يتحدّثان عن سفّاح المدينة. كلّما استصعب عليها السّمع تمدّ رأسها إليهما، وحين تلتقط الكلام تعود إلى الوراء وتهزّ رأسها. فجأة وكأنّها شريكتهم في

الحديث ، أخذت تدقّ عكّازها بأرضيّة الحافلة ، وتوجّه الحديث للرّجلين :

- ما عاد للنّاس صبر ، يريدون الأشياء أنْ تأتي بسرعة ، لهذا غرّر بهم ذلك اللّص . وهاهم منذ زمن منشغلين بالسّفّاح . كلّهم يتحدّثون عنه كأنّهم رأوه . صارت النّساء تخشى حتّى الذّهاب إلى الحمّام ، خوفًا منْ هذا السّفّاح . زمان وحينما كنّا شبابًا لم تكن عمّان على هذه الشّاكلة . الآن يقتل الأب أبناءه . ويذبح الابن أمّه ، ويقتل الصّديق صديقه . جرائم بشكل يوميّ . لا أدري ما الذي غيّر هذه المدينة .

عبر نافذة الحافلة رأى كنان الشّوارع وقد خلت إلاّ منْ عدد قليل من النّساء . راقب النّوافذ والشّرفات ، إذ كانت خاوية . أحسّ بأنّ مزاجًا سوداويًا يحتلّ كلّ شيء . لم يجد تلك المتعة التي كان يحسّ بها وهو يرى الأشياء عبر نافذة الحافلة التي اعتاد أنْ يستقلّها فقط ليحدّق عبرها عملاً بهوايته المعهودة ، بل وجد شعورًا موحشًا يتسلّل إلى روحه ، ويزيدها بردًا . كنان يحبّ عمّان رغم شظف العيش الذي عاناه لزمن . يحبّ تنوّعها ، وتلك الألفة التي لمسها في حاراتها وأحيائها ، حينما كان يتجوّل فيها بشكل عشوائيّ دون أنْ تكون له وجهة معيّنة .

عندما وصلت الحافلة (مجمّع رغدان) وهبط منها ، رأى عددًا غفيراً من النّاس يتجمّعون حول شيء أثار فضوله . بصعوبة شقّ له طريقًا ، وإذا به أمام رجل دلق على نفسه مادة بتروليّة ، يمسك بولاّعة ، ويصرخ بصوت عال : «إنْ لم يأت مسؤول ويعدني بحلّ مشكلتي سأشعل النّار بنفسي» . بقي النّاس يتساءلون عمّا يريده ذلك الرّجل إلى أنْ عرفوا أنّه يعاني الفقر ، ولا يجد حتّى ثمن طعام أولاده . جاء

عنصران منْ عناصر الشّرطة ، لكنّهما لم ينجحا بأنْ يثنياه عمّا ينوي فعله ، إذ كلّما اقترب منه أحد ، أشعل الولاّعة مهدّدًا بإضرام النّار بجسده . تكاثر عدد النّاس حول ذلك الرّجل ، ومضت ساعات ولم يأتِ مَنْ يجعله يتراجع عمّا كان سيفعل ، حينها صرخ بصوت عال قبل أنْ يقرّب الولاّعة منْ ملابسه التي دلق عليها منْ جديد المادة المشتعلة :

(الحرائق قادمة ، ولا مهرب لكم منها)

٢

تأخّر صائد الثّعالب عن موعده المعتاد . وجد سراج هاتفه النّقّال مغلقًا حينما اتّصل به لمرّات ، وهو يراقب الطّريق بشيء من القلق ، لهذا يمّم شطر بيته . حينما وصل وجد زوجته جالسة قبالة البيت تحتضن رأسها بين يديها ، وبدنها يهتزّ يمينًا وشمالاً ، ولا يصدر عنها سوى أنين متقطّع ، بينما صغارها يجلسون حولها صامتين ، بشعورهم الكثّة ووجوههم المغبّرة التي اعتلاها التّعب . حينما جلس قربها وسألها عمّا حدث ، أخبرته أنّ زوجها اكتشف أنّ الشّقّة التي دفع لأجلها كلّ ما ادّخره محض وهم ، وأنّ البناية تعود لرجل آخر غير الذي كان يدفع له ، فأصيب بأزمة قلبيّة فارق على إثرها الحياة .

لم يدرِ لحظتها ما يمكن أنْ يقوله لامرأة باتت معيلاً لا يملك شيئًا لعائلة تعيش على هامش الحياة قبالة مدينة باتت البنايات تنمو بسرعة في تربتها كما ينمو (الغيصلان) . نهض ويداه ترتكزان على خاصرتيه ، وراح يدور حول نفسه ، بينما أخذ عويل المرأة يتصاعد إلى أنْ غرقت في نشيجها ، فغادر يكابد حزنًا جديدًا أخذ يجلد بدن روحه .

في طريقه نحو سيّارته وجد الصّندوق الذي حُشر فيه الثّعلب ، فحمله ووضعه في صندوق سيّارته ثمّ مضى . كانت سماء عمّان وهو يسلك الطّريق نحو قصره ثمّ منْ هناك سيهبط نحو المنحدر ، تضجّ بالألعاب النّاريّة ، وأضواء البنايات السّاطعة في ليلة خلت من النّجوم ،

ولم يشجّ عتمها لا نيزك ولا شهاب . عبر الطّريق التّرابيّة الهابطة نحو المنحدر بقي وجه صائد الثعالب معلّقًا في صدر مخيّلته ، وبقيت عباراته تتناوب على مسمعيه ، حينما كان يكركر ساخرًا ممّا يحدث .

ما إنْ وصل المنحدر حتّى أخرج الصّندوق من السّيّارة ، ووضعه على الصّخرة ، ثمّ حمل بندقيّته بيد ، وبالأخرى أخذ يحدث فيه فتحة . داخل الصّندوق كان الثّعلب مستلقيًا ، لا يتحرّك . ألقى ببندقيّته أرضًا ، وراح يمزّق الصّندوق وأنفاسه تتعالى لشدّة الغضب . (لقد مات الثّعلب) . قال ذلك وتراجع إلى الوراء ، ثمّ افترش التّراب ، بينما الثّعلب ممدّدًا على ما تبقّى منْ ورق الصّندوق ، ونسمة الهواء تهزّ شعره الذي سقط عليه آخر ما تبقّى في الشّمس منْ ضوء ، فبدا كما لو أنّه نائم بكلّ وداعة .

- ترك صيّادك ثقوبًا في هذا الصّندوق ليمرّ منها الهواء ؛ حتّى لا تختنق ، إذن كيف متّ بغتة؟ لن أصدّق أنّك اخترت موتك بكلّ هذه البسالة ؛ لتكفّر عمّا فعلت أيّها الماكر . ولتجعل ضحاياك يغفرو لك ما فعلت . تاريخك لا يشير إلى بطولة يمكن أنْ تقوم بها ذات يوم . البطولة وسام لا يناله إلا الذين خلت قواميسهم منْ معاني السطو .

لم يكن يريد أنْ يصدّق أنّ الثّعلب مات حقًا ، عاد إلى الوراء وحمل بندقيّته ، وصورة صائد الثّعالب وصوته يتناوبان على مسمعيه ، ومخيّلته ، إلى جانب صورة أطفاله وهم يتحلّقون حول أمّهم وهي تولول أمام بيت من الصّفيح ، سيجيء الشّتاء ، ويهزّه بعنف ، كما هزّت هذه العائلة محطّات كثيرة في هذه الحياة . صوّب البندقيّة نحو الثّعلب :

- سأقتلك ، حتّى لو متّ أيّها الماكر .

حشر الهواء في رئتيه ، وجعل شعيرة البندقيّة تقع على مرمى رأس

الثّعلب ، ولامس إصبعه الزّناد ، لكنّه ألقى البندقيّة من يده وهو يصرخ :

- ماذا أقتل فيك أيّها الميْت؟ ووراءك آلاف القتلى الذين لن تتحوّل جثثهم إلى جيف ، كما ستتحوّل جثتك إلى جيفة ستأكلها الغربان والطّيور الجارحة .

كاد سراج أنْ يغادر تاركًا الثّعلب ملقى في مكانه لولا أنّ الثّعلب فرّ فجأة ، ووثب وثبة طويلة أخذته إلى طريقه المتعرّجة . كانت البندقيّة قريبة منه ، فالتقطها بعجالة ، ثمّ سدّدها نحوه ، وهو يراه في مرمى الرّصاصة يكابد الصّخور ، والأشواك ، والمنعرجات ، ثمّ ضغط الزّناد ، فجاءت صرخته حادّة ، وقد تراكض صداها بين الجبال ، وتبعها صدى الرّصاصة يعلن نفوقه . بينما جلس سراج أرضًا بعد أنْ ألقى البندقيّة منْ يده ، كمَنْ يلقي شيئًا أصابه القرف منه .

بقيت الشّمس تهبط وراء الجبال إلى أنْ حلّت على المكان ظلمة دامسة سترت وجه سراج وهو يبكي بمرارة ، بينما صدى لناي رعاة حزين ، يتسلّل عبر دروب اللّيل ، ويحكي قصة أسى الإنسان الذي لا ينقطع .

٣

كان سراج قد وافق على أنْ تلتقي به ريفال في برنامجها الأسبوعيّ (السّرّ) ، الذي بات الكثيرون في موعد بثّه ، يتسمّرون أمام شاشات التّلفاز ، وبهم فضول لمعرفة أسرار ضيوف اشترطت عليهم إدارة البرنامج صراحة كبيرة في الإجابة . لم يفكّر بما سيقوله في برنامج مثل هذا يقدّم أسرار النّاس وجبة مجانيّة للفضوليين . ولم يفكّر بشكل اللّقاء بريفال بعد كلّ ذلك الغياب الموجع بينهما . كلّ ما فعله هو أنّه تأنّق كثيرًا ، إذ ارتدى ألوانًا كانت ريفال تحبّ أنْ تراها عليه ، واستخدم عطرًا ما يزال أثره عالقًا بتلابيب ذاكرته . في الطّريق إلى مقرّ القناة استمع إلى أغنيات قديمة أخذته إلى أيامه الأولى في حبّه ، وإلى حيث عرف المعنى الحقيقيّ للشّغف واللّهفة . بقي ينصت لكلماتها بتلذّذ إلى أنْ وصل في موعده قبل التّاسعة مساء بربع ساعة .

جاءت إحدى العاملات في طاقم البرنامج واصطحبته إلى الأستوديو حيث سيبثّ البرنامج مباشرة على الهواء . لم يكنْ يفكّر بشيء محدّد ، بل كان يتأمّل اللاشيء حينما جاءت ريفال ترتدي ثوبًا أسود مطرّزًا بخيوط حريريّة ، كان يحبّ أنْ يراها فيه ، وتستخدم عطرًا قديمًا طالما جعله يلقي برأسه على صدرها ، ويبقى يشمّه بعمق كمن يحوش الرّيح إلى رئتيه . ارتدت قرطين ، أهداهما إليها بعد زواجهما بعام ، اهتزّا في مهواهما حين مشت نحوه وصافحته .

بينما يده في يدها ، داهمت مخيّلته أغنيات عالقة بذاكرته ،

وضحكات ، وكلمات حميمة ، ونداءات حبّ دافئة . أحسّ برغبة عتيقة بالبكاء ، وألمّ به دوار جعله بحاجة قصوى لأنْ يرتمي بحضن أقرب مقعد ، وعيناهما تلتقيان بعد كلّ تلك السّنين من الحرائق والجليد والغبار الذي حلّ بينهما . ما كان يسمع شيئًا منْ جلبة الطّاقم الذي كان أفراده يهيّئون المكان للقاء ، بل كان ينصاع لخيط عتيق من الموسيقى ، كمَنْ استسلم لدفء بعدما اعتمر قبّعة في ليل حلّ عليه الصّقيع .

- كيف حالك؟

قالت وعيناها تنسحبان منْ مرمى البصر بينهما ، وتقفزان فوق كتفيه ، وتحدّقان بشيء مفترض . أجاب بصوت فشل في تقمّص الهدوء :

- بخير .

سحبت يدها منْ يده ، وبلهجة آمرة يشوبها الارتباك أخذت تحثّ الطاقم على أنْ يستعجلوا . ثمّ عادت تنظر إليه ، وشفتاها تفلتان منْ أسنانها التي كانت تحاول أنْ تمنعهما من الارتعاش . قالت بمهنيّة مفتعلة :

- يفترض أنّك اطّلعت على الأسئلة التي ستطرح في اللّقاء . ويفترض أنّك وافقت على أنّ هنالك الكثير من الأسئلة التي ستأتي بعيدًا عمّا زوّدناك بها سابقًا .

هزّ رأسه موافقًا على ما قالته ، ثمّ جلس في الكرسيّ المعدّ له . كانت عينا كلّ واحد منهما مصوّبتين نحو الآخر ، بينما فتاتان تضعان الميكرفونات في ملابسهما ، وتهيّئان جلستهما بشكل متوافق مع الكاميرا . ما هي إلا لحظات قصيرة وابتدأ اللّقاء على الهواء مباشرة .

ريفال : نطلّ عليكم هذا المساء ، ونحن نذهب بمعيّتكم إلى سرّ

جديد ، طالما تساءل عنه الكثير ، وودّوا لو يكتشفون ما وراءه . ضيوفنا يأتون إلى هنا بكامل استعدادهم للبوح ، وللاعتراف . تضمن لهم القناة حقهم في قول ما يريدون ، بما أنّهم يوافقون على التّساؤل عمّا نريد . برنامجنا ليس كرسيّ اعتراف ، رغم أنّه قائم على ذلك ، برنامجنا هو الطّريق إلى ما لا يعرفه الآخرون عمّن نستضيف . والطّريق إلى ضيفنا هذه اللّيلة مليئة بالفضول . هو مالك ومدير أكثر الأماكن غرابة ودهشة وجمالاً . شخص لا يحبّ الأضواء ، فلا يعرفه إلا عدد قليل ممّن يعملون معه . فنّان تشكيليّ ، تميّزه حواسّه الخمس المشتعلة ، وحسّه العميق باستشراف ما وراء الأشياء . رحبّوا معي بصاحب غاليري (الحواسّ الخمس) الفنّان التّشكيليّ سراج عزّ الدّين .

ريفال : هل حقًا لك قدرة على استشراف ما وراء الأشياء؟

سراج : لست إلهًا حتّى أرى في الماوراء ، لكنّي كنت أعوّل على حواسّي أنْ تضع في طريقي إشارات تنبئني عمّا يمكن أنْ يحدث . إنّه الحدس ، الحدس لا غير .

ريفال : ما الذي تريده منْ حواسّك؟

سراج : أنْ اقرأ ما يمكن أنْ يُكتب في صفحات أيامنا القادمة ، وبالتالي يصبح بإمكاني أنْ أطفئ بممحاتي المفترضة نارًا قادمة لتحرق الشّجرة .

ريفال : وهل كانت حواسّك وفيّة لك؟

سراج : لا ، للأسف .

ريفال : لكنّ اشتعالها رافقك منذ الصّغر ، فكيف خذلتك؟

سراج : الخذلان هو فقداننا لما كنّا نعوّل عليه . لكن كيف يحدث الخذلان؟ فهذه إجابة لا تملكها الضّحيّة .

ريفال : إذن تعترف أنّك ضحيّة؟

سراج : كلّنا ضحايا ، لكنْ بنسب متفاوتة . عامل التّنظيفات الذي يرى نفسه - بسبب نظرة النّاس إليه - أدنى البشر . اللّص الذي يقبع وراء القضبان في السّجن ، الفتى الذي قتل أخته لأنّها أحبّت ابن الجيران ، الشّاب الذي قطع رأس أمه تحت تأثير المخدّرات ، العاهرة التي تبيع جسدها وتعود مساء تحمل لأولادها طعامًا وفاكهة ، الفتى الذي تحوّل بين ليلة وضحاها لإرهابيّ ، الفقير الذي أحرق عائلته ، وأحرق نفسه كونه لم يجد ما يطعمها ، الكهل الذي رأيناه على شاشات التّلفاز يحمد الله أنّه يجد الخبز كلّ يوم في القمامة ، الذين باعوا أصواتهم بخمسين دينارًا لمترشّح متنفّذ يحلم بأنْ يجلس تحت قبّة البرلمان . كلنا ضحايا .

ريفال : لكنّك لست واحدًا ممّن ذكرت .

سراج : أنا كلّ هؤلاء يا سيّدتي .

ريفال : هل تحمل في دواخلك نقمة ما؟

سراج : لن أكون آدميًا إنْ قلت لا .

ريفال : ماذا لو آذاك أحد ما؟ هل تغفر؟

سراج : الغفران قدرة إلهيّة ، وأنا إنسان كلّ ما له أنْ يفعله هو أنْ يوهم نفسه بالنّسيان .

ريفال : ماذا تعني لك عمّان؟

سراج : إنّها المعنى الحقيقيّ للوطن . فالوطن ليس ذلك المكان الذي ولدنا فيه نحن أو آباؤنا فقط . بل هو أيضًا ذلك البيت الكبير الذي يمكن لنا أنْ نعرف فيه المعنى الحقيقيّ للدّفء .

ريفال :إذن لماذا غادرتها عام ٢٠٠١؟

سراج : الطّيور لا تغادر أعشاشها إلاّ حينما يطرد البردُ الدفءَ . منذ وعيت على هذه الدنيا وبي انتباه شديد لفكرة الوطن وحميميّته . الوطن فكرة ليست جامدة ، بل إنّها مرنة . الأمّ وطن ، والحبيبة وطن . والوطن حبيبة . إنّها ثنائيّة لا يمكن الفكاك منها . ترى ما الذي يحدث للآدميّ حينما ينهار إيمانه بشيء ما . إنّه يستحيل إلى كائن مشوّش ، مشظّى ، كائن مأزوم ، لا يستطيع أنْ يرى نفسه . وهذا ما حدث معي حينما هاتفني صديقي سعيد عبد الباري ، وطلب منّي أنْ آتي إلى فيلّلا سليمان الطّالع حيث يعمل سائقًا لديه . عبر تلك الكوّة في ذلك الجدار ، رأيت سليمان الطّالع الذي مدّ يده في جيب الوطن ، وتحوّل فيما بعد إلى شره يودّ ابتلاع كلّ شيء ، يضاجع زوجتي التي كانت لي وطنًا ، آخذ منه حصّتي من الدّفء ، ومنْ سكينة توازي ما يمنحها لي الوطن . لم أفعل شيئًا لحظتها . بقيت أمشي بتثاقل إلى أنْ وصلت البوّابة المطلّة منْ ذلك الجبل على عمّان ، إذْ رأيت دخانًا يتصاعد منْ بدنها . نعم يا ريفال الذي جعلني أغادر عمّان أنّي رأيتكِ بحضن سليمان الطّالع في ذلك اليوم .

أوقف المخرجُ بثّ البرنامج ، لكنّ ريفال سرعان ما أمرتْ باستئنافه ، وكأنّ ما سمعته محض خبر لا يعنيها ، ووجهها لا يشي بأيّ شيء ممّا في داخلها :

ريفال : بما أنّك قلت إنّ الغفران قدرة إلهيّة ، عليك أنْ تدرك أنّ الخطيئة حالة مرتبطة بالآدمي ، مادام هنالك غفران؟

سراج : بالطّبع أقرّ بذلك .

ريفال : لو قرّرت أنْ تسامح ، مَنْ تسامح فينا : أنا أم سليمان الطّالع؟

سراج : سأوهم نفسي بنسيان خطيئتك . أما سليمان الطّالع فلا يمكنني أنْ أنسى ما فعله ، كنتِ وطنًا دافئًا لي فسطا عليك ، ومنحني بردًا لا شفاء منه ، لهذا ما زلت أدثّر روحي بما يوهمني بنسيان البرد ، أما سليمان الطّالع فقد مدّ يده في جيب وطني ، وترك فيه نارًا ستأكل كلّ شيء ، لهذا يصعب نسيان ما فعل .

ريفال : أنا مَنْ سعت لمصيدة سليمان الطّالع . توهّمت أنّ ماله سوف يهدم مشاهد الفقر التي تحوّلت إلى حجارة في الذّاكرة ، كلّما ألحّت عليّ أصاب بالدّوار . عليكَ أنْ تعي أنّ ما منْ رجل يأخذ امرأة لحضنه إنْ لم ير ضوءًا أخضر في جبينها . كنت ممّن يعتقدن أنّ خيانة مثل تلك سوف تفتح لي آفاقًا جديدة ، وأكون ما أريد ، وتسدّ آفاق وجع الضّمير بزخّات ماء ساخن ، وينتهي الأمر . كنت ممّن يؤمن أنّ الخيانة ليست خيانة الجسد ، إنّما خيانة القلب ، هذا القلب الذي لم يرتطم به برق سوى برقك أنت . ولم تهطل منْ سمائه أمطار إلّا بسبب ارتطام غيمتي بغيمتك .

سراج : هذا تبرير وليس اعترافًا .

ريفال : لماذا عدت؟

سراج : حينما غادرت عمّان ووصلت ويسكنسون ، ورأيت الطّائرات تضرب برجيْ التّجارة العالمي ، فأدركت أنّ الدّخان الذي تصاعد منهما سيمتدّ إلى عالمنا العربيّ ، وحينما رأيت البوعزيزي يشعل النّار بنفسه أدركت أنّ الدخان سيتعالى أكثر ممّا اعتقدت . لهذا عدت ، فحينما تحترق الحقول لا مناص من اللّجوء إلى أشجارنا ، لعلّ في جذوعها ماء يطفئ النّيران . فإنْ احترقت نحترق معها .

ريفال : لماذا بنيت غاليري (الحواسّ الخمس)؟

سراج : ليكون شمسًا قبالة عتمة الذّاكرة ، وقبالة مخالب سليمان الطّالع .

ريفال : لكنّ المخالب لا تُواجه إلا بالمخالب .

سراج : إنْ رأى الثّعلب لوحة لصياد يحمل بندقيّة ربّما يهرب .

***

لم ينته البرنامج في موعده المحدّد في ذلك اليوم ، ولم تطرح ريفال كلّ الأسئلة التي أعدّتها لتلك الحلقة ، إذ فقدت قدرتها على الحوار . كلّ ما رغبت به هو أنْ تخلو إلى نفسها ، وتلوذ بالصّمت . ما إنْ أنهت الحلقة ، وغادر سراج حتّى أخذ سليمان الطّالع يقرع هاتفها النّقّال ، لكنّها أغلقته ، وبقيت لنصف ساعة جالسة في مكانها بعد أنْ غادر الجميع . أخذت ذاكرتها تمرّر أمام عينيها خيطاً نشرت عليه صورًا متسلسلة منْ حياتها ، فرأت أمّها وهي ترفو لها ثيابها الدّاخليّة في زمن العوز ، ورأت أوّل لحظات الاعتراف بحبّها لسراج . شاهدت عيني سليمان الطّالع وهما يخترقان ثيابها وهي تجلس في المقاعد الأماميّة للمؤتمر الصّحافي الذي أعدّته مجموعته التّجاريّة . استعادت ليلة قرارها بأنْ تمتثل لرغبة سليمان وكتاب ميكافلّلي ملقى على طاولة السّرير قرب رأس سراج وهو يغفو بكلّ سلام . شاهدت ورقة طلاقها المرفقة برسالة ليس فيها إلاّ سؤال موجع : (لماذا لم يكنْ لحواسي أنْ تنبئني بما حدث؟)

استعادت أغنية قديمة كانت تغنيّها بمعيّة سراج ، وأخذت تردّدها بصوت خفيض حتّى بعد أنْ نهضت ، وغادرت مبنى التّلفزيون .

٤

ما إنْ دخل رعد عبد الجليل بوّابة الفيلا حتّى أخبره الحرّاس الشّخصيّون لسليمان الطّالع أنّه بحالة سيّئة . فقد لاحظوا مع مرور الوقت أنّ ما منْ شخص يأنس له الطّالع إلا رعد عبد الجليل ، وما منْ أحد قادر على ثنيه عمّا يحدث له بعدما ثمل إلاّ هو .

لم يره رعد بهذا الحال منْ قبل ، حينما وصل مكانه المعتاد قرب حوض السّباحة كانت ملابسه مبتلّة ، إذ سقط في الماء فأخرجه الحرّاس . ولم يكن جالسًا في كرسيّه المعتاد ، بل كان يتطوّح بين شجر الحديقة حاملاً بيده زجاجة ويسكي . شعره منفوش ، ووجهه متهدّل ، وعيناه غائرتان . يسقط مرّة ، وينهض مرّة . يهذي بكلمات وعبارات متقطّعة ، غير مفهومة .

وقف رعد قرب الطّاولة التي وضع عليها زجاجات الويسكي ، وسكب كأسًا بعد أنْ أمر الحرّاس أنْ ينصرفوا ، وراح يشرب ، وهو يراقب هيئة سليمان الطّالع كيف يترنّح مثل ثور مصاب بعد تلقيه عدّة رصاصات في بطنه . كان رعد يستعيد معرفته بسليمان الطّالع عبر مشاهد بدا فيها متجبّرًا . تذكّر أيضًا ذلك الزّمن الذي كان فيه صحافيًا لا يهادن . بقي الطّالع يترنّح بين الأشجار إلى أنْ رأى رعدًا واقفًا ينظر إليه . حينها أسرع منْ خطواته المترنّحة إلى أنْ وصل لاهثًا ، وزبده يسيل منْ جانبيْ فمه :

– أرأيت يا رعد . كنت أراهن عليك . وها قد نجحت في رهاني .

قال ذلك ثمّ ارتمى في كرسيّه ، وشرب جرعة منْ زجاجته . ثمّ أخذ يكمل حديثه :

- لقد تحدّتني ريفال ، وخرجت منْ سجني . أما أنت فما زلت وفيًا لي .

جلس على ركبتيه ، واقترب منْ وجه رعد ، وقال بصوت حزين :

- في سجنكما حياة لي . لا يمكن أنْ أعيش وأحدكما خارج قضباني . حتّى أنا لست خارج قضباني .

وقف بعد محاولتين سقط إثرهما على الأرض ، وجاء صوته غاضبًا :

- ما نفع حريّتكما بلا ما تصنعه لكما سلطتي . ومع هذا أعطيتكما الحرّية .

ألقى بنفسه في كرسيّه ، وراح يسرّح بصره بالنّجوم وهي تتناثر في السّماء :

- ريفال ما عادت ريفال . حينما رأيتها في المؤتمر ذلك اليوم ، كانت تتلفّت كغزالة . لها عينان رأيت فيهما سرّ خلودي . أدركت حينها أنّي عثرت على ضالّتي ، وكنت أعي أنّها لنْ تقول لا ، رغم ما علمته عن حبّ سراج عزّ الدّين لها . سراج عزّ الدّين أووووو ، هذا الولد منْ نسل رجل بقيت أمامه لزمن أشعر بضعف كبير ، كاد يكسرني ، لولا خروجي من الحزب ، ومنْ نظرته المثاليّة . كنت أحسده على تصالحه مع نفسه ، وعلى ما يؤمن به ، وعلى شجاعته . لم يخطر ببالي أنّني كنت أنتقم منْ عزّ الدّين باختطافي لريفال ، خاصّة أنّها لمْ تمانع . لكنّ غبطة كبيرة كانت تصيبني ، حينما أتذكّره وهي بحضني

تفعل ما أريد . أعلم أنّها جاءت إليّ لتستلّ سيفي ، وتقتل به وحوش العوز . لذا أعطيتها ما تريد ، السّلطة ، المال ، وكلّ ما جعلها امرأة لا تتوقّف الأفواه عن تناقل أخبارها .

أجهشَ بالبكاء ، بعد أنْ احتلّ الحزن وجهه أكثر منْ ذي قبل :

- انظرْ . انظرْ إليَّ كيف ذاب كلّ شيء ، وتوارت كلّ أحصنة حيويّتي ، وخرجت منْ جحورها سلاحف كهولتي . أنا الآن كهل في غياب ريفال . سرّ خلودي بيديها ، إنّه تميمة لا يمكن أنْ يبقى مفعولها ساري إلا بوجودها . هاهي معه ، تكفّر بكلّ تلك السّنين التي منحتها لها ، وترتدّ إلى زمن لم يمنحها سوى الكلام .

شرب منْ زجاجته ، وألقى بها على الأرض ، فتناثرت شظاياها ، وعجّ الهواء برائحة الويسكي :

- أعرف لماذا لا تتكلّم . أنت مثلها يا رعد . سيأتي يوم ، وتكفر بما أنت فيه ، لتعود إلى ما كنت تؤمن به . لكنْ عليك أنْ تعلم أنّه حتّى البحر الميت لن ينظفّك ممّا علق بك . كنت فيما مضى أنوي أنْ أخرج على سجني هذا ، لكنّ النّاس هنا لا يغفرون .

صمت لقليل من الوقت ثمّ نهض وراح ينادي على حرّاسه :

- تعالوا خذوني منْ هذا الجبل إلى عبدون ، لا بدّ أنّ ريفال قد عادت ، وإنْ لم تعدْ ستجبرني على ما لم أردْه أنْ يكون .

بقي رعد عبد الجليل جالسًا في مكانه يراقب سيّارة سليمان الطّالع تغادر الفيلاّ ، وقد نسي هاتفه النّقّال ، إذ راح يتصفّح الرّسائل ، والأرقام التي يتواصل بأصحابها .

***

حينما وصلت بيتها عائدة منْ برنامجها التّلفزيونيّ ألقت ريفال ببدنها في السّرير ونامت، رغم عدم حاجتها للنّوم. قبيل طلوع الشّمس وجدت أنّ سليمان الطّالع لم يعدْ إلى البيت. لم تتّصل بحرّاسه، ولم تسأل رعد عبد الجليل عنه، فعادت تكمل نومها كمَنْ يقع تحت تأثير عقار منوّم. استفاقت عند الظّهيرة، وجلست في الشّرفة، تنظر إلى غاليري (الحواسّ الخمس). كان المدى صافيًا لا يتحرّك فيه سوى بضعة طيور، وعدد من الطّائرات الورقيّة. كانت تتمتم بسرّها، وحنين يرافقه حزن يستبدّ بها:

- كأنكِ حينما تحدّثتِ إليه في ذلك اليوم عن ميكافلّلي، كنت تعطينه الإشارة الأولى لما ستفعلين. كان عليكِ أنْ تتراجعي لأجل حياة لن يمنحها لك رجل سواه. رجل كان يسند روحك بحبّه الذي تحتاجه بلاد لتفلت الصّباحات ممّا يكتم أنفاسها. كيف كان لك أنْ تكسري قارورة العطر تلك، وأنت تعلمين أنّك تحبينه، كما تحبّ الأشجار مسكنها على ضفّة النّهر. بقيت يابسة كلّ تلك السّنين التي سكنت بحرًا مالحًا، وبقي هو نهرًا لا تسكن ضفّته شجرة. ظلت مياهُه طريقها.

بقيت ريفال جالسة في الشّرفة حتّى العصر، تقلّب دفتر أيامها، وتفتّش عن صفحة جديدة، تأخذها إليه ليكتبها منْ جديد؛ لذا نهضت وغادرت متعجّلة إلى قصر سراج الذي مرّت ذات مساء بقربه، يدفعها إليه كثير من الحنين. لم يسألها كنان حينما مرّت عبر البوّابة؛ فقد شاهد البرنامج مثله مثل الكثيرين الذين أعادوا في الفيس بوك نشر تسجيل للحلقة، مرفقًا بعبارات تخبر مَنْ قرأها بأنّ ثمّة أسرارًا واعترافات خطيرة في هذا الفيديو.

أمام الباب وقفتْ لقليل من الوقت ، تستجمع أنفاسها ، وتضبط لهفة يخالطها الكثير من الخوف كمَنْ عثر على بصيص ضوء في متاهة معتمة . لم تدرِ أنّ سراجًا رآها عبر النّافذة تهبط منْ سيّارتها ، ومشت تكابد خطواتها المرتبكة .

رأته وداد يهبط الدّرج مسرعًا وفي وجهه فرح لم تره منْ قبل ، ولم تره يجاهد بأنْ يضبط أنفاسه المتصاعدة مثل تلك المرّة .

كأنّه لم يكن ضيفها في التّلفزيون ، وجد سراج نفسه ينظر في وجه ريفال ، وهي تقف قبالته ساهمة كمّنْ بنظر إلى شيء بعيد . يداها ترتخيان إلى الأسفل ، وفي عينيها دموع على أهبة أنْ تسحّ على خديها ندمًا على ما تهشّم منْ حياة لا تحدث إلا قليلاً . قبل أنْ يشرع ذراعيه ويأخذها إلى حضنه انسحبتْ وداد إلى غرفتها . هربت منْ موقف عرفت ما سوف يحدث فيه منْ تفاصيل ، بعد أنْ شاهدت حديثهما في برنامج السّر . وهربت تبحث في غرفتها عمّا يداري نشيجها ودموعها الغزيرة .

بقيا يحتضنان بعضهما ، لا يودّ أيّ واحد منهما الفكاك منْ دفء غاب عنهما لسنين . حينما رفع رأسها عن صدره ، وأزاح شعرها المتناثر عن عينيها أحسّ بشجرة في روحه تكسر طوق اليباس ، وتتفصّد اخضرارًا انتظره منذ رحيله عن عمّان في ذلك العام . قالت وشفتاها مبلّلتان بما هبط منْ عينها منْ دموع :

– أتدري لماذا جئتُ إليك؟

قال وهو يحتضن وجهها بيديه :

– لا تقولي . دعينا نلقي بكلّ شيء وراء ظهر الغيب في هذه اللّحظة .

طافت عيناها بالمكان ، حدّقت بكلّ شي وقع في مرمى بصرها في القصر ، اللّوحات ، أجهزة الإنذار ، ساعة الحائط ، الأثاث ، السّكون الذي خيّم على المكان . كان سراج يراقبها وهو ما يزال يقف قرب الباب ، وهي تخطو بتمهّل كمَنْ يستعيد ذاكرته للتوّ . كانت تفتّش عمّا فاتها منْ زمن في كلّ شيء يخصّ سراجًا ، الذي أخذ في تلك اللحظة يغالب توقًا كبيرًا لها ، كأنّ ما منْ أوجاع لديه أقصت منه رغباته ، وأضافت له هوسًا مرضيًا بحواسّه . أمسك يدها ، واقتادها نحو الطّابق الثّاني . مع كلّ خطوة على السّلّم كانت ذاكرته تُشرع على صفحة منْ كتاب أيامهما الماضية ، كأنّ ما حدث مجرّد كابوس استفاقا منه مذعورين . ثمّة أنهار من البهجة راحت تهبط في كفي قلبيهما ، كأنّ ما جرى أمام ملايين المشاهدين محض اعتراف في دير يشاهده الجميع . شعرا بأنهما تخفّفا منْ وجع كونيّ بقي يحزّ قلبيهما لسنين طويلة . في غرفة نومه أشار لها نحو لوحة السّقف ، بقيت صامتة حينما رأتْها . جعلت كلّ لهفتها به تقف عائقًا بين دموعها وصراخها الذي ينوء في دواخلها الموجوعة واحتمال أنْ يسقط وقتها معه منْ مفكّرة الاحتفاء بحبّ ليس من السّهل نسيانه رغم فداحة ما حدث .

كانت الكلمات تسقط وتنهض على فمها حينما رأى أنّها تكابد قول شيء ما ، لكنّه بإصبعه نهاها عن الكلام ، وحمل سلسلة مفاتيح الغرف السّتّ ، وراح يفتح الأبواب واحدًا واحدًا ، ويشرع الخزائن على مصراعيها وهي تقف مذهولة أمام ما ترى ، ووجهها يحتقن بحزن جارح . إلى أنْ دخلا الغرفة السّادسة . كانت غرفة فارغة إلا منْ سرير يتوسّطها . وقف قبالتها وكلّ شيء في جسدها يداهمه الرّعاش :

- في تلك الغرف الخمس خبّأت كلّ ما يمكن أنْ تلمسه حواسّي

ممّا كان بيننا . بلا ذاكرة ما نحن إلا محض كائنات خاوية . كنت أحارب الخواء ، وأحارب نسيانك . كلّما وجدتني على حافّة السّقوط آوي للنّوم في إحدى تلك الغرف ، فتجيء لي بك الحواسّ على جناح الحلم في هذه الغرفة حيث لا يدري أحد منْ أنّنا بالحدس لنا أنْ نرى ما يمكن أنْ يحدث . كنت صاحب أنف كلبيّ ، وسمع يجعلني أعرف إنْ كانت خطوة امرأة عذراء تلك التي أسمعها ، أم خطوة سيّدة أنجبت كثيرًا من الأبناء والبنات . كانت حواسّي مشتعلة كنار تدبّ في حقل يابس . لكنّي لم أنتبه إلى أنّني لم أكن بارعًا بالحدس .

كادت ريفال أنْ تذرف دموعها ، إلاّ أنّه ردّها بقبلة مجنونة كمن يلقي بنفسه في نهر ، بعد مسير طويل رافقه العطش . تعرّيا من ملابسهما ، وراحا يقبلان على بعضهما بنهم لم يحدث لهما منذ أنْ افترقا في ذلك العام . لا صور ولا خيالات ولا أصوات نائحة كانت تقتحم مخيّلته . بل كان كحصان يتقافز في سهل ممتدّ . لكنّه حينما همّ بها نهض من السّرير وارتدى ملابسه بهدوء مفرط رغم الهوس العاطفيّ المصاب به نحوها ، ثمّ اقترب منها ينظر بوجهها :

- أريد لتلك الصّورة التي كنّا عليها أنْ تبقى كما هي . الحياة تغيّرنا دون أنْ نعي . أنا لست أنا كما كنتُ . وأنتِ لستِ أنتِ كما كنتِ . دعينا نفعل كمَنْ اعتزل الغناء ليحافظ على حميميّة صوته في ذاكرة محبّيه .

قال ذلك ثمّ غادر الغرفة بخطوةِ مَنْ تعافى منْ عَرج في قدمه .

***

بينما كانت ريفال تهمّ بالصّعود إلى سيّارتها ، رأت عدنان البادي يهبط منْ سيّارته محاطًا بعدد منْ عناصر الأمن المسلّحين . تفاجأ

حينما رأى ريفال تغادر بوّابة القصر دون أنْ يمسّها سوء كما توقّع ، فأمرهم بإلقاء القبض على سراج . فقد تأكّد له بعد أنْ تابع لقاءه التّلفزيونيّ أنّ سراجًا هو سفّاح عمّان ، وأنّ ريفال ستكون الضّحيّة السّادسة . لكنّهم ما وجدوا له أثرًا في القصر ، فأسرعوا منْ خطاهم إلى الغاليري . تمامًا مثلما أسرع رعد عبد الجليل إلى هناك ليخبر عدنان بحقيقة علاقته بسليمان الطّالع .

٥

بعد أسابيع من الإعلان عن مفاجأة ستحدث في دار الأوبرا التّابعة لغاليري (الحواسّ الخمس) ، امتلأت مقاعد المسرح في ذلك اليوم بالمدعوّين الذين توافدوا قبل بدء العرض بساعتين ، كانتا كافيتين ليأخذ كلّ واحد مكانه . ومَنْ لم يجدوا مقاعد ، التصق بعضهم بالجدران ، وجلس البعض الآخر في الممرّات ، وفي المساحات الضيّقة ، وفضول كبير يحتلّهم ، ويجعل الانتظار بمثابة وخزات شوك كانت تدفعهم للتّململ طيلة ذلك الوقت . جاءت وداد ، وجاء كنان ، جاء رسّامون ، ومغنّون ، وشعراء ، وروائيون ، وسياسيّون ، ومفكّرون ، وطلاّب مدارس وجامعات منْ محبي الفنون والآداب . جاء شباب بشعور طويلة وكثّة ، وفتيات بأحلام كبيرة . جاء رجال كبار في السّن ، ونساء ممّن راقهنّ ما يقدّمه الغاليري .

جلس كنان ووداد في المقاعد الخلفيّة بعد أنْ اكتفيا بتحيّات سريعة ، وبصوت طغى عليه خليط الأصوات المتقاطعة ببعضها . كان كنان يفكّر بعائلته التي ما تبقّى منها أحد ، وبذلك الإحساس الموحش الذي عاد يستبيحه منْ جديد . حلم بألفة ودفء وشمس تطلّ عبر نافذة بيت فيه زوجة وأولاد . قرّر بعد مغادرتهما الغاليري أنْ يعترف لوداد بحبّه ، ويطلب يدها للزّواج ، بما أنّه عرف أنّ سراجًا لا يحبّها . لهذا أحسّ بشيء من الأمل يعتريه . بينما كانت وداد تفكّر به ، وبما تبقّى لها منْ حياة دون زواج ، وبحاجتها لسلام داخليّ يقصي منها

إحساسها بالوحدة والهباء . حينما التفتا نحو بعضهما ، كانت المسافة القصيرة بين وجهيهما كفيلة بأنْ يتبيّن كلّ منهما إحساس الآخر بصمت موحٍ . مدّ يده نحو يدها فاحتضنتها وابتسامة دافئة تملأ وجهيهما .

كانت السّتارة مغلقة ، بينما ملأت المكان أصوات بقيت تختلط ببعضها وتُحدث جلبة إلى أنْ أطفئت الأضواء ، وانطلق عزف بيانو ، بدأ هادئًا متمهّلاً يترافق مع حركة السّتارة وشقّاها ينفتحان إلى اليمين وإلى اليسار إلى أنْ بانت خشبة المسرح وهي معتمة تمامًا إلاّ منْ بقعة ضوء خفيفة تسقط على رجل يجلس وراء بيانو ، ويعزف بهدوء كمَنْ يبشّر بصباح جديد . من مكان ما في المسرح جاء عزف كمنجة ، رافق خفة صوت البيانو . أخذ الضوء يولد بإيقاع تدريجي ، فبدأت تظهر ملامح خفيفة لجبل القلعة بأعمدته ، وأقواسه ، وحجارته المتناثرة حيث يجلس عازف البيانو قرب (معبد هرقل) ، وأمامه طيف لجبال عمّان وبيوتها تتعربشه . تعالى صوتا الكمنجة والبيانو يصاحبان بزوغ الشّمس منْ وراء الجبال ، ولاحت في الأفق عصافير أخذت تحلّق للتوّ بخفّة مَنْ تأخذهم الشّمس بمعيّتها وهي تعلن نهارًا جديدًا . حينما اكتملت الإضاءة على خشبة المسرح ، صفّق الجمهور لسراج عزّ الدّين وهو يرسم بمفاتيح البيانو شكل الصّباح حينما يولد . منْ عمق المسرح أطلّت ليلى إياد ترتدي ثوبًا أزرق يحاكي حاسّة البصر . بقيت تمشي ببطء إلى أنْ وصلت منتصف المسرح ، إذ راحت تنظر نحو الجمهور الذي تفاجأ بوجودها بعدما نشرت الصّحف لها كثيرًا من الصّور المرفقة بخبر اختفائها . قالت بعدما التفتتْ نحو الشّمس والشّاشة الإلكترونيّة تصنعها بمهارة ، فارتقت دربها وألقت بأشعّتها على جبال عمّان :

- لم نمت . كنّا نعدّ بيان القلب ؛ لتتّضح الطّريق .

منْ ورائها جاءت سوار ترتدي ثوبًا أرجوانيًا ، وتغنّي للصّباح بصوتٍ خفيض ، حيث نشطت آلات موسيقيّة أخرى لأغنية تحضّ الرّوح على أنْ تنصت قبل المسامع ، بينما ليلى إياد تستمرّ في كلامها وهي تتقافز على خشبة المسرح :

- لا شيء يمكنه أنْ يجعلنا نوقن أنّنا نرى جيّدًا أكثر منْ يقيننا أنّنا نرى ما وراء الأشياء . الغمام دليل المطر . تساقط الأوراق من الأشجار دليل الخريف . ضجيج الرّمل في الصّحارى دليل الطّوفان .

دارت حول نفسها لمرّات ، ثمّ استلقت ووضعت أذنها على الأرض ، وراحت تقول بصوت خائف :

- إنّي أسمع صوت الهدير يتعالى .

نهضت متعجّلة ، وصعدت من الفسحة التي تقع بين جبال عمّان وجبل القلعة حيث ما يزال سراج يعزف ، ونادت بصوت منذر :

- لن ينفع أنْ تغلقوا الأبواب ، والنوافذ ، أو تهربوا إلى الأماكن العالية . كلّ ما عليكم هو أنْ تصنعوا منْ أجسادكم سدًا ليتراجع الطّوفان .

هبطت منْ مكانها ، ثمّ نظرت نحو الجمهور مبتسمة :

- لكنْ لا تنسوا النّساء ، فأجسادهن ليست للأسرّة فقط . هن الشّرفات والنّوافذ والأبواب والماء والهواء . لا تحذفوا من اللّبن خَيرهُ .

منْ جهة اليسار في المسرح خرجت كِنْدة همّام ، فصفّق الذين عرفوها وهم يرونها ترتدي ثوبًا أخضر . وضعت كفّها أعلى حاجبيها ، وراحت تخاطب الجمهور :

- البلاد شجرة ، تعالوا نتحرّك مع حركة ظلّها . ولا بأس لو مكثنا

قليلاً بطرف الظّل حيث وجع الهاجرة . لكنْ علينا أنْ نحمي شجرتنا منْ أيدينا . الاخضرار بياننا بوجه اليباس . فلا بيان يُكتب إلا بقلم يتتبّع رائحة ما يمكن أنْ يحدث .

وضعت يدها بيد ليلى إياد ، بينما سوار ما تزال تغنّي بصوت خفيض للصّباح ، ثمّ قالت بصوت مرتفع :

- ألا تشمون رائحة المحل؟ المحل قادم فاحرصوا على خوابيكم .

خرجت دعد ترتدي ثوبًا أبيض ، ترافقها غادة ، وهي ترتدي ثوبًا ورديًا ، وتهرعان نحو سراج وهو منهمك بالعزف ، ثمّ قالتا بصوت واحد :

- الاخضرار مقابل اليباس . النّور مقابل العتم . الصّوت مقابل الضّجيج . فلن يتراجع ليل إلا إنْ بزغت شمس .

نشطت سوار بأغنيتها ، ونشطت الموسيقى ، وتعالت أصوات النّساء الخمس :

- حوّاء وطن ، والوطن قلب حوّاء الدّافئ ، فلا تسرقوا شموسه .

منْ بوّابة المسرح ، دخل المحقّق عدنان البادي ، وأخذ مندهشًا ينظر نحو النّساء الخمس ، ونحو سراج دون أنْ يفهم ما الذي يحدث . منْ ورائه عَبر رعد عبد الجليل متعرّقًا ولاهثًا ، وراح ينادي بصوت متوتّر :

- القبضايْ فخخ الغاليري بالمتفجرات .

كانت هذه الكلمات آخر ما قيل هناك ، إذْ تهاوى مبنى غاليري (الحواسّ الخمس) ، وتطايرت منه الشّظايا ، والأدخنة والغبار ، ولم ينج أحد ممّن كانوا فيه .

٦

منْ وراء جبال عمّان كانت الشّمس قد صعدت دربها معلنة صباحًا جديدًا ، حيث توارى اللّيل في حقيبة الرّاحة اليوميّة منْ مهمّته المعهودة ، فامتثلت الأشياء لما تقتضيه الشّمس حينما تكشف عن وجهها ، وتشيع النّور بجسارة حتّى إلى الرّكام ، مثل ذلك الذي استحال إليه غاليري (الحواسّ الخمس) حيث على حجر منْ جدران الطّابق الرّابع الذي لم يتلاشَ منه اللّون الأزرق رغم رعونة البارود ، جلس أحمد وعلى فخذيه لوح خشبيّ ، شدّ عليه قماشًا أبيض ، ينظر نحوه تارة ، وأخرى نحو أفق عمّان ، ويرسم منظرًا لغاليري (الحواسّ الخمس) كأنه لا يودّ أنْ يصدّق أنّه تهاوى أمام شهوة البارود بالغبار والدّخان والدّويّ والأشلاء . حدّق بالبوّابة التي كان ما يزال جزء منها متماسكًا فرأى ريفال تعبرها ، وهي ترتدي ثوب الحداد حيث بقيت تمشي بخطى متثاقلة إلى أنْ اتّخذت لها مكانًا بقربه . نظرت إلى اللّوحة بعينين دامعتين ، ثمّ طوّقت عنق أحمد بيدها ، وقالت بصوت شابه البكاء :

- البارود لم يهدم سوى الجدران . إنّه عاجز عن قتل الفكرة يا أحمد .

كأنّه يتفحّص حواسّه ، أخذ أحمد لحظتها ينظر حوله ، يحدّق بكلّ شيء ، ثمّ راح يلامس بأصابعه الحجارة . نهض كالممسوس وراح يشمّ الهواء ورائحة البارود العالقة بالجدران المهدّمة . أخرج منْ جيبه

قطعة حلوى وراح بلسانه يتذوّقها . وضع اللّوحة جانبًا ثمّ أخذ ينصت لكلّ شيء حينما وقف معتليًا الرّكام ، وصرخ بأعلى صوته :

- إنّي أحسّ بالهدير قريبًا ، فارفعوا مشاعل حواسّكم ليتراجع .

هبّت نسمة هواء طوّحت صفحة منْ جريدة والتصقت بكتف ريفال وهي تهمّ بالنّهوض لتحتضن أحمد ، فرأت صورته فيها . حينما نظرت فيها جيّدًا وجدت صورة لوحته (الوردة والبندقيّة) ، وأعلاهما عبارة بخط عريض : «لوحة (الوردة والبندقيّة) تفوز بجائزة عالميّة في الرسم ، وتُعتمد كطابع بريديّ لأهمية محتواها الإنساني» .

في أسفل الصفحة قرأت خبرًا بخطّ متوسّط : «علمت مصادرنا أنّ جعفر سليمان الطّالع سيعيَّن في منصب رفيع في الأيام القليلة القادمة» .

اقتربت ريفال منْ أحمد ، واحتضنته بعد أنْ أرخت الورقة منْ يدها فحملها الهواء بعيدًا ، وغالبت نشيجًا بقي ينوء في دواخلها وهما ينظران نحو رفّ حَمَام بقي يصعد عاليًا في السّماء ، ثمّ يهوي في ذلك الأفق الأزرق الصّافي .

(تمت)

FIVE SENSE LADIES



سيّدات الحواسّ الخمس



حينما نهضت بمعيّة المسافرين، ورحنا نمشي عبر ممرّ يفضي بنا إلى بوّابة الطائرة، شعرتُ بي فارغًا كحقيبة لا تضمّ شيئًا، ورأيتُني ضعيفًا لم أكترث حتّى بأمّي التي ستعاني كثيرًا غيابي المفاجئ ووحدتها القاسية بلا زوج وعائلة. حينما أقلعت الطائرة وحلّقت في السماء كنت أنظر إلى عمّان وفي البال شخص يرسم لوحة ليدٍ تخلع شجرة وتلقي بها بعيدًا. أغلقت النافذة، وضبطت الكرسيّ على وضعيّة الاسترخاء، وأغمضت عينيّ، والتساؤل الّذي بدّل حياتي عن بكرة أبيها يضجّ لأوّل مرّة في البال:

ـ ما نفعُ حواسّنا الخمس إن لم تكن لها القدرة على التنبّؤ بما يمكن أن يحدث لنا؟

جلال برجس:

شاعر وروائيّ أردنيّ حائز على جائزة كتارا للرواية العربيّة عن روايته (**أفاعي النار/** حكاية العاشق علي بن محمود القصّاد) عام 2015؛ وجائزة رفقة دودين للإبداع السرديّ عن روايته (**مقصلة الحالم**) عام 2014؛ وجائزة روكس بن زائد العزيزي عن مجموعته القصصيّة (**الزلزال**) عام 2012.

صدر له في الشعر: (**كأيّ غصن على شجر**)، 2008؛ (**قمر بلا منازل**)، 2011.

ISBN 978-614-419-843-8



